قصة الحضارة

عصر نابوليون

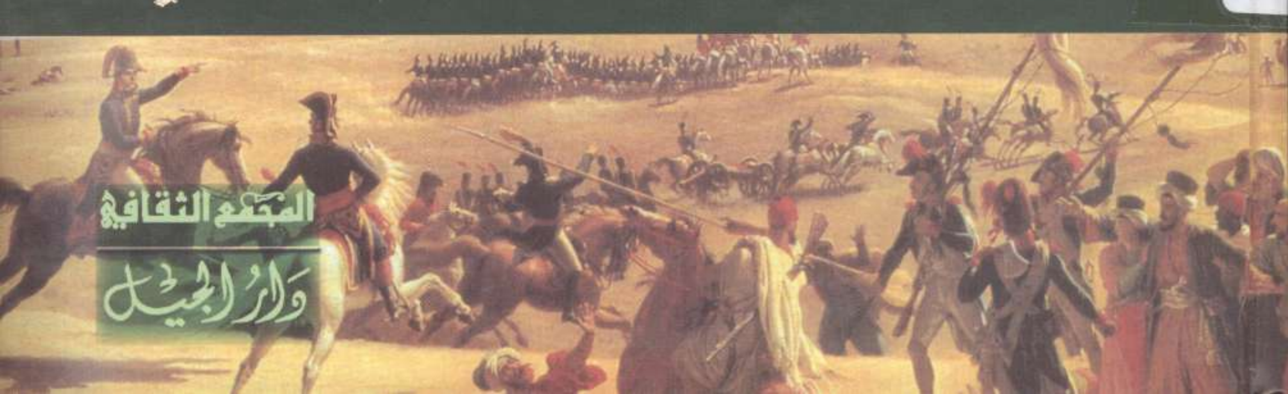
تاريخ الحضارة الأوروبية من ١٧٨٩ إلى ١٨١٥



٢

ترجمة

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



المجمع الثقافي
دار الجيل

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر نابوليون

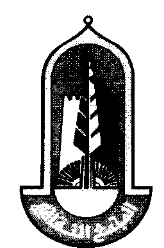
تاريخ الحضارة الأوروبية من ١٧٨٩ إلى ١٨١٥

ترجمة

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الكتاب الثالث

(بريطانيا ١٧٨٩ - ١٨١٢)





٩٤٠,٢٧

د ي ق ص

ديورانت، ول، ١٨٨٥ ـ ١٩٨١.

قصة الحضارة: عصر نابليون: تاريخ الحضارة الأوروبية من ١٧٨٩ إلى ١٨١٥، الكتاب الثالث من المجلد الحادي عشر، بريطانيا (١٧٨٩ ـ ١٨١٢م)/ تأليف: ول ديورانت، اريل ديورانت؛ ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ ـ المجمع الثقافي؛ أبو ظبي ـ دار الجيل، بيروت ٢٠٠٢.

٣٣٦ ص.

١ ـ الحضارة الأوروبية.

٢ ـ بريطانيا ـ تاريخ.

تُرجم هذا الكتاب بتكليف من المجمع الثقافي

المجمع الثقافي ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م.

أبو ظبي ـ الإمارات العربية المتحدة

ص.ب.: ٢٣٨٠

هاتف: ٦٢١٥٣٠٠

Email: nlibrary@ns1.cultural.org.ae

http:/www.cultural.org.ae

دار الجيل

بيروت: البوشرية ـ شارع الفردوس

ص.ب.: ٨٧٣٧ (١١)

هاتف: ٦٨٩٩٥٠ ـ ٦٨٩٩٥١ ـ ٦٨٩٩٥٢

فاكس: ٦٨٩٩٥٣ (٠٠٩٦١١)

Email: daraljil@inco.com.lb

القاهرة: هاتف: ٥٨٦٥٦٥٩

فاكس: ٥٨٧٠٨٥٢ (٢٠٢)

تونس: هاتف: ٧١٩٢٢٦٤٤

فاكس: ٧١٩٢٣٦٣٤ (٠٠٢١٦)



عَصْرُنابُولِيُون

الكتاب الثالث

يقدّم لنا المؤلفان كعهدنا بهما في الكتب السابقة فيضاً من الوقائع التاريخية، وفيضاً من الأفكار الجديدة التي لا نلتقي بها في كتب التاريخ التقليدية. إنه يسوق لنا عبر فصوله أسباباً مقنعة لعدم قيام ثورة في إنجلترا ومن ثم بريطانيا بكياناتها المختلفة (اسكتلندا، وإنجلترا وويلز وأيرلندا)، كتلك التي قامت في فرنسا.

إنه يربط ذلك بطبيعة الشعب الإنجليزي «لا تقلقل ما هو مُستقر» كما يربطه بطبيعة الأرستقراطية الحاكمة التي لا ترى في نظام الطبقات قيداً على الحريات، ويؤكد لنا أنه نظام طبقي غير جامد شتان بينه وبين النظام الطبقي الديني في الهند مثلاً، حيث يستحيل الانتقال من طبقة إلى أخرى، وحيث طبقة البراهمة المقدسة، ويشير إلى علاقات صداقة ودودة بين الفلاحين واللوردات.. إلخ. كما يشير إلى أن إنجلترا كانت قد شهدت ثورة دموية في القرن السابع عشر، ومن ثمّ لم تكن في حاجة إلى ثورة جديدة.

ولعل من أطرف الأفكار وأكثرها جدّة أن الشعب البريطاني في هذه الفترة على الأقل، بمليكه وبرلمانه ومثقفيه وعلمائه وشعرائه، كانوا متفقين – اتفاقاً غير مكتوب – على أن كثيراً من المسائل الدينية في المسيحية غير واضحة وغير مؤكدة، بل وفي كثير من الأحيان غير موثوق بها، وعلى هذا فليعتقد كل واحد ما يشاء، وليتصور الرب أو الإله كما يشاء، وليقم بأية طقوس يراها مناسبة بشرط واحد وهو أن يُعلن أنه مسيحي. ولا نكاد نجد من بين الشخصيات اللامعة التي أوردها المؤلف، مسيحياً حقيقياً بالمعنى الدارج للكلمة، لقد كان بعضهم ربانياً يؤمن بالله وحده ويُنكر تماما ألوهية المسيح، كما ينكر أي نبوّات أخرى، ووجدنا الموحدين Uniterians أو المناهضين للتثليث الذين لم يعترض عليهم التاج البريطاني شريطة أن يدرجوا أنفسهم تحت المسمّى العام (المسيحية)، ووجدنا الحلوليين (الشاعر وردزورث) الذي يرى الله غير منفصل عن الطبيعة، ورأينا المصلح أوين Owen الذي حارب الميسر، وطالب بتحريمه وتجريمه، وطالب الدولة بمنع اللوترية (اليانصيب) وأوصل صوته إلى البرلمان وعبّر عنه في كتبه، وطالب بتحريم الخمر، ومنع استيرادها، بل وطالب بعدم إصدار

تراخيص للحانات والخمارات، ليبقى السُّكر في أضيق الحدود لينفق فيه «الأثرياء الأغبياء أموالهم» وأقام أوين مدارس لم تحجُر عليها الدولة يُعلّم فيها الناشئة كل شيء مفيد إلا الخرافات – وهو يقصد اللاهوت المسيحي، ومع هذا فقد كان المسمى الرسمي للرجل أنه مسيحي.

أما موقف الدولة من الكاثوليكية فلم يكن مسألة خلاف عقائد في المقام الأول، وإنما كان مسألة – في الأساس – ذات بُعد وطني، فكيف يكون ولاء الكاثوليكي لملك بريطانيا بينما هو يقسم يمين الولاء «لملك» آخر هو «الحَبْر الجليل» في روما وكان هذا البابا صاحب سلطة زمنية إلى جانب سلطانه الديني؟!

والمؤلف يربط فصول كتابه كلها بمجريات الأمور في فرنسا، فهو عندما يتناول في الفصل الثاني والعشرين، الشعراء المتمردين وعلى رأسهم لورد بايرون يبيّن لنا تعاطف هؤلاء الشعراء في فترة من الفترات مع مبادئ الثورة الفرنسية ودستورها، ولكنه يُبيّن لنا أيضاً كيف تراجعوا عن هذا التأييد عندما أكلت الثورة أبناءها، وأقامت المذابح. وقد أورد المؤلف تفاصيل حياة الشخصيات التي يُترجم لها مما قطع في بعض الأحيان تسلسل العرض التاريخي، لكن هذا قد يكون مفيدا للراغبين في تتبع حياة هؤلاء المشاهير، فقراءة هذا الكتاب تحتاج إذن إلى صبر وجُهد إن أراد القارئ العام متابعته، لكنه لا يخلو من أفكار طريفة تتخلل عرضه الرتيب أحياناً.

وقد ركزت عند ترجمة هذا الكتاب على المعاني وأضفتُ بعض التعليقات البسيطة الشارحة، ففي التعليقات التي أوردتها عند ترجمة الكتابين السابقين ما لا داعي لتكراره هنا. ومن العدل والصدق أن أنوه هنا مرة أخرى، بفضل المجمع الثقافي، وعلى رأسه الأستاذ محمد السويدي باختيار هذه الكتب المفيدة لتقديمها إلى القارئ العربي.

وعلى الله قصد السبيل.

د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ

الفصل الخامس عشر

تأثير إنجلترا في مسيرة الأحداث

كانت إنجلترا، حكومةً وشعباً، بانتشار صناعتها واتساع تجارتها وبأسطولها وعلى رأسه نيلسون، وبعقلها وإرادتها – كانت على رأس المعارضين للثورة الفرنسية بعد سنة ١٨٩٢ . كانت على رأس المقاومة ضد نابليون في الوقت الذي تهاوى فيه أعداء الثورة الآخرون نتيجة الهزائم المدمرة التي حاقت بهم أو نتيجة انهيار تحالفاتهم. لكن هذا الموقف الذي اتخذته إنجلترا لم يكن مفاجئاً كما لم تكن كل القوى فيها متفقة عليه منذ البداية، ففي بداية اندلاع الحريق الهائل (الثورة الفرنسية) كانت مواقف زعماء إنجلترا والرسميين فيها غير محددة، وظهر الانقسام بينهم، وتباينت المشاعر ما بين الخوف واستلهام أفكار الثورة، لقد تجاوب الشعراء والفلاسفة بحماس مع المثاليات الأولى للثورة، ومع حماسة جيوشها وشجاعتها، ولكنهم سرعان ما تأثروا ببلاغة بورك Burke الغاضبة، وسرعان ما فُجِعُوا بأخبار المذابح والإرهاب في هذه اليوتوبيا Utopia(فرنسا)، ولأن هؤلاء المحرِّرين (يقصد الثوار الفرنسيين) أصبحوا غزاة ضموا نصف – طموحاً منهم – لفرنسا، فقد رأت إنجلترا أن توازن القوى في القارة الأوروبية يتوقف على نتيجة هذا الصراع بين فرنسا والقوى الأوروبية الأخرى، ذلك التوازن الذي ظلت إنجلترا – تلك الجزيرة الصغيرة – تعتمدُ عليه لضمان سلامتها وحريتها طوال قرون. وشيئاً فشيئاً أصبحت الأمة الإنجليزية على قلب رجلٍ واحد، فرغم استسلام حلفائها، فإن التحدي الأكبر الذي لم تشهده إنجلترا منذ سنة ١٠٦٦ متمثلاً في تعويق تجارتها وإفلاس شركاتها وماليها واستنزاف صانعي الأقمشة، والإغراء اليومي بقبول شروط هذا الكورسيكي العبقري المرعب (نابليون) الذي يمتطي الآن القارة الأوروبية ويهدد بعبور القنال الإنجليزي بنصف مليون مقاتل لم يعرفوا الهزيمة – كل هذا جعل الملك الإنجليزي وبرلمانه يقفان بحزم، وجعل النبلاء والتجار يدفعون الضرائب الباهظة وجعل الإنجليزي العادي يؤدي خدمته الإلزامية في الجيش أو الأسطول، وجعل البحار الإنجليزي الذي لا مثيل له يجتاز مرحلة التمرد إلى مرحلة تحقيق الانتصارات، وجعل هذه البقعة

الصغيرة الحبيبة (إنجلترا) تنطلق خارجة من العوز والمجاعة التي كادت تحيق بها في سنة ١٨١٠ / ١٨١١ لتبني خلال نصف قرن أكثر الإمبراطوريات قوة وتحضرا منذ سقوط روما.

لابد لنا أن نتوقف هنيهة عن متابعة هذه الدراما وهذا الصراع لندرس الأمور التي جعلت انتصار إنجلترا ممكنا – هذا الانتصار الذي يعد تحولا. لابد من التوقف لدراسة موارد التربة والعمل والعلم والأدب والفن والعقل والعقيدة والشخصية.

١- ثورة مختلفة

لقد لعبت الجغرافيا دوراً، فلم يكن مناخ إنجلترا مثالياً، فالرياح الدافئة التي يسببها تيار الخليج شمال الأطلنطي تواجه بشكل مستمر الرياح القطبية الشمالية، ويؤدي هذا الصراع (المواجهة) إلى تتابع نشوء الضباب وتتابع هطول المطر فوق أيرلندا وإسكتلندا وإنجلترا مما يجعل التربة خصبة، والحدائق خضراء والأشجار ضخاماً رائعة، والشوارع مبتلة، ومن هنا كانت السخرية السخيفة التي مؤداها أن الشمس لا تهاجم بعنف الكومنولث البريطاني، لكنها أيضاً لا تشرق في إنجلترا أبداً، وقد وقع نابليون في هذه المبالغة إذ قال ذات مرة لطبيبه البريطاني أرنوت Arnott «ليس لديكم شمس في إنجلترا»، فصحَّح له معلوماته قائلا: «هذا صحيح.. لكن الشمس تشرق دافئة في إنجلترا في شهري يوليو وأغسطس»[1]. هذا الضباب الذي يغلّف البيئة الحيوانية والنباتية قد يكون ظلة استظل بها شعر بليك Blake وغلافاً تغلّف به تيرنر Turner، وربما يكون قد أسهم في تقوية شخصية الشعب الإنجليزي وتقوية مؤسساته. لقد جعلتهم هذه الجزيرة (البريطانية) معزولين (منفردين) لكنها كانت لهم دِرعاً يحميهم من التقلبات العقائدية التي كانت تهب كرياحٍ عاصفةٍ بين الحين والحين، وضد بِدَعِ الفن، وضد هوس الثورات وجنونها، وضد فظائع الحرب التي غالباً ما كانت تشوّه وجه القارة الأوروبية. لقد وقفت الأمة الانجليزي بقدمين راسختين فوق الأرض الإنجليزية.

وإذا كانت جزيرتهم صغيرة، فقد كانت البحار بأمواجها التي تلطم شواطئها حيناً وتداعبها حانية مقبلة حينا آخر – تدعوهم إلى القيام بمغامرات للوصول إلى أماكن بعيدة. لقد أغرت آلاف الطرق السلسة الميسرة الرجال القادرين على الحل والترحال ليكونوا دائما

شامخين. لقد كانت آلاف المناطق Lands في انتظارهم بمنتجاتها وأسواقها، لتتحول إنجلترا - بسببها - من الزراعة إلى الصناعة والتجارة والمالية الواسعة على مستوى العالم. لقد أدت كثرة تعاريج سواحلها كثرة هائلة إلى وجود مداخل كثيرة وخلجان صغيرة كثيرة تقدم مرافئ آمنة للسفن من كل أنحاء العالم. وكان في الجزيرة البريطانية نفسها اثنا عشر نهراً صالحاً للملاحة النهرية ومئة قناة تُفضي إلى نهر أو آخر من هذه الأنهار فليس هناك إنجليزي واحد يبعد أكثر من خمسة وسبعين ميلاً عن المياه التي يمكن - عن طريقها - أن يصل إلى البحر.

لقد واجهت بريطانيا التحدي الجغرافي بقيامها بالثورة الصناعية وحمل تبعاتها على عواتقهم(*). لقد شيد البريطانيون سفناً ذوات أحجام كبار لم يُعرف لها من قبل مثيل، وكان بعضها مصمما للقيام برحلات تستغرق الرحلة منها نصف عام إلى الهند والصين. لقد أحبت إنجلترا البحر كأحد ممتلكاتها تعتبره امتداداً لها، وحاربت بلا هوادة للسيطرة على هذا الامتداد البحري ضد الإسبان، فالهولنديين، والآن ضد الفرنسيين. لقد مخرت عباب طرقٍ بحرية جديدة حول القارات وإليها؛ إلى موارد وأسواق أفريقية والهند والشرق الأقصى وأستراليا وجنوب المحيط الهادي (الباسيفيكي) والأمريكيتين، وكان الإنجليز - سواء كأجانب (غرباء) أو كمتمردين - تواقين للتجارة مع الآخرين. ولم يتحد هؤلاء البريتون النهمون سوى الطريق (الممر) الشمالي الغربي فقد صدهم وعادوا منه فرادى متفرقين، لكن غير مقهورين.

وعلى أية حال فإن هذه الأساطيل التجارية والأساطيل البحرية الطوافة التي تحميها كان لابد من بنائها - غالبا - من أخشاب منشورة مستوردة وكان لابد أن تحصل هذه المستعمرات وهؤلاء العملاء على مقابل لموادهم الخامة وفضتهم وذهبهم وبهاراتهم ومؤنهم وفاكهتهم الغريبة، فكان هذا المقابل هو المنتجات الصناعية البريطانية. وكان لا بد للثورة الصناعية من تمويل هذه التجارة المنتعشة ونقلها. وشيئاً فشيئاً راحت إنجلترا - خاصة المناطق الوسطى والشمالية منها، وإسكتلندا - خاصة منطقتها الشمالية - تعيد تنظيم

(*) عرض كتاب روسو والثورة هذا الأمر بإيجاز 681 - 669 Rousseou and Revolution.

حياتها الاقتصادية بسحب المزيد من سكانها من الحقول والقرى إلى المصانع والمدن، ومن العمل البطيء في مجال الحرف المنزلية وفي نطاق الطوائف المهنية (الحرفية) إلى العمل في نطاق مجموعات محددة منظمة ومدربة من رجال ونساء وأطفال دربوا على الميكنة والآلات لإنتاج منتجات مصنعة للعالم.

لقد ساعدت العزلة (كون بريطانيا جزراً تحيطها البحار) على إحداث هذا الانتقال. فمنذ وقت باكر يعود إلى القرن الثاني عشر للميلاد كان الإنجليز النشطون قد وقر في عقولهم أن بإمكانهم الاستفادة من الأراضي إن كانت شاسعة أكثر من استفادتهم منها إن كانت مجزأة في قطع صغيرة. لقد اشتروا مزارع كبيرة وكونوا « مشاعات Commons » وكانت هذه المشاعات حقولاً ومحاطب حيث يقوم الفلاحون – تقليدياً – برعي مواشيهم وجمع حطب الوقود، وكان الإنجليز يشغّلون في ممتلكاتهم الواسعة أُجراء "hired "hands يعملون تحت إشراف مشرفين (نظّار). وفي القرن الخامس عشر أدركوا أنه يمكنهم الحصول على مزيد من الأرباح بتربية الماشية والدواجن أو – وهذا هو الأفضل – برعي الخراف، فهذا أفضل من حرث الأرض وزراعتها، فهم بذلك يكونون أقل حاجة إلى الأيدي العاملة، كما أنهم قد وجدوا بالفعل أسواقاً للذبائح والصوف لدى البريطانيين الذين يعانون من البرد والمحبين لأكل اللحوم، وأيضاً لدى الشعوب الأخرى خارج بريطانيا، وشيئاً فشيئاً راح مزيد من الفلاحين يبيعون ممتلكاتهم أو يهجرون مزارعهم إلى المدن. واختفى – ببطء – صغار مالكي الأرض من الطبقة الوسطى آخذين معهم شيئاً من قوة الشخصية الإنجليزية وكبريائها. وبحلول سنة ١٨٠٠ كان عدد السكان في بريطانيا ١٥ مليون نفس، بينما كان عدد الخراف ١٩ مليون، فقال الظرفاء إن الخراف قد التهمت الناس. وحتى اليوم يفاجأ المرء عند ترحاله في وسط إنجلترا وشمالها بندرة المزارع والأراضي المعدة للزراعة، بينما يكثر عدد المسيجات (الأراضي المسيّجة) الخضراء التي لا يرى فيها إلا الخراف التي تحوِّلُ العشب إلى صوف وتكافئ التربة الممتنة بإفرازاتها (تُسمدها).

يجب ألا نبالغ، فخلال هذه الفترة (باستثناء الأزمة التي اقتربت في أثنائها بريطانيا من المجاعة في سنة ١٨١١ بسبب الحصار القاري الذي فرضه نابليون) نجحت الزراعة في إنجلترا

ـ تلك الزراعة التي راحت بشكل متزايد تعتمد على الميكنة ورأس المال – في إطعام إنجلترا دون حاجة لعون خارجي(٢). لقد كان الزرّاع واثقين من أنفسهم لدرجة أنهم حثوا البرلمان على اعتماد (تمرير) وقف (مراجعة) قوانين الغلال (الحبوب) بفرض تعريفة عالية (رسوم جمركية قاسية) على استيراد الغلال (الحبوب grain) المنافسة (كانت الكلمة الإنجليزية Corn تعني أي حبوب، وفي إنجلترا كانت هذه الكلمة Corn تعني عادة القمح، بينما كانت تعني في إسكتلندا الشوفان Oats ومع هذا فحتى سنة ١٧٩٠ كانت هجرة الفلاحين المرحلين إلى المدن بالإضافة إلى المهاجرين الذين اعتراهم الفقر من إسكتلندا وأيرلندا – هي التي قدمت القوى العاملة التي جعلت حركة التصنيع ممكنة.

لقد كانت الصناعة لا تزال في غالبها في البيوت والدكاكين لكن معظمها كان مصمماً محلياً ويتم استهلاك منتجاتها محلياً أيضاً. إن الصناعة في هذه المرحلة لم تكن منظمة للإنتاج بكميات كبيرة (للبيع بالجملة) فلم تكن تستطيع تمويل الأسواق المختلفة المنتشرة عبر الحدود. وكان العامل في المنزل أو الدكان تحت رحمة الوسطاء (السماسرة) الذي يبعيون له المواد الخامة ويشترون منه منتجاته. وكان ما يحصل عليه من مال لقاء منتجاته محكوماً بالعرض والطلب، وكذلك بمنافسيه الذين هم أشد منه جوعاً، وعادة ما كان على زوجته وأطفاله أن يعملوا معه من الفجر حتى حلول الظلام(٣)، لإبعاد الذئب عن باب الدار (المقصود لإبعاد شبح الفقر) وكان لابد من إيجاد طريقة ما أكثر كفاءة لتمويل الصناعة وتنظيمها إن كان عليها مواجهة احتياجات سكان المدن المتزايدين أو ملء مخازن التجار الراغبين في البضائع الأجنبية أو الذهب (المقصود التجار العاملين في مجال التصدير).

لقد دُفعت الصناعة في إنجلترا نحو الخصخصة (المشروعات الخاصة) حيث الحافز لتحقيق الربح واضح، وحيث التحرر إلى حد كبير من التنظيمات أو الترتيبات الحكومية، وكان الاندفاع في هذا الطريق بتأثير من فكر آدم سميث Adam Smith مع تجاهل تحذيراته. لقد حصلت الصناعة الإنجليزية على رأس المال مما توفر لها من عوائدها ومن التجار الأثرياء ومن ملاك الأراضي الذين يجمعون العوائد الزراعية (الرِّيع) ومن الإيجارات في المناطق الحضرية، ومن رجال المال (البنكيين bankers) الذين عرفوا كيف يُولِّدون المالَ من المال،

والذين أقرضوا الأموال نظير نسبة من الفوائد أقل من النسبة التي كان يحصل عليها نظراؤهم الفرنسيون. وعلى هذا فإن الأفراد والمؤسسات قدموا الأموال للمقاولين الذين عملوا على تدعيم منتجات المزرعة والحقل بخدمات الآلات (الماكينات) والعمل والمهارة اللذين يقدمهما العمال رجالاً ونساء وأطفالاً فيكون مقدار الإنتاج أكبر، إذ حقق لإنجلترا عوائد مالية لم تعرفها من قبل أبداً، وراح الممولون (مقدمو الأموال) يراقبون كيفية استخدام أموالهم، وحمل النظام الاقتصادي الذي كان على وشك إعادة تشكيل العالم الغربي أسماءهم.

لقد كانت لعبة تنطوي على المخاطرة، فقد تدمر الإدارة السيئة أي استثمار، وقد تدمِّره أيضاً تقلبات الأسعار والأسواق وتغير الأذواق وزيادة الإنتاج بما يفوق طاقة المستهلكين أو بسبب اكتشاف جديد يُخفيه أحد المنافسين.

لقد جعل الخوف من الخسارة الطمع والرغبة الشديدة في الكسب أكثر حدة. لقد كان لابد من الإبقاء على أجور العمل في حدها الأدنى وكان لابد من تقديم المكافآت على الاختراعات الجديدة، وكان لابد أن تحل الآلة محل القوى العاملة البشرية كلما أمكن ذلك. وكان لابد من استخراج الحديد أو استيراده لصنع الآلات والسفن الحربية المدرعة والجسور والمدافع والبنادق، وكان لابد من استخراج الفحم (وكان متوفراً في إنجلترا لحسن الحظ) لتزويد المصاهر التي تصهر المعادن بالوقود اللازم ولتنقية المعادن الخامة ولتحويل الحديد إلى صلب فيصير أشد وأمتن، وكان لابد من ربط أكبر عدد ممكن من الآلات بمصدر طاقة واحد قوي، وقد يكون مصدر الطاقة هذا رياحاً أو ماءً أو حيوانات تدور بشكل مستمر أو تحرك لولباً (قلاموظ)، لكن أفضل منتج للطاقة لابد أن يكون ماكينة (محرك) بخارية كتلك «المحركات» (الآلات) التي أقامها جيمس وات Watt في مصنع متّى بولتون Matthew Boulton بالقرب من برمنجهام (١٧٧٤م). وإذا كان هناك رأس مال كاف، وإدارة دقيقة أمكن تشغيل أي عدد من الآلات بمحرك واحد (أو عدد قليل من المحركات)، ويمكن أن يرتبط بكل آلة رجل أو امرأة أو طفل يراقبها ويهتم بأمرها طوال ساعات تتراوح ما بين ١٢ و ١٤ ساعة في اليوم مقابل أجرٍ يقيم أوده.

وسرعان ما راحت آلاف المداخن تقذف بدخانها في سماوات المراكز الصناعية الناشئة – منشستر، وبيرمنجهام، وشفيلد، وليدز، وجلاسجو، وأدنبره (ادنبورج) وكان في بريطانيا في سنة ١٧٥٠ مدينتان سكان كل منهما ٥٠,٠٠٠، وفي سنة ١٨٠١ بلغ عدد مثل هذه المدن ثماني، ستصبح في سنة ١٨٥١ تسعاً وعشرين مدينة. وتم تمهيد الطرق لتسهيل نقل المواد الخامة والوقود والمنتجات للمصانع والأسواق والموانئ، وتم تشييد مركبات الجياد العمومية التي تسع الواحدة منها ثمانية ركاب ولتقطع عشرة أميال في الساعة. وفي نحو سنة ١٨٠٨ قام توماس تلفورد Thomas Telford بابتكار أسطح جديدة للطرق تشبه بشكل أساسي الطرق السريعة المرصوفة بالحصباء هذه الأيام، وفعل الشيء نفسه جون مكآدم John McAdam في نحو سنة ١٨١١، وكلاهما من المهندسين الإسكتلنديين. وفي سنة ١٨٠١ شيد جورج تريفيثك Trevithick أول محرك بخاري لسحب عربة المسافرين فوق قضبان، وفي سنة ١٨١٣ شيد جورج ستيفنسون Stephenson محركاً أفضل، وفي سنة ١٨٢٥ افتتح أول سكة حديدية نظامية تجري عليها قاطرات بخارية بين ستكتون Stockton ودارلنجتون Darlington. وفي سنة ١٨٠١ بدأ تشغيل أول قارب بخاري في القناة الإسكتلندية، وفي سنة ١٨٠٧ شيد مصنع بولتون ووات Boulton & Watt قارباً بخاريا لنقل الركاب حذا فيه حذو أنموذج قدمه روبرت فلتون Robert Fulton الذي أطلق قاربه (كليرمونت Clermont) من نيويورك إلى ألباني Albany في أغسطس من العام نفسه. وفي هذه الأثناء كانت لندن وهارفتش ونيوكاسل وليفربول وجلاسجو موانئ متطورة وبها تسهيلات للتجارة عبر المحيط، وكان نيلسون قد انتصر في أبي قير وفي الطرف الأغر، محققاً لإنجلترا السيادة على البحار.

وفي سنة ١٨٠١ أجرت الحكومة أول إحصاء مبني على أسس علمية في بريطانيا العظمى (إنجلترا، وويلز، وسكوتلندا) وأدى هذا إلى فزع المواطنين الذين استاؤوا من انتهاك خصوصياتهم كمقدمة لإخضاعهم لتنظيم صارم[٤]. وأظهرت نتيجة الإحصاء المسجلة أن عدد سكان بريطانيا العظمى في ذلك الوقت كان ١٠,٩٤٢,٦٤٦ (كان عدد سكان الولايات المتحدة في ذلك الوقت نحو ٦,٠٠٠,٠٠٠) وبحلول عام ١٨١١ كان عدد سكان

بريطانيا العظمى قد ازداد ليصبح ١٢,٥٥٢,١٤٤[٥] . وربما تعكس الزيادة زيادة كميات الطعام المتاحة وتحسن الخدمات الطبية وانخفاض نسبة الوفيات بين كبار السن والأطفال. لقد زاد سكان لندن في سنة ١٨١١ ليصبح ١,٠٠٩,٥٤٦ لكن التوسع الأكثر أهمية والأكثر ضخامة كان في الشمال والغرب الصناعيين، وفي سنة ١٨١١ كان عدد السكان العاملين في مجالي الزراعة والرعي هو: ٨٩٥,٩٩٨ على وفق ما هو وارد في السجلات بينما كان العاملون في مجالي الصناعة والتجارة ١,١٢٨,٠٤٩ وفي أعمال أخرى ٥١٩,١٦٨. لقد ضيّقت الحكومة على الزراعة بإقرارها نظام الحظائر المسيجة (التي ترعى فيها الأغنام...) وشجعت الصناعة بالعمل لصالح المشروعات الخاصة (الحرة) وبالحماية الجمركية وبمنع اتحادات العمال من المطالبة بأجور أفضل (١٨٠٠)، كما عملت على تحسين أحوال التجارة بتحسين الطرق والمجاري المائية، وبتشييد أسطول بحري بريطاني لا يُقهر. لقد حقق التجار والصناع والماليون ثروات كبيرة وفاز بعضهم بمقاعد في البرلمان أو اشتروها (حصلوا عليها لقاء مال دفعوه).

تُظهر الصورة الاقتصادية لبريطانيا في سنة ١٨٠٠ أنه يوجد في القمة - كانت الأرستقراطية لاتزال موجودة وإن كانت في تناقص - سادة الاقتصاد الذين تسوّدوا خلال ملكيتهم للأراضي، وكان يتعاون معهم نبلاء البرلمان والأرستقراطية المهيمنة (الحاكمة)، وحولهم أو أدنى منهم التجار والصناع البورجوازيون أصحاب المشاريع الذين لا يرحمون، وهم يُظهرون ثراءهم الجديد ومسلكهم السيئ، ويصخبون مطالبين بمزيد من السلطة السياسية، وإلى الأدنى منهم أصحاب المهن المحترمة بدءاً من أكثر الأطباء علماً إلى أكثر الصحفيين شجاعة ودهاء، وإلى الأدنى من هؤلاء جميعاً الفلاحون الذين يفقدون ملكياتهم بشكل متزايد منتظرين العون والنجدة، وعمال المناجم الذين لا يرون الشمس والذين يعيشون في أحشاء الأرض، والعمال غير المهرة الذين يسفلتون الطرق ويحفرون الترع وعمال المصانع الذين يشكلون بركة أو مجمعاً للجوع وعدم الانضباط وانهيار المعنويات، والذين راحوا يكتبون مأساتهم على صفحات سماوات ملوثة (لوثها دخان المصانع).

٢- في القاع

وإذا كان لنا أن نعيد النظر في أحوال عمال المصانع في بريطانيا في سنة ١٨٠٠ وجب علينا ألا نبالغ في أهميتهم في نطاق الصورة العامة في ذلك الوقت، إذ يمكن أن نفترض وجود كثير من المشاهد الباعثة على السرور في «إنجلترا السعيدة Merrie England». فلم يكن العمل في المصانع في حد ذاته في ذلك الوقت هو المَعْلم الرئيسي للصناعة البريطانية، فقد كان معظم الإنتاج الصناعي لا يزال يجري إنجازه في البيوت في الريف والحضر على أنوال أو مخارط، أو على يد حرفيين في محلات (دكاكين) مستقلة. وكان التصنيع من خلال نظام المصانع مقتصراً على عمليات إعداد القطن والكتان والصوف، ورغم محدودية هذا النظام، فإن دوره في بانوراما العصر (المشهد العام للعصر) كان واحداً من أشد الأدوار مدعاة للحزن في التاريخ الإنجليزي[٦].

لقد كانت المصانع نفسها قائمة في الأحياء القذرة أي أحياء الفقراء مكفّنة بالروائح الكريهة المنبعثة من الماء الآسن والدخان الناتج عن المصانع ذاتها التي كانت من الداخل متربة بشكل عام وقذرة وسيئة التهوية والإضاءة حتى عام ١٨٠٥ حين بدأت الإضاءة بغاز الاستصباح. وكان يتم تشغيل الماكينات بسرعتها القصوى مما كان يتطلب من العاملين عليها مراقبتها بعيون حذرة وتظل أيديهم مشغولة طوال اثنتي عشرة أو أربع عشرة ساعة في اليوم. لقد حدث وقتها كما حدث في وقت لاحق أن أدت المخترعات الآلية إلى إنقاذ العمل واستهلاك الإنسان. وكان مسموحاً للعمال بساعة لتناول الغذاء وبعدها يستمر الكدح حتى الساعة الثامنة مساء في معظم الحالات[٧]. وعند الحاجة كان يتم دعم القوى العاملة من المخزون البشري المتمثل في الفلاحين المرحّلين والنسوة الضائعات.

وكان أصحاب المصانع يفضلون النساء على الرجال، والأطفال على النساء لقلة أجورهم. وفي سنة ١٩١٦ كان من بين ١٠,٠٠٠ من العاملين في ٤١ طاحونة إسكتلندية: ٣,١٤٦ رجلاً و ٦,٨٥٤ امرأة و ٤,٥٨١ طفلاً دون الثامنة عشرة من العمر[٨]. وكان أصحاب المصانع يفضلون تشغيل الأطفال الأيتام والمعوزين الذين يُرسلهم مقاولو تشغيل الفقراء لنجدتهم، وذلك لانخفاض أجورهم. وحاول مرسوم المصانع The Factory Act الصادر في

سنة ١٨٠٢ أن يضع حدودا دنيا لاستخدام مثل هؤلاء «العمال المهنيين» بمنع تشغيلهم أكثر من ١٢ ساعة يومياً، ولكن البرلمان قد رفض الدفع للمفوضين (مندوبي الحكومة) لوضع المرسوم موضع التطبيق»[٩] وبشكل عام ظل تشغيل الأطفال ساري المفعول في المصانع البريطانية حتى سنة ١٩٤٢[١٠].

وفي سنة ١٨٠٠ كان متوسط أجر العامل البالغ في لندن هو ١٨ شلنا في الأسبوع (نحو ٢٣ دولاراً في الولايات المتحدة سنة ١٩٦٠) أما في الريف فكان المتوسط ينقص بنحو الثلث[١١]. وبالجملة فإن أجور الأسرة كان يتحكم فيها العدد المطلوب لاستمرار العمل لكن هذا كان يتوقف على انضمام الزوجة والابن إلى القوى العاملة في المصنع[١٢]. وكان أصحاب العمل يدافعون عن مبدأ بقاء الأجور منخفضة لضمان عودة العمال إلى العمل، وكان بعض العمال يحصلون على إجازة أسبوعية لمدة يومين أو ثلاثة وعندما يعودون للعمل يكونون في حالة غير يقظة لفرط ما تناولوه من كحول في أثناء الإجازة[١٣] ولم يكن يدفع العامل للعودة للعمل في المصنع بين الآلات سوى الجوع.

وكانت هناك بعض الميزات المعينة التي تُلطِّف عناء العمال، فبعض أصحاب الأعمال كانوا يدفعون قيمة الإيجار وتكاليف الوقود للعاملين لديهم. وكانت أسعار السلع منخفضة – كانت أرخص بنحو الثلث من الأسعار التي سادت في بريطانيا العظمى سنة ١٩٦٠[١٤]. وكانت الأجور – بشكل عام – تتناسب طردياً مع الأسعار، فكلما ارتفعت الأسعار زادت الأجور وكلما انخفضت الأسعار قلت الأجور، وظل الحال على هذا النحو حتى سنة ١٧٩٣ عندما بدأت الحرب مع فرنسا فعانت الطبقات كلها من نقص دخولها، وإن كانت معاناة العمال هي الأشد لأن أجورهم كانت منخفضة انخفاضاً لا يمكّنهم من العيش إلاّ بشق الأنفس.

لقد كان العمال يعيشون في المدن حيث الهواء الملوّث (المسمَّم) في أحياء منعزلة تعمها الأمراض، في مساكن مزدحمة – وأحيانا في غرف رطبة ضيقة كالقبور لايصلها نور الشمس إلاّ لماما، ولا مكان فيها للنظافة، وحيث النزاعات بين المقيمين فيها تتلف الأعصاب المرهقة ولم يكن هناك مجال لاحتفاظ الفرد بخصوصيته ولم يكن ثمة ملجأ أمام المرأة سوى

التقوى، ولم يكن أمام الرجل سوى الخمَّارة. وكان السُّكر (تناول الخمر) يتم كل أسبوع. وكان سكان البيوت يحصلون على المياه من الآبار و «الطلمبات» العامة فإذا ما قلَّ معين الماء في هذين المصدرين راحت النسوة يحملن الماء من أقرب نهر أو ترعة، وكانت هذه المياه ملوثة بالمخلفات الصناعية أو المنزلية أو البشرية[١٥]. وكان الصرف الصحي بدائيا وكانت البالوعات نادرة الوجود. وكتب ثورولد روجرز Thorolde Rogers في سنة ١٨٩٠ عندما كان أستاذاً للاقتصاد السياسي في أكسفورد: «إنني مُوقن أن التاريخ الإنجليزي الموثَّق لم يسجِّل في أي فترة من فتراته ظروفاً أسوأ للعمل اليدوي من تلك الظروف التي كانت موجودة في الأربعين سنة الممتدة من ١٧٨٢ إلى ١٨٢١ وهي الفترة التي جمع فيها أصحاب المصانع ثرواتهم بسرعة، وهي الفترة التي تضاعفت فيها أجور الأرض الزراعية»[١٦]. وقد استمرت هذه الأحوال حتى سني الأربعين من القرن التاسع عشر (١٨٤٠ – ١٨٤٩). وقد لخَّص كارليل Carlyle الذي نشأ في إسكتلندا وإنجلترا ما بين سنتي ١٧٩٥ و ١٨٤٠ حال عامل المصنع البريطاني في تلك الفترة بأن قال: إن البريتون Briton كانوا في حالة أفضل منه عندما كانوا أقنانا (عبيداً للأرض) في العصور الوسطى. فالتقدم الصناعي جعل للبروليتاري نصيباً تافهاً جداً من الثروة المتنامية، حتى إنّها جعلته يرتد إلى مرحلة البربرية في مسلكه ولباسه وطريقة حديثه والأسلوب الذي يتَّبعه للترفيه عن نفسه. وقد كتب أليكسيس دي توكفيل Alexis de Tocqueville بعد زيارته لمانشستر: «لقد كاد الإنسان المتحضر يتحول إلى همجي بدائي»[١٧]. ويرجع الفضل إلى هذه الأيام المريرة فيما حققته مانشستر والمدن الصناعية البريطانية الأخرى من تقدم.

وقدَّم «قانون الفقراء» الذي سُنَّ في سنة ١٦٠١ (وجرت عليه تعديلات في فترات لاحقة) بعض المساعدة للمعدمين والعاطلين. وكان العاملون على تنفيذه مسؤولين إداريين في الوحدات الإدارية المختلفة وكانوا عادة ما يسلّمون المبالغ المجمّعة للملاجئ وإصلاحيات الأحداث. ولتمويل تنفيذ هذا القانون كان لابد من ضريبة خاصة مفروضة على أرباب البيوت الذين كانوا متذمرين من هذه الضريبة لأنها – على حد رأيهم – تُنفق على العاطلين وعديمي النفع وتساعد على تفريخ الطائشين والمهملين، وكان من رأيهم أن ضريبة المبيعات

(المكوس) على ما يُباع أو يُتاجر به محلياً هي خير ضمان ضد الفوضى الاجتماعية. وفي كثير من المديريات (الوحدات الإدارية) – بعد سنة ١٧٩٥ – كان يتم تنظيم المساعدات (الإعانات) ليحصل عليها أصحاب الأجور المتدنية (التي لا تكفي لإقامة أَوَد العمّال الحاصلين عليها)، وكان بعض أصحاب العمل ينتهزون فرصة تقديم هذه الإعانات للإبقاء على الأجور التي يدفعونها للعمال متدنية.

ورغم هذه الإعانات المتواضعة، فقد وصلت الحالة البائسة للعمال إلى منعطف خطير مع بداية القرن التاسع عشر. فحتى سنة ١٨٢٤ كان محظوراً تشكيل تنظيمات للمطالبة بأجور أفضل، ومع هذا فقد كانت هناك تنظيمات سرية، وكان محظوراً القيام بإضرابات ومع هذا فقد أضرب العمال وجرى قمعهم، فأضربوا ثانية[١٨]. وحذّر الإصلاحيون مثل روبرت أوين Robert Owen البرلمان أنه إذا لم تتحسن أحوال المصانع، فسيزداد العنف مما سيكلف كثيرا. وواجهت الحكومة السخط المتزايد بتجديد الأعمال العدائية مع فرنسا (١٨٠٣) وراحت حالة السخط تزداد كلما ابتعد شبحُ الحرب حتى انفجرت في ثورة علنية في سنة ١٨١١، ولم يكن في طليعة هذه الثورة عمال المصانع وإنما نسّاجو الجوارب والربط الذين يقومون بعملهم على ماكينات في البيوت والمحلات الصغيرة في نوتنجهام Nottingham أو بالقرب منها. وهؤلاء النسّاجون رجالاً ونساء كانوا لا يزالون قادرين على الاستمتاع بحياة في الهواء الطلق في الحقول والمزارع، وربما تحققوا من أن حياتهم ذات الطبيعة المنطلقة تتناقض – من الناحية المثالية مع انكفائهم على أنوالهم. لقد امتعضوا من تبعيتهم لأصحاب الأنوال (آلات نسج الجوارب) الذين أجَّروا لهم هذه الأنوال، وباعوا لهم المواد الخامة واشتروا منهم منتجاتهم ولم يتركوا لهم ربحاً إلاّ بالنسب التي يحددونها هم (أصحاب الأنوال) أو يحددها الذين موَّلوه بالخامات أو برأس المال. وأكثر من هذا فقد كانوا يخشون أن يفقدوا أعمالهم الحالية لصالح المصانع المنتشرة ذوات الأنوال الآلية التي تحركها الطاقة (البخارية) ذات الإنتاج المُضاعف، وفي فورة غضبهم قرروا أن يدمروا كلَّ ما يستطيعون تدميره من الآلات والماكينات التي اعتبروها رمزا لعبوديتهم.

ونظم ند Ned أو الملك لُود King Ludd – وهو شخصية غامضة وربما كان شخصاً

أسطوريا – النسّاجين الغاضبين ووضع الخطط لغاراتهم. وفي خريف سنة ١٨١١ راحت جماعات منفصلة من هؤلاء النسّاجين الثائرين (اللوديين Luddites) يغزون مديرية إثر مديرية وحطموا كل ما وجدوه من آلات النسيج. وامتدت الحركة من نوتنجهامشير Nottinghamshire إلى لانكشير Lancashire ودربيشير Derbyshire وليزيسترشير Leicestershire واستمرت الحركة خلال عام ١٨١٢ . وامتنع محطّمو الآلات (اللوديون) عن إلحاق الأذى بالأشخاص إلاّ في حالة صاحب مصنع أمر رجاله بإطلاق النار عليهم، فقد أخرجه المضربون وقتلوه. وارتعد نصف إنجلترا خوفا وهلعاً متذكرة الثورة الفرنسية. وكتب روبرت سوثي R. Southey «في هذه اللحظات لا شيء ينقذنا سوى الجيش. إنه الذي سينقذنا من أكثر النكبات والكوارث ضراوة. سينقذنا من عصيان الفقراء المسلّح ضد الأثرياء، لكن إلى أي مدى يمكن الاعتماد على الجيش في هذا الأمر؟ فهذا موضع سؤال قلما أجرؤ أن أوجهه إلى نفسي. إن البلاد ملغّمة تسيخ تحت أقدامنا[١٩] » . ودافع وليم كوبت W. Cobbett الصحفي المفعم حيوية عن هؤلاء « المغيرين » في مجلس العموم البريطاني وألقى الشاعر بيرون Byron خطاباً حاراً لصالحهم في مجلس اللوردات، وقدم اللورد ليفربول Liverpool رئيس الوزراء بعض التشريعات القاسية التي أجازها البرلمان وأرسل كتيبة عسكرية لقمع الثوّار وتم القبض على قادة الثوار وأدينوا بسرعة في محاكمة جماعية في يورك (١٨١٣) ونفى بعضهم وشُنق آخرون. وتضاعف عدد الآلات والماكينات ولم يصدر تشريع يرحم العامل البريطاني البالغ حتى سنة ١٨٢٤ .

٣– قسوة العِلْم:

لم يقدم الاقتصاديون سوى القليل لإراحة العمال والتخفيف من معاناتهم. وشرح توماس مالتوس Thomas Malthus في مبحثه (مقال عن السكّان) صدرسنة ١٧٩٨ أن زيادة الأجور تؤدي إلى ظهور أسرة أكثر عدداً مما يؤدي بدوره إلى زيادة الضغط على موارد الطعام وهذا يؤدي بدوره إلى عودة الفقر حالاً لأن الفقر هو النتيجة الدائمة لعدم كفاية الموارد الطبيعية لحاجة الإنسان[٢٠] . وقد راجع مالتوس نظريته هذه سنة ١٨٠٣ لكن دون

تراجع عن أفكارها الأساسية واضعاً بذلك « قانونه الحديدي للأجور » والقاضي بأنّ أُجرة العامل ينبغي ألاّ تتجاوز الحدّ اللازم لعيش الكفاف أوبتعبير آخر « ستظل أجور العمل دائما تتحكم فيها نسبة إمداد العمل للحاجة »[٢١] . وفي مبحثه مبادئ الاقتصاد السياسي (١٨٢٠) حذّر من أنّ النمو الاقتصادي قد يؤدي إلى التجاوز مادام سيؤدي إلى تقليص الاستثمار والإنتاج، ودافع عن الرِّيع rent (العوائد عن استثمار الممتلكات) باعتباره مكافأة عن الشجاعة والحكمة في الوقت الحالي، وعن قوةٍ أوبراعةٍ كانتا في الماضى »[٢٢] ، واتفق مع فولتير في أنّ « حياة الترف التي يحياها الأثرياء لها أثر طيب إذ تتيح للحرفيين الفنيين المهرة فرصاً للعمل. وفي لحظة ليبرالية أوصى بإقامة الأعمال العامة (الأشغال العامة) وفي فترات نقص الإنتاج كإعانة للعاطلين وتخفيفاً من معاناتهم.

واتفق ريكاردوRicardo مع نظريات صديقه مالتوس وأقام عليها مبحثه « أسس الاقتصاد السياسي والضرائب » (١٨١٧) الذي ظل طوال نصف قرن هو النص الكلاسي لما أطلق عليه كارليل « العلم البارد أو القاسي »[٢٣] . لقد كان (ريكاردو) ابناً ليهودي هولندي كانت أحواله قد انتعشت في سوق لندن للصرافة والأوراق المالية، وكان قد تحوّل إلى المسيحية على مذهب الموحِدين(*) وتزوَّج من فتاة على مذهب الكواكر Quaker (جماعة مسيحية) وأسَّس شركة سمسرة وكوّن ثروة كبيرة وانسحب من عالم الأعمال سنة ١٨١٥ وكتب عدّة مباحث عميقة خاصة في المالية ».وفي سنة ١٨١٩ تم انتخابه لمجلس العموم البريطاني حيث حارب المفاسد البرلمانية ودافع عن الاتحادات العمالية وحذّر الرأسماليين كي ينتبهوا مخافة أن يجني ملاَّكُ الأراضي في بريطانيا – عاجلا أم آجلا – حصادَ الصناعة ومكاسبها بما لهم من حق في رفع الإيجارات. ودلّل في بحث له في هذه الفترة على أن رفع الأجور لم يكن أبداً أمراً حقيقيا بسبب ارتفاع الأسعار الناتج عن زيادة تكاليف الإنتاج، لأن الأجر الخالص للعامل هو ذلك الذي يمكِّنه من العيش والإبقاء على نوْعه (دون زيادة) ولم يترك ريكاردو إلا القليل لكارل ماركس بتعريفه لقيمة value (وليس سعر price) البضاعة بكمية العمل المبذول اللازم لإنتاجها.

(*) الموحّدون المسيحيون هم الذين ينكرون فكرة التثليث وهم من الناحية العقائدية كالمسلمين. (المترجم)

ولم يكن هو نفسه قاسيا (باردا) كَعِلْمه، فقد ظلّ هو ومالتوس صديقين إلى النهاية رغم أنهما كانا يختلفان غالبا في أمورخاصة وفي أمور الطباعة، وعندما ماتا (ريكاردو في سنة ١٨٢٣ ومالتوس في سنة ١٨٢٤) قال عنهما سير جيمس ماكينتوش Mackintosh (الومضة الباقية من التنوير الإسكتلندي) : « لقد عرفتُ آدم سميث معرفة سطحية، وعرفت ريكاردو جيدا وعرفت مالتوس بعمق فقد كانت علاقتي به حميمة. وبصرف النظر عمّا يُقال عن العلم الذي كان هؤلاء الثلاثة هم سادته ورجاله الأساسيين، فإن ثلاثتهم كانوا من أفضل من عرفت على الإطلاق »[٢٤] .

٤-روبرت أوين:

نعود الآن بسرور إلى روبرت أوين، رجل الصناعة الناجح الذي حاول أن يجعل الاقتصاد البريطاني شأنا بهيجا يجعله عواناً بين الرأسمالية والاشتراكية. وُلد روبرت في نيوتون Newtown في ويلز Wales حيث كان أبوه صانع سروج وصاحب محطة تزويد المسافرين بجياد البريد، وصاحب مصنع حديد، وكان ناجحا في كل هذه الأعمال. وكان روبرت في صباه ضعيف البدن ولكنه تعلم كيف يحافظ على صحته وعاش حتى بلغ السابعة والثمانين. وقد جعله أهله يمارس العمل وهو في التاسعة من عمره، وفي العاشرة تمَّ تدريبه ليمتَهِن تجارة الأجواخ والألبسة في ستامفورد Stamford وفي الرابعة عشرة من عمره أصبح مساعدا لتاجر أجواخ وألبسة في مانشستر Manchester، وفي التاسعة عشرة من عمره أصبح مديرا لإحدى أكبر المصانع في لانكشير براتب سنوي قدره ثلاثمائة جنيه (بوند) (نحو ٧,٥٠٠ دولار؟) وظل في عمله هذا ثمانية أعوام حقق خلالها شهرة لكفاءته واستقامته. لقد راح يوفِّر ويدرس ويقرأ بشغف يفوق الحد، وكوّن صداقات مثيرة للانتباه مع كل من: جون دالتون Dalton المعروف بكيميائه الجزيئية atomic Chemstry وروبرت فلتون Fulton المعروف بقواربه البخارية وصموئيل (صامويل) كولرِدْج Coleridge المعروف بأفكاره الراديكالية وأشعاره المعروفة. وفي سنة ١٧٩٩ وكان قد بلغ الثامنة والعشرين اشترى من ديفد ديل David dale لنفسه واثنين من شركائه مجموعة مصانع نسيج في نيو لانارك New

Lanark بالقـرب من جـلاسـجـو Glasgow وحظي – مكافـأةً له – بابنة ديل Dale التي أصبحت زوجته المحبوبة التي أنجب منها سبعة أبناء.

وكانت نيو لانارك تضم نحو ٢٠٠٠ نفس بمن فيهم نحو ٥٠٠ طفل أُرسلوا إليها من البيوت الفقيرة في جلاسجو وأدنبره (أدنبرج Edinburgh)، وكما تذكَّر أوين فيما بعد «كان السكان يعيشون في بطالة وفقر وسادت تقريبا كل أنواع الجرائم، وكانوا مدينين مرارا غير أصحاء وفي حالة بؤس... وأدى الجهل وقلة التدريب إلى اعتيادهم السُّكر والسرقة والكذب والغش والقذارة... وكانوا مجحفين في حق الأمة سياسيا ودينيا يتصدون لأية محاولة لتحسين أوضاعهم»[٢٥]. وكانت المدن الصناعية الصغيرة تكاد تخلو من وسائل الصحة العامة ووسائل منع تفشي الأمراض. وكانت المساكن مظلمة قذرة، وبدت ممارسة الجريمة عملا ترفيهيا من عناء العمل، وكانت الحانات ملاذاً دافئا وباعثا على المسرّة من مشاكل البيوت. وكان أوين Owen قد فقد إيمانه بالغيبيات تماما لكنّه تعلّق بإخلاص بالمثالية الأخلاقية للمسيح، لكنه صُدِم بالمزج بين العبودية الصناعية الجديدة واللاهوت المسيحي القديم (المقصود التوفيق بينهما)، وإنما راح يبحث عن سبيل للتوفيق بين الرأسمالية الناجحة والأخلاق المسيحية.

وأقنع نفسه – رغم تحذير والديه – بعائد قدره ٥٪ من رأس المال المستثمر، ورفع الأجور ومنع تشغيل الأطفال تحت سن العاشرة، ورفض حجة مالتوس التي مؤدّاها أن زيادة الأجور ستزيد ضغط (استهلاك) السكان على الطعام المتاح مما يؤدي إلى ارتفاع الأسعار مما يجعل الأجر الذي يتلقاه العامل وكأنه لم يزد (بمعنى أن قيمته الشرائية رغم الزيادة تظل كما هي) وساق الحجة على أن ما هو صالح للأكل مما يجود به البحر لا حد له، كما أن زيادة السكان تؤدي إلى زيادة الأراضي المزروعة وأن زيادة الإنتاج ستقترن بظهور المزيد من الاختراعات والمزيد من العمالة، كل ذلك سيساعد على توفير الطعام وتحقيق الازدهار للسكان، إذا أخذت الحكومة بالبرنامج الإصلاحي الذي يقترحه[٢٦]. وافتتح في نيو لامارك New Lamark محلا يبيع فيه مستلزمات الحياة بسعر التكلفة تقريبا، ودرّب – بصبر – العاملين معه ليس فقط على تقنيات الإنتاج بل أيضا على فن الحياة، وأكد لهم أنهم إذا تعاونوا وراعى

بعضهم بعضا سينعمون بسلام ورضا لم يألفوهما من قبل. ويبدو أنه كسب كثيرا من العمال إلى جانب النظام والنظافة والاعتدال، وعندما تذمّر والداه من أنه ينفق على أعمال الإحسان والتعليم أموالاً كان يمكن أنْ تحقق أرباحاً وافرة، كوّن لنفسه شركة خاصة به (١٨١٣) بعد أن فسخ شركته معهما، ورحب شركاؤه الجدد (كان من بينهم جيرمي بنثام) بتجربته وكانوا راضين بنسبة الخمسة في المائة كعائد لاستثماراتهم.

وحقّقت مصانعه ومشروعاته في نيو لامارك شهرة على مستوى الوطن إن لم يكن على مستوى العالم. وكانت مدينة نيو لامارك تبعد عن الطريق الرئيسي مسافة تستغرق ركوب يوم كامل من جلاسجو عبر جبالٍ وضباب، ومع هذا كان آلاف الزائرين يأتون لفهم هذه الظاهرة التي لاتصدق – مصنع يُدار على وفق للمبادئ المسيحية، ووقّع عشرون ألفا في دفتر الزيارات فيما بين عامي ١٨١٥ و ١٨٢٥ ، كان منهم كتاب ومصلحون ورجال أعمال وأمراء مثل الأرشيدوق جوهان (يوهان) ومكسمليان النمساوي، وفي سنة ١٨١٥ كان الدوق الكبير نيكولاس (الذي سرعان ما أصبح قيصرا) قد اقتنع بمشروع أوين وبنتائجه فدعا أوين Owen إلى روسيا لتأسيس مصانع ومشروعات مماثلة في روسيا.

وبعد أربعة عشر عاما من التجربة شعر أوين Owen بضرورة تأكيد تجربته وإعلانها للعالم لأنه كان واثقا من أن انتشارها في أنحاء العالم «سيضمن السعادة لكل البشر عبر الأجيال»[٢٧] لذا فقد أصدر في سنة ١٥١٣ أول مقال من مقالات أربع كان لها عنوان شامل (نظرة جديدة للمجتمع) أصبحت من الكلاسيّات الكبرى في الإنتاج الفكري الذي يتناول الإصلاح. ولم يقدم اقتراحاته بشكل مُستقر وكأنه مستعد للقتال، فقد أكّد لحكّام بريطانيا ورجال الصناعة فيها أنه لايرغب في إحداث أيّ تغييرثوري، ولايؤمن به وأن خطته لا تهدف إلى إلحاق الخسارة بأيٍّ أحد بل إنها حقاً قد تزيد من دخل صاحب العمل، وأنها – أي خطته – قد تجنِّب إنجلترا الثورة. لقد بدأ باقتراحٍ وجدهُ أساسيا لأي إصلاح جذري – وهو ضرورة تعديل شخصية الإنسان منذ الطفولة ببث معتقدات وتجارب مفيده تُغير ما يبدو أنّه قد غُرِس فيه من خلال موروثات ثابتة تذكي فيه التنافس والصراع. «إن أكبر أخطائنا تتمثل في فكرة مؤداها أن الأفراد يشكلون شخصياتهم»[٢٨] لكن العكس هو

الصحيح، فآلاف المؤثرات التي تؤثر في الشخص قبل ميلاده ومن ميلاده إلى موته هي التي تكوّن شخصيته[٢٩]. وانتهى أوين Owen بحماس رافضاً أي معدل أو ملطف «فأي شخصية سواء كانت من أفضل الشخصيات أم من أسوئها، ومن أكثرها جهلاً أو أكثرها تنوراً لابد أن تكون موجودة في أي مجتمع، بل وفي العالم كله وذلك من خلال وسائل خاصة هي إلى حد كبير تحت سيطرة من يملكون زمام الأمر في الحكومات»[٣٠]. ومن هذا المبدأ خلُص أوين بافتراضين: الأول؛ أن الطبقات المالكة الحالية لا لَوْم عليها في ممارساتها وأفكارها طالما أن أفراد هذه الطبقات هم نتاج ماضيهم والبيئات التي هم فيها الآن، والثاني أن الإصلاح لابد أن يبدأ بالأطفال وبتحسين أحوال المدارس وزيادة أعدادها. لابد من بذل كل جهد لتنشئة الأطفال بحيث يفهمون أنه لابد أن يحترم كل فرد الأفراد الآخرين طالما أن أي فرد غير ملوم لصفاته (شخصيته) وغير ملوم بسبب ظروف المجتمع الذي نشأ فيه: لابد من تعليم الأطفال كيف يتعاونون بإراداتهم وأن يكونوا شجعانا. ولذا وجدناه عندما كانت المدارس المتاحة للعوام في إنجلترا قليلة جدا يقترح على الحكومات في كل البلاد وضع خطة وطنية (على مستوى الأمة) للتعليم وإعادة تشكيل الشخصية.. دون نظر إلى وطن أو مذهب ديني أو حزب»[٣١].

وكان ديفد ديل Dale قد أنجز بالفعل الكثير لتعليم الأطفال في نيو لانارك، وزاد أوين على ذلك بأن أقام في أحد المباني من ممتلكاته «المعهد الجديد» ١٨١٦ لتحويل الملائكة والمتبربرين إلى مسيحيين بدون لاهوت. لقد راح يبحث عن تلاميذ لمعهده من بين الأطفال الذين يستطيعون المشي[٣٢] فقد كان يخشى (مثل أفلاطون) أن ينقل الآباء الذين تكونوا بالفعل (تشكلت عقولهم ونفوسهم بالفعل) أو فسدت طباعهم بالفعل - إلى أطفالهم روح التنافس .... في الحكم الموجود (القائم)، واستسلم للأمهات اللائي أصررن على أن الأطفال في أعوامهم الأولى يحتاجون إلى عطف الأم ورعايتها، وعادة ما كان يُلحق بمدرسته الأطفال في سن الثالثة ويتركهم - إن سمح الطقس - يتعلمون ويلعبون في الهواء الطلق، وكان الأطفال ذكوراً وإناثاً يلعبون ويتدربون معاً، وكان عليهم أيضاً أن يتدربوا في دار الفنون (الصناعات)، وكان الأولاد يتلقون تدريبات عسكرية، لكن كان عليهم أن

يتعلموا أيضاً الغناء والرقص والعزف على بعض الآلات الموسيقية كالبنات. وكان كل هذا البرنامج التعليمي لخدمة تكوين الشخصية الأخلاقية مع تركيز على الاحترام واللطف والكياسة والرفق والتعاون. ولم يكن هنا عقاب (٣٣) وعند نهاية كل يوم دراسي يعود الأطفال إلى آبائهم ولا يكون مسموحاً لهم بالعمل في المصانع قبل العاشرة.

ولم تقدم مدرسة أوين أي مقرر ديني، ولا حتى في المحاضرات المسائية التي يحضرها الكبار، فقد كان أوين Owen مقتنعاً أن الدين سيفسد عقل الطفل بخرافاته ومن ثم وجب النأي بطفل التنوير عن الدين، فالذكاء هو الفضيلة العليا وانتشار التعليم هو الحل الوحيد للمشاكل الاجتماعية، وأن التقدم – إذا ما أُتيح التعليم – حتمي ولا حدود له (٣٤). ولم تكن هناك في مصانعه ومدرسته أي فصل عرقي أو ديني. «فقد كان يُقدم الإحسان والرفق للجميع على سواء» (٣٥) وكان يؤمن أن المناهج التي يقدمها هي محاولة للتحرك في اتجاه أخلاق المسيح وراح يتطلع بحماس ليوطوبيا أخلاقية!

وفي مقاله الرابع (١٨١٦) وهو المقال الذي أهداه للوصيِّ على العرش قدم بعض المقترحات في مجال التشريع. لقد طالب البرلمان بالإسراع في إصدار مرسوم بتقليل المستورد من الخمور، ورفع الضرائب على المباع منها، وأخيراً إنهاء تراخيص محلات الجِن gin (شراب مُسْكر قوي) وحانات البيرة (الجعّة) وتضييق الخناق على السكر حتى يقتصر في النهاية على الأغنياء من ذوي المال. وأوصى بنشر التعليم الابتدائي وتمويله لتحسين أخلاق الأجيال القادمة. ودافع عن صدور تشريع المصانع الذي يمنع تشغيل الأطفال دون العاشرة ومنع العمل الليلي لمن هم دون الثامنة عشرة كما أوصى بتحسين ظروف العمل وتنظيم ساعاته، وتدبير نُظم للتفتيش الدوري على المصانع. وأوصى بضرورة أن يقوم المكتب الحكومي للعمل (الإدارة الحكومية المنوط بها أمور العمل) بجمع الإحصاءات بشكل دوري عن الحاجة للعمالة وغير ذلك من أمور العمل لاستخدامها للتخفيف من حدة البطالة (٣٦). ودعا إلى إلغاء اللوترية (اليانصيب) التي تنظمها الدولة باعتبارها «وسيلة للإيقاع بغير الوعي، وسرقة الجاهل» (٣٧).

واتفق مع مالتوس أن (قوانين الفقراء Poor laws) التي تُبقي العاطلين والفقراء على قيد

الحياة بالكاد ليست إلا خطوة واحدة من المجاعة، وهي تترك الذين يتلقون العون على وفق هذه لهذه القوانين نهباً للجريمة، وتجعلهم يتفرغون للتناسل، واقترح أوين (١٨١٧) بدلا من بيوت التشغيل Work houses التي تُدار في ظل هذه القوانين أن تقيم الدولة « مجتمعات » كل منها يتكوّن من ٥٠٠ أو ١٥٠٠ نفس، وتنظم كل منها نفسها تنظيما داخليا ويقتسمون العمل فيما بينهم لإنتاج طعامهم وملابسهم وليديروا مدرستهم[٣٨].

ولم تلق دعوته إلا استجابة قليلة الشأن من البرلمان، فتوجه في سنة ١٨١٨ « إلى أصحاب المصانع البريطانيين »[٣٩] يصف لهم نجاح النظام الذي اتبعه في نيو لانارك ويحثّهم أن يكفّوا عن تشغيل الأطفال دون الثانية عشرة من أعمارهم، لكنهم لم يجدوا ذلك متفقاً معهم وامتعضوا من تحليل أوين للركود الاقتصادي باعتباره راجعا إلى كون الإنتاج inventive productivity يتجاوز القدرة الشرائية للسكان. لقد رفضوه باعتباره حالما ملحدا لا يفهم فهما حقيقا حقيقة المشاكل التي يواجهها أصحاب العمل، ولا الحاجات البشرية التي لا يستطيع أن يشبعها إلاّ الدين.

وأخيراً عاد أُوين Owen إلى العمال أنفسهم فتوجه إليهم « بخطاب إلى الطبقة العاملة » (١٨١٩)، ولقد أسعدهم بإعلانه أن العمل اليدوي إذا تم توجيهه بشكل صحيح هو مصدر الثروة كلها ومصدر الرخاء والازدهار للأمة »[٤٠] ولكنه حذرهم من أن إنجلترا وطبقاتها العاملة ليست مستعدة للاشتراكية، وأنكر أي نيّة يُضمرها لتقديم اقتراح للحكومة البريطانية بضرورة تعيين كل القادرين على العمل في البلاد، تعيينا مباشرا[٤١]. ورفض قيام الحكومة بأية إجراءات متطرفة كما رفض القيام بثورة لأنها « ستثير الأحقاد والكراهية والثأر »[٤٢] وعلى أية حال فقد أعلن في سنة ١٨٢٠ في (تقرير إلى أصحاب الأراضي في لانارك) أن إنجلترا الآن لا تحتاج إلى إصلاحات تدريجية وإنما إلى تغيير جذري في نظامها الاجتماعي »[٤٣].

وعندما لاقى إحباطاً في إنجلترا وجه وَجْهَهُ آملاً شطر الولايات المتحدة الأمريكية حيث كان أصحاب فرق دينية مختلفة قد أقاموا بعض التجارب الاشتراكية. ففي سنة ١٨١٤ قامت جماعة من التقويين الألمان الأمريكيين بشراء ثلاثين ألف فدان (أكر) على طول نهر

وابش Wabash في جنوب غرب إنديانا وشيدوا مدينة طوروها أطلقوا عليها اسم هارموني Harmony ، وبحلول عام ١٨٢٥ حل بهم الإفلاس فأسعفهم أوين، ودمر ماليته بأن قدم لهم أربعين ألف جنيه من أجل الأكرات (الفدادين) والمدينة التي أعاد تسميتها لتصبح هارموني الجديدة New Harmony ودعا الرجال والنساء من ذوي النوايا الحسنة للانضمام إليه لتكوين مجتمع تعاوني . ودفع كل التكاليف ماعدا تكاليف المدرسة إذ دفعها وليم ماكلور Maclure وأتى إليه آلاف المتحمسين راحوا يأكلون طوال عام على نفقة أوين وتكيّفوا ببطء مع العمل المنظم واختلفوا في أمور الدين والسياسة، وفي ١٨٢٧ كان قد خسر معظم الأربعين ألف جنيه(٤٤) فأحال أمور هذه المستعمرة إلى ماكلور وعاد إلى بريطانيا .

ومع هذا لم يكن قد أنهى ما في جُعبته تماماً، فقد قاد حركة لتطوير نقابات العمال لتكوّن روابط صناعية وتجارية تنافس المشروعات الخاصة في الإنتاج الصناعي . وقَبِل الاتحاد الوطني للبنائين عقوداً . وفعلت الاتحادات الأخرى ما يناسبها وفي سنة ١٨٣٣ نظمها أوين في المنظمة الوطنية الكبرى للنقابات العمالية وكان يأمل أن تستأصل هذه المنظمة – بالتدريج – شأفة الرأسمالية وتحل أخيراً محل الدولة . وتدخل البرلمان بقوانين تكبح هذا الاتجاه لكنها لقيت مقاومة شديدة فرفضت البنوك تقديم قروض له وفي سنة ١٨٣٤ اعترف أوين بالهزيمة .

إن حياته التي شهدت نجاحا كبيراً في مضمار الصناعة، يبدو أنها وصلت الآن أو كادت إلى مرحلة الفشل الكامل، وأدت الاختلافات الدينية إلى تعكير صفو زواجه، فقد كانت زوجته كالفنية متحمسة عندما اكتشفت أنه (لا أدري)، وفي وقت لاحق حثت ابنها روبرت على إعادة أبيه إلى حظيرة الكالفنية، فكانت النتيجة أن تشكك الولد في دينه بدلا من أن يُقنع أباه(٤٥) . وبعد أن عاد أوين من أمريكا عاش منفصلاً عن زوجته رغم أنه ظل على علاقة صدَاقة بها . وكان يؤمن بالطلاق ولكنه لم يسع إليه واستغرق في مهمته (رسالته) استغراقاً كاملاً .

وقدَّم تشجيعاً فعّالاً للجماعات المختلفة التي حاولت تطبيق مبادئه : في أوربستون Orbiston في إسكتلندا، وفي رالاهين Ralahine في أيرلندا وفي كوينوود Queenwood في

إنجلترا. وقد حلت الجماعة الأولى نفسها في غضون عامين والثانية في غضون ثلاثة أعوام والثالثة في غضون ستة أعوام. وظل ينشر أفكاره بالخطب والتأليف وعاش حتى رأى كثيراً من تعاونيات المستهلكين في الجزر البريطانية. وظل مشغولاً بكتابة توصيات بالإصلاح للهيئات التعليمية والمسؤولين الحكوميين والملكة فكتوريا. وأخيراً - في سنة ١٨٥٣ - عاد إلى الاتجاه الروحي Spiritualism وأغرق في التأمل الذاتي، وراح يجري حوارات حميمة (باطنية) مع فرانكلن وجيفرسون وشكسبير وشيلي ونابليون والنبي دانيال[٤٦]. وفي سنة ١٨٥٨ كان قد تخلّى منذ زمن عن مجال اهتمامه بل وعن نفسه فعاد إلى بلدته تيوتون ومات فيها وهو في الثامنة والثمانين.

لقد كان رجلا طيبا، وكان غيْرياً يفكر في غيره أكثر من أي شخص آخر، ولم يستطع أن يسمو فوق ذاته كلية، فقد كان فخوراً في طيّات نفسه بسلطانه ونجاحه وفكره، وكان على حق عندما قرر أن التعاون السليم الذي يحقق الغرض في حاجة إلى نظام وسلطة. إنه أفضل من استطاع تضخيم ذاته لتضم بين جنباتها أقاربه وبلده وجنسه، ووجد - لهذا - رضا في توسيع نطاق الرحمة والعطاء. وهذا هو ما فعله روبرت أوين بعد كل شيء وقبل كل شيء، بشجاعة، وهذا وحده يكفي لنجعله بين الدعاة prophets الملهمين الداعين إلى حياة أفضل.

الفصل السادس عشر

الحياة الإنجليزية

[١٨٠٤ ـ ١٨٠٧]

١- الطبقات:

الحضارة شعب له نظام اجتماعي قامت عليه حكومة وقانون ودين وأخلاق وعادات وتقاليد ونظام تعليمي، مع إتاحة قدر كاف من الحرية للإبداع والتجربة وقدر كاف من الحرية لتكوين الصداقات وعلاقات الحب وأعمال الخير وتطويرها، وقدر كاف من الحرية يُتيح إبداع فن وأدب وعلم وفلسفة. والآن كيف كان حال هذه النظم والحريات في إنجلترا في الفترة من ١٧٨٩ إلى ١٨١٥ وكيف كان شكلهما (تكوينهما) وماذا نتج عنهما؟

في البداية نجد أن الفروق التي فرضتها الطبيعة بين الناس – فيما هو موروث، وفي الفرص والمهارات – جعلتهم يندرجون في طبقات تُسهم كل طبقة منها بنصيب في الحياة المشتركة. ولم يكن في إنجلترا نظام الطبقات المغلقة (أو المتحجرة) لأن الفرد ذا الثروة الكبيرة أو التفوق قد يترقى (يصعد) من طبقة إلى أخرى بل يصل حتى إلى مرتبة النبالة، وغالبا ما كانت العلاقة بين النبيل والفلاح تتسم بروح الصداقة وقلما تكون ذات طابع برهمي of Brahmin (أو علاقة لا تسمح بأن يمس (يلمس) الفلاحُ النبيلَ). وكانت القِنانة (عبودية الأرض) قد اختفت رغم أنه لم تكن هناك إلا أقلية تمتلك الأرض التي تزرعها. وكان النبلاء يدفعون الضرائب مثل غيرهم وفي بعض الأحيان (على عكس نظرائهم الفرنسيين) كانوا يعملون في مجال التجارة أو الصناعة. ولم يكن يرث لقب النبالة إلا الابن الأكبر أما بقية الأبناء فكانوا من الناحية القانونية (وليس الاجتماعية) من العوام.

وظلت كثير من مظاهر عدم المساواة (الفوارق) غير الطبيعية باقية. وكان تركُّز الثروة شديداً بشكل غير عادي. وكانت المساواةُ أمام القانون غير ذات معنى بسبب ارتفاع تكاليف التقاضي. ولم يكن ممكنا محاكمة اللوردات المتهمين إلا في مجلس اللوردات (الشيوخ)، وظلت «مزايا النبالة» هذه مستمرة حتى سنة ١٨٤١. وكان من الممكن إجبار

من لا شجرة نسب لهم على الخدمة في البحرية. وقلما كان العوام يصلون إلى رتبٍ عليا في البحرية أو الجيش أو الخدمة المدنية أو الجامعات أو القضاء. وقلما كانت طبقة النبلاء الحاكم تسمح للجماهير التي لا تنتمي لطبقة معينة بأي دور في تقرير سياسات الحكومة أو اختيار القائمين عليها.

وربما كان الوعي الطبقي أكثر حدّة ووضوحاً لدى البورجوازية التي ظلت متعالية بكبرياء بعيدة عن الفلاحين والبروليتاريا، وكان أفرادها يحلمون بمراتب النبالة. وفي داخل الطبقة البورجوازية نفسها كانت هناك قطاعات متنافسة؛ فكان الرأسمالي العامل في المجال الصناعي يتعالى على جاره صاحب المحل التجاري(*)، والتاجر الكبير الذي تحلّى بالأموال نتيجة مغامراته التجارية يقف متباهياً إزاء رجل الصناعة. وكان ذوو المكانة أو الثروة العظيمة يطلون ما جمعوه من المستعمرات بطلاء الوطنية وكوّنوا طبقة خاصة بهم.

وكما في فرنسا، كذلك في إنجلترا لم يكن أي فرد راضياً بما فيه الكفاية بقسمته التي قسمها الله له، أتاحتها له قدراته، أو فرضتها الظروف. لقد كان كل شخص منشغلاً بالصعود أو التردي. لقد كان قلق العصر الحديث قد بدأ. وكانت المعركة الأساسية هي معركة الرأسمالي كي يحل محل الأرستقراطي في توجيه أمور الدولة. وكان هذا قد استغرق جيلا كاملا في فرنسا، أما في إنجلترا فاستغرق قروناً.

وعلى هذا، فحتى سنة ١٨٣٢ كان لطبقة النبلاء الغلبة، وكانوا يبتسمون ساخرين من متحديهم. وبالمعنى الضيق فقد كانت طبقة النبلاء هذه في سنة ١٨٠١ تتكوّن من ٢٨٧ نبيلاً أو نبيلة زمنياً (أي ليس من الإكليروس أو رجال الدين) و ٢٦ أسقفاً إنجيلياً هم النبلاء أو اللوردات الروحيون (أي من رجال الدين) وهم الذين يشكلون مجلس الشيوخ (مجلس اللوردات). وكان النبلاء الزمنيون (من غير رجال الدين) مرتبين طبقياً فيما بينهم ترتيباً تنازلياً: أمراء من دماء ملكية، دوقات، ماركيزات، إيرلات earls، فيكونتات Viscount وبارونات. وكان يمكن أن يُطلق على الواحد من كل هؤلاء - ما عدا الأمراء ذوي الدماء

(*) أطلق صامويل (صموئيل) آدم في سنة ١٨٤٧ على إنجلترا عبارة «كيان من البقّالين» وردد نابليون هذا القول. ومن الصعب الإقرار بصحة هذا.

الملكية – لقب لورد، وكان اللقب يُورَّث جيلاً بعد جيل للابن الأكبر. وكان الواحد منهم يمتلك أراضي شاسعة يزرعها فلاحون مقيمون وعمال مستأجرون، وكان لها بطبيعة الحال ريع بلغ في حالة دوق نيوكاسل Newcastle ١٢٠,٠٠٠ جنيه إسترليني في السنة أو نحو ١٢,٠٠٠ جنيه عادة كما في حالة الفيكونت بالمرستون. وكانت مزارع دوق بدفورد، ودوق نورفولك ودوق ديفونشير يمكن أن تغطي كونتيّة (مقاطعة [١]). وإلى الأدنى من هؤلاء اللوردات الزمنيين (من غير رجال الدين) واللوردات الروحانيين (من رجال الدين) نجد ٥٤٠ بويرين! (تصغير بارون، وتكتب أحيان بارونت) وزوجاتهم (الواحدة منهن بويرينة، وتكتب أحياناً بارونيته) ويشفع الاسم المسيحي للواحد منهم باللفظ (سير Sir) إن كان بويرينا، وباللفظ (ليدي Lady) إن كانت بويرينة ويُتوارث هذا اللقب (سير أو ليدي) من هذه الأسرات. ويلي ذلك ٣٥٠ فارساً Knights (لقب وليس له علاقة بالضرورة بركوب الخيل) وزوجاتهم، ويُسبق الاسم المسيحي للواحد منهم باللفظ (سير) أو (ليدي) أيضاً، لكن اللقب هنا لا يتوارث، ويلي حاملي لقب فارس نحو ستة آلاف من حاملي لقب «حامل الدرع» Squire أو «شريف المحتد» gentry وهم من ملاك الأراضي الذين وُلدوا في أسرات قديمة حازت قبولاً اجتماعياً ومن حق الواحد منهم أن يحمل شعار النبالة. كل هذه المجموعات الآنف ذكرها من حملة الألقاب تقع دون اللوردات وهم يكوِّنون النبالة الدنيا أو النبالة الأقل درجة لكنهم بشكل عام من بين «الأرستقراطية» التي تحكم إنجلترا.

لم يكن أحد يشعر بأن حكم الأقلية ينطوي على شيء من الخطأ. فقد كان هناك رضاً متزناً قانعاً رواقياً (متسم بقبول الواقع) يبرر فقر الفلاحين وتدني أوضاع عمال المصانع واستغلال أيرلندا. لقد كانت هناك قناعة أن الفقر هو عقاب ضروري وطبيعي لعدم الكفاءة أو الكسل ويجب ألا يُسمحَ للمنظِّرين الخوَّارين بتحويل بريطانيا إلى ديموقراطية تقوم على تقديم الإعانات المالية (للكسالى وغير الأكفاء) ورغم الحالمين باختفاء أشكال الحكومة مثل وليم جودون أو بيرسي شيلي، فإن شكلاً من أشكال الحكومة يُعد أمراً ضرورياً فمن غير الحكومة يصبح الشعب غوغاء يهددون كل فرد وكل حرية، ولم يكن نابليون ظالما في حكمه لصالح الأرستقراطية الإنجليزية، بل إنه قال في سانت هيلانة: «ستكون مأساة (أو

كارثة) أوروبية إذا اختفت الأرستقراطية الإنجليزية وتُركت الأمور لغوغاء لندن »[٢] فكل الحكومات تقوم إما على حكم الأقلية أو حكم الطغاة (الحكم الفردي المستبد) والأقلية الحاكمة إما أن تكون بأرستقراطية المولد أو بلوتقراطية الثروة (حكومة الأثرياء / أو حكم الطبقة الثرية) وبطبيعة الحال فإن الديموقراطية كانت في هذا الاتجاه الأخير (البلوتوقراطي) لأن الثروة وحدها هي التي يمكنها تمويل المعارك أو دفع تكاليف حث الناس على التصويت لصالح المرشحين الأغنياء والذين يتم انتخابهم بطريقة ديموقراطية وهم قلما يكونون – بحكم المولد أو الخبرات – قادرين على التعامل بنجاح مع قضايا الحكم، أما تعاملهم مع الشؤون الخارجية فنجاحهم فيها أقل بكثير. فأرستقراطية المولد هي مدرسة لأجل الدولة. حقيقة إن بعض من تخرجوا في هذه المدرسة (أرستقراطية المولد) قد يصبحون عاطلين لا يصلحون لعمل، لكن هؤلاء قلّة، فأرستقراطيو المولد بحكم طول ارتباطهم بقضايا الحكم والأشخاص الحاكمين يكتسبون القدرة على التعامل مع الأمور الحرجة دون تعريض الأمة للخطر بحماقاتهم (تصرفاتهم غير المنضبطة). وأكثر من هذا فإن الأرستقراطية الموظفة توظيفا صحيحاً تستطيع أن تُلزم الناس بعادة الطاعة واحترام السلطة اللذين هما منحة للنظام العام والأمن.

وبدت هذه الحجج التي صيغت ببراعة وتغلغلت في الشعور بشكل غامض مقنعة لغالب الشعب البريطاني. لكنها لم تكن مقنعة للبورجوازية الصاعدة التي كان أفرادها ممتعضين من الثروة التي حققها ملاّك الأراضي فسيطروا على الوزارات والبرلمانات، كما كان العمال المتمردون ينكرون على الأرستقراطية – بغضب – دورها، كما تعرضت الأرستقراطية للمساءلة من المثقفين الذين هالتهم الوسائل التي توظفها الأرستقراطية التي تحكم إنجلترا لخدمة مصالحها.

٢- الحكومة

٢ / ١ الهيئة التشريعية:

دستور إنجلترا هو الكيان الكامل للتشريعات غير المُلغاة التي أصدرها البرلمان، والقرارات غير المُبْطَلة (بضم الميم) للمحاكم. فمثل هذه السوابق القانونية تُسند كل السلطات الحكومية إلى التاج (سواء أكان صاحبه ملكاً أو ملكة) والبرلمان اللذين يعملان بتوافق. وعادة ما كان الملك منذ سنة ١٦٨٨ يقبلُ ما يشرّعه البرلمان ويوافق عليه. وليست هناك وثيقة مكتوبة تحد من سلطة البرلمان في إجازة أيّ قانون يُرضي مجلسيه (مجلس العموم ومجلس اللوردات) (النص: غرفتا مشورته two chambers) وتتكون الغرفة العليا (مجلس اللوردات) من اللوردات الزمنيين (من غير رجال الدين) واللوردات الروحانيين (من رجال الدين) الذين يجلسون بترتيب على وفق الميلاد والتقليد، ومن سلطتهم رفض أي إجراء يصوت عليه مجلس العموم وهم كمحكمة عليا تُستأنف (بضم التاء) القرارات القضائية لديها، وكمحكمة عليا عند تولي مجلس العموم محاكمة أحد أعضائه بسبب جناية أو جُنحة أو عند محاكمة أحد أعضاء الحكومة كما أنه مختص بالنظر في الأمر عند اتهام أحد أعضائه من غير الإكليروس في جريمة كبرى. لقد كان هو حصن الأرستقراطية تقوم من خلاله بنضال يعوق تقدم البورجوازية المتقدمة.

وكان عدد أعضاء مجلس العموم ٥٥٨ عضواً: اثنان من جامعة أكسفورد واثنان من جامعة كامبردج، وواحد من كلية التثليث في دبلن، و ٤٥ من إسكتلندا، والباقون يتم انتخابهم في أربعين كونتية (مقاطعة) وعشرين مدينة تمثل كل منها دائرة انتخابية من قِبَل ناخبين لهم امتيازات محدودة مختلفة اختلافاً كبيراً مما يجعل من غير الممكن النص عليها بالتفصيل في هذا السياق[٣]. ويُستثنى من المنتخبين (بكسر الخاء) النساء والذين يتلقون إعانات، والأروام الكاثوليك والكوكر (أصحاب مذهب ديني) واليهود واللاأدريين، وبشكل عام كل من لا يؤدي قسم الولاء والطاعة لكنيسة إنجلترا وعقائدها. وفي المجموع كان في إنجلترا ذات التسعة ملايين نفس ٢٤٥,٠٠٠ ناخباً. وطالما كان التصويت علنياً فإن قلة من المصوتين (الناخبين) هم الذين كانوا يجسرون على انتخاب مرشح غير مالك

الأرض. وكان كثيرون من أهل المدن ممن لهم حق الانتخاب لا يُزعجون أنفسهم بالإدلاء بأصواتهم، وكانت بعض الانتخابات تجرى بترتيبات بين الزعماء دون أي تصويت. وكان عدد الممثلين البرلمانيين المسموح بهم لكل مدينة borough قد تحدد بحكم التقاليد المتوارثة دون أن يوضع في الاعتبار زيادة عدد السكان أو نقصهم في هذه المدينة التي تمثل دائرة انتخابية، إذ كان لبعض المدن التي لا يتجاوز عدد المصوتين فيها أصابع اليد ممثل أو أكثر، بينما لم يكن مسموحاً للندن سوى بأربعة ممثلين رغم أن عدد المصوتين فيها ستة آلاف. وكانت المراكز الصناعية قليلة التمثيل في البرلمان إن لم تكن غير ذات ممثلين برلمانيين أبداً. فمنشستر وبيرمنجهام وشيفلد لم يكن لها ممثلون في البرلمان، بينما كانت كونتية (مقاطعة كورنوال Cornwall القديمة) تتمتع باثنين وأربعين نائباً. وعلى أية حال يجب أن نضيف أن كثيراً من المدن والقرى كانت محتفظة بقدر كبير من الحكم الذاتي فيما يتعلق بأمورها الداخلية، وعلى هذا فمدينة لندن كانت تختار حكومتها عن طريق أصحاب الأملاك فيها (فهم وحدهم لهم حق التصويت). وكان نحو نصف مقاعد مجلس العموم يتم شغلها عن طريق انتخابات نصف جماهيرية، أما النصف الثاني فيتم شغله من خلال تعيينات الملاك المحليين أو المقيمين في مناطق نائية، ولا معقِّب على تعيينهم. وكان الراغبون في مثل هذه التعيينات يدفعون للمجالس المحلية في كثير من الحالات، وكانت هذه المجالس تعيِّن من يدفع أكثر من غيره أو بعبارة أخرى كانت مجالس المدن تبيع وتشتري مقاعدها في مجلس العموم بشكل علني واضح كما يجري التعامل في أية بضاعة(٤).

وكان الأعضاء المختارون يقسمون بشكل مرن بين الحزبين: التوري (المحافظون) والهويج (الأحرار)، وكان هذان الحزبان قد نسيا إلى حد كبير القضايا التي اختلفا عليها في الماضي والتي كانت سبباً في انقسامهما إلى حزبين. وكان زعيماهما من بين الأسرات الأرستقراطية القديمة لكن الهويج (الأحرار) كانوا أكثر ميلاً من التوري (المحافظين) للاستماع إلى لوردات التجارة والصناعة الأثرياء، بينما كان التوري (المحافظون) يدافعون عن الحقوق «المقصورة على» السلطة الملكية، وكان الهويج (الأحرار) يتحدونها. لقد كان عصب الصراع هو السلطة لا المبدأ؛ أي حزب عليه تشكيل الوزارة الحاكمة واقتسام المناصب الرابحة والإشراف

على التطور. ورغم الأساس الأرستقراطي للحكومة البريطانية فإنها كانت – بشكل ملحوظ – أكثر ديموقراطية في سَنّ القوانين من حكومات معظم دول القارة الأوروبية، ففي هذه الدول (بما في ذلك فرنسا بعد سنة ١٨٠٤) كان الإمبراطور أو الملك هو الذي يقبض على زمام السلطة، أما في بريطانيا فقد كان الحاكم الحقيقي منذ سنة ١٦٨٨ هو البرلمان وليس الملك، وفي هذا البرلمان ذي المجلسين (مجلس اللوردات ومجلس العموم) كانت السطة في الأساس في يد مجلس العموم من خلال «سلطته على الميزانية Power of the purse»: إذ لم يكن ممكنا إنفاق أي مبلغ من الميزانية العامة دون موافقته، ومن الناحية النظرية كان يمكن للملك أن يعترض على أي إجراء يُقرّه البرلمان، لكن جورج الثالث – من الناحية الفعلية – لم يمد هذا الحق المقصور عليه إلى هذه النقطة الحساسة. وعلى أية حال، كان في مقدور الملك أن يحل البرلمان، و «يلجأ إلى أهل البلاد go to the Country» لإجراء انتخابات جديدة.

وفي هذه الحال يكون لدى المرشحين الذين يؤيدهم ويمولهم فرصة طيبة للفوز بالمقاعد لأن الملك «الطبيعي المؤتلف مع شعبه» قد أصبح مرة أخرى تجسيداً للأمة ومحور الولاء لها والفخر بها.

٢/٢ النظام القضائي:

كان النظام القضائي في إنجلترا – مثله مثل النظام التشريعي – كافياً بالغرض، وكان قد تم مصادفة (أي بدون قصد)، وكان مشوشاًغير محدد المعالم. لقد كان لابد بادئ ذي بدء من السيطرة على مجموعة القوانين التي كانت تكاد تصدر يومياً خلال مئات السنين فظلت طويلاً غير منظمة ولا متسقة وكانت تنص على عقوبات قاسية جداً حتى إن القضاة كانوا غالبا ما يعدلونها أو يتجاهلونها. لقد كان القانون مثقلا ببقايا أصوله الإقطاعية وتنقيحاته المسيحية: فاللوردات المتهمون كان لا يزال من الضروري أن يُحاكمهم لوردات، وحتى سنة ١٨٢٧ كان القسس الأنجليكان مستثنين من المثول أمام المحاكم المدنية. وظلّت مئات القوانين (التي تنص على منع المقامرة ووسائل الترفيه الليلية والاجتماعات غير المصرَّح بها)

مُثبتة ومنصوصاً عليها، رغم عدم تطبيقها إلا فيما ندر. وجرت بعض التحسينات في هذه الفترة: فعدد الجرائم (نحو مائتين) التي كان (في سنة ١٨٠٠) عقابها الموت، جرى تخفيف عقوبتها مراراً. وأصبح من الممكن تفادي السجن لعدم وفاء الدين بالحصر الدقيق للموجودات والديون والعوائق التي تعوق المدين عن سداد ديْنه. لكن قانون الإفلاس ظل ثقيل الوطأة حتى إن رجال الأعمال تحاشوه باعتباره طريقاً إلى إفلاس مضاعف. وقانون الإحضار لأغراض التحقيق الصادر في سنة ١٦٧٩ والذي كان يهدف إلى منع سجن المتهم قبل المحاكمة، غالباً ما عُلّق (لم يُنفّذ) حتى فقد قوته في أثناء أزمات مرّت بها البلاد مثل فترة الحروب الثورية الفرنسية. واستمرت التناقضات والمعوقات والتشوّش سمة من سمات القانون البريطاني حتى عكف بنثام Bentham عليها وأخضعها لمثابرته ودقته ومتابعته للتفاصيل بُغية إصلاحها.

ومما زاد من صعوبة القبض على المجرمين قلة عدد رجال الشرطة في المدن وانعدامهم – تقريباً – في القرى. وكان المواطنون مضطرون إلى تكوين مجموعات تطوعية لحماية حياتهم وممتلكاتهم، وحتى عندما كان يتم القبض على المجرم، فإن يستطيع أن يؤخِّر سجنه أو يُفلت منه باستئجار المحامين ليجدوا له أسباباً لاستئناف الدعوى أو ليفتعلوها له أو ليبحثوا له عن ثغرات في القانون «فقد كان مجالا لفخر المحامين أنه لا يوجد قانون إلا واستطاعوا اختراقه وتوسيع رتقه ليسيروا خلاله بعربة بل وستة خيول»[٥].

وكان أفضل لمحة في القانون الإنجليزي هو حق المتهم في المحاكمة أمام هيئة محلفين. ومن الواضح أن هذه المؤسسة من مؤسسات الفرانك الكارولنجيين Carolingian Franks قد دخلت إنجلترا بشكلها الأوّلي مع الفتح النورماني. ولم يكن عدد هيئة المحلفين قد حُدِّد بعد باثني عشر عضوا حتى سنة ١٣٦٧، وفي نحو ذلك الوقت فقط كانت الموافقة الاجتماعية للمحلفين على قرار واحد أمراً مطلوباً. وكان يتم اختيار المحلفين (عادة كانوا من الطبقة الوسطى) من بين قائمة تضم من ثمانية وأربعين إلى واحد وسبعين رجلاً بعد جدال بين الحزبين المتصارعين. وكان قُضاة الصلح يعينون بشكل دوري بواسطة هيئة محلفين كبرى في كل كونتية (إقليم)، وكان من المتوقع أن تأخذ المحاكم بتوصياتهم. وفي أثناء نظر القضايا

كان المحلفون يسمعون الأدلة والمرافعات المختلفة ويقوم القاضي بتلخيص كل ذلك، وبعد ذلك ينسحبون إلى غرفة مجاورة ويُمنع عنهم الطعام والشراب والتدفئة والشموع (إلاّ بإذن القاضي) لتجنب أي تأخير غير مُبرَّر أو إسراف، «إلى أن يصدروا حكمهم بالإجماع»[٦].

٢/٣ السلطة التنفيذية:

من الناحية النظرية فإن الملك هو المخوَّل بالسلطة التنفيذية، ومن الناحية الفعلية فإنها مسؤولية مجلس وزرائه الذين لابد أن يكونوا أعضاء في البرلمان ومسؤولين أمامه عن أعمالهم ومعتمدين عليه في إقرار ميزانيات وزاراتهم. ومن الناحية النظرية فإن الملك هو الذي يُعيّن هؤلاء الوزراء، ومن الناحية العملية كان من المتوقع أن يختار الملك رئيس الوزراء زعيم الحزب الفائز في آخر انتخابات، ويقوم رئيس الوزراء هذا مع البارزين من حزبه بتعيين الوزراء. وكان وليم بت Pitt في ولايته Administration الأولى (١٧٨٣ – ١٨٠١) قد قام بدور مزدوج كمستشار لوزارة المالية ومسؤول أول first Lord للخزانة وكانت هاتان المهمتان اللتان يقوم بهما مرهونتين بموافقة البرلمان فكل ما يتعلق بجمع الأموال المكونة للدخل الوطني وإنفاقها مرهونة بموافقة البرلمان. وفي مجلس الوزراء – والحكومة بشكل عام – كانت السلطة المالية هي الأداة الرئيسية للنظام والحكم.

ولم يقر الملك جورج الثالث بتبعيّته للبرلمان فمنذ توليه العرش في سنة ١٧٦٠ وهو في الثانية والعشرين من عمره عمل على تقوية الهيمنة الملكية، لكن الانهيار المكلّف لقيادته في حرب الاستقلال الأمريكية وتعرضه بشكل متكرر لنوبات خلل عقلي (١٧٦٥، ١٧٨٨، ١٨٠٤، ١٨١٠ – ١٨٢٠) أوهن جسده وروحه وإرادته وبعد سنة ١٧٨٨ سمح لوليم بت بالحكم بشروط ثلاثة: عدم تجريم الرّق وعدم السماح للكاثوليك البريطانيين بالتصويت (حق الانتخاب) وعدم إبرام سلام مع فرنسا حتى يعود لويس الثامن عشر إلى عرشه الذي هو حق له.

وكان جورج الثالث رجلاً طيباً ولكنه كان قصير النظر ضيق الأفق من الناحية الدينية. وقد وصفه نابليون في أثناء أسره وفي معرض تذكره للأحداث الماضية بأنه – أي جورج

الثالث «أكثر الناس أمانة في بلاده»[٧] وكان يمتاز عن أسلافه الهانوفريين بالتزامه بكل الوصايا العشر ما عدا الوصية الخامسة وقصّر كثيراً في الوصية اللاوية «أحب جارك كحبّك لنفسك» لكنه أحب الشعب الإنجليزي. ورغم أخطائه فقد أحبه شعبه بدوره (بادله حباً بحب) بسبب ما حل به من نكبات - لأنه أحب دينه الذي ورثه عن أسلافه وأحب زوجته وبناته ولأنه أعطى الأمة مثلاً مُلهماً لحياة البساطة والإخلاص. لقد تقطّعت قلوب شعبه من أجله حباً له وحدباً عليه عندما لوّث معظم أبنائه ألقابهم الأميرية بعدم انضباطهم عسكرياً وانعدام وعيهم وممارستهم المقامرة وغلوّهم الطائش الذي أدى إلى انهيارهم جسدياً وتدهور شخصياتهم، رغم أن أباهم كان رجلاً طيباً. لقد وصفهم ولنجتون: «إنهم أكبر لعنة يمكن تصورها تحيط برقبة حكومة»[٨].

لقد كان أكبرهم - جورج أمير ويلز مزعجاً بشكل لا يمكن تصوّره. لقد كان جذاباً وسيماً وكان على وعي بذلك. وكان قد تلقى قدراً طيباً من التعليم ويستطيع التحدث بالفرنسية والألمانية والإيطالية بطلاقة وكان يُحسن الغناء ويعزف على الفيولونسيلو Violencello (آلة موسيقية إيطالية) ويكتب الشعر كما كان مُلماً بالأدب الإنجليزي المعاصر، وكان يُعد من بين أصدقائه الحميمين ريتشارد شريدان وتوماس مور كما كان راعياً ذكياً للفنون وأقام في دار كارلتون Carlton House مؤسسة أميرية جعل فيها أثاثاً أنيقاً من أموال الأمة واشتغل بالسياسة ونافس شارلز جيمس فوكس في اهتمامه الشديد بالسياسة، وأصاب والده بالذعر عندما أصبح معبوداً لحزب الهويج (الأحرار) وكان أيضاً يحب الشباب المتأنقين الذين أنفقوا ثرواتهم على الملابس الأنيقة والنساء والخيول والكلاب[٩]. حذا حذو هؤلاء البريتون في إقامة مباريات تكسبية ولم يكن له نظير في إنفاقه وديونه. وخصّص البرلمان مرات عديدة مئة ألف جنيه لسداد ديونه[١٠].

وفي السابعة عشرة من عمره اعترف أنه «مغرم بالنساء والنبيذ أكثر من أي شيء آخر» وكان من بين خليلاته الأوليات - ماري روبنسون التي فتنته بقيامها بدور بيرديتا Perdita في «حكاية شتاء» A Winter's Tale، وظل ينفق عليها ببذخ طوال ثلاث سنوات. ثم كوّن علاقة أكثر جدية مع ماريا آن فيتسهيربرت Maria Anne Fitzherbert التي ترمّلت مرّتين

(مات عنها زوجها فتزوجت غيره ومات بدوره) وكانت كاثوليكية وأكبر منه بست سنوات، وكانت رقيقة لطيفة متحررة وقد رفضت أن تكون خليلته لكنها لم تمانع في الزواج منه. وكان قانون وراثة العرش الذي كان قد أعطى عرش إنجلترا لأسرة هانوفر قد استثنى من حق المُلك كل من يتزوج كاثوليكية أو تتزوج كاثوليكياً، كما منع قانون ١٧٧٢ أي فرد في الأسرة المالكة دون الخامسة والعشرين من الزواج دون موافقة الحاكم. ومع هذا فقد تزوج الأمير من السيدة ماريا فيتزهيربرت (١٧٨٥) بعد أن دفع لراعي أبرشية شاب خمسمائة جنيه ليقوم بإجراءات (طقوس) الزواج غير الشرعي، مما أدى إلى احتفاظه بحق وراثة العرش إذ ادعى هذا الحق في سنة ١٧٨٨ عندما انتابت والده نوبة خَبَل فراح يترقب موت والده بصبر نافد، وقلما كان الابن وأبوه على وفاق.

وعلى كل حال فقد كان هناك اتفاق أنه إذا دفع الملك (عملياً البرلمان) ديون الأمير (١١٠,٠٠٠ جنيه إسترليني) قام الوريث الظاهر بترك زوجته الأدنى منه منزلة وتزوج قريبة والده الأميرة كارولين أوف برنسويك of Brunswick. لقد بدت في عينيه دميمة غير مشجعّة، وبدا في عينيها سميناً مقرفا، لكنهما تزوجا في ٨ أبريل ١٧٩٥، وقد أكدت كارولين فيما بعد أنه قضى ليلة العُرس (الدُّخْلة) وقد أضاع الشراب همّته[١١]. وعلى أية حال فقد أنجبت له بنتاً في ٧ يناير ١٧٩٦ (الأميرة شارلوت Charlotte) وسرعان ما فارقها وعاد لفترة إلى زوجته السابقة السيدة فيتزهيربرت التي كانت فيما يبدو المرأة الوحيدة التي أحبها بعمق. (عندما مات وجدوا صورتها معلقة على صدره)[١٢].

وفي نوفمبر سنة ١٨١٠ أصبح جورج الثالث مجنوناً تماماً بعد انكساره أمام المعارضة البرلمانية، وخجلاً من تصرفات ابنه وحزناً على وفاة ابنته أميليا Amelia. وطوال تسع سنين بعد ذلك أصبح ملك إنجلترا مقيداً كمجنون يرتدي سترة المجانين وأشفق عليه شعبه وأحبه، بينما تولى الوصي على العرش (الابن الآنف ذكره) مكانه مدّعياً السلطة الملكية والأبهة، وكان وقتها قد أصبح سميناً محطماً رقيقاً ديّوثاً Cuckolded مكروهاً محتقراً.

٣- الدين:

كانت الحكومة وأهل الفكر في إنجلترا قد وصلوا إلى اتفاق شرف (اتفاق يسري بمراعاة الشرف لا بقوة القانون) بخصوص الدين. فالهجوم الذي شنه الربوبيون على العقيدة التقليدية orthodox لابد أن تخف وطأته مادام المتشككون في الدين (المسيحي) ليس لديهم ما يحل محل الدين لتحقيق السلام بين الناس وضبط سلوك الأفراد. لقد كان وليم جودون، وروبرت أوين Owen، وجيرمي بنثام وجيمس مل أمثلة حية لعدم الإيمان (بالمسيحية) لكنهم لم يقوموا بدعاية ضد الدين. وكان توم بين Paine استثناء منهم. وكانت الأرستقراطية الإنجليزية - التي وجدت في فولتير الشاب ما يجذبها - تراعي الآن حرمة « السبت »(*) بوضوح. لقد لاحظ مؤرخ حوليّ في سنة ١٧٩٨ « دهشة الطبقات الدنيا فيَ كل أنحاء إنجلترا لرؤيتها الطرق إلى الكنائس غاصّة بالعربات التي تجرها الخيول » في أيام الآحاد[١٣] . وفي سنة ١٨٣٨ لاحظ جون ستيوارت مِلْ: « يوجد في العقل الإنجليزي سواء من ناحية التفكير والتأمل أو الممارسة بُعد صحّي على درجة عالية من البُعد عن التطرّف... « لا تزعج الهدوء أو بتعبير آخر لا تغير ما هو مستقر Quieta non movere وكانت هذه هي العقيدة الأثيرة في تلك الأيام... وعلى هذا، ففي حالة عدم إثارة ضوضاء كثيرة حول الدين أو عدم تناوله بجدية شديدة فلم يكن لدى الناس حتى الفلاسفة مانع من تأييد الكنيسة باعتبارها حصناً ضد التعصّب ومسكناً للروح الدينية لمنعها من إفساد هارمونية المجتمع (اتساقه) أو تعكير صَفْو الدولة. ووجد الإكيروس أنهم حققوا صفقة طيبة بهذا الاتفاق والتزموا بشروطه بإخلاص »[١٤] .

لقد كانت الكنيسة من الناحية الرسمية هي « الكنيسة المتحدة لإنجلترا وأيرلندا » . ورغم أنها قبلت تسعاً وثلاثين مادة من العقيدة الكلفنيّة إلاّ أنها احتفظت بكثير من ملامح الطقوس الكاثوليكية. لقد كانت تضم رؤساء أساقفة وأساقفة لكنهم عادة ما كانوا يتزوجون، وكان تعيينهم يتم عن طريق التاج. وبشكل عام كان كبار ملاك الأراضي المحليون

(*) كلمة السبت هنا لا تعني يوم السبت المعروف، وإنما المقصود يوم العبادة وهو هنا الأحد - أي يوم الذهاب إلى الكنيسة. (المترجم)

هم الذين يختارون الكهنة والقسس البروتستنط، وكان هؤلاء الكهنة والقسس يساعدونهم في حفظ النظام الاجتماعي. واعترف الإكليروس الإنجليكان بالملك باعتباره رأس كنيستهم وباعتباره حاكماً، واعتمدوا على الدولة في جمع العشور للكنيسة من أسر إنجلترا. وقد وصف بورك Burke بريطانيا بأنها كومنولث مسيحي كانت فيه الكنيسة والدولة «كياناً واحداً بل إنهما الشيء نفسه. إن كلاً منهما جزء مختلف عن الآخر لكنّه مكمّل له»[١٥] ووصف جون ولسون كروكر كنيسة وستمنستر Westminster Abbey بأنها «جزء من الكومنولث البريطاني». لقد كانت العلاقة بينهما تشبه العلاقة التي بين الكنيسة الكاثوليكية وحكومة فرنسا في أثناء حكم لويس الرابع عشر مع فارق وهو أن إنجلترا لم تشهد – غالباً – اضطهادات أو مضايقات بسبب تهمة الهرطقة(*)[١٦] (الإلحاد).

وسُمِح للفِرَق (أصحاب المذاهب) المنشقة – الميتوديين (المنهجيين) والمشيخيِّين Persbyterians والمعمدانيين Baptists والإندبندنت (المستقلّين) والابرشيين congregationalists والكوكر Quakers والموحّدين (المناهضين للتثليث) Unitarians – بالدعوة لعقائدهم بشرط واحد: أن يُعلنوا أنهم مسيحيون[١٧] وكان هناك بعض من هؤلاء المنشقّين في مجلس اللوردات. وتحلّق عدد كبير من المستمعين حول المبشِّرين (الدعاة) الميتوديِّين لما عُرفوا به من بلاغة رائعة. ولجأ عمال المدن المعارضون بعد أن يئسوا من تحقيق آمالهم في الدنيا إلى عقيدتهم البسيطة (عقيدة الطفولة) وبهذه العقيدة البسيطة قاوموا كل الجهود لتحريضهم على الثورة عندما تسلّلت الأفكار الثورية عَبْر القنال الإنجليزي من فرنسا. وفي سنة ١٧٩٢ طلب القادة الدينيون لجماعة الوِزليان الميتوديّين من كل عضو من أعضائهم أن يقسم يمين الولاء والطاعة للملك[١٨].

وفي نطاق الكنيسة الرسمية نفسها وجدنا تأثير الميتودية «الحركة الإنجيلية Evangelical»؛ كثير من رجال الدين صغار السن وكذلك كثير من جمهور المؤمنين (بالمذهب) قرروا إحياء

(*) كان المُهَرْطق (الملحد) بنص القانون خارجاً على القانون (مُداناً) وكان يمكن ملاحقته كمجرم. وكان التجديف – أي إشارة غير وقورة للرب – مشافهة أو كتابة أو إشارة – يمكن أن يكون موضوع عقاب بوضع المجدّف ستاً وثلاثين ساعة في المشهرة (آلة خشبية يتم فيها إدخال يدي المجرم ورأسه لتعذيبه والتشهير به Pillory لكن هذه القوانين قلّما كانت توضع موضوع التنفيذ.

العقيدة الإنجليكانية بتناول الإنجيل بحماسة وعاطفة (وضعه في القلب)، وتكريس أنفسهم لحياة البساطة والتقوى والإحسان وإصلاح الكنيسة . وكان أحدهم هو وليم ولبرفورس هو الذي قاد معركة الإنجليز ضد الرق، وهناك أيضاً حنا مور Hannah More التي نشرت حماساً مسيحياً جديداً بمحاضراتها وكتبها ومدارس الأحد التي أسستها .

وظلت جماعتان دينيتان خارج دائرة « التسامح الكامل » : الكاثوليك واليهود . لم يكن البروتستنط الإنجليز قد نسوا جاي فوكس Guy Fowkes ومحاولته نسف البرلمان (١٦٠٥) ولا مغازلات ملوك ستيوارت Stuwart – شارلز الأول وشارلز الثاني وجيمس الثاني – للقوى الكاثوليكية والأفكار الكاثوليكية والخليلات الكاثوليكيات، ومال الإنجليز إلى النظر للكاثوليكي كشخص يُوالي حاكما أجنبياً (كان الباباوات يمثلون سلطة زمنية كحكام للولايات البابوية)، وكان الإنجليز يندهشون كيف سيتصرف الكاثوليكي في حالة حدوث صراع بين الحَبْر الروحاني (البابا) والملك البريطاني .

وكان في إنجلترا في سنة ١٨٠٠ نحو ستين ألف كاثوليكي . كان معظمهم من أصول أيرلندية لكن بعضهم كان ينحدر من سلالة كاثوليكية متوطنة قبل حركة الإصلاح الكاثوليكية في بريطانيا Pre-Reformation British Catholics . وفي الفترة الزمنية التي نتناولها كانت القوانين المناهضة لهم قد خفَّت وطأتها، فثمة مراسيم مختلفة صدرت فيما بين ١٧٧٤ و ١٧٩٣ أعادت لهم حق تملّك الأراضي وحق العمل في مجال الخدمة المدنية وحق الدعوة لعقيدتهم من خلال مدارسهم الخاصة بهم، وحقهم – على نحو خاص في ترديد قسم الولاء للملك والحكومة دون التبرؤ من البابا أو جحده . إلاّ أنه لم يكن لهم – على أية حال – حق التصويت، ولم يكن لهم حق ترشيح أنفسهم لعضوية البرلمان .

وفي نحو نهاية القرن الثامن عشر بدت حركة إعطاء الكاثوليك كل حقوق المواطنة على وشك النجاح، وأيدها بروتستنط بارزون – وزلي، وكاننج، وولبر فورس، ولورد جراي Grey . وقد أدّت الثورة الفرنسيّة إلى موقف مضاد لفولتير في إنجلترا بل وموقف مضاد لحركة التنوير، كما أدّت إلى شيء من التعاطف مع الدين (المسيحي) الذي تعارضه الحكومة الثورية (الفرنسية)، وبعد سنة ١٨٩٢ تلّقى المهاجرون الفرنسيون (الذين تركوا فرنسا إثر

أحداث الثورة الفرنسية) استقبالاً حاراً ومساعدات مالية من الدولة البريطانية وكان بينهم رجال دين كاثوليك. وسمحت الدولة البريطانية لهؤلاء المهاجرين بإقامة أديرة، وحلقات بحثية. إن إنجلترا تبدو الآن في موقف سخيف (منافٍ للعقل) فقد كان الاتجاه أن الكنيسة الكاثوليكية يمكن أن تكون حليفاً ذا قيمة في حربها ضد فرنسا. وفي سنة ١٨٠٠ قدَّم بِتْ Pitt مشروع قانون لمنح كاثوليك إنجلترا حقوقهم كاملة. وعارض التوري (المحافظون) والكنائس والإنجليكانية العليا هذا القانون وأيدهم جورج الثالث بعزم، فسحب بِتْ مشروع قانونه واستقال، وكان على تحقيق الكاثوليك للمساواة الكاملة في إنجلترا أن ينتظر حتى سنة ١٨٢٩.

أما مساواة اليهود في إنجلترا فتأخرت حتى سنة ١٨٥٨. كان عددهم في سنة ١٨٠٠ نحو ٢٦,٠٠٠؛ معظمهم في لندن وكان بعضهم في المدن الكبرى ولم يكن منهم - تقريباً - أحد في الريف. وقد أوقفت الحربُ الطويلة مزيداً من عمليات التهجير وسمحت لليهود بمواءمة أنفسهم مع أساليب الحياة البريطانية وإزالة بعض الحواجز العرقية. وظل القانون الإنجليزي يحول بينهم وبين حق الانتخاب وتولي المناصب الكبرى فذلك كان يتطلب قَسَماً بالإخلاص للعقيدة المسيحية وإقامة الشعائر على وفق لطقوس الكنيسة الرسمية في إنجلترا. وفيما عدا ذلك فقد كان اليهود أحراراً ولهم حق العبادة في منازلهم ومعابدهم دون خفاء، وقبِل عدد من اليهود البارزين التحوّل إلى المسيحية - صامويل (صموئيل) جِدون Gideon رجل المال، وديفد ريكاردو Ricardo الاقتصادي وإيزاك (إسحق) المؤلف. وهذا الأخير نشر فيما بين ١٧٩١ و ١٨٣٤ «نوادر الأدب» دون أن يسجل اسمه عليه (تركةُ مجهول المؤلف)، وقد كان يكتبه بشكل عَرَضي أو مصادفة (أي كلما أتيحت له الظروف)، ولازال هذا الكتاب ممتعاً لأصحاب العقول المتعلّمة التي تأنس للمتعة والراحة.

إن خبرات اليهود الطويلة في أعمال البنوك وارتباطاتهم العائلية والأسرية عبر الحدود مكنتهم من مساعدة الحكومة البريطانية في حرب السنوات السبع وفي نزاعها الطويل مع فرنسا. وساعد الأخوان ابراهام (إبراهيم) جولدسمد، وبنيامين جولدسمد، بِتْ، في كسر طوق السماسرة المبتزين الذين كانوا قد احتكروا التعاملات مع الخزانة. وفي سنة ١٨١٠

أسس ناثان روتشيلد Rothschid (١٧٧٧ – ١٨٣٦) في لندن فرعاً للشركة التي كان أبوه – مِيَر أمشيل روتشيلد – قد أسسها في فرانكفورت – آم – مين Frankfurt - am - Main وبدا ناثان أكثر الماليين عبقرية – تلك العبقرية التي مازت الأسرة خلال عدة قرون في عدة دول . وأصبح هو الوسيط الأثير للحكومة البريطانية في علاقاتها المالية مع القوى الأجنبية، وكان هو – أو وكلاؤه – الذي نقل من إنجلترا إلى النمسا وبروسيا المساعدات التي مكنتهما من حرب نابليون، وقام بدور رائد في التوسع التجاري والتطور الصناعي في إنجلترا بعد سنة ١٨١٥ [١٩] .

٤– التعليم:

بدت إنجلترا وكأنها اعتزمت أن تعرض قضية عدم إرسال أطفالها إلى المدارس، فكيف تستمر الحكومة دون الالتزام بهذا الواجب؟ ولم يكن الأرستقراطيون مهتمين بالتعليم إلاّ بالنسبة إلى أبنائهم. لقد بدا من الأفضل بالنسبة إلى الوقت الراهن (في ذلك الوقت) ألا يستطيع الفلاحون والبروليتاريا – بل وربما البورجوازيون – أن يقرأوا خاصة وأن جُودون، وأوين Dwen Owen وكوبت Cobbett وبين Paine وكولردج وشيلي كانوا يطبعون في هذا الوقت هذا الهراء عن الأرستقراطية الاستكشافية (التمهيدية) والكميونات الزراعية ورِقّ المصانع وضرورة الإلحاد. لقد كتب جودون نحو سنة ١٧٩٣ : « المصممون على الدفاع عن النظام القديم ليس لديهم بصيرة نافذة. إنهم يعارضون بخسّة توصيل المعرفة للناس باعتباره بدعة تدعو إلى الحذر. ففي ملاحظتهم المشهورة « إن الخادم الذي يعرف القراءة والكتابة لا يصبح بعد تعلّمهما هو الأداة التي يطلبونها » نجد الجنين أو البذرة التي يسهل علينا من خلالها شرح كل فلسفة المجتمع الأوروبي [٢٠] ». بالإضافة إلى أن الطبقات الدنيا فيما ترى الطبقات الأعلى غير قادرة على الحكم بحذر وحكمة على الأفكار التي تُطرح عليهم في المحاضرات أو الصحف أو الكتب، وقد تكون أفكاراً مثيرة تخرّج من المدارس على مستوى الأمة أفواجاً من غير الأسوياء السذّج الحالمين الذين قد يحاولون تحطيم السلطات (القوى) والامتيازات الطبقية هي الوحيدة التي يمكنها حفظ النظام الاجتماعي والحضارة. وكان

أصحاب الصناعات قد اعتراهم الفزع من منافسيهم فكانوا يتطلعون إلى العمالة الرخيصة ولم يروا جدوى من تعليم الأطفال العاملين حقوق الإنسان وفخامة اليوطوبيا وبهائها (اليوطوبيا هي المدينة المثالية). لقد قال واحد من المحافظين غير المعروفين، اقتبس منه جودون قوله: «إن هذه المبادئ سوف تثور بلا شك في عقول السّوقة محدثة هياجاً.. أو محاولة وضعها موضع التنفيذ (أي هذه المبادئ) مما سيؤدي إلى كل أنواع الكوارث... فالمعرفة والذوق وتطوير الفكر واكتشافات الحكماء وجمال الشعر والفن كل ذلك سيتم سحقه تحت أقدام البرابرة»[٢١].

وفي سنة ١٨٠٦ قدَّر باتريك كولكهون Colquhoun القاضي البوليسي في لندن - أن عدد الأطفال الذين لم يتلقوا أي قدر من التعليم في إنجلترا وويلز بلغ مليونين، وفي سنة ١٨١٠ ذكر إسكندر مري Murray عالم فقه اللغة أن ثلاثة أرباع العمال الزراعيين أميون، وفي سنة ١٨١٩ ذكرت الإحصاءات الرسمية أن ٦٧٤,٨٨٣ طفلاً ملحقون بالمدارس في إنجلترا وويلز - ١٥٪ من السكان[٢٢]. وعندما اقترح بِت Pitt في سنة ١٧٩٦ على الحكومة إنشاء مدارس للتعليم الصناعي، لم يُقدَّم مشروعه للتصويت، وعندما قدَّم صمويل (صموئيل) هويتبريد whitbread في سنة ١٨٠٦ مشروع قانون بإقامة مدرسة ابتدائية في كل دائرة (كما كان موجوداً بالفعل في إسكتلندا) أقرّه مجلس العموم، لكن مجلس اللوردات رفضه على أساس أن هذا المشروع لا يجعل التعليم قائماً على أُسس دينية.

وكانت الجماعات الدينية تفرض رسوما على نفسها لإتاحة بعض التعليم لأطفالها، وواظب المجتمع على إقامة «مدارس خيرية» لتقديم المعارف المتعلقة بالدين المسيحي، لكن عدد التلاميذ في هذه المدارس لم يكن يتجاوز ١٥٠,٠٠٠[٢٣]. وكانت مدارس حنا مور Hannah More تكاد تكون مقتصرة على التعليم الديني. وبناء على «قانون الفقراء Poor Law» تم إنشاء «المدارس الصناعية» لتستوعب ٢١,٦٠٠ طفل لتأهيلهم للعمل، وكانت هناك إدارة منوط بها تنفيذ هذا القانون يتبعها ١٩٤,٩١٤ طفلاً. وفي المدارس الدينية لم يكن الأطفال يتعلمون إلاّ شيئاً واحداً بإتقان ألا وهو الكتاب المسيحي المقدس. لقد أصبح عقيدتهم وأدبهم وحكومتهم ومُعيناً له وزنه وقيمته يُعينهم في حياة لا تخلو من

سوء حظ وظلم وارتباك.

وفي سنة ١٧٩٧ أسس الدكتور أندرو بل Beel «نظام العرِّيفين أو المعيدين» لمواجهة نقص المدرسين، وذلك بالاستعانة بالطلاب الأكابر سناً كمدرسين مساعدين في المدارس الابتدائية المرتبطة بنظم العبادة الإنجليكانية. وبعد ذلك بعام قدَّم جوزيف لانكاستر Lancaster مشروعاً شبيهاً على أسس قبلها كل المسيحيين ورفض رجال الكنيسة العمل من خلال هذه الخطة غير الطائفية (المفهوم غير الملتزم بعقائد فرقة مسيحية بعينها) فقد كان لانكاستر متهما بأنه ربوي Deist (مؤمن بالله مع عدم اعترافه بأديان مَنزّلة) مُرتد (عن دينة) وأداة للشيطان[٢٤] وفي سنة ١٨١٠ أسس جيمس مل، ولورد بروهام Brougham وفرانسيس بلاس Place، وصمويل (صموئيل) روجرز المؤسسة الملكية اللانكسترية لنشر المدارس غير الطائفية. وأسس الأساقفة الإنجليكان «جمعية تعليم الفقراء على أسس المبادئ الدينية للكنيسة الرسمية» وذلك خوفاً من انتشار التعليم غير الطائفي المشار إليه آنفاً. ولم يُؤسس في إنجلترا نظام وطني للمدارس الابتدائية على أسس غير طائفية إلاّ في سنة ١٨٧٠.

وكان التعليم العالي متاحاً أيضاً لمن يقدر على تكاليفه، وذلك من خلال الأساتذة الذين يعلّمون في المنازل، ومن خلال المدارس «العامة» والمحاضرين وجامعتين. فالمدارس العامة - في إتون Eton وهارو Harrow ورجبي Rugby ووينشستر Winchester ووستمنستر، وشارترهوس، كانت مفتوحة مقابل مصروفات لأولاد النبلاء والطبقات العليا وكان يُسمح بها في بعض المناسبات للبورجوازية الثرية. وكانت برامج الدراسة في هذه المدارس كلاسية في الأساس - لغة وأدب الإغريق القدماء والرومان، وفي بعض الأحيان كان يتم إضافة بعض العلوم Sciences لكن أهالي الطلبة كانوا يريدون تدريب أولادهم على فن الحكم والصُّحبة الرفيعة، وكانوا مقتنعين أن الشاب إذا تعلّم أدب الإغريق والرومان وتاريخهما وفن الخطابة كان ذلك أجدى لتحقيق الغرض من تعلم الفيزياء والكيمياء والشعر الإنجليزي. وعلى أية حال فإن هذه المدارس كانت تقدم ملتون الذي كان يكتب اللاتينية بكفاءة تقارب كفاءته في كتابة الإنجليزية - كمؤلف لا يقل كفاءة عن الرومان.

وكان النظام في المدارس الثانوية (الداخلية) الأهلية Public Schools قائماً على الجلد

والانتقاد القاسي flogging. والتكدير أو إلزام التلاميذ الصغار على خدمة الطلاب الآخرين ممّن هم أكبر سناً. وكان نظّار المدارس يجلدون الذين يرتكبون مخالفات كبيرة، أما إجبار التلاميذ الصغار على خدمة من هم أكبر فتعني أن يقوم التلاميذ في الصفوف الدنيا بأداء خدمات صغيرة لطلاب الصفوف الأعلى: ينقلون رسائلهم، وينظفون أحذيتهم ويعدّون لهم الشاي، ويحملون كُراتهم ومضارب الكريكت الخاصة بهم، ويتحمّلون تنمّرهم صابرين، وكانت النظرية الكامنة وراء هذا الأسلوب هي أن على المرء أن يتعلّم كيف يُطيع حتى يكون صالحاً لإصدار الأوامر.

وكانت النظرية السائدة في الجيش والبحرية أيضاً قائمة على الجَلْد والانتقاد الشديد وقيام من هم أدنى رُتبة بخدمة من هُم أعلى رتبة وتنفيذ الأوامر دون اعتراض «الطاعة الصامتة» (وعلى هذا فإن الانتصار الذي تحقّق في الطرف الأغر وفي واترلو لم يكن نتيجة الجهود في ميدان القتال فحسب وإنما أيضاً نتيجة ما كان يجري في قاعات وفصول المدارس الثانوية الأهلية)، وإذا ما وصل طالب الصفوف الدنيا الذي كان يخدم طالب الصفوف العليا أصبح مستعداً للدفاع عن هذا النظام. وكان هناك بعض الديموقراطية في حضّانات الأرستقراطية هذه (أو بتعبير آخر في معامل تفريخ متعلّمي الطبقة الأرستقراطية: لقد كان كل الخَدَم fags (الطلاب الذين يخدمون من هم في الصفوف الأعلى) متساوين بصرف النظر عن الثروة والنّسب، وكان كل المتخرّجين (إذا تحاشوا التجارة) يعتبرون أنفسهم سواء، ويعتبرون غيرهم أدنى منهم درجة مهما كانت مواهبهم.

ومن مثل هذه المدارس التي يتخرّج فيها الطالب وهو عادة في الثامنة عشرة من عمره، يلتحق بأكسفورد أو كمبردج. وكانت هاتان الجامعتان قد انحدرتا عن وضعهما الممتاز في أواخر العصور الوسطى وعصر النهضة، ولم يكن جبون Gibbon هو وحده الذي تأسف على الأيام التي قضاها في أكسفورد باعتبارها أياماً ضاعت في دراسات غير مجدية (رغم أنه استفاد كثيراً من من دراسته للغتين؛ اللاتينية واليونانية) وتنافس بين الطلاب في المقامرة وشرب الخمر ومعاشرة البغايا. وكانت موافقة الكنيسة الرسمية شرطا للتقدم لإحدى هاتين الجامعتين. وكان المعلمون أو العمداء يقومون بالتدريس، وكان كل واحد يأخذ على عاتقه

طالباً أو أكثر وينقل إليهم معارفه وخبراته العلمية بأسلوب المحاضرة أو التوجيه والإرشاد، وهنا أيضا كانت الدراسات الكلاسية تسود المنهج الدراسي، لكن كان هناك أيضاً مكان للرياضيات والقانون والفلسفة والتاريخ الحديث، وكانت هناك أيضاً محاضرات في الفلك والفيزياء والنبات والكيمياء لكنها كانت قليلة.

وكانت جامعة أكسفورد من التوري (الاتجاه السائد فيها محافظ) أما كامبردج فكانت هويج (الأفكار السائدة فيها كأفكار حزب الأحرار أو الهويج). وفي كامبردج لم يكن يحصل على الدرجة العلمية إلا التابعون لكنيسة إنجلترا، رغم أن القيود المفروضة كشرط للالتحاق بهذه الجامعة وعددها تسعة وثلاثون قد أُزيلت. وكانت كامبردج هي التي سنّت الحرب على الرق منذ سنة ١٧٨٥. ووجد العلم Science في كامبردج معلّمين أكثر وطلبة أكثر مما وجد في أكسفورد، وكانت كلتا الجامعتين متخلّفة عن جامعات ألمانيا وفرنسا. وكانت أكسفورد تدرّس لطلبتها الفلسفة من كتب أرسطو، وأضافت كامبردج كتابات لوك Locke وهارتلي Hartley وهيوم Hume، وكانت كامبردج تخرّج باحثين ذوي شهرة عالمية، أما أكسفورد فكانت أكثر اهتماماً بتخريج أفراد على قدر من الفصاحة، وملمّين بالاستراتيجية في البرلمان كي يصبحوا - بعد تجارب وخبرات، ومن خلال ارتباطات صحيحة - أصحاب أدوار في حكومة بريطانيا.

٥- المبادئ الأخلاقية

٥ / ١ - الرجل والمرأة:

أي نوع من الأخلاق يمكن أن ينبثق عن هذه الحكومة الطبقية، وهذا الاقتصاد المتغير، وهذه الوحدة بين الدولة والكنيسة، وهذا التعليم المحدود انتشاره، والمحدود في محتواه، وهذا التراث الوطني الذي كان في وقت من الأوقات قويا مؤثراً بسبب العُزلة التي تحدّتها الآن الاتصالات بالعالم الخارجي والثورة والحرب؟

ليس الرجال والنساء من الناحية الطبيعية naturally ملتزمين بالمبادئ الأخلاقية لأن مواهبهم الاجتماعية التي تُؤثر التعاون والعمل المشترك ليست في قوّة بواعثهم الفردية

ورغبتهم في تحقيق مصالحهم الذاتية، ومن هنا كان لابد من تقوية الباعث الاجتماعي وإضعاف الباعث الفردي بسن القوانين المعبّرة عن قوة الجماعة ورغبتها، وبالمواثيق الأخلاقية التي يتم بثّ محتواها من خلال الأسرة والكنيسة والمدرسة والرأي العام والعادات وتحديد المحرمات (الطابو أو التابو taboos) . من الطبيعي إذن أن تكثر الجرائم في إنجلترا في الفترة من ١٧٨٩ إلى ١٨١٥ وأن تكثر حالات عدم الأمانة، وأن يكون هناك ما لا حصر له من العلاقات الجنسية قبل الزواج، وإذا كان لنا أن نصدّق هوجارث Hogarth وبوزول Boswell فقد كانت بيوت الدعارة والمومسات تملأ لندن والمدن الصناعية . وكان أفراد الأرستقراطية يجدون البغايا أقل تكلفة من الخليلات « مدبّرات شؤون المنزل »، فاللورد إجريمونت Egremont الذي كان يفيض بكرمه على تيرنر Turner وغيره من الفنانين، يقال إنه استمتع بسلسلة من الخليلات أنجب منهن أطفالاً كثيرين . . وعلى أية حال قد زادت الشائعات أخباراً عن علاقة أصدقائه الدافئة به »[٢٥] ويمكننا أن نحكم على أخلاق الطبقات العليا من خلال محاكاتهم لأمير ويلز واستئناسهم بأخلاقه، وكان هذا الأمير « قد نشأ وسط أكثر الأرستقراطيين فجوراً وانحلالا . لقد كانوا ثُلّة لم تشهد إنجلترا مثيلاً في فجورها وانحلالها منذ العصور الوسطى »[٢٦] .

وربما كان الفلاحون يحترمون القيم الأخلاقية القديمة، لأن تنظيم الأسرة بما يخدم أغراض الزراعة يستلزم سلطة أبوية قوية، وقلما يسمح للشباب بالإفلات من سلطة من هم أكبر سنا . وعلى أية حال، فقد كانت البروليتاريا النامية قد تحررت من مثل هذه الهيمنة مقلّدة مستغليها في حدود ما تسمح به دخولهم (أي دخول البروليتاريا)، وقد « كانت الأجور المتدنية في المصانع الصغيرة غير المنضبطة تمثل دافعاً قوياً للفسق بالنسبة إلى النسوة العاملات في المصانع ليبعن أجسادهن بثمن بخس ليُضفنه (أي هذا الثمن) إلى أجورهن المتدنية .

وحتى سنة ١٩٢٩ كان العمر القانوني الذي يُسمح فيه بالزواج هو ١٤ سنة للذكور و ١٢ للإناث . وكان الزواج العادي ارتزاقا أو مصدر تعيّش وكسب . فالرجل (الزوج) كان مرغوباً بقدر ما لديه من مال فعلي أو متوقع، وكذلك كانت المرأة (الزوجة) مرغوباً فيها

بقدر مالها الموجود فعلاً أو المتوقع الحصول عليه، وكانت الأمهات يخططن ليل نهار (كما في روايات جين أوستن Austen) لتزويج بناتهن بُغية الحصول على المال. ومع أن الأعمال الأدبية تُعلي من شأن الزواج عن حب، إلا أن مثل هذا الزواج كان استثناء لا قاعدة. وكان الزواج على وفق للقانون العام مُعترفاً به رغم عدم عقده بواسطة رجال الدين وكان عدد أفراد الأسرة كبيراً لأن الأطفال كانوا يُعينون الأسرة من الناحية الاقتصادية، وكان عددهم (الأطفال) في المصانع أقل بقليل من عددهم في المزارع. وكان منع الحمل يتم بطرق بدائية. وكان عدد السكان يزداد لكنها كانت زيادة بطيئة بسبب وفيات الأطفال والشيوخ، وبسبب نقص الغذاء ونقص الرعاية الطبية وعدم مراعاة قواعد الصحة العامة. وانتشر الزنا، وكان يمكن أن يطلب الزوج الطلاق، وكذلك المرأة (بعد سنة ١٨٠١)، لكن هذا لم يكن ليتم دون إذن من البرلمان، وكان هذا يكلّف كثيراً جداً، لدرجة أنه لم يحصل على الطلاق إلا ٣١٧ شخصاً قبل أن يصطبغ القانون بطابع ليبرالي في سنة ١٨٥٩. وحتى سنة ١٨٥٩ كانت الممتلكات المنقولة للزوجة تصبح مُلكاً للزوج عند الزواج، بالإضافة إلى أنه كان يحصل تلقائياً على كل مالٍ يأتيها بعد الزواج، لكنها كانت تحتفظ بملكية الأرض الخاصة بها أما الريع فلزوجها وإن ماتت قبله ورث كل ممتلكاتها[٢٧].

وسمعنا عن نسوة ثريّات لكنهن كن قليلات العدد. وجرى العُرف أن يقوم الأب الذي ليس له ولد (ذكر) بوقف ثروته على أحد أقربائه الذكور، تاركاً بناته دون مال يرثنه وإنما يعشن على إعانات الأصدقاء ومن يتلطّف عليهن. إنه عالم الرجال.

٥/٢ ماري ولستونكرافت

لقد تعوّد معظم النساء البريطانيات على هذا الجوْر بحكم ما اعتدْنَ عليه، لكن الرياح الآن تهب من فرنسا الثورية، فدفعت بعض اللائي يعانين إلى الاحتجاج، وقد أحسَّت ماري ولستونكرافت Wollstonecraft بهذه الرياح فرفعت عقيرتها مطالبة بتحرير المرأة، وكانت مطالبتها من أقوى المطالبات التي شهدتها حركة تحرير المرأة.

وكان أبوها من أهل لندن وقرر أن يجرب العمل في مجال الزراعة ففشل وفقد ثروته

وزوجته فعكف على الشراب وتخلى عن بناته الثلاث فتركهن يدبّرن أمور معيشتهن بأنفسهن، فافتتحن مدرسة فامتدحهن صامويل (صموئيل) جونسن لكنهم أفلسن وأصبحت ماري مربّية أطفال لكنها طُرِدت من عملها بعد عام «لأن الأطفال أحبوا مربّيتهم أكثر من حبّهم لأمّهم» [٢٨] وفي هذه الأثناء كتبت عدة كتب من بينها «دفاع عن حقوق المرأة» الذي كتبته في سنة ١٧٩٢ وهي في الثالثة والثلاثين من عمرها.

وقد أهدت كتابها إلى «م. تاليران – بيريجورد M. Talleyrand Perigord أسقف أوتون Auten الراحل» مع إشارة إلى أنه ما دامت الهيئة التأسيسية قد أعلنت حقوق الإنسان فهي ملزمة أخلاقيا بإعلان حقوق المرأة. وربما رغبة منها في تسهيل طريقها وتحقيق أهدافها تحدثت بنبرة أخلاقية عالية معترفة بولائها لبلادها وتمسكها بالفضلية، وإيمانها بالله. ولم تتحدث إلاّ قليلاً عن حق النساء في التصويت لأن نظام التمثيل النيابي كله الآن في هذه البلاد ليس إلا أداة في يد الحكم الاستبدادي (حكم الفرد) فلا مجال لشكوى النساء لأنّهن معدودات كطبقة ذات عدد للعمل الشاق وكأنهن آلات، يدفعن لدعم الملكية عندما يصبحن قادرات بشق النفس على إسكات أصوات أطفالهن بحشوها خبزاً» ومع هذا «فإنني حقا أعتقد أنه من الضروري أن يمثل النساء في البرلمان بدلا من أن يُسْلبن حقهن في أي مشاركة مباشرة في تفكير الحكومة وتخطيطها» [٢٩]. وأشارت كمثال على انحياز القانون للرجل إلى قانون حق الابن البكر في ميراث أبيه، وحق الأب في وقف ممتلكاته على نسله أو أقاربه من الذكور، وذكرت أن الأعراف والعادات أشد قسوة على المرأة من القوانين فهي تُدين – وتُعاقب – المرأة للحظة واحدة فقدت فيها طهارتها، رغم أن الرجال يظلّون محترمين بينما هم منغمسون في الرذيلة» [٣٠].

وربما صُدِم بعض القراء بإعلان ماري حق المرأة بالإحساس بالإشباع عند اللقاء الجنسي، لكنها حذرت الجنسين قائلة «إن الحب (المقصود هنا المتعة الجنسية) شهوة حيوانية لها نهاية» [٣١] فالحب (المقصود هنا المتعة الجنسية) كعلاقة مادية لابد أن تحل محله الصداقة بالتدريج، وهذا يتطلب احتراما متبادلا، والاحترام يتطلب أن يجد كل طرف (الزوج أو الزوجة) في الطرف الآخر شخصية متطورة (يعتبر الطرف الآخر كياناً له ذاته) [٣٢] وهنا فإن

أفضل طريق لتحرر المرأة هو اعترافها بأخطائها والتحقّق من أن حريتها تعتمد على تثقيف عقلها وسلوكها.

وراحت المؤلفة في كتابها تعدّد أخطاء النساء في زمانها: نزوعها إلى الضعف والجبن مما يغذي دعوى الرجل في التفوق والسيطرة ويُسعده، وإدمان لعب الورق والثرثرة والقيل والقال والتنجيم والتأثر العاطفي والتفاهة والاهتمام الزائد بالملبس والغرور.

« الطبيعة والموسيقا والشعر والكياسة، كل ذلك يميل إلى جعل النساء مخلوقات للإحساس.. وهذا الإحساس أو الشعور إذا ما زاد عن حده أضعف - بشكل طبيعي - قوى النفس الأخرى ومنع الفكر من الوصول إلى المرتبة التي يجب أن يشغلها... لأن التدرّب على الفهم والاستيعاب - كما تشير لنا الحياة - هو الطريق الوحيد الذي قدّمته لنا الطبيعة لتهدئة عواطفنا وانفعالاتنا ورغباتنا الجنسية »[٣٣].

وقد شعرت ماري أن كل هذه الأخطاء تقريباً راجعة إلى عدم المساواة مع الرجل في التعليم، وإلى نجاح الرجل في اقناعها « بأن أفضل إمبراطورية لها وأحلاها هي أن تُمتع »[٣٤] (كما قالت لهن إحدى المؤلفات).

لقد امتعضت ماري من الأناقة المتكلّفة ومن التصنّع وراحت تنظر بحسد إلى النسوة الفرنسيات اللائي أصررن على تحصيل العلم واللائي تعلَّمن كيف يكتبن خطابات تعد من أجمل ما أنتجه العقل الفرنسي. « في فرنسا تنتشر المعرفة أكثر من أي جزء آخر من العالم الأوروبي، وأنا أعزو ذلك في جانب منه إلى العلاقات بين الجنسين على المستوى الاجتماعي، تلك العلاقات التي كانت مستمرة منذ فترة طويلة »[٣٥]. لقد لاحظت ماري ولستونكرافت قبل بلزاك بجيل أنَّ:

« الفرنسي الذي يحكّم عقله في أمور الجمال أكثر من غيره، يفضل المرأة في الثلاثين من عمرها.. والفرنسيون يسمحون للنساء أن يكنّ في أكمل أوضاعهن عندما تتنازل الحيويّة لتعطي مكانها للعقل ولجدية الشخصية الدالة على النضوج... وفي مرحلة الشباب - حتى العشرين - يقذف الجسم خارج نفسه، وحتى الثلاثين تحقق الصلابة درجة من الكثافة، وتصبح عضلات الوجه المرنة يوما بعد يوم أكثر حدّة فتعطي شخصية للملامح - هذا يعني

أنها تعبر عما يعتمل في النفس، فلا تخبرنا فقط عن القوى الكامنة فيها وإنما كيف يتم توظيفها »[٣٦] .

لقد اعتقدت ماري أن أخطاء النساء راجعة كلها – تقريبا – إلى إنكار حق المرأة في تعليم مساوٍ لتعليم الرجل، وإلى نجاح الرجل في اقناع المرأة بأنها لُعبة جنسية قبل الزواج وحِلية للزينة وخادمة مطيعة وآلة للإنجاب بعد الزواج. ولكي نُعطي الجنسين فرصاً متساوية لتنمية عقولهم وأجسادهم لا بُد أن يتعلم الأولاد والبنات معاً (حتى مرحلة الإعداد للوظيفة أو المهنة) وأن يتلقوا المناهج الدراسية نفسها، بل وأن يشتركوا في الألعاب الرياضية نفسها، في حالة إمكانية ذلك. ولابد أن تجعل كل امرأة من نفسها إنسانة قوية البدن وذات كفاءة عقلية لتتمكن من كسب عيشها بنفسها عند الضرورة[٣٧] . وعلى أية حال فعاجلاً أو آجلاً ستلعب الوظائف البيولوجية والفروق الفسيولوجية بين الجنسين دورها[٣٨] . إن قيام المرأة بدورها كأم مفيد لصحتها، وقد يؤدي ما ذكرنا آنفاً إلى أن تصبح الأسر أقل عدداً وأقوى صحّة[٣٩] . إن تحرير المرأة بشكل مثالي يعني اتحاداً – على قدم المساواة – بين أم متعلمة وزوج متعلم[٤٠] .

وبعد أن رأت المؤلفة الشابة اللامعة كتابها في المطبعة عبرت القنال الإنجليزي إلى فرنسا، وقد كانت مفتونة بالسنوات الخلاقة التي عاشتها الثورة الفرنسية، لكنها الآن – أي الثورة – قد تردّت في المذابح والإرهاب. وأحبّت في باريس أمريكياً هو القبطان جيلبرت إملي Imlay ووافقت على الحياة معه دون ارتباط رسمي. وبعد أن أصبحت حُبلى غاب عنها إملي لعدّة شهور منشغلاً بأعماله أو أية أمور أخرى، فكتبت له خطابات تتوسّل فيها له أن يعود وكانت خطاباتها بليغة لكنها كانت بغير جدوى تماماً كخطابات جولي دي ليبيناس Lespinasse قبلها بجيل[٤١] . وفي سنة ١٧٩٤ حملت طفلها الذي بغير أب، وعرض إملي أن يُرسل لها مبلغاً سنوياً لكنها رفضت وعادت إلى إنجلترا (١٧٩٥) وحاولت إغراق نفسها في نهر التيمز لكن بعض المراكبية أنقذوها.

وبعد ذلك بعام قابلت وليم جودون Godwin الذي تزوجها على وفق القانون العام (دون حضور رجل دين)، ولم يكن أي منهما يؤمن بحق الدولة في تنظيم الزواج. وعلى أية حال

فقد عقدا قرانهما على وفق الطقوس الدينية في ٢٩ مارس ١٧٩٧ تحسبا لطفلهما المرتقب. وتألقت – لفترة – بين الجماعة الثورية التي تحلّقت حول الناشر جوزيف جونسون وهم: جودون، وتوماس هولكروفت، وتوم بين، ووليم وردزورث، ووليم بليك Blake (الذي رسم رسوماً لبعض كتاباتها) وفي ٣٠ أغسطس ١٧٩٧ وضعت طفلة بعد معاناة شديدة، وبعد ذلك بسنوات عشر ماتت.

٥/٣ الأخلاق الاجتماعية

وعلى العموم فإن كل طبقات إنجلترا في هذه الفترة قد أسهمت في التفسخ الخلقي الذي عمّ البلاد، رغم ما أوردناه آنفاً عن حياة أشخاص عاشوا حياة مستقيمة ومحتشمة أهملها التاريخ. لقد كانت المقامرة شائعة تماماً، بل إن الحكومة نفسها (حتى سنة ١٨٢٦) أسهمت فيها بإصدار اللوترية الوطنية (اليانصيب الوطني) وكان الإغراق في شرب الخمور أمراً متوطّناً كوسيلة للهروب من الضباب البارد والأمطار والفقر المُدقع والنزاعات الأسرية والتوترات السياسية واليأس الفلسفي (المقصود تبرير الواقع على نحو يائس) وقد اتفق بِت Pitt وفوكس – رغم ما بينهما من فروق – على تشجيع هذا السُّكر (المهدئ أو المخدر) كعامل مسكّن. وسُمِح للحانات أن تبقى مفتوحة في مساء السبت وحتى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الأحد (٤٢). لأن يوم السبت هو يوم استلام الأجور وبذلك يُتاح للحانات أن تكون أول من يحصل على نصيبها من هذه الأجور الأسبوعية، وكان أفراد الطبقة الوسطى يشربون باعتدال، أما أفراد الطبقات العليا فيسرفون في الشراب لكن كان عليهم أن يتعلموا حمل مُسْكرهم بثبات كحوض يرشَح بما فيه.

وكان الانغماس في الشراب يُتيح الفساد والرشوة في كل مستوى من مستويات الحكم. وفي حالات كثيرة – كما لاحظنا آنفاً – كانت الأصوات الانتخابية وعضوية المجالس المحلية والتعيينات والوظائف – وفي بعض الأحيان رُتب النبالة – تُشترى وتُباع علناً كما تباع الأسهم والسندات في سوق الأوراق المالية. ولم يكن جورج الثالث – وكانت فضائله متأصّلة – لا يرى بأساً في تخصيص أموال للحصول على أصوات الناخبين لأعضاء البرلمان أو

توزيع الوظائف طلباً للدعم السياسي. وفي سنة ١٨٠٩ كان ستة وسبعون عضواً في البرلمان يشغلون وظائف عاطلة «مجموعة قليلة من المقربين الأثيرين بحكم القرابة أو المصلحة التي تربطهم بالأثرياء وذوي النفوذ – تتلقى رواتب ضخمة دون عمل يؤدّونه بينما الذين يعملون بالفعل يتلقون في حالات كثيرة رواتب أقل مما يستحقون» (٤٣) وكان القضاةُ يبيعون المراكز التابعة (الملحقة) لزمام مناطقهم القضائية وينتزعون من شاغليها حصّة من الرسوم التي يدفعها الناس لقضاء مصالحهم لدى الجهات الرسمية.

والحكومة قد تكون قاسية، كما قد تكون فاسدة قابلة للرشوة. لقد ذكرنا قسوة تشريعاتها العقابية. لقد كان إلقاء القبض على عابري السبيل لتجنيدهم إجبارياً في البحرية مقدمة لدفع رواتب متدنية وتقديم طعام سيئ لهم، وضبطهم بقسوة وصرامة لا ترحم» (٤٤) وفي عدة مناسبات تمرّدت طواقم السفن، وأدّى أحد هذه الإضرابات إلى تعويق ميناء لندن طوال شهر. ومع هذا كان البحارة الإنجليز هم أفضل رجال بحر وأفضل مقاتلين في الأساطيل عرفهم التاريخ.

وكان هناك سعي وجهود كثيرة للإصلاح الأخلاقي، ففي سنة ١٧٨٧ أصدر جورج الثالث إدانة لكسر أحكام السبت، والتجديف على الله، والسُّكر، والأدب الفاحش، ووسائل الترفيه اللاأخلاقية، ولم يسجّل التاريخ أثراً لهذه الإدانة. وقد دلّنا جيرمي بنثام Bentham «التعاليم الإصلاحية البرلمانية Parliamentary Reform Catechism» (١٨٠٩) على اثنتي عشرة وسيلة لكشف الفساد السياسي وعدم الكفاءة السياسية. وكان لعظات الميتوديين، (طائفة دينية بروتستنطية) والإنجيليين (طائفة دينية بروتستنطية) بعض الأثر، وتضاعف تأثيرها عندما أثارت الثورة الفرنسية المخاوف، فقد أكد هؤلاء الدعاة أن أمة منضبطة أخلاقيا يمكنها أن تواجه بنجاح غزواً فرنسياً أو ثورة داخلية. وحاربت جمعية القضاء على الرذائل ضد المبارزة والمواخير وبيوت الدعارة والكتابات الداعرة (الأدب الإباحي). وهاجم إصلاحيون آخرون تشغيل الأطفال، واستخدامهم في تنظيف المداخن وقسوة أحوال السجون، ووحشية القوانين العقابية. وقد كان لموجة الاتجاه الإنساني (الحركة الإنسانية) التي انبثقت في جانب منها من ناحية، ومن حركة التنوير من ناحية أخرى أثر

في نشر الأعمال التطوعية والخيرية والميل للإحسان وعمل الخير.

وكان وليم ولبرفورس أكثر المصلحين الإنجليز دأباً. لقد ولد في هَلْ Hull (١٧٥٩) في أسرة ثرية تعمل في التجارة وتمتلك الضياع، وكان زميلاً لوليم بِت Pitt في كامبردج، ولم يجد صعوبة تُذكر ليحرز النجاح في انتخابات أوصلته للبرلمان (١٧٧٤) بعد عام من تبوُّؤ وليم بِتْ منصب رئيس الوزراء. وعندما شعر بتأثير الحركة الإنجيلية Evangelical ساعد في تأسيس جمعية إصلاح عادات الشعب وأسلوب حياته (١٧٨٧). والأهم من كل هذا أنه عارض أن تتسامح أمة تعتنق الديانة المسيحية رسمياً مع التجارة في الرقيق الإفريقي (تجارة العبيد).

وكانت إنجلترا الآن (في ذلك الوقت) رائدة في هذا المجال. وفي سنة ١٧٩٠ نقلت السفن البريطانية ٣٨,٠٠٠ عبد إلى أمريكا ونقلت السفن الفرنسية ٢٠,٠٠٠ والبرتغالية ١٠,٠٠٠ والهولندية ٤٠,٠٠٠ والدنماركية ٢٠٠٠. لقد أسهمت كل أمة أوروبية في هذه التجارة على وفق قدراتها، تلك التجارة التي ربما كانت أفظع الأفعال إجرامية في التاريخ. ومن ليفربول Liverpool وبريستول Bristol حملت السفن الخمور والأسلحة النارية والمنسوجات القطنية والأشياء التافهة إلى « ساحل العبيد » في إفريقية. وهناك – أي في إفريقية – غالباً ما كان الزعماء من أهل إفريقية يساعدون « الزعماء » المسيحيين في تسلّم عبيد أو زنوج Negros مقابل ما جلبوه من بضاعة، ويتم نقل هؤلاء العبيد (الزنوج) بعد ذلك إلى جزر الهند الغربية والمستعمرات الجنوبية في أمريكا الشمالية. وكان هؤلاء الأسرى (العبيد من الزنوج) يوضعون في جوف السفينة وفي أحيان كثيرة كانوا يُقيّدون بالسلاسل لمنعهم من التمرد أو الانتحار. وكانوا يُزوّدون بالماء والطعام بالقدر الذي يكفي – بالكاد – لإبقائهم على قيد الحياة، وكانت التهوية بائسة كما كانت وسائل التخلص من الإفرازات والفضلات في حدها الأدنى، وإذا ما هبت عاصفة شديدة وكان لابد من تخفيف حمولة السفينة تم – أحياناً – إلقاء العبيد المرضى في عُرض البحر لتخفيف الحمولة، وفي بعض الأحيان كان يتم إلقاء غير المرضى أيضاً. فمن بين عشرين مليون زنجي كانوا يُنقلون إلى جزر الهند الغربية البريطانية لم يصل منهم على قيد الحياة سوى ٢٠٪ [٤٥] وفي رحلة العودة

كانت السفن تحمل دِبْس السكّر (المولاس) الذي كان يستقطر في بريطانيا لصنع الرُّم (نوع من الخمور) الذي كان يستخدم بدوره كثمن لشراء العبيد في الرحلة التالية (إلى إفريقية) .

وكان الكوكر (صحاب مذهب ديني منشق) هم أصحاب الريادة في القارتين في مهاجمة هذه التجارة باعتبارها الخطوة الأولى لإلغاء الرق . وانضم ما لاحصر لهم من الكتاب الإنجليز لمحاربة هذه التجارة : جون لوك، إسكندر بوب، جيمس طومسون، ريتشارد سافاج Savage ، وليم كوبر، ولا ننس أن السيدة أفرا بيهن Behn قد قدمت لنا في روايتها أورونوكو Oroonoko (١٦٧٨) وصفاً للأحوال في جرز الهند الغربية يثير التقزز . وفي سنة ١٧٧٢ استصدر جرانفل شارب (من الكوكر – جماعة دينية) من إيرل مانسفيلد رئيس مجلس الملكة مرسوماً بمنع استيراد العبيد في بريطانيا، وكل عبد يصبح حراً بمجرد أن تطأ قدمه أرض بريطانيا . وفي سنة ١٨٧٦ نشر توماس كلاركسون (وهو أيضاً من جماعة الكوكر) مبحثاً بعنوان (مقال عن الرق والتجارة في البشر) قدم فيه خلاصة مؤثرة لنتائج الرق والتجارة في العبيد، تكاد تكون حصاد عُمر بأكمله . وفي سنة ١٧٨٧ كوّن كل من كلاركسون شارب، ويلبر فورس، جوزياه ودجوود، زاكاري Zachary ماكولاي (والد المؤرّخ) جمعية منع تجارة الرق . وفي سنة ١٧٨٩ قدَّم ويلبر فورس إلى مجلس العموم مشروع قانون لإنهاء هذا الشر . ولم يحصل المشروع على الأصوات المطلوبة بسبب أموال التجار، وفي سنة ١٧٩٢ دافع بِت في واحد من أعظم خطبه عن إجراء مماثل (منع تجارة الرقيق) لكنه أيضاً لم يُوفق في تحقيق غرضه . وحاول ويلبر فورس مرات أخرى في سنة ١٧٩٨ و ١٨٠٢ و ١٨٠٤ و ١٨٠٥ لكنه مُني بالفشل في محاولاته تلك . وبقي على شارلز جيمس فوكس في فترة وزارته القصيرة (١٨٠٦ / ١٨٠٧) أن يضغط على هذا الأمر حتى حقّق النصر، إذ استسلم البرلمان ومنع التجار البريطانيين من أي مشاركة في تجارة الرقيق . وكان ويلبرفورس « والقدّيسون » الذي ساندوه يعلمون أن هذا النصر الذي حققوه ليس سوى البداية، فواصلوا نضالهم لتحرير (عِتق) كل الرقيق على الأرض البريطانية . ومات ويلبرفورس في سنة ١٨٣٣ وبعد موته بشهر جرى منع الرق في كل البلاد الخاضعة للحكم البريطاني، وكان هذا في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٣٣ .

٦- العادات وأسلوب الحياة

من بين أكثر الأحداث إثارة في سنة ١٧٩٧ ظهور القبعة الحريرية العالية Silktophat لأول مرة، ويظهر أن خردواتياً لندنياً وضعها فوق رأسه زاعماً أن الحق الفطري (الموروث) للرجل الإنجليزي أن يكون متفرداً، وتجمهر الناس حوله وقيل إن بعض السنوة بُهِتْنَ لهذا المنظر المُرعب alarming sight ، لكن لم يكن هناك ما هو منافٍ للعقل يمنع مصمّمي الأزياء النسائية والخردواتية haberdashers من تعميم هذه التقليعة (المودة)، فسرعان ما وضع الذكور من أبناء الطبقات العليا هذه القبعات الحريرية فوق رؤوسهم.

واختفت السيوف الموضوعة على سنام تصفيفة الشعر وعلى الشعر المستعار. وحلق الناس لحاهم، وترك معظم الذكور شعرهم ينمو حتى الكتفين، لكن بعض الشباب عبروا عن تحديهم وفرديتهم بقص شعورهم[٤٦] وكسبت « السراويل » (البنطلونات) المعركة على سيقان الرجال، فبحلول سنة ١٧٨٥ كان « السروال » (البنطلون) يصل إلى منتصف بطّة الساق (الربَلة)، وبحلول عام ١٧٩٣ وصل إلى الكعب (رسغ القدم)، وحل رباط الحذاء محل الحِلية المعدنية، وبذا بدأت (أربطة الأحذية) دورها في مضايقة لابسي الأحذية وإزعاجهم. وكانت المعاطف طويلة خالية من التطريز والزخارف، لكن الصدرة « الصدار » كانت موضع اهتمام إذ كان الواحد منهم يُنفق عليها كثيراً من دخله ويتفنّن في تطريزها. لقد أدّى التنافس بين النبلاء وأعضاء مجلس العموم إلى ظهور « المتأنقين bucks » (المعنى الحرفي ذكر الوَعل أو الظبي، والمعنى لا يتضح تماما هنا إلا باللهجات العربية العامية إنه كاشخ أو كشخة كما يُقال عادة في دول الخليج، أو إنه كالهامور وما إلى ذلك، وفي مصر عادة يقولون نافش ريشه أو محلفط. . . إلخ) وظهور المنمقين أو الذين يلبسون ملابس تروق للنساء « beau ». لقد كان جورج بريان برومل Brummel (١٧٧٨ ـ ١٨٤٠) متأنقا (beau) معروفاً بشدة التأنق وتزيين نفسه فقد كان يقضي نصف النهار في ارتداء ملابسه وخلعها. وفي أتون Aton حيث كان الطلبة يسمونه « بَكْ duck » وأصبح صديقاً حميماً لأمير ويلز الذي شعر أن التأنق في الملبس هو نصف فنّ الحُكم. ولأن برومل كان قد ورث ثلاثين ألف جنيه فقد استأجر حائكاً لكل جزء من بدنه وجعل من نفسه « حكماً للأناقة » بين رجال لندن، وكان حسن الفكاهة رقيقاً،

وكان يهتم بنفسه ورباط عنقه اهتماماً شديداً، لكنه كان يحب المغامرة ربما أكثر من التأنق فركبته الديون وفرّ عبر القنال الإنجليزي تخلّصا من دائنيه وعاش عشرين سنة في فقر مُدقع وملابس رثة ومات في الثانية والستين من عمره في مصحة فرنسية للمجانين.

وتخلّت النساء عن الطوق الموسِّع (بتشديد السين وكسرها / وهو طوق من مادة لَدنة لتوسيع أطراف التنورة أو الجيبة وتستخدم النسوة في بعض البلاد العربية الكلمة الأجنبية الدالة عليه: الهوب hoop ويجمعنه على هوبات)(*) لكنهن أبقين المشدات (الكورسيهات، والمفرد كورسيه) لصدورهن، ليبدو ثديا المرأة ممتلئين متوازنين(**) وكان خط الوسط في الفساتين مرفوعاً إلى أعلى (أي أعلى من مستوى الخصر) وثمة ديكولتيه (تقويرة واسعة قد تشمل الصدر والظهر والكتفين) تكشف ما فوق خط الوسط، وخلال فترة الوصاية على العرش (١٨١١ – ١٨٢٠) تغيرت أساليب اللباس (المودة) تغيراً شديداً، فاختفت المشدّات (الكورسيهات) ولم يَعُدن يستخدمن التنورات (الجيبات)، واستُخدمت العباءات الشفافة بما يكفي للإيحاء بخطوط الفخذين والساقين أو بتعبير آخر أصبحت العباءات النسائية شفافة وصّافة، وكان من رأي بايرون أن هذا الأسلوب في اللباس يقلل من فتنة النساء وراح يشكو – على غير عادته – مدافعاً عن الأخلاق:

– لقد ضلّت نساؤنا السبيل كأمنّا حواء

– فهن عرايا

– لكنهن غير خَجِلات من عُرْيهن

ومع هذا فقد كان هناك اعتدال في اللباس أكثر منه في تناول الطعام. لقد كانت الوجبات هائلة، لأن المناخ كان يحثّ على تناول اللحوم ذات الدهن طلباً للدفء وليس نَهَما تماماً وإن كان النَّهم أيضاً سبباً وارداً. وكان الفقراء يتناولون في الأساس خبزاً وجبناً ويشربون شاياً أو مزرا (نوع من الجعة)، أما الطبقات ذوات المال فكانت الوجبة الرئيسية

(*) ما بين القوسين توضيح من المترجم.

(**) مصطلح (الكورسية) يستخدم في بعض البلاد العربية للدلالة على ما يَشُد الردف أو المؤخرة للهدف نفسه وهو أن تبدو متوازنة ممتلئة. (المترجم).

عندها تمتد أحياناً من الساعة التاسعة الى منتصف الليل، وكان يكن أن تمر بمراحل مختلفة: حساء، سمك، دجاج أو غيره من الطيور، لحوم، لحم غزال أو غيره من لحوم الطرائد، حلوى أو فاكهة، ونبيذ معدّل حسب الرغبة. وبعد تناول الحلوى أو الفاكهة تفارق النسوة المائدة حتى يتناقش الرجال بحرية في أمور السياسة والخيل والنساء. وكانت مدام دي ستيل de Stael تعترض على هذا الفصل بين الرجال والنساء بعد تناول الحلوى أو الفاكهة لأن هذا يزيل الباعث إلى الاحتشام وإلى العادات والتصرفات المهذبة، كما أنه يُقلل من سعادة الجماعة. ولم تكن آداب المائدة (الإتيكيت) في إنجلترا بالأناقة نفسها التي هي عليها في فرنسا.

وكانت العادات بشكل عام حميمة وخالية من التصنع (مباشرة) وكان الحديث يُتَبَّل بكلمات لا تتناول الذات الإلهية بوقار (كلمات ذات طابع تجديفي). لقد اشتكى رئيس أساقفة كانتربري قائلا «إن الكلمات المنطوية على التجديف تزداد يوماً بعد يوم بسرعة»[٤٧] وكان التلاكم Fisticuffs منتشرا بين الطبقات الدنيا، وكانت الملاكمة boxing رياضة أثيرة، وكانت الملاكمة بقصد الحصول على جائزة (الملاكمة التكسبية) تجذب المنظمين الطامعين من كل الطبقات. ولقد وصلنا وصف مكثف معاصر لهذه المباريات من روبرت سوثي Southey (١٨٠٧):

«عندما يتم الإعداد لمباراة بين اثنين كل منهما يبغي الحصول على الجائزة سرعان ما تصل الأخبار للناس عن طريق الصحف، فتظهر فقرات فيها في مناسبات مختلفة متناولة المتنافسين وكيف يتدربون، وما هي التمارين التي يقومون بها، وكيف أن أحدهم يتناول اللحم النيئ استعداداً للمباراة. وفي هذه الأثناء يختار الهواة والمقامرون أحد الطرفين لينحازوا إليه أو يقامروا على فوزه أو إخفاقه، وتظهر المراهنات في الصحف أيضاً، وفي حالات غير قليلة ينخرط الجميع في المراهنات حتى إن عدداً قليلاً من المحتالين الأوغاد قد يخدعون أعداداً كبيرة من الأغبياء»[٤٨].

ويتجمع جمهور غفير يصل أحياناً إلى عشرين ألفاً وكأن هذا التجمع ولهذا الغرض بديلٌ عن الثورة والتمرد (أو بتعبير أدق تسامٍ بهذه الرغبة) وقد أوصى اللورد ألثورب

Althorp بممارسة الألعاب الرياضية للتسامي بالغرائز العدوانية السائدة بين الناس، لكن منظمي هذه المباريات يعتبرونها تطهيراً لجيوب المرتادين (أي وسيلة لتجريد الناس من أموالهم).

أما الأفقرون حالاً فيبحثون عن التنفيس عن مكنونات صدورهم بتقييد ثور أو دُب، ثم يظلون يزعجونه بالعصي ويغرون به الكلاب، وأحياناً يظل هذا طوال ثلاثة أيام حتى تأتي لحظة الرحمة فيقتلون ضحيتهم أو يرسلونها إلى دار الذبح (أو القتل / المسلخ أو السلخانة)[٤٩]، واستمرت مباريات صراع الديوك حتى مُنعت في سنة ١٨٢٢. أما الكريكت Cricket الذي عرفته إنجلترا منذ سنة ١٥٥٠ فقد جرى تقنين قواعده في القرن الثامن عشر، وكانت مبارياته في إنجلترا هي الأكثر إثارة إذ كان يحضرها عدد غفير، وتكون المراهنات على أشدها، ويكون مشجعو كلٍ في حالة سعار. وكان سباق الخيول يمثل ميداناً آخر للمقامرة لكنه أيضاً كان يُحيي العشق القديم للخيول والاهتمام اللذيد بتدريبها ومتابعة سلالاتها. أما الصيد فكان رياضة تمثل ذروة المتعة إذ يركب الصيادون في عربات أنيقة، وتطير العظاءات Swifts محلقة فوق الحقول ويعبر الصيادون المحاصيل والقنوات المائية والأسوجة (جمع سياج) فوق ظهور الخيول التي تبدو عليها – بعد الكلاب – السعادة بهذه المهمة.

وكان لكل طبقة مناسباتها التي يتجمع فيها أفرادها بدءاً من المقاهي – حيث يجتمع البسطاء لشرب البيرة (الجعة) وتدخين البايب (الغليون) وقراءة الصحف والحديث في السياسة والفلسفة – حتى الأجنحة الملكية الفخمة Royal Pavilion (البافليون الملكي) في بريتون Brighton حيث يشترك الأثرياء في مهرجانات «غالباً ما كانت باعثة على المسرّة في الشتاء والصيف على سواء»[٥٠] وعندما يتجمع الناس في منازلهم يلعبون «الورق» أو غيره من الألعاب المناسبة أو يستمعون للموسيقا أو يرقصون، وقد وصلت رقصة الفالس Walz قادمة من ألمانيا واسمها مشتق من الفعل الألماني Walzen بمعنى يدور، وقد علم المتمسكون بالأخلاق على انتشارها بوصفها بأنها «ألفة» أو مودّة» آثمة (المعنى يكاد يكون: لقاء جنسياً آثماً Sinful intimacy)، وقد شكى كولردج عن قناعة في سنة ١٧٩٨ «لقد

أزعجوني بدعوتي للرقص في كل حفلة رقص ليلية، وقد رفضت بتواضع. إنهم يرقصون رقصة شائنة تسمى الفالس Waltzen . ربما بلغ عددهم عشرين راقصاً وعشرين راقصة – لقد كان كل راقص يحتضن مراقصته وهي أيضاً تحتضنه، فتتلامس الأذرع والخصور والركب يلف بها وتلف به، وهكذا دواليك.. على موسيقا داعرة»[٥١].

وكان أفراد الطبقات العليا يستطيعون إقامة حفلات راقصة أو حفلات من أي نوع كانت في واحدة من النوادي الأنيقة: ألماك Almack، والهويت White والبروك Brook وهناك أيضاً يمكنهم المقامرة على مبالغ ضخمة ومناقشة آخر إنجازات السيدة سيدون Siddons وحفلات سمر الأمير وروايات جين أوستن ونقوش بليك Blake وأعمال تيرنر Turner وصور كونستابل. وكانت ذروة اللقاءات الاجتماعية عند الهويج (الأحرار) تتمثل في دار هولاند Holland House حيث كانت الليدي هولاند تعقد اجتماعات مسائية كان يمكن للمرء أن يلتقي فيها بذوي المكانة مثل اللورد بروهام Brougham أو فيليب دوق أورليان، أو تاليران، أو ميترنيخ، أو جرتان Grattan أو مدام دي ستيل أو بايرون أو توماس مور، أو أكثر من الهويج (الأحرار) نبالة – شارلز جيمس فوكس[٥٢]. ولم يكن في فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر صالوناً يضارع صالون هولاند.

٧- المسرح الإنجليزي

أضف إلى كل هذه الحياة المتعددة الأوجه، عشق الإنجليز للمسرح ولا يزالون مولعين به حتى اليوم. وكان الوضع كما هو عليه الآن حيث كان الناس ينظرون للمسرحية من خلال ممثليها ولا يعبأون كثيرا بمؤلفي هذه المسرحيات. ويبدو أن المؤلفين المسرحيين خشوا أن يكتبوا التراجيديات مخافة أن يبدوا قليلي الشأن في نظر الناس الذين سيعقدون بينهم وبين شيكسبير مقارنة لن تكون في صالحهم، وبعد ذروة شريدان Sheridan وجولد سمث Goldsmith كانت الكوميديات (الملهاة) تمثل أعمالاً لا بقاء لها مثل (الطريق إلى رون Ruin) (١٧٩٢) التي ألفها توماس هولكروفت Holcroft و (تعاهد العشاق) (١٧٩٨) التي ألفتها إليزابث إنشبالد Inchbald، فمثل تلك الأعمال تشبثت بالاتجاه الضعيف ولعبت

على أوتار سهولة الانقياد إلى الإثم مداعبة بذلك الطبقة الوسطى، وأين هذا من فكاهة شكسبير المنطوية على معان فلسفية، والأثر الرجولي الذي تحدثه مسرحيات بن جونسون في المشاهدين؟ ولم يبق في عالم المسرح من ظل متبوئاً مكانه سوى الممثلين.

لقد بدا الممثلون – من النظرة الأولى – وكأنهم جميعاً من أسرة (واحدة) من روجر كمبل Roger Kemble الذي توفي في سنة ١٨٠٢ إلى هنري كمبل الذي توفي سنة ١٩٠٧، وروجر كمبل أنجب سارة كمبل (التي أصبحت مدام سيدونز Siddons) وجون فيليب كمبل الذي انضم لفرقة دروري لين Drury Lane وفي سنة ١٧٨٣ وأصبح مديراً للفرقة في سنة ١٧٨٨، وستيفن كمبل الذي أدار مسرح أدنبرة من سنة ١٧٩٢ إلى سنة ١٨٠٠.

وُلدت سارة في سنة ١٧٥٥ في فندق شولدر أف متون في بريكون Brecon، وفي ويلز في أثناء جولة فرقة أبيها. وأُسند إليها دور بمجرد أن أصبحت قادرة على التمثيل، وأصبحت ممثلة موسمية وهي في العاشرة من عمرها. وقد دبرت أمرها لتحصل على قسط غير قليل من التعليم في أثناء حياتها غير المستقرة هذه، فأصبحت امرأة ذات نضج أنثوي، وذات عقل واع مثقف، واحتفظت بجاذبيتها دوما، وتزوجت وهي في الثامنة عشر من عمرها وليم سيدونز Siddons أصغر أعضاء فرقتها. وبعد ذلك بعامين أرسل جارك Garrick – بعد أن سمع بنجاحاتها – وكيلا عنه لمراقبة أدائها التمثيلي، فكتب تقريرا لصالحها فعرض عليها جارك الارتباط بفرقة دروري لين Drury Lane فظهرت هناك في دور بورتيا Portia في ٢٩ ديسمبر ١٧٧٥. ولم تؤد الدور جيدا لسببين أحدهما عصبيتها وربما كان ثانيهما أنها كانت قد وضعت مولوداً منذ فترة وجيزة. لقد كانت نحيلة طويلة رزينة ذات ملامح كلاسية وكان صوتها ملائماً للمسارح الصغيرة، إذ كانت تفشل في مواءمة صوتها مع المسارح الواسعة. وبعد موسم غير ناجح عادت إلى جولاتها في المنطقة (المقاطعة) وظلت طوال سبع سنوات تعمل صابرة على الرقي بفنها. وفي سنة ١٧٨٢ حثها شريدان – الذي خلف جارّك كمدير للفرقة – على العودة إلى لندن. وفي ١٠ أكتوبر ١٧٨٢ أخذت دور البطولة في مسرحية (الزواج القدري) لتوماس سوثرن Southerne فأدت دورها بإتقان تام

حتى إنها أصبحت منذ هذه الأمسية تسير بخطى حثيثة لتصبح أفضل ممثلة مأساة (تراجيدية) في التاريخ البريطاني . وظلت طوال واحد وعشرين عاما تحكم دروري لين، وأصبحت لعشر سنوات بعدها ملكة كوفنت جاردن Covent Garden بلا منازع . وأدت دور الليدي مكبث بإتقان صبّت فيه كل خبراتها المسرحية . وعندما اعتزلت خشبة المسرح في ٢٩ يونيو ١٨١٢ وهي في السابعة والخمسين من عمرهابعد أن أدّت هذا الدور (الليدي مكبث) تأثر جمهور المسرح تأثراً شديداً بأدائها لمشهد (السير نائما) حتى أنه فضّل أن يظل يصفق لها على متابعة العرض المسرحي (٥٣) . وظلت طوال تسعة عشر عاماً بعد ذلك تعيش في عزلة هادئة، وقطعت ألسن مروجي الشائعات في المدينة، بوفائها لزوجها . وفاز جينسبورو Gainsborough برسم صورة لها لازالت حتى اليوم في المتحف الوطني للصور الشخصية .

وكان أخوها جون فيليب كمبل الذي وُلد مثلها في إحدى فنادق (خانات) الأقاليم، قد نذر والداه ليكون قساً كاثوليكياً وربما كان هذا (النذر) تمشياً مع الفكر الشعبي الذي مؤداه أن وجود أحد أفراد الأسرة في المؤسسة الدينية قد يضمن الفردوس لسائر أفراد الأسرة، فأرسله والداه إلى دواي Douai ليدرس في كليتها الكاثوليكية فتلقى هناك قدراً طيباً من التعليم الكلاسي كما اكتسب الرزانة والوقار اللذين مازا بعد ذلك كل أدواره تقريباً، وظل مفتوناً في طوايا نفسه بمهنة والده (التمثيل) فغادر وهو في الثامنة عشرة من عمره دواي Douai وعاد إلى إنجلترا . وبعد عودته بعام انضم لفرقة مسرحية، وبحلول عام ١٧٨١ كان يؤدي دور هاملت في دبلن، وانضمت إليه أخته سارة لفترة ثم ألحقته معها في فرقة دروري لين (٥٤) Drury Lane فكان ظهوره للمرة الأولى على هذا المسرح كظهوره في هاملت (١٧٨٣) مصحوباً بنجاح متواضع . لقد وجده جمهور لندن رزينا رزانة شديدة لا تتفق مع الدور وأدانه النقاد لأنه عدّل في نص شكسبير واختصره . وعلى أية حال فإنه عندما انضم إلى مدام سيدونز Siddons في مكبث (١٧٨٥) كان أداؤهما رائعاً حتى إنه أصبح حدثا مهما في تاريخ المسرح الإنجليزي .

وفي سنة ١٧٨٨ عيَّن شريدان – الذين كان في ذلك الوقت هو المالك الرئيسي لمسرح

دروري لين – كمبل مديرا للفرقة، فواصل القيام بأدوار البطولة لكن الممثل الحساس لم يكن مرتاحا بسبب تحكمات شريديان وبسبب قلة العائد المالي. وفي سنة ١٨٠٣ قبل إدارة مسرح كوفنت جاردن واشترى سدس الأسهم في هذا المسرح بمبلغ ٢٣,٠٠٠ جنيه إسترليني، وفي سنة ١٨٠٨ احترق المبنى، وبعد فترة بطالة سببت له خسائر جسيمة أخذ كمبل على عاتقه إدارة المسرح بعد أن يعيد بناءه. ولكنه عندما حاول أن يوازن التكاليف الهائلة غير المتوقعة للمبنى الجديد برفع أسعار دخول المسرح أوقف الجمهور عرضه التالي بصياحهم محتجين «عُد إلى الأسعار القديمة» ولم يسمح له الجمهور بالاستمرار في عروضه حتى يعد بذلك(٥٥). وأنقذ دوق نورثمبر لاند Northumberland الفرقة بمنحة مقدارها ١٠,٠٠٠ جنيه إسترليني وواصل كمبل كفاحه لكن ظهر ممثلون شبان مثلوا تحدياً له. وكان آخر نجاحاته في (كوريولاموس Coriolamus) عندما هز الجمهور المسرح تصفيقاً لفرط إعجابه، وكان هو الجمهور نفسه الذي سبق أن صاح في وجهه محتجاً في سنة ١٨٠٩. واعتزل كمبل المسرح البريطاني مسلّماً تاجه لإدموند كين Kean واختفى الأسلوب الكلاسي في التمثيل من إنجلترا باعتزاله، تماما كما اختفى في فرنسا بانتهاء دور صديقه تالما Talma، وانتصرت الحركة الرومانسية في المسرح كما انتصرت في الرسم والموسيقا والشعر والنثر.

تضم حياة كين Kean بين جنباتها كل التقلبات التي حاقت بمهنته شديدة الحساسية – بما فيها من ملهاة ومأساة. وُلد في حي الفقراء بلندن في سنة ١٧٨٧ نتيجة لقاء في نزهة ليلية بين آرون Aaron (أو إدموند Edmund) كين Kean وهو عامل (فرّاش) في مسرح وآن كاري Ann Carey التي كانت تكسب مالاً قليلاً من المسرح والشارع، وقد طرده أبواه في طفولته الباكرة فرباه عمه موسى كين المغني المشهور، وتولته على نحو خاص خليلة موسى واسمها شارلوت تدسويل Tidswell وهي ممثلة قليلة الشأن في مسرح الدروري لين. لقد دربته على الفن المسرحي والخدع المسرحية، وحثه موسى على دراسة الأدوار الشكسبيرية، فتعلم الفتى يجلب إليه النظارة بدءاً من الأكروبات (الألعاب البهلوانية) وإصدار الأصوات من بطنه (دون تحريك شفتيه) والملاكمة إلى هاملت وماكبث. لكنه كان متمردا في

أعماقه، ففر مراراً، وأخيراً وضعت شارلوت الطوق المقيّد للكلب حول عنقه ونقشت عليه «مسرح دروري لين» (المقصد ضبطته وربطته بهذا المسرح) لكنه نزع الطوق وهو في الخامسة عشرة من عمره، وشرد وراح يعمل ممثلاً بشكل مستقل يؤدي أي دور، مقابل ١٥ شلناً في الأسبوع.

وظل طوال عشر سنين يعيش حياة قلقة غير مستقرة ممثلاً جوالاً، يكاد يكون معدما محترقاً في كل الأوقات، لكنه كان واثقاً تماما من أنه يستطيع ان يبز الجميع على خشبة المسرح. وسرعان ما عكف على الكحول لينسى تعبه وعذابه وليغذي أحلامه وتمنياته بأن يكون نبيل الأصل، وليتصور انتصاراته المرتقبة. وفي سنة ١٨٠٨ تزوج ماري شامبرز زميلته في إحدى الفرق التي كان يعمل بها، فأنجبت له ولدين والتصقت به لم تفارقه في أثناء كل استبعاده لنفسه أمام الويسكي (الخمور) والنساء. وأخيرا بعد سنوات عديدة قضاها وهو يمثل الأدوار الشكسبيرية، ويحاكي الشمبانزي الذكي تلقى دعوة من مسرح دروري لين ليقوم بدور تجريبي (ممثل تحت الاختبار).

وقد اختار دور شيلوك Shylock الصعب ليؤديه في أول صعود له على خشبة الدروري لين في ٢٦ يناير ١٨١٤. لقد صَبّ في هذا الدور بعض الإهانات التي تلقاها في هذه الحياة. فعندما قال شيلوك – باحتقار وسخرية – لتاجر البندقية المسيحي الذي طلب منه قرضاً:

– ألدى الكلب مال؟ محال

– ألخسيس يستطيع أن يقرضك ثلاثة آلاف دوكة؟

لقد بدا أن كين قد تقمّص تماماً شخصية شيلوك ونسي أنه شخص آخر. لقد وضعت العواطف والمشاعر والانفعالات التي صبّها في دوره هذا نهاية للحقبة الكلاسية لفن التمثيل الإنجليزي (مع أن الدور الذي أدّاه كادت كلماته لا تتجاوز السطرين، وهكذا بدأت على مسارح لندن حقبة جديدة في التمثيل قوامها المشاعر والخيال والرومانسية. وبالتدريج راح جمهور المسرح يتفاعل مع هذا الممثل غير المعروف. لقد بدا المتحمسون له في البداية فرادى متشككين، لكن الجمهور سرعان ما تفاعل معه لفرط تفاعله واستغراقه في دوره. وسارع

وليم هازلت Hazlitt أبرع النقاد في عصره بكتابة عرض تحمس فيه كثيرا لهذا الممثل، واندفع كين عائدا إلى أسرته فعانق زوجته قائلا لها: «الآن يا ماري ستركبين مركبتك الأنيقة» وعانق ابنه قائلا: «يا ابني سوف تدرس في إيتون Eton».

وامتلأ المسرح عند عرض مسرحية تاجر البندقية التي كان يؤدي كين فيها دوره للمرة الثانية (في العرض الثاني) وبعد العرض الثالث قدم صامويل (صموئيل) هويتبيرد Whitebeard له عقداً للعمل في هذا المسرح لمدة ثلاث سنوات مقابل ثمانية جنيهات أسبوعياً فوقعه كين، لكن هويتبيرد غيّره بعد التوقيع فجعل الجنيهات الثمانية، عشرين جنيها مع أن كين كان قد وافق على الثمانية. وأتى وقت دُعي فيه كين لأداء دور لليلة واحدة بخمسين جنيها. لقد أدى تقريباً كل الأدوار المشهورة في مسرحيات شكسبير - هاملت، ريتشارد الثالث، ريتشارد الثاني، هنري الخامس، ماكبث، أوثيلو[*] Othello، ياجو Iago، روميو. وقد نجح في كل هذه الأدوار باستثناء الأخير (روميو).

وعندما حان الوقت ليرى الممثلين الشبان ينتظرون بتوق ليحلوا محله، بدّد عوائده المالية في الشراب، وراح يرضي نفسه بما يتلقاه من حب شديد من مرتادي الحانات التي يرتادها وانضم إلى حركة سرية «لإدانة كل اللوردات وذوي المكانة» ونجح في إقامة علاقة آثمة مع زوجة أحد أعضاء المجلس التشريعي بالمدينة(١٨٤٢)[٥٦] وعمل على استعادة مكانته في المسرح، لكن ذاكرته لم تعد قوية كما كانت فَصَعُب عليه حفظ أدواره فقد كان ينسى السطور الموكل به أداؤها. لقد حدث هذا أكثر من مرة. ومع أن الجمهور كان معجباً به إعجاباً شديداً، إلاّ أنه عندما قصَّر لم يرحمه وصبّ عليه الإهانات صباً، وسأله لم يُغرق في الشراب دون اهتمام أو حذر؟ فغادر إنجلترا، وقام برحلة في أمريكا أدى فيها أدواراً تمثيلية فحقق انتصاراً في فنه وكوّن ثروة بدلاً من التي بددها، وبدّد الثروة الجديدة التي حققها، وعاد إلى لندن ووافق على القيام بتمثيل دور أوثيلو Othello أمام ابنه الذي كان عليه القيام بدور ياجو Iago على مسرح كوفنت جاردن Covent Garden (١٨٣٣) وصفق الجمهور لياجو، واستقبلوا أوثيلو صامتين. وكان هذا شديد الوقع على كين الذي لم يلق التصفيق

* ترجمت إلى العربية باسم «عُطيل» - المراجع -.

الكافي، فانهارت قواه وأصبح على شفا الانهيار وبعد أن نطق بعبارة «وداعا، لقد انتهت مهمة أوثيلو» سقط بين ذراعي ابنه وهمس له: «إنني أحتضر يا شارلز تحدّث لهم نيابة عني» [٥٧] فحملوه إلى بيته لترعاه زوجته التي كان قد هجرها ذات مرة، وبعد شهرين مات في ١٥ مايو ١٨٣٣ ولم يتجاوز السادسة والأربعين. لقد اختطف الموت أعظم الممثلين في التاريخ الإنجليزي – باستثناء جارِك – وهو في منتصف العمر.

٨- خلاصة

الحق أن الحياة في إنجلترا كانت ناشطة مثمرة، والحق أيضاً أن الصورة لم تكن خالية من عيوب كثيرة، وهذا أمر طبيعي في الحياة. لقد اختفى صغار ملاك الأراضي من الطبقة الوسطى، وتعرضت البروليتاريا للاستعباد وخرّب القمار بيوتاً ودمّر ثروات، وكانت الحكومة قائمة على الامتيازات الطبقية، وكان هذا أمراً معلناً واضحاً، وكانت قلة قليلة من الرجال هي التي تشرّع لرجال آخرين ولكل النساء، ومع هذا ففي وسط الأخطاء والجرائم، كان العلم يتطوّر، وكانت الفلسفة تترعرع، وكان كونستابل يستوحي مناظر الريف الإنجليزي، وكان تيرنر Turner يقيّد الشمس ويثبّت العاصفة (المقصود يرسمهما) وكان وردزورث وكولردج وبايرون وشيلي يقدمون لإنجلترا مهرجاناً من الشعر لا نظير له في أي مكان منذ إليزابث الأولى. وكان التمرد والاضطراب كقشرة خارجية إذ كان النظام والاستقرار هما العصب الأصيل الذي أتاح كثيرا من الحريات لم تكن متاحة في أي دولة أوروبية أخرى خلا فرنسا التي كان الإفراط في الحرية فيها مؤديا إلى الانتحار. لقد كانت حرية الحركة والانتقال والسفن مكفولة بغير قيود إلا في أوقات الحروب، وكانت حرية العبادة مكفولة فيما عدا التجديف على الله، وكانت حرية الصحافة مكفولة أيضاً فيما عدا الخيانة العظمى، وكانت حرية الرأي مكفولة فيما عدا الدفاع عن الثورة والتمرد فهذا على وفق لكل الشواهد والسوابق سيؤدي إلى عقد أو أكثر من الخطر حيث يختفي الأمن ومن الفوضى حيث يختفي القانون.

ولم يكن الرأى العام راقياً جدا فقد كان يتمسك بالمحاذير taboos البالية وغالبا ما كان

يدافع عن القديم لكن كانت لديه الشجاعة لإطلاق أصوات الازدراء نقداً لأمير منحط، واستحساناً لموقف زوجته التي طردها بقسوة (٥٨)، وعبّر الرأي العام عن نفسه أيضاً في مئات التجمعات والجمعيات التي وقفت نفسها لأغراض التعليم والعلم والفلسفة والإصلاح. وكان الرأي العام يظهر واضحاً في القضايا الحرجة إذ يعبّر الناس عن آرائهم في اجتماعات عامة، ويمارسون حق تقديم العرائض (الاحتجاجات) الذي كفله القانون الإنجليزي، فالإنجليز الصبورون لا يعمدون إلى المقاومة إلاّ كحل أخير إزاء هذه الدولة الأوليجاركية. لقد حدث أكثر من مرة أن قام تمرّد ناجح (حقق غرضه) في شوارع القرى والمدن. لقد كانت الحكومة أرستقراطية ومع ارستقراطيتها فقد كان أقل ما تتصف به هو أنها مهذبة فهذبت العادات وتصدّت للمستحدثات الضارة، وحافظت على الذوق السليم في الآداب والفنون وحمته من البربرية، كما تصدت للخرافات، وأيدت العديد من القضايا الطيبة (الصالحة) ولم تترك شعراءها الكبار نهباً لمجاعة. حقيقة لقد مر بها في بعض الأحيان ملك مجنون، لكن الحكومة كانت تُغل يده، ليظل ملكا محبوبا يمثل رمزاً للوحدة الوطنية ومحورا لكبرياء الأمة وحماسها ولم يجد الإنجليز معنى في قتل مليون شخص لعزل ملك له كل هذه الفائدة كرأس للتشريفات. فبعد انحراف لمرة أو مرتين يعود الإنجليزي إلى طبيعته غير مُصر على أن ماسح الأحذية والبويرن «البارون الصغير» (البارونت) لهما الحقوق نفسها في اقتراح بنود قانون الأراضي. وقد ذكرت مدام دي ستيل أن «الإبداع في إنجلترا مُتاح للأفراد، ومن هناك كان يمكن تنظيم الجموع» (٥٩). إن النظام الهيراركي في إنجلترا – حيث لكل طبقة مكانتها فوق الأخرى – هو الذي سمح بانتشار الحرية.

دعونا الآن نرى كيف تفاعل الفن والعلم والفلسفة، ونظام الحكم حتى تكتمل صورة الحياة في إنجلترا في سنة ١٨٠٠. إننا سنعرض لذلك في الفصول التالية بقدر جهدنا.

الفنون في إنجلترا

١- الفنانون

كانت كلمةُ (فن) تُطلق في العصور الوسطى (أيام نظام الطوائف التجارية والصناعيَّة) على أيِّ حرفة، كما كانت كلمة (فنّان) تطلق على أيٍّ حرفي وقد تغير معنى الكلمتين في القرن الثامن عشر لأن الحرف ونظام الطوائف الحرفية قد حل محلهما صناعات وعمال صناعة، لقد أصبحت كلمة (فن) تطلق على الموسيقا والديكور وأعمال السيراميك (الخزف) والرسم والحفر والتصوير والنحت والعمارة، وأصبحت كلمة فنان تطلق على كل من يمارس واحداً أو أكثر من هذه الأعمال . وقد تغير أيضا معنى كلمة العبقرية أو النبوغ genius ، فقد كانت تعنى شيئا من التميُّز الفطري، أو روحا متفوقة بشكل غير طبيعي، أما الآن فقد أصبحت بشكل متزايد تشير إلى القدرة الوطنية الفائقة أو المتعالية (والمتَّسمة بشيء من الغموض بمعنى أن أسبابها غير واضحةً تماما) أو يوصف بها مالكو هذه المقدرة. إنها كالمعجزة أو لنقل هبة من الله أو هي فعل من أفعاله. لقد أصبحت هذه الكلمة (العبقرية) أو (النبوغ) بديلا مناسبا لوصف (شخص) أو (حدث) متفرّد أو غير عادي

لقد أدَّى الانتقال إلى الصناعة (الحديثة) والتجارة وحياة المدن إلى مزيد من التدهور فيما يتعلق برعاية الأرستقراطية للفن. وعلى أية حال لابدلنا أن نذكر رعاية الأثرياء للشاعر وردزورث والشاعر كولردج، وأن لورد إجر يمونت فتح بيته المحاط بمزرعة، في بتورث Petworth للرسّام تيرنرTurner ليلجأ إليه هروبا من ضوضاء لندن. وكان جورج الثالث قد عاون في تأسيس أكاديميةالفنون الملكية (١٧٦٨) بخمسة آلاف جنيه ومقار (جمع مقر) أنيقة في دار سوميرست. ولم يكن أعضاؤها الأربعون ليصبحوا خالدين بمجرد عضويتهم بها كنظرائهم الفرنسيين وإنما كان الواحد منهم يرقى إلى مرتبة النبالة (الأرستقراطية) بحصوله على لقب اسكوير (معناها الحرفي حامل الدروع Squire أو المبجّل المحترم) ورغم أن هذا اللقب لم يكن يرثه أبناؤهم، فقد ساعد على تحسين الوضع الاجتماعي للفنانين

الكبار في بريطانيا ونظمت الأكاديمية فصولا لتعليم التشريح والرسم والتصوير والنحت والعمارة. ومن الطبيعي أن تصبح قلعةً للتراث والتقاليد والوقار مادام يدعمها عرش محافظ. وقد عارضها الفنانون المجددون الذين كثر عددهم وحازوا الإعجاب حتى إن بعض النبلاء والماليين موّلوهم لتأسيس المعهد البريطاني لتطوير الفنون الجميلة الذي أقام معارض دورية وحصل على جوائز وأصبح منافسا - بشكل حيوي - للأكاديمية الملكية. وأدت هذه النافسة إلى ظهور أعمال ممتازة في مختلف مجالات الفنون في بريطانيا.

عفواً، لقد كانت الموسيقا مستثناةً من هذا، ففي هذه الفترة لم تظهر أعمال موسيقية خالدة. وكان الإنجليز على وعي شديد بهذا النقص، وتجلّى هذا في تقديرهم الوافر للمؤلفين الموسيقيين الذين كانوا يأتون إليهم من القارة الأوروبية. لقد احتفوا بهايدن Haydn احتفاءً حارا في سنة ١٧٩٠ وفي سنة ١٧٩٤. وتمّ تأسيس الجمعية الملكية لعشاق الموسيقا في سنة ١٨١٣ وظلت باقية بعد الثورة الصناعية، والثورة الفرنسية، وبعد النابوليونيْن، وبعد قيام حربين عالميتين، ولازالت موجودة كعنصر دوام واستمرارفي فيض غير متقطع. وانتعشت الفنون الصغرى دون أن يكون لها خصائص خاصة. لقد واصل الإنجليز إنتاجهم للأثاث الأنيق - رغم صرامته، وأشغال المعادن المتسمة بالقوة والجمال وأعمال السيراميك (الخزف) البديعة تماما. وقد طوع بنيامين سمث Smith الحديد فشكل منه شمعدانا ذا شعب لتقدمه مدينة لندن لدوق ولنجتون[١]. أما جون فلاكسمان فبالإضافة إلى قيامه بتصميمات كلاسيّة لمصنع ودجوود Wedgwood للفخار فإنه صمّم كأس الطرف الأغرّ الشهير لتخليد ذكرى انتصار نلسون[٢]، وكان نحّاتا ومعماريا في آن عندما أقام النصب التذكاري لنلسون في كنيسة القديس بول.

وعلى أية حال فإن فن النحت أوشك أن يكون من الفنون الصغرى في إنجلترا، وربما كان هذا لأن فن النحت يفضّل العري غير الملائم للمناخ أو للأخلاق السائدة. وفي سنة ١٨٠١ - بينما كان توماس بروس إيرل إلجن Elgin السابع، مبعوثاً لبريطانيا لدى الباب العالي (الدولة العثمانية) طلب من السلطات التركية (العثمانية) في أثينا السماح له بأن ينقل من الأكروبولس «أية أحجار عليها نقوش قديمة أورسوم»، وقد وجّه طلبه هذا باعتباره

لوردا، وبالفعل نقل اللورد الإفريز الضخم للبارثينون (معبدا إغريقي) وكثيرا من التماثيل النصفية في سفينة إثر سفينة إلى إنجلترا في الفترة من ١٨٠٣ إلى ١٨١٢ . وقد وصفه بايورن وآخرون - احتجاجا على هذا العمل - بأنه وندالي سلاب، لكن لجنة برلمانية برأته، وبيعت « رخامات إلجن » بمبلغ ٣٥,٠٠٠ جنيه إسترليني دفعها الشعب البريطاني وتم إيداعها في المتحف البريطاني « والمبلغ الذي دفعته الحكومة للورد إلجن كان أقل بكثير مما دفعه هو للحصول عليها[٣] » .

٢ - النَّحت:

لقد أسهمت هذه الرخامات (المقصود الأعمال النحتية التي جلبها من اليونان اللورد إلجن والآنف ذكرها) في دعم الاتجاه الكلاسي، في مواجهة الاتجاه القوطي، وأنهى الصراع بينهما لصالح الاتجاه الأول في مضمار الأساليب المعمارية. لقد أدت آلاف الأعمدة - من الطراز الاغريقي : الدوري Doric أو الأيوني Ionic أو الكورنثي - إلى تحدي جهود الهواة مثل والبول Walpole وبكفورد Beckford لإعادة الأقواس المستدقة (التي تنتهي من الجانبين بنقطة واحدة Poited arches) والشرفات أوالأسوار المفرجة (ذات الفرج أسوة بأسوار قلاع العصور الوسطى حيث كانت هذه الفرج تستخدم لإطلاق السهام وغيرها على العدو) . تلك الشرفات والفرج التي كانت عزيزة على فرسان العصور الوسطى وقديسيها . وحتى في المباني المدنيّة (غير الدينية) ربحت الأعمدة الجولة، فدار سومرست للسير وليم شامبرز(١٧٧٥وما بعدها) كانت مثل باراثون واسع، وكان الكثير من بيوت الريف يبدو كالأروقة الإغريقية المعمّدة (ذات الأعمدة) التي تحيط بقصر روماني، ولندع قصر حديقة أشردج Ashridge Parkmansian لجيمس ويات Wyatt (١٨٠٦ - ١٨١٣) يعطينا مثالا راسخا على هذا النوع. وفي سنة ١٧٩٢ بدأ من سيعرف باسم السير جون سون Soane وهو ابن أحد البنائين بالآجر - بدأ في إعادة بناء بنك إنجلترا خلف رواق كورنثي (على النسق الإغريقي الكورنثي) مازجاً بين قوس قستنطين ومعبد الشمس أو القمر. وبدأت المنافسة القوطية بمبني هوراس ولبول Horace Walpole لستروبري هل Strawberry Hill (١٧٤٨ -

١٧٧٣) ولم تستطع (أي هذه المنافسة القوطية) أن تصمد في وجه طوفان الأعمدة والقباب والقواصر (جمع قوصرة وهي مثلث في أعلى واجهة المبنى) . وكان وليم بكفورد W. Beckford هو البطل الرومانسي لهذه النشوة الوسيطة (نشوة العصور الوسطى) لقد ولد ثرياً، فقد شغل أبوه منصب رئيس بلدية لندن لمرتين وتلقى تعليما مكثفا؛ تلقى دراسات في البيانو من الشاب موزارت وتدريبات معمارية على يد سير وليم شامبرز ومدرس التاريخ من خلال جولات واسعة زار خلالها المتاحف والمواقع الأثرية . وفي لوزان اشترى مكتبة إدوارد جيبون Gibbon، وبعد إشاعات جنسية مخزية تزوج الليدي مارجرت جوردون التي ماتت في أثناء الولادة . وفي هذه الأثناء كتب رواية (فاثك Vathek) التي تعد أقوى الروايات التي استوحت أحداثها من أساطير الشرق، والتي كان لها فضل كبير على الحركة الرومانسية وقد نشرت بالإنجليزية والفرنسية (١٧٨٦ - ١٧٨٧) وأثنى عليها اللورد بايرون ثناءً عاطرا . وبدأ في سنة ١٧٩٦ بمعاونة ويات Wyatt وبكفورد في تشييد مبنى على الطراز القوطي (على شكل كنيسة) في مزرعته في ولشير Wilshire، وملأه بالقطع الفنية والكتب وعاش فيها حياة النساك في الفترة من ١٨٠٧ إلى ١٨٢٢ ثم باعها، وتبين أن بالمبنى عيوبا في الأساسات والتصميم أدى إلى انهياره . ومات في باث Bath في سنة ١٨٤٤ وهو في الخامسة والثمانين من عمره . وقد رسم له جون هوبنر Hoppner صورة شخصية أظهر فيها حبّه له (رسمها حوالي سنة ١٨٠٠) . والصورة تنطق بروحه الشاعره وإنسانيته وتأمله الباطني .

وقد أضاف جون ناش Nash إلى العمارة البريطانية المتجهّمة لمسةً من مرح الروكوكو (لمسة من الزخارف ذات الطابع المرح) وأتى ول Well وأعقبه همفري ربتون Repton ليقوم بدور بستاني فصمم القصور والمباني الواقعة في المزارع الريفية واضعاً في اعتباره توزيع الأكواخ والعرائش والزرائب على الطراز الفرنسي والهندي والصيني . وقد أمتعت هذه التصميمات النبلاء الذين كانوا قد برموا بحياتهم، وأفراد الطبقة العليا . وأصبح ناش Nash ثريا ورعاه الأمير السَّخيُّ . وفي سنة ١٨١١ عهد إليه إعادة تشييد ميل من شارع الوصي على العرش (ريجنت ستريت .Regent st بدءا من دار كارلتون ثم في قوس كبير (شامل)

إلى المناطق الريفية. ونوع ناش في خطوط مشروعه مستخدما الأهلة والشرفات جاعلاً مساحات مكشوفة من الحشائش والأشجاربين مجموعات المباني واستخدم الأعمدة ذوات الطرز الأيونية لاضفاء البهجة على قوس الطريق (في وقت لاحق تم تدمير معظم هذا العمل للسماح بمزيد من المباني على حساب الحشائش والأشجار)، لقد كان مشروعا عبقريا في تخطيط المدن لكن تكاليفه صدمت الشعب الذي كان صابراً على الجوع أملاً في إلحاق الهزيمة بنابليون.

ومع هذا فإن الوصي على العرش كان مبتهجاً بعمل ناش فعهد إليه بتجديد الجناح الملكي في بريتون Brighton الذي كان مكاناً أثيرا للأمير وأصدقائه، فأنجز ناش العمل فيما بين عامي ١٨١٥ و ١٨٢٣ بتكلفة بلغت ١٦٠,٠٠٠ جنيه إسترليني لقد أعاد بناء الجناح على الطراز الهندي الإسلامي بمآذن ذات اليمين وأخرى ذات الشمال. ومبان أخرى ذوات قباب وكانت صالة المآدب ذات سقف محدّب وزخارف صينية، وبها ثريات على هيئة اللوتس والتنين، وتكلّفت هذه الصالة ٤,٢٩٠ جنيها إسترلينيا[٤]. وكان الانطباع الأول الذي يأخذه المرء عند رؤيتها هو الفخافة الغريبة، وكان الحكم النهائي عليها أنها عمل مسرف سواء في النفقات أم في الزينات والزخارف.

وفي سنة ١٨٢٠ أصبح الوصي على العرش ملكا. إنه جورج الرابع. وسرعان ما عهد هذا الملك الجديد إلى ناش إعادة بناء دار بكنجهام لتكون قصرا ملكيا. ووسط هذا الفقر والاقتراب من الإفلاس الذي أعقب الانتصار على نابليون، راح ناش يعمل حتى مات الملك المبذّر (١٨٣٠) فاستدعت الحكومة ناش ذلك المعماري الوافر الإنتاج ليوضح لها ما صرفه ويفسّر بعض الأخطاء التي نسبت إليه. قلما كانت إنجلترا في مثل هذا السناء العظيم أو البؤس الشديد.

٣- من الكارتون إلى كونستابل

كان على آلاف الفنانين البريطانيين - طوال عشرين عاما من الحروب - أن يكافحوا لإطعام أسرهم وتحقيق أحلامهم. ولم يكن أسوأهم حالا من حيث العائد المالي والشهرة

رسامو الكاريكاتير الذين ملأوا الصحف برسومهم عن الأحداث الجارية. وكان نابليون هو الموضوع الأثير لدى هؤلاء العباقرة الشياطين. فقد راحوا يهجون كل يوم هذا «الضئيل الحجم ناتئ العظام» أو هذا «الخلاسي المولَّد» كما كانت تسميه صحيفة المورننج بوست[٥] Morning Post ويخزونه لإضعاف جهوده الحربية والحط من كبريائه كإمبراطور. وكان أعظم هؤلاء الرسامين الكاريكاتيريين الذين ظلوا يخزون نابليون وخزا مؤلما هو توماس رولاندسون (١٧٥٦ – ١٨٢٧) الذي ولد لأب تاجر غني مولع بالمضاربة شجعه تشجيعا كبيرا لتنمية مواهبه في الرسم، وبعد أن درس في الأكاديمية الملكيه قيد نفسه في أكاديمية باريس وعاد إلى إنجلترا فحازت رسومه الإعجاب، وفجأة اعتراه الفقر بسبب خسائر أبيه في القمار، وأقيل من عثرته عندما أرسلت له إحدى قريباته (aunt) الفرنسيات ٣٥,٠٠٠ جنيه إسترليني. وكان متحررا في هجاء ما في عصره من سخافات ورياء. لقد رسم كاريكاتيرات عن دوقة تقبل يد جزار طمعاً في صوته الانتخابي، وشخصا سمينا يتلقى خنزيرا كضريبة عشر من فلاح على وشك الموت جوعا، ومجموعة من ضباط البحرية تصطاد البغايا من الشاطئ. وواصل رسم صور مركبة وشاملة: حدائق فوكسهول، مباهج باث Bath، وسلسلة رسوم مرحة صاخبة حققت شهرة على مستوى بريطانيا – رحلات الدكتور سينتاكس Syntax. وأدى غضبه من السياسيين والمهرجين (الصخابين) والأغبياء إلى رسم رسوم كاريكاتيرية فيها مبالغة شديدة، لكنها كانت مبالغة يمكن غفرانها. وكثير من رسومه تحتاج إلى تنقيتها مما فيها من بذاءات، وقد فقد هجاؤه (البحث عن المثالب) كل تعاطف. وإنجازه الفني الأخير ينضح احتقارا للجنس البشري كما لو أن البشرية لم تشهد أما عطوفا ولا رجلاً كريما.

وكانت رسوم جيمس جيلراي Gillray (١٧٥٧ – ١٨١٥) الكاريكاتيرية أكثر شعبية، فكان الناس يتزاحمون على محلات بيع الكتب للحصول على الطبعات الأولى لرسومه[٦]. وقد درس جيمس جيلراي – مثل رولاندسون – في الأكاديمية الملكية وأصبح فناناً مصقولا خصب الخيال وإن كانت خطوطه صارمة. وكاد يضع كل فنه في خدمة الحرب: لقد صور نابليون كقزم وصور جوزفين كامرأة بذيئة، ورسم فوكس وشريديان وهورن توك Tooke

(مؤيّدي الثورة الفرنسية) ينتظرون في نادي لندن حضور الجنرال الثوري المنتصر. وقد انتشرت رسومه الهجائية ذات الأفكار البسيطة والخطوط المصقولة في مختلف أنحاء أوربا وأسهمت في خلع نابليون من فوق عرشه[٧]. وقد مات قبل معركة واترلو بسبعة عشر يوما.

وشهد هذا الجيل كثيرا من الحفارين (النقاشين على الأخشاب أو المعادن) لكن أعمال وليم بليك Blake كانت هي الأكثر خلودا. لقد طور لنفسه طريقة خاصة في الحفر، بل إنه حاول أن يحل الحفر محل الطباعة، بحفر نصوص إلى جوارها رسومها التوضيحة على ألواح نحاسية، لكن قلمه سبق حفره، إذ راح يعبر عن نفسه في خاتمة المطاف بالشعر. وكان متمردا لأنه امتعض من فقره ويرجع هذا إلى كون الأكاديمية رفضت الاعتراف بالحفارين كفنانين ورفضت أن يقدموا أعمالهم في معارضها. ولأنه كان يرفض بشدة وصاياها بضرورة الالتزام بقواعد معينة وبالتقاليد الفنية التي فرضتها. لقد صرح في نحو سنة ١٨٠٨ بأن القضية في إنجلترا ليست مسألة رجل موهوب وعبقري، وإنما لا بد أن يكون خاضعا مشتغلا بالسياسة وثورا قويا ، ومطيعا لأوامر النبلاء فيما ينتجه من فن ، فإن كان كذلك فهو رجل طيب، والإ فعليه أن يموت جوعاً[٨]. وكان بالفعل قد اقترب من الموت جوعا في أوقات عدة لأنه لم يكن يتلقى سوى أجر زهيد لرسوم وأعمال حفر قدر ثمنها في لندن في سنة ١٩١٨ بمبلغ ١١٠,٠٠٠ دولار، ومكنته أعمال الحفر على المعادن التي قام بها لسفر أيوب والتي بلغت ٢٢ لوحة، من العيش بما مقداره جنيهان في الأسبوع في الفترة من ١٨٢٣ إلى ١٨٢٥، وقد بيعت هذه اللوحات في سنة ١٩٠٧ إلى ج. بيربونت مورجان J . Pierpont Morgan بمبلغ ٥,٦٠٠ جنيه إسترليني وهذه اللوحات التي حفرها لسفر أيوب من بين أجمل أعمال الحفر في التاريخ[٩]. وكان بليك Blake في موقف عوان بين البيوريتانية (التطهرية – مذهب ديني مسيحي متشدد – وإنكار المسيحية)، كما كان في موقف عوان بين الكلاسية والرومانسية، وكان مفتونا بمجموعة تماثيل ميشيل أنجلو (ميكل أنجلو) والرسوم التي رسمها على سقف الكنيسة وأحسّ أيضا ببهاء الجسم الإنساني السليم ورمزله بتجسيد بارز (١٧٨٠) في عمل جعل عنوانه « يوم سعيد » بشاب يرتدي ملابس شفافة

يعرف الحيوية المنضبطة، ولم يكن للجنس (العلاقة بين الرجل والمرأة سوى مكان متواضع في أعماله) فقد كانت زوجته مطيعة متعاونة محبة فجعلت الإخلاص لها ممكنا، وكانت خطوطه في البداية كلاسية صارمة يجعل الخط أهم من اللون والشكل أهم من الصورة الذهبية، لكنه كان كلما تقدمت به السنون وازداد حبه للعهد القديم (الجزء الأول من الكتاب المقدس عند المسيحيين)، ترك قلمه يجول في شخوص خيالية يغمرها بالملابس الكاسية، ووجوه تعبر عن ألغاز الحياة وغموضها(١٠).

وفي أعوامه الأخيرة حفر سبع لوحات لطبعة من طبعات دانتي وحفر وهو على فراش الموت (١٨٢٧) لوحة أخرى للرب يخلق العالم في قديم الزمان. ومن خلال خياله الراقي وتصوراته لما فوق الطبيعة، وكذلك من خلال دقة خيوطه وبراعتها، أصبح – طوال جيل بعد موته – السلف المعلن لمدرسة ما قبل الرافائيلية. وسنلتقي به مرة أخرى في هذه الصفحات.

لقد كان السؤال الحيوي بين الرسامين (وهو سؤال ينطوي أحياناً على طلب الخبز والزبد) هو: إلى أي مدى هم متوافقون مع نصيحة الأكاديمية وذوقها؟ لقد كان بعض أساتذة هذه الأكاديمية يوافقون موافقة تنطوي على التشجيع على الموضوعات التاريخية باعتبارها تذكر بالشخصيات المشهورة في الأحداث الخالدة. وكان أساتذة آخرون يمتدحون رسم الشخصيات باعتباره فناً يسبر أغوار الشخصية، وباعتباره فنا يسعد المشاهير الراغبين في تخليد أنفسهم في صور زيتية. وكان عدد قليل جدا من أساتذة الأكاديمية يهتم بالرسوم التي تصور مشاهد من الحياة اليومية لأنها تبدو عامية، أو بتعبير آخر فيها ريح العامة. وكانت رسوم المناظر الريفية تحظى بأدنى موافقة. لقد كان على كونستابل أن يظل يعمل فاقد الأمل في رسم لوحات فن الريف وهو خامل الذكر، ولم تمنحه الأكاديمية عضويتها الكاملة إلا وهو في الثالثة والخمسين.

وفي سنة ١٧٩٢ مات السير جوشوا رينولدز Joshua Reynolds فاختارت الأكاديمية رئيساً لها أمريكياً مقيماً في إنجلترا إقامة دائمة. إنه بنيامين وست West الذي ولد في سبرنجفيلد في بنسلفانيا من سنة ١٧٣٨. وقد أظهر في شبابه موهبة فنية عظيمة حتى إن جيرانه الكرماء أرسلوه للدراسة في فيلا دلفيا وبعد ذلك إلى إيطاليا. وبعد أن تشرب التراث

الكلاسي هناك في الصالات الفنية والمتاحف والمواقع الأثرية انتقل إلى لندن (١٧٦٣) حيث رسم بعض الصور الشخصية التي جلبت له الأموال، وأعجبت جورج الثالث، فتقدم بعدها لتناول الموضوعات التاريخية. لقد صُدمت الأكاديمية بلوحته (موت ولف Wolfe) الذي انتزع كندا من مونتكالم Montcalm وفرنسا - صُدمت لأنه صور شخوصا معاصرة بملابس حديثة، لكن كبار السن ذكروا أن نصف قارة أوربا تنحني احتراما للسراويل (البنطلونات).

وثمة أمريكي آخر هو جون سنجلتون كوبلي Copley ولد بالقرب من بوسطن في سنة ١٧٣٨ حقق شهرة برسمه جون هانوك، وصامويل آدمز وأسرة كوبلي. وفي سنة ١٧٧٥ انتقل إلى لندن وسرعان ما وصل إلى الذروة بلوحته (موت شاثام) (١٧٧٩) . وليهرب من مثالية الكلاسية الجديدة في رسم الشخوص التاريخية رسم المشهد بواقعية شجاعة، أحدثت - رغم أنها أزعجت الأكاديمية - ثورة في فن الرسم الإنجليزي.

واستمر التعليم في الأكاديمية على أكتاف جوهان هينريتش فوسلي Fussli (من زيورخ) الذي أصبح اسمه في سنة ١٧٦٤ هنري فوسيلي اللندني (من لندن) وكان وقتها في الثالثة والعشرين من عمره. وبتشجيع من رينولدز غادر إنجلترا في سنة ١٧٧٠ ليدرس لمدة ثماني سنوات في إيطاليا. وكان نزوعه إلى التحليق الخيالي ذي الطابع الهرطقي غير متفق تماما مع النماذج والأساليب الكلاسية، وعندما عاد إلى لندن أيقظ الجمال النائم بلوحته « الكابوس » (١٧٨١) التي صور فيها امرأة جميلة تحلم باقتراب عفريت مرعب منها. (ارتبطت هذه اللوحة بدراسة لسيجموند فرويد)، ورغم اتجاهه الساخر أصبح (فوسيلي) أستاذا في الأكاديمية ويسرت محاضراته فيها الانتقال من الرومانسية إلى ما قبل الرافيئيلية (اتجاه فني إنجليزي ذو طابع صوفي).

وقد وضحت أحوال جون هوبنر Hoppner (١٧٥٨ - ١٨١٠) وجون كروم Crome (١٧٦٨ - ١٨٢١) صعوبة حصول الفنانين على مايمكنهم من العيش برسم الطبيعة، فهوبنر عانى شظف العيش كعاشق للمناظر الطبيعة لكن أحواله انتعشت كرسام للصور الشخصية، وكاد ينافس لورنس في زبائنه وأجره. لقد جلس نلسون أمامه وكذلك فعل

ولنجتون و والترسكوت وعدد من اللوردات. وقصرُ القديس جيمس غني بلوحات هوبنر، وظل كروم Crome في مسقط رأسه نورتش Norwich طوال ثلاثة وخمسين عاما هي كل عمره، ودرس صورهوبيما Hobbema وغيره من الرسامين الهولنديين الكبار وتعلم أن يجعل المشاهد البسيطة المألوفة في حياة العامة سائغة، ولأنه كان ملازما لبلدته لايكاد يفارقها فقد بحث عن موضوعات للوحاته في المناطق الريفية المحيطة بنوروتش Norwich. لقد وجد هناك منظرا سجله في إحدى أجمل لوحاته (مرج موسهولد). لقد كانت هذه اللوحة ذروة فنية بالإضافة لما تنطوي عليه من معادن فلسفية ليس هناك ما هو أرقى منها.

أما السير توماس لورنس (١٧٦٩ - ١٨٣٠) فاتخذ طريق رسم الصور الشخصية (البورتريهات) وهو طريق معترف به ولا يحتاج إلى مقاومة. وكان السير توماس ابنا لصاحب فندق، ولم يتلق قدرا كبيرا من التعليم ولم يتلق إلا قدرا قليلا من التدريب الفني. وكان لابد أن تحار الأكاديمية عندما لاحظ أساتذتها أنه نجح في الالتزام بما يريدون. لقد كان لديه حاسة التقاط الشبه بسرعة، وبسرعة كان يرسمه - في صباه في بريستول كان يرسمه بقلمه الرصاص، وفي شبابه في باث Bath كان يرسمه بالألوان البستل Pastel ولم يستخدم الألوان الزيتية إلا عندما انتقل إلى لندن (١٧٨٦) وربما كانت جاذبيته وروحه المرحة هما اللذين فتحا له القلوب والأبواب. وقد كلف وهو لم يتجاوز العشرين بالذهاب إلى وندسور لرسم صورة شخصية للأميرة شارلوت سوفيا Charlotte Sophia. وتصرف بدبلوماسية شديدة انطبعت على لوحته (ذلك لأن الأميرة لم تكن جميلة) وأدت به دبلوماسيته هذه إلى أن انتخب عضوامشاركا في الأكاديمية وهو في الثانية والعشرين، ومنح العضوية الكاملة فيها وهو في الخامسة والعشرين. وتنافس ذوو الحيثيات على الجلوس أمامه لرسمهم، ورفض نصيحة كرومويل Cromwell برسم البقع والبثور والتجاعيد كما يرسم الخال والغمازة (المقصود أن يرسم مظاهر القبح ومظاهر الجمال فيمن يرسمهم) ورفض لورنس الأخذ بهذه النصيحة فليس في البثور ذهب (المقصود أن ذلك قد لايرضي من يرسمه فلا يدفع له مالاً كثيرا). لقد كان يحسن من ملامح من يرسمه، ولم يكن المرسوم ليعترض على ذلك. فإذا كانت المرأة أو الفتاة التي يصورها يعوزها الجمال، عمد إلى رسمها بملابس رقيقة شفافة

جميلة، ورسم يديها جميلتين دقيقتين، وجعل عينيها فاتنتين، وجعلها في وضع (بوز Pose) درامي (مثير). وتعد لوحته (بورتريهه) للوصي على العرش التي أظهره فيها وسيما جميلا نموذجا نمطيا للوحاته. وقد رسم هذه اللوحة الآنف ذكرها في سنة ١٨١٥. وفي بعض الأحيان كان يضفي شيئا من الغرابة الباعثة على السعادة في صوره كما في صورته (Pinkie) في جلري (رواق) هنتجتون Huntington Gallery، لكن لوحاته التي رسم فيها الرجال كانت تفتقد الطبيعة القوية التي نجدها في رسوم رينولدز Reynolds. لقد كسب لورنس الكثير وأنفق الكثير وأصبح محبوب عصره. وعندما مات حفه موكب جنائزي فخم إلى مثواه الأخير في كنيسة القديس بول. وأصر جون كونستابل (١٧٧٦ – ١٨٣٧) على رسم المناظر الطبيعة، ولم يتزوج حتى الأربعين. وكان والده هو طحان miller سوسكس Sussex، وقد قدم الدعم المالي لابنه لدراسة الفن في لندن لمدة عامين عندما لمس مواهبه، لكن تطور جون كان بطيئا،فعاد في سنة ١٧٩٧ إلى سوسكس ليعمل في طاحونة أبيه، وظل يواصل الرسم في أوقات فراغه، وأرسل بعض أعماله إلى الأكاديمية فأتاحت له فرصة الالتحاق بمدرستها، فعاد إلى لندن في سنة ١٧٩٩ بموافقة أبيه بتشجيع من بنيامين ويست West، ورسم له ريتشارد ريناجل Reinagle – وهو فنان زميل له – صورة شخصية في العام نفسه.

وربما قرأ أشعار وردزورث عن المناظر حول بحيرة وندرمير، لأنه كان يرى الله في كل ورقة شجر. وفي سنة ١٨٠٦ قام برحلة في أنحاء منطقة (دائرة) البحيرة فدرس الجبال يحتضنها الهضاب، والحقول تهطل عليها الأمطار الهادئة، وعاد إلى لندن وقد قوي عزمه على وقف فنه للطبيعة.

لقد قال عن لوحته التي عالج فيها الطبيعة إنه يأمل «أن يخلّد لحظة قصيرة أمسك بها من زمن سريع الزوال ليجعل لها وجودا دائماً رزينا[١١]» وفي هذه الأثناء كان يتلقى تكليفات عرضية مكنته من تدبير أمر طعامه وسكناه. وأخيرا في سنة ١٨١١ رسم لوحته العظيمة التي حازت الإعجاب – وادي ددهام Dedham Vale وهي بانوراما(مشهد عام) لإسكس Essex في شمس منتصف النهار.

وفي ذلك العام فيما يبدووقع في حب ماريابكل Maria Bickell التي رحبت باهتمامه

بها لكن أباها منعها كي لاتنحط بقبول شخص ذى دخل منحط مثل كونستابل، ولم تكن تنقضي خمس سنوات حتى مات والده فأورثه دخلا ثابتا فعاود التقدم لطلب ماريا فوافق أبوها فانطلق كونستابل بعروسه واحتفى بها برسم صورة (بورتريه) لها لا زالت تزين جدار تيت جلري (رواق تيت Tate Gallery) وبعد ذلك راح يرسم أجمل لوحات المناظر الطبيعية، التي لم تكن إنجلترا قد شهدت مثيلا لجمالها قبله. لم تكن لوحاته مثيرة مدهشة كلوحات تيرنر Turner لكنها كانت تحتفي بأدق التفاصيل حتى ورقة الشجرة كما كانت تركز على الهدوء والسلام والثروة الخضراء في الريف الانجليزي. وفي هذه الفترة السعيدة قدم للأكاديمية (طاحونة فلا تفورد Flatford Mill (١٨١٧) والحصان الأبيض (١٨١٩) والهاي وين Hay Wain (١٨٢١) وكاتدرائية سالسبوري (١٨٢٣) وحقول القمح (١٨٢٦) وكانت كل لوحة من هذه اللوحات حدثا فنيا وحازت الإعجاب وكثيرا من الإطراء.

وفي سنة ١٨٢٤ قدم الهاي وين (اسم لعربة تجرها الخيول) لتعرض في صالون باريس، وفي ١٨٢٥ عرض (الحصان الأبيض) في ليل Lille وفازت كلتا اللوحتين بالميدالية الذهبية واحتفى الفرنسيون بكونستابل كأستاذ في فنه. وأحست أكاديمية لندن بتقصيرها في حقه فمنحته أخيرا عضويتها الكاملة (١٨٢٩).

لقد أتى التكريم متأخراً فلم يكن له عنده معنى كبير، لأن زوجته ماتت في هذا العام نفسه بالسل الذي تفاقم ربما بسبب تلوث جو لندن بالسخام. وواصل كونستابل رسم المناظر مثل (مزرعة الوادي) و (جسر واترلو) لكن تكاد تكون كل أعماله الأخيرة تعكس ما يتحمله من أحزان، إذ ظل يلبس ملابس الحداد حتى موته المفاجئ.

٤ - تيرنر ١٧٧٥ - ١٨٥١

كان چوزيف وليم تيرنر معتزاً بنفسه وباسمه ولم يسمح أبداً لنقد معاد أوحب عنيف محطم بتعويق مسيرته نحو التفوق المطلق في مجاله. ولد في ٢٣ أبريل سنة ١٧٧٥، وربما شارك شكسبير في يوم الميلاد وكذلك الشهر. وكان أبوه صاحب محل حلاقة في ميدن لين

Maiden Lane خلف الكوفنت جاردن Covent Garden، وهو مكان لايكاد يكون ملائما لفنان المناظر (الطبيعة)، فعلى وفق لكاتب سيرة ذاتية متقدم زمنا[١٢] كانت ميدن لين منطقة كئيبة مسواة بالطين، مزدحمة تعج بصيحات البائعين. وكان بالقرب من محل الحلاقة خان يغني المترددون عليه بأصوات منكرة. أضف إلى هذا أن أخت وليم سرعان ما ماتت وأصبحت أمها مجنونة لكن الطبيعة والظروف عوضا الصبي شيئا ما فجعلته قوي البدن حديد الإرادة، واقعي العقل، لا تهتز ثقته بنفسه فاستعان بهذا كله ليقاوم طوال ست وسبعين سنة الأزمات والنكبات والنقاد والجراثيم.

ورأى فيه والده علامات الموهبة، كما رأى أن مكانه ليس في ميدن لين، فأرسله وهو في العاشرة ليعيش مع عمه، وليلتحق بالمدرسة في برنتوود في مدلسكس Middlesex. وفي غضون عامين رسم الصبي لوحات فنية حتى إن والده الفخور علق بعضها في محل الحلاقة وعلق بعضها الآخر حول المحل، وعرضها للبيع. وذكر رجل دين كان يحلق عند أبيه بعض هذه اللوحات بخير عند صديق له في الأكاديمية، وسرعان ما أجري له اختبار في الأكاديمية فاجتازه بنجاح فقبل طالبا في مدرستها وهو في الرابعة عشرة من عمره، وبعد ذلك بعام سمح له بعرض لوحات بالألوان المائية في معرض الأكاديمية.

وفيما بين عام ١٧٨٩ و ١٧٩٢ كان يقضي فترة الإجازة متجولا في الريف ومعه دفتر الرسم (دفتر الإسكتشات). لقد ذهب بعيدا حتى أكسفورد وبريستول وويلز، ولازالت هذه الاسكتشات الشائقة التي سجل فيها الأرض والشمس والبحر موجودة في المتحف البريطاني. وكان يبيع رسومه وهو في التاسعة عشرة من عمره للمجلات، وفي الحادية والعشرين بدأ يعرض لوحاته الزيتية في الأكاديمية، وفي الرابعة والعشرين ثم اختياره عضوا مشاركا، وفي السابعة والعشرين أصبح عضوا كامل العضوية (في الأكاديمية) وبعد أن أصبح مستقلا من الناحية المالية بفضل ما باعه من لوحات افتتح في سنة ١٨٠٠ مرسماً «ستوديو» واسعا في ٦٤ شارع هرلي Hurly وأتى أبوه ليعيش معه كمساعد وممثل تجاري له. وكان هذا الحب المتبادل بين الوالد وابنه متمشيا مع عزوف الفنان الابن عن الزواج، فلم يكن جذابا من الناحية البدنية ولم يكن مليح الوجه، وكان ذا طباع فيها القليل من

الجاذبية. لقد كان رجلا منشغلا ظل نحو نصف قرن يسيطر على الفن في إنجلترا ويسوده بأعماله الرائعة الكثيرة.

وعمد كتاب السير إلى تقسيم حياته إلى ثلاث مراحل لتيسير دراستها ومحاولة فهمها. المرحلة الأولى (١٧٨٧ – ١٨٢٠) كان يميل فيها إلى الموضوعات التاريخية لكنه حولها إلى دراسات للشمس والبحر. وفي سنة ١٧٩٩ كان من بين الرسامين الأربعة الذين احتفوا في معرض الأكاديمية بانتصار نلسون وتحطيم أسطول نابليون في (أبوقير)، وفي سنة ١٨٠٢ قام بأول رحلة له خارج بلاده، وعندما اقتربت السفينة التي تقله من كاليه Calais ارتفعت الأمواج عالية وهبت العاصفة الشديدة، فدبر تيرنر وبعض الركاب أمر الوصول إلى الشاطئ بقارب تجديف، وتناول – على الشاطئ – كراسة الرسم (الاسكتشات) وراح يخطط المنظر المعقد لسفينة تناضل ضد العاصفة، وبعد ذلك بعام عرض في لندن لوحته القماشية الضخمة (رصيف كاليه Calais Pier) قدم فيها تفاعله مع مناظر السحب السوداء والبحار الغاضبة والرجال الشجعان ومن فرنسا أسرع إلى سويسرا ليرسم ٤٠٠ لوحة للجبال وهي تتحدى السماء بشموخها. لقد أصبحت رسومه (إسكتشاته) كذاكرة ثانية له.

وعندما عاد إلى لندن وجد النقاد الأكاديميين يشكون من أنه وضع ألوانه ثقيلة وباضطراب وبشكل طائش وخلطها بشكل ينافي كل السوابق المعقولة، ذلك أن طريقته تجاهلت التعاليم التي علمها الراحل سير جوشوا رينولدز للأساتذة Masters القدامى الذين خلفوه كما تتجاهل القواعد التقليدية المرعية.

وقد احترم تيرنر ذكرى الدكتاتور الرفيق (المقصود رينولدز) ولكنه أطاع ما تمليه عليه شخصيته. ومن الآن فصاعدا أصبح هو أوضح الأصوات المعبرة عن الثورة الرومانسية في مواجهة الموضوعات القديمة والقواعد العتيقة، والمحاكاة الحرفية للواقع والالتزام بما هو معتاد مما يخنق التجربة ويقيد الخيال. وقد واجه ناقديه بعرض لوحة (سفينة جانحة أوجنوح سفينة) في الاستوديو الخاص به في سنة ١٨٠٤ وكانت اللوحة توضّح قسوة الطبيعة وهيمنتها على الإنسان. وحظيت اللوحة بالإعجاب، وبعد ذلك بعام أحبه البريطانيون كثيرا لاحتفائه بانتصار نلسون في معركة الطرف الأغر.

لقد كانت لوحته فوضى من السفن والرجال والعناصر الأخرى لكن هكذا تكون المعارك . ومع هذا فقد أحس النقاد إزاءها بالارتباك :

«لقد كان كل ما يستخدمه تيرنر هو الألوان، وليس هناك خط واحد، وحتى الألوان بدت وكأنما رشرشها دون أن يقصد تكوين شكل محدد، بل وجعلها موضوعا في حد ذاتها . لقد كانت القصور والصروح والمباني والبشر في لوحاته (المرسومة على كاناڤاه) بقعاً غير محددة ونقطا تشير إلى المعنى كما لو كان الفنان قد سلم بعجز الإنسان في مواجهة الطبيعة الساخطة . وهذا لا يمنع من وجود استثناءات مبهجة كما في لوحة « الشمس تشرق من خلال الضباب » (١٨٠٧) لكن في لوحته هانيبال يعبر الألب (١٨١٢) نجد كل معاني البطولة البشرية يضيع وسط السحب السوداء والصفراء التي تمثل دوامة فوق جنود يرتعدون خوفا . أكان هذا الفنان الجامح عدوا للجنس البشري ؟ .

لقد واصل تيرنر منهجه مُعْمِلاً فرشاته بقوة وحيوية عازما فيما يظهر على محق الحياة والبشر من فوق الأرض، مُخلياً إياها إلا من الشمس والسحب والجبال والبحار الهائجة . لكنه لم يكن عدوا للبشرية تماما فقد كان قادرا على تكوين علاقات دافئة وطور صداقات هادئة مع السير توماس لورنس المناقض له في أسلوبه الفني وفي نظرياته الفنية . ولم يكن تيرنر يعترف بأية نبالة سوى نبالة العبقرية، وكان مخدوعا شيئا ما من العوام، وكان يحب عمله وخصوصيته، وكان يشعر – مثل ليوناردو Leonardo – «أنه إذا كنت متفردا كلية فستكون كلية نفسك أي خير معبر عن نفسك» ولم يكن له عقيدة إيمانية يمكن التأكد منها فيما يتعلق بأي وجود فوق الطبيعة (غيبي)، فقد كان إلهه هو الطبيعة وقد وجه إليها نوعاً من العبادة خاصا به – عبادة ليست من نوع عبادة وردزورث الذي بحث في حكمتها وجمالها، وإنما راح تيرنر يركز على بقائها وإلحاحها وسطوتها، وكان يعلم أنها ستغمره أيضاً وستغمر الإنسان في زمنها الشرس المروع . ولم يزعج نفسه كثيرا بشأن الأخلاق . لقد كان لديه خليلة أو خليلتان، وجعلهما – بشكل رقيق – مقتصرتين عليه، ورسم بعض الصور الزيتية العارية ذات طابع جنس فتم تدميرها ذات مرة عندما وقعا في يد رسكين Ruskin وكان يحب المال ويتقاضى أثمانا باهظة وخلف ثروة . لقد كان ألماسا خاما

– سوليتير – .

وبدأ في المرحلة الثانية (١٨٢٠ – ١٨٣٣) رحلة إلى إيطاليا بحثا عن دفء الشمس، وخلال هذه الرحلة التي استغرقت ستة أشهر رسم خمسة عشر إسكتشا، وبعد عودته إلى إنجلترا حول بعضها إلى لوحات حاول فيها استخدام أساليب جديدة في اللون والضوء والظلال مثل (خليج بايبي) « ١٨٢٣ » جعل كل شيء فيها ينطق – حتى الظل. ومرة أخرى في فرنسا استخدم الألوان المائية في رسم نهر السين وجعله يتألق منيرا. في ١٨٢٥ – ١٨٢٦ تجول في بلجيكا وهولندا وأحضر إلى بلاده إسكتشات حول بعضها إلى لوحات مثل (كولوني Cologne) و (ديبي Dieppe) وهي الآن في مجموعة الفريك Frick في نيويورك. وفي سني الثلاثين من هذا القرن كان بين الحين والحين ينعم بضيافة اللورد إجريمونت Egermont في بتورث Petworth وكان كعادته ينشغل بعمله لكنه أعطى لمضيفه لحظة خالدة بلوحته (البحيرة عند الغروب)

وفي مرحلته الأخيرة (١٨٣٤ – ١٨٤٥) راح يستسلم أكثر فأكثر لإغراء الضوء، فغالبا ما كانت تختفي في لوحاته الأشياء فلا يتبقى إلا دراسة فاتنة للألوان والتألق والظلال، وفي بعض الأحيان كان يترك الأشياء تلعب دورا أساسيا كما في لوحته (Fighting temeraire towed to her Last berth) (١٨٣٩) أو لوحته (المطر والبخار والسرعة) (١٨٤٤) التي تمثل إعلانا حركيا فخورا لقرن من الخيول الحديدية. وعندما احترق مبنى البرلمان في سنة ١٨٣٤ جلس تيرنر بالقرب منه يرسم إسكتشات لآخر لوحاته عن هذا المشهد. وعندما كان يعبر من هاروتش Harwich تعرضت السفينة لريح مجنونة وهطل عليها الجليد فاندفع الفنان الهرم نحو الدقل وظل عنده طوال أربع ساعات حتى يحفر في ذاكرته تفاصيل المشهد وما فيه من رعب(١٣) ورسمه بعد ذلك مستخدما اللون الأبيض بكثرة في لوحته « عاصفة ثلجية » (١٨٤٢)، وفي سنة ١٨٤٣ حقق نصره الأخير بلوحته (شمس البندقية تتجه للبحر).

واسودت سنوات عمره الأخيرة بذروة الإجماع على إدانته، وإن خفف وطأة ذلك عنه ما كاله له سيد النثر الإنجليزي من مديح. لقد انتقد أحد النقاد لوحة (العاصفة الثلجية)

باعتبارها مجرد رغاوى صابون ودهان أبيض[١٤] ولخص آخر أعمال الفنان في حقبته الأخيرة بأنها نتاج « عين مريضة ويد طائشة » واقترح « شرابا مخلصا من عناصر شتى » كعنوان عام لأي لوحة من لوحات تيرنر (إعصار استوائي) يضرب (برياح سمومه) (دوامة) محدثا (اضطرابا عظيما) و (سفينة تحترق) وقت (الكسوف)، وتأثير (قوس قزح القمري)[١٥] – لقد بدت الأعمال الكاملة لهذا الفنان الكبير المتألق بعد نصف قرن من العمل – حقيرة مرفوضة في نظر أصحاب الاتجاه المحافظ.

وفي مايو ١٨٤٣ أصدر جون رسكن Ruskin وكان في الرابعة والعشرين المجلد الأول من كتابه (رسامون معاصرون)، ألح فيه بحماس على تفوق تيرنر على كل رسامي المناظر المحدثين، والحيوية البالغة التي عبر فيها تيرنر عن العالم (الوجود) الخارجي (خارج ذاته) حتى إنها تعد أفضل تقرير عن هذا العالم (الوجود)، ووجد تيرنر نفسه في درجة أعلى من كلود لورين Claude Laurain الذي كان يستلهم رسومه من مطلع شبابه، ولم يكن هذا غريبا بالنسبة إليه، لكنه كلما واصل قراءة كتاب رسكين راح يتساءل: ألن يضره هذا المديح المبالغ فيه؟ لقد أضره فعلا ولكن لفترة. لقد راح النقاد يثنون على كتاب رسكين Ruskin لكنهم راحوا يناقشون أحكامه طالبين حكما أكثر توازنا، ولم يتقيد رسكين بهذا النقد فراح يكرر في مجلد إثر مجلد دفاعه عن تيرنر وتمجيده له حتى كاد يخصص لتيرنر ثلث كتابه ذى الألفي صفحة. وأخيرا كسب معركته وعاش حتى رأى فنانه المحبوب وقد اعترف به الجميع كواحد من أعظم المبدعين في الفن الحديث.

وفي هذه الأثناء مات تيرنر (٢٩ ديسمبر ١٨٥١) وتم دفنه في مقبرة كنيسة القديس بول، وكان قد أوصى بأن تكون أعماله الفنية للأمة – ٣٠٠ سكتش، ٣٠٠ لوحة بالألوان المائية، ١٩,٠٠٠ تخطيط (رسوم تخطيطية) وترك ١٤٠,٠٠٠ جنيه إسترليني لإنفاقها على الفنانين الفقراء (حصل أقرباؤه الأحياء بعد موته على قرار ببطلان الوصية وقسموا الأموال بين أنفسهم ومحاميهم) وربما كان أعظم تراثه هو اكتشافه للضوئية (نزعة في التصوير الحديث)، وفي هذا الجيل نفسه صاغ توماس يونج Young نظريته عن الأمواج الضوئية، لقد نشر تيرنر عبر أوروبا رسومه التي طبق فيها هذا الأسلوب (الضوئي) وكذلك لوحاته بالألوان

المائية، معلنا أن الضوء هو (موضوع) للرسم كما أنه (وسيلة) للرسام أو (وسط) يرسم فيه الأشياء، وبالتالي فهو يستحق أن يمثل بأشكاله المختلفة وألوانه وتشكيلاته وتأثيراته. تلك هي الانطباعية impressionism ظهرت على يد تيرنر قبل ظهور الانطباعيين Impressionists. وربما كان مانت Manet وبيسارو Pissarro قد رأوا بعض أعمال تيرنر التي استخدم فيها هذا الأسلوب عند زيارتهم للندن في سنة ١٨٧٠[١٦]. وبعد ذلك بسبع سنين أرسل ديجاس Degas، ومونت (مونيه) Monet وبيسارو، ورينوار Renoir، خطاباً إلى تاجرأعمال فنية، ذكروا فيه أنه في دراساتهم « للظاهرة الهائمة للضوء » لم ينسوا أنه « قد سبقهم في هذا الاتجاه أستاذ عظيم لمدرسة فنية إنجليزية – إنه الفنان الشهير – تيرنر »[١٧].

الفصل الثامن عشر

العلم في إنجلترا

١- سُبُل التقدم:

لقد كانت إنجلترا تقود النَّقلة من الزراعة إلى الصناعة، وكان طبيعيا أن تشجع تلك العلوم التي تقدم إمكانات عملية، تاركة الدراسات النظرية للفرنسيين، وكان من المتوقع أن يكون فلاسفتها في هذه الفترة – بورك Burke ومالتوس وجودوين Godwin وبنثام Bentham وبين Paine – رجال دُنيا يواجهون المشاكل أو القضايا الحية، والأخلاقية والدينية والسكانية والحكومية والثورية، تاركين للفلاسفة الألمان التحليق في أجواء المنطق والميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) والدراسات الفلسفية لتطور العقل (فينومينو لوجيا العقل). وقد أعلنت «جمعية لندن الملكية لزيادة المعلومات في مجال العلوم الطبيعية Natural» عند تشكيلها في سنة ١٦٦٠ أنها تعمل على تأسيس كلية «لتحسين التعليم التجريبي الفيزيائي الرياضي». لكنها لم تصبح كلية بمعنى أنها لم تصبح مؤسسة أو منظمة لتخريج معلمي الشباب في المرحلة الثانوية وإنما تطورت لتصبح ناديا مقتصراً على خمسة وخمسين عالما، يجتمعون بشكل دوري للتشاور وتكوين مكتبة تضم كتب العلوم والفلسفة ويقدمون للجمهور المهتم المحاضرات والتجارب، ويقدمون الأوسمة لذوي الإسهامات العلمية، وينشرون في المناسبات مطبوعا بعنوان «المدونات الفلسفية Philosophical transactions». وكانت الفلسفة لاتزال تضم العلم بين جنبيها وقد تبرعمت العلوم وانبثقت منها علماً في إثر علم نتيجة إحلال الصياغات الكمية والتجارب اليقينية محل المنطق والنظر المجرد. ونظمت الجمعية الملكية – بدعم حكومي عادة – مشروعات ومهام علمية. وفي سنة ١٧٨٠ خصصت الحكومة لها مقراً أنيقا في دار سومرست Somerest House ظلت به حتى سنة ١٨٥٧ حيث انتقلت إلى مقرها الحالي في دار بيرلنجتون Burlington House في بيكادلي Piccadilly وأنفق السير جوزيف بانكس Banks – رئيسها في الفترة من ١٧٧٨ إلى ١٨٢٠ – كثيرا من أمواله للارتقاء بالعلم ورعاية العلماء. وكانت

مؤسسة لندن الملكية – الأقل شهرة من الجمعية الملكية، وإن كانت أهدافها أكثر وضوحا من حيث كونها مؤسسة تهتم بالتعليم – قد أسسها الكونت رمفورد Rumford في سنة ١٨٠٠ «لتوجيه الاكتشافات الجديدة في مجال العلوم لخدمة الفنون والصناعات، وذلك عن طريق تقديم دراسات نظامية – محاضرات فلسفية وتجارب (معملية أوميدانية) » وأتاحت مبنى شاسعاً في شارع البمارل Albemarle لتقديم برامجها التعليمية فألقى فيه جون دلتون Dalton وسير همفري ديفي Davy محاضرات في الكيمياء، وتوماس يونغ Young محاضرات في الطبيعة nature وانتشار الضوء، وكولردج Coleridge محاضرات في الفكر والأدب وسير إدوين لاندسير Edwin Landseer محاضرات في الفنون . . . وكانت هناك جمعيات أكثر تخصصا كجمعيات الشلالات التي اندمجت في سنة ١٨٠٢ في جمعية للنبات، والجمعية الجغرافية (١٨٠٧) وسرعان ما ظهرت بعد ذلك جمعية لعلم الحيوان وأخرى للبساتين وثالثة للكيمياء الحيوية ورابعة للفلك، وأسست مانشستر وبرمنجهام جمعياتها « الفلسفية »(*) رغبة منها في تطبيق العلم على صناعاتها، وأقامت بريستول معهد دراسة الغازات، وتم تكوين أكاديميات لشرح العلوم وتبسيطها للجمهور العام. وقدم ميشيل فارادای Michael Faraday في إحدى هذه الأكاديميات وهو في الخامسة والعشرين من عمره سلسلة محاضرات أسهمت طوال نصف قرن في حفز البحوث في مجال الكهرباء. وقد ألقى ميشيل محاضراته هذه سنة ١٨١٦ ، وبشكل عام، ففي التعليم العلمي، كان مجتمع رجال الأعمال في طليعة الجامعات كما جرى كثير من التقدم العلمي في مجال العلوم على أيدي أفراد مستقلين (غير تابعين لمؤسسات علمية أو تعليمية) يدعمهم أو يمولهم أصدقاؤهم. لقد تخلى البريطانيون عن الرياضيات للفرنسيين، وراح العلم البريطاني يركز على الفلك والجيولوجيا والجغرافيا والفيزياء والكيمياء.

لقد اهتم التاج البريطاني بعلم الفلك ووضعه تحت حمايته وقدم لبحوثه الإعانات المالية، لأنه علم حيوي للملاحة ويساعد في السيطرة على البحار. واعترف بمرصد جرينوتش Greenwich بما فيه من أدق المعدات التي أمكن شراؤها بالأموال التي أقر البرلمان صرفها –

* المقصود العلمية لأن مصطلح الفلسفة حتى هذه الفترة كان يضم العلوم المختلفة بين جنبيه (المترجم)

بأنه على قمة المراصد الأخرى. ونشر جيمس هتون Hutton سنة ١٧٩٥ قبل موته بغامين مبحثه «نظرية الأرض» وهو مبحث جيولوجي كلاسي: يلخص الحياة العامة لكوكبنا من خلال عمليات دورية يقوم المطر في كل دور منها بجرف سطح الأرض فتنشأ الأنهار نتيجة التّحات الذي تسببه الأمطار أو تحمل الأنهار بدورها نتيجة التّحات إلى البحر، وتتبخر المياه والرطوبة من فوق سطح الأرض فتصير سحابا، وبتكثف المياه في السحب تنزل مرة أخرى مطرا... وعند الطرف الآخر لهذا العصر (١٨١٥) حقق وليم سمث W. Smith – الملقب بستراتا شمث أو سمث طبقات جيولوجية Strata Smith – شهرة لبحثه المركز الذي لا يزيد عن خمس عشرة صفحة والذي يحمل عنوان «خريطة جيولوجية لإنجلترا وويلز» ويظهر هذا البحث أن طبقات جيولوجية تتجه تدريجيا نحو الشرق صاعدة حتى تصل في النهاية إلى سطح الأرض، وتقدم لنا في أثناء اتجاهها الصاعد أشكال الحياة في العصور الجيولوجية السابقة كما تظهر في المتحجرات الحيوانية والنباتية في العصور الجيولوجية المختلفة، وقد قدمت له الحكومة البريطانية راتبا سنويا مقداره مائة جنيه إسترليني مدى الحياة بدءا من عام ١٨٣١ مكافأة له لكشفه عن أسرار باطن الأرض، وتوفي وليم سميث سنة ١٨٣٩.

واستمر الملاحون البريطانيون في شرح زوايا الأرض والبحر وشقوقها. وفيما بين عامي ١٧٩١ و ١٧٩٤ رسم جورج فانكوفر G. Vancouver خريطة لسواحل أستراليا ونيو زيلندا وهاواي والباسيفيكي شمال غرب أمريكا، وهناك دار مبحرا حول الجزيرة الفاتنة التي تحمل اسمه.

٢ – الفيزياء: رمفورد، ويونج

من الصعب أن تحدد جنسية بنيامين طومسون Thompson الذي ولد سنة ١٧٥٣ وأقام في أمريكا وحصل على رتبة فارس في إنجلترا وأصبح هو الكونت رمفورد Rumford في بارفاريا ومات في فرنسا سنة ١٨١٤. واتخذ جانب بريطانيا في أثناء حرب الاستقلال الأمريكية وانتقل إلى لندن في سنة ١٧٧٦. وأعادته بريطانيا كوزير في مستعمرة جورجيا، وقد امتد اهتمامه ليشمل العلوم إلى جانب اهتمامه السياسي وقام بأبحاث علمية ضمنت له زمالة الجمعية الملكية. وفي سنة ١٧٨٤ دخل – بإذن من الحكومة البريطانية – في خدمة

بافاريا التي كان يحكمها الأمير مكسيميليان جوزيف – Maxi milian Joseph وفي غضون الأحد عشر عاما التي قضاها وزيراً للحرب والشرطة في بافاريا أعاد تنظيم الجيش وحسن أحوال الطبقة العاملة وقضى على التسول ومع هذا فقد وجد لديه من الوقت لكتابة أبحاث لدورية الجمعية الملكية «المدونة الفلسفية»(*) وقد جعله مكسمليان – اعترافاً منه بفضله – كونت الإمبراطورية الرومانية المقدسة (١٧٩١)، ويظن أن لقبه هو اسم مكان ميلاد زوجته (الآن كونكورد) في ماساشوستس. وفي غضون عام قضاه في بريطانيا (١٧٩٥) عمل على تنظيم وسائل التدفئة والطهي بقصد تخفيف حدة التلوث في الهواء، وبعد عام آخر قضاه في الخدمة في بافاريا عاد إلى إنجلترا وأسس مع السير جوزيف بانكس Banks المؤسسة الملكية Royal Institution، وأسس نظام تكريم العلماء المعروف باسم وسام رمفورد الذي تمنحه الجمعية الملكية وكان هو نفسه أول من حصل عليه. وقدم أموالا لجوائز وأوسمة مماثلة تقدمها أكاديميات الفنون والعلوم في بافاريا وأمريكا ولأستاذية رمفورد في جامعة هارفارد. وبعد وفاة زوجته انتقل إلى باريس (١٨٠٢) واتخذ لنفسه مسكنا في أوتيل Auteuil وتزوج من أرملة لافوازيه Lavoisier ظل في فرنسا رغم تجدد حربها مع إنجلترا. وظل نشيطا إلى آخر حياته وعمل في آخر أعوامه على إطعام العامة المعوزين من فرنسيين «حساء رمفورد Rumford Soup» وكان نابليون قد أخذ معه كل أبنائهم (جنّدهم) وانطلق إلى قدره.

كانت إسهامات رمفورد في العلوم متباينة وعرضية بدرجة لا تجعلها دراماتية مذهلة، لكن إذا جمعناها معاً وجدناها تمثل مجموعة عناصر مؤتلفة جديرة بالملاحظة نظراً لانشغاله بالأعمال الإدارية، وبينما كان يراقب تجويف مدفع في ميونخ فوجئ بالحرارة الشديدة الناتجة من العملية. ولقياس هذه الحرارة رتب الحصول على أسطوانة معدنية دوارة ورأسها في مواجهة مثقب من الصلب وكلاهما الأسطوانة والمثقاب في صندوق محكم يحتوي على ثمانية عشر رطلا وثلاثة أرباع الرطل من المياه. وفي غضون ساعتين وثلاثة أرباع ساعة ارتفعت حرارة الماء من ستين درجه فهرنهيت إلى ٢١٢ – درجة الغليان. وقد ذكر رمفورد في وقت لاحق «كان من الصعب أن نصف الدهشة التي اعترت المشاهدين عند رؤيتهم هذا

* كان مفهوم مصطلح الفلسفة لايزال يضم العلوم البحتة والتطبيقية. (المترجم)

القدر الكبير من المياه يصل إلى درجة الغليان دون استخدام نيران»[١] وقد أثبتت هذه التجربة أن الحرارة ليست «جوهرا أو مادة» وإنما هي أسلوب للحركة الجزيئية تتناسب في الدرجة مع كمية الجهد المبذول لإنتاجها. وكان هذا الاعتقاد سائدا منذ فترة طويلة لكن تجربة رمفورد كانت هي الدليل التجريبي الأول، كما أنها كانت طريقة (منهجاً) لقياس المعادل الميكانيكي للحرارة – أي كمية العمل المطلوبة لتسخين رطل من المياه درجة حرارية واحدة.

ويكاد يكون توماس يونج Young مثل مونتاني Montaigne في تباين اهتماماته. ولد في سنة ١٧٧٣ من أسرة على مذهب الكوكر Quaker في سومرست. لقد بدأ متعلقاً بالدين وانتهى مخلصا الإخلاص كله للعلم. وهناك ما يؤكد لنا أنه كان قد قرأ الكتاب المقدس المسيحي وهو في الرابعةمن عمره وكان يستطيع الكتابة بأربع عشرة لغة وهو في الرابعة عشر من عمره[٢] وتم انتخابه وهو في الواحدة والعشرين من عمره كزميل في الجمعية الملكية، وفي الثمانية والعشرين كان يقوم بتدريس الفيزياء في المؤسسة الملكية، وفي سنة ١٨٠١ بدأ هناك التجارب التي أكدت –وطورت– فكرة هويجنز Huyghens عن الضوء كموجات لأثير افتراضي. وبعد مناقشات طويلة أزاحت هذه النظرية بشكل عام – وليس على مستوى العالم – نظرية نيوتن Newton عن الضوء كإشعاع لجسيمات مادية، وقدم يونج أيضا فرضا مؤداه أن إدراك اللون يعتمد على وجود ثلاثة أنواع من الألياف العصبية في شبكية العين حساسة – على التوالي – للأحمر والبنفسجي والأخضر، وقد طور هيلمهولتس Helmholts هذا الفرض فيما بعد. وقدم لنا أول وصف لحرج البصر (اللابؤرية أو اللا استجمية) وضغط الدم والجاذبية الشعرية والمد والجزر وشارك بنشاط (١٨١٤) في فك رموز حجر رشيد. وقال مؤرخ طبي مثقف إنه «كان أكثر الأطباء ثقافة وعلماً في عصره» وأضاف هيلمهولتس قائلا إنه «كان أوضح الناس بصيرة»[٣].

٣- الكيمياء : دالتون وديفي

في العقد نفسه، وأيضا في المؤسسة الملكية نفسها أحدث دالتون Dalton ثورة في مجال الكيمياء بنظريته الذرية atomic theory (١٨٠٤) لقد كان ابنا لنساج من طائفة الكويكر. ولد في سنة ١٧٦٦ في إيجلسفيلد Eaglesfield بالقرب من كوكرموث Cockermouth في الطرف الشمالي لمنطقة البحيرة الضبابية الرائعةLake District التي أنجبت الشعراء: وردسورث Wordsworth وكولردج Coleridge وسوثي Southey . وفي وقت لاحق كتب على لسان شخص ثالث ملخصاً اهتماماته الأولى في عرض زمني مجرد لم يخف طموحه الحار الذي أضاء أمامه طريق الإنجاز :

«كاتب هذه ... درس في مدرسة القرية... حتى سن الحادية عشرة. وفي هذه الفترة قطع شوطا في دراسة حساب المساحات والحجوم، والمساحة والملاحة ...الخ، وبدأ في سن الثانية عشرة في التدريس في مدرسة القرية ...وكان يعمل في المناسبات لمدة عام أو أكثر في مجال الزراعة وتربية الحيوانات الداجنة، وانتقل إلى كندال Kendal وهو في الخامسة عشرة من عمره مساعداً في مدرسة مؤقتة (مشيدة من الألواح الخشبية) وظل في هذا العمل مدة ثلاث سنوات أو أربع، ثم أخذ على عاتقه إقامة مدرسة على نسق هذه المدرسة وقضى ثماني سنوات فيها وبينما كان في كندال كان يقضي وقت فراغه في دراسة اللاتينية واليونانية والفرنسية، والرياضيات مع الفلسفة الطبيعية natural، وفي سنة ١٧٩٣ انتقل إلى مانشستر معلماً للرياضيات والفلسفة (العلوم) الطبيعية في الكلية الجديدة[٤]»

وكان يواصل – إذا سمح الوقت والمال – ملاحظاته ومشاهداته وتجاربه التي كان يقوم هو شخصيا بكثير منها رغم أنه كان مصاباً بعمى الألون ورغم الأدوات المعملية البسيطة (البدائية) ووسط اهتماماته الكثيرة وجد الوقت الكافي لتدوين سجل بالأرصاد الجوية منذ كان في الواحدة والعشرين من عمره إلى اليوم الذي سبق وفاته مباشرة[٥] . وعادة ما كان يقضي إجازاته طوافا باحثاً عن الحقائق في الجبال نفسها التي كان الشاعر ورد سورث Wordsworth يجول فيها بعد ذلك بأعوام قلائل، وعلى أية حال فبينما كان ورد سورث Wordsworth يطوف بحثا عن الله مصغيا له فإن دالتون كان يرصد الأحوال الجوية عند

الارتفاعات المختلفة (فوق سطح البحر)، وكان عمله هذا يشبه إلى حد كبير عمل بسكال Pascal قبل ذلك بقرن ونصف قرن. وقد قبل في تجاربه نظرية أن المادة مكونة من ذرات غير قابلة للانقسام تلك النظرية التي قال بها كل من ليوسيبوس Leucippus (حوالي ٤٥٠ ق م) وديموقريتوس Democritus (حوالى ٤٠٠ ق.م) وواصل فرضية روبرت بويل Boyle (١٦٢٧ – ١٦٩١) التي مؤداها أن كل الذرات تنتمي إلى واحد أو آخر من عناصر معينة لا تنحل إلى عناصر أخرى أساسية – هذه العناصر المعينة التي لا تنحل هي: الهيدروجين والأكسوجين والكالسيوم .. وقد دلل دالتون في كتابه «نظام جديد لفلسفة الكيمياء A New System of Chemical Philosophy (١٨٠٨)» على أن وزن أي ذرة من ذرات عنصر إذا قورنت بأي ذرة من عنصر آخر، يجب أن يكون هو نفسه تماما كما أن وزن إجمالي العنصر الأول هو نفسه وزن إجمالي العنصر الآخر. وبعد العديد من التجارب والحسابات أخذ دالتون وزن ذرة الهيدروجين كوحدة as one وراح يراوح بين كل ذرة من ذرات العناصر الأخرى بالوزن النسبي لأي واحدة من ذراتها من ناحية وذرة الهيدروجين من ناحية أخرى، ومن ثم كوّن قائمة بالأوزان الذرية للثلاثين عنصرا التي كانت معروفة لديه. وكان لابد من أن تصحّح أبحاث لاحقة ما وصل إليه دالتون من نتائج، لكن نتائجه وكذلك قانونه المعقد المعروف باسم «قانون النسب المتضاعفة Law of multiple proportions ثبت أنها ساهمت إسهاما كبيرا في تطور العلم في القرن التاسع عشر. كان السير همفري ديفي Humphry Davy بحياته وتعليمه واكتشافاته اكثر إثارة كما أنه كان نمطاً مختلفا. ولد في بنزانس Penzance (١٧٧٨) من أسرة ثرية من الطبقة الوسطى وتلقى تعليما وزاد عليه بدراسات في الجيولوجيا وصيد الأسماك Fishing ورسم الاسكتشات sketching والشعر. وأكسبته طبيعته المرحة أصدقاء مختلفين بدءا من كولردج Coleridge وسوثي Southey والدكتور بيتر روجت Peter Roget (الذي أعد قاموسا بمفردات الإنجليزية وعباراتها، والذي اتسم بالجد والاجتهاد والعبقرية، وأطلق على عمله هذا الذي صدر في سنة ١٨٥٢ اسم: Thesaurus of English words & phrases) – حتى نابليون. وكان له صديق آخر أتاح له استخدام معمله الكيميائي مما جعل ديفي يعبر عن امتنانه له في صيغة الإهداء التي وجهها

له . وقد نظم ديفي مكتبته الخاصة وكان يصنف الغازات بتشممها وحث كولردج وسوثي على مشاركته في تشمم الغازات كاد يقتل نفسه بتسممه أبخرة الغازات شديدة السمية .

ونشر وهو في الثانية والعشرين مبحثا عن تجاربه بعنوان مباحث كيميائية وفلسفية Chemical and Philosophical Researches في سنة ١٨٠٠ . ودعاه الكونت رمفورد وجوزيف بانكس Banks إلى لندن لإلقاء محاضرات عن عجائب المركم (البطارية) (عمود ڤولتا Voltas pile) وعرض لبعض إمكاناتها، فحقق شهرة جديدة في المعهد الملكي Royal Institution لقد استخدم بطارية مكونة من ٢٥٠ زوج من الرقائق المعدنية كوسيلة للتحليل الكيميائي بالكهرباء واستطاع - بهذه الطريقة - تحليل المواد المختلفة إلى عناصرها، فاكتشف - وعزل - الصوديوم والبوتاسيوم، وواصل تجاربه فاستطاع عزل الباريوم barium والبورون bo ron والسترونتيوم strontium والكالسيوم والمغنيسيوم وأضافها إلى قائمة العناصر. لقد وضعت اكتشافاته وإنجازاته أسس علم الكيمياء الكهربائية، كعلم له إمكانات نظرية وعملية لا حد لها. ووصلت أخبار أعماله إلى نابليون فأرسل له في سنة ١٨٠٦ عبر جبهة القتال جائزة المعهد الوطني الفرنسي Institut National .

وكان بيرثوليه Berthollet قد شرح في سنة ١٧٨٦ لجميس وات Watt ما في الكلور chlorine من طاقة تبييض bleaching power وتوانت إنجلترا في الأخذ بهذه الفكرة إلا أن ديفي جدد الأخذ بها وكانت جهوده فعالة . لقد تطور العلم والصناعة من خلاله فقد كانت اكتشافاته وتجاربه ذات دور رائد في التحول الاقتصادي لبريطانيا العظمى . وفي سنة ١٨١٠ أجرى ديفي تجارب لإظهار قوة التيار الكهربائي بتمريره من سلك كربوني دقيق إلى سلك آخر ، لإنتاج ضوء وحراره، وكان ذلك أمام جمهور المعهد الملكي . وقد وصف هذه العملية كالتالي :

«عند تقريب قطع من الفحم النباتي يبلغ طول القطعة الواحدة منها بوصة واحدة ويبلغ قطرها سدس بوصة - بعضها من بعضها الآخر (بحيث تكون كل قطعة على بعد : واحد على أربعين أو واحد على ثلاثين من البوصة) ينتج عن هذا شرارة فيحترق أكثر من نصف حجم الفحم النباتي ليصبح رمادا أبيض، وبسحب مآخذ التيار points وإبعادها بعضها عن

بعضها الآخر يحدث تفريغ خلال الهواء الساخن في مساحة تبلغ أربع بوصات على الأقل فينتج عن هذا قوس من النور صاعد متألق . . . وعند إدخال أي مادة في هذا القوس الضوئي فإنها تشتعل (تحترق) فورا، فكل المواد في هذه الحال تنصهر وتتحد سواء البلاتين أو الشمع المعتاد أو الكوارتز أو الياقوت الأزرق أو المغنيسيوم أو الجير (أكسيد الكلسيوم) »(٦) .

إن إمكانات توليد الضوء والحرارة الآنف ذكرها لم تتطور حتى تم اختراع وسائل أرخص لإنتاج التيار الكهربائي، لكن في هذه التجربة الألمعية كان أساس الأفران الكهربائية التي أحالت الليل إلى نهار لنصف سكان المعمورة.

وفي سنة ١٨١٣ ارتحل ديفي بصحبة مساعده الشاب ميشيل فاراداي Faraday عبر فرنسا وإيطاليا في وقت كانت فيه كل أوربا تقريبا تخوض الحرب، لكنه استطاع التنقل بفضل حق المرور الآمن الذي أصدره له نابليون. وراح يزور المعامل ويجرب التجارب واكتشف خواص اليود (عنصر لافلزي) وأثبت أن الألماس هو نوع من الكربون. ولما عاد إلى إنجلترا درس أسباب انفجارات المناجم واخترع مصباح أمان للعاملين في المناجم. وفي سنة ١٨١٨ منحه الوصي على العرش Regent رتبة البارونتية(*) (وهي رتبة دون البارون) وفي سنة ١٨٢٠ خلف بانكس Banks كرئيس للجمعية الملكية Royal Society. وفي سنة ١٨٢٧ بدأت صحته في التدهور فترك العلم ليمارس صيد السمك وكتب كتابا في هذا الموضوع وجعل فيه رسوم إيضاح من رسمه. وفي سنة ١٨٢٩ – وكان مصابا بشلل جزئي – ذهب إلى روما ليكون حطاما بين الخرائب «أو بتعبير آخر ليكون أثرا بين الآثار»(٧) لكنه مات قبل انصرام العام. إنه لم يعش سوى ٥١ سنة لكن سنواته هذه كانت تساوي حيوات كثيرة. لقد كان رجلاً عظيما طيبا وكان واحداً من البشر المخلِّصين (بتشديد اللام وكسرها) الذين عملوا على تخليصنا من الجهل والخطايا (الآثام).

---

* رُتبة بُوَيرين (بارون صغير).

٤ – البيولوجيا (علم الأحياء) : إرازموس داروين

حتى الآن لم تكن البيولوجيا (علم الأحياء) في إنجلترا تسير سيرا حسنا كسير الفيزياء والكيمياء والجغرفيا، فقد كانت هذه العلوم ذات صلات وثيقة بالعمل على تحسين الصناعة والتجارة وتطويرهما، أما البيولوجيا فقد كانت توحي بتراجيدية (مأساوية) الحياة وبهائها وكانت تهز العقيدة الدينية.

لقد كان إرازموس داروين – جد شارلز – قد تلقى بالفعل تقديرنا وثناءنا(*) فقد كان شرارة وضّاءة وسط المعية هذا العصر الذي شهد نشر أعماله: الحديقة النباتية Botanic Garden (١٧٩٢) وعلم أصول الحياة الحيوانية Zoonomia (١٧٩٤ – ١٧٩٦) ومعبد الطبيعة The Temple of Nature (١٨٠٣). لقد كتبت هذه الكتب جميعا من وجهة نظر تطورية. وقد اتفقت هذه الدراسات مع لامارك Lamarck في إقامة النظرية على أمل تكيف العادات والأعضاء على وفق للرغبة والمجهود والعزم فإذا ما استمر ذلك وقويت خلال أجيال كثيرة لأمكن انتقال (هذه الصفات الجديدة والمرغوب فيها) إلى العصب والجسم. هذا الأستاذ العبقري الذي أصبح اسمه كبيرا على طول المدى عمد إلى التوفيق بين «التطور» والدين بافتراض أن كل الحياة الحيوانية (بما فيها البشرية) كانت قد بدأت من «مستودع لقاح حي واحد كان هو العلة الأولى الكبيرة المتضمنة لكل الكائنات الحية» ثم خُلّي سبيلها لتتحسن على وفق لنشاطها الداخلي الخاص بها، ولتسلم مالحق بها من تطورات وتحسنات للأجيال اللاحقة جيلا بعد جيل وبلا نهاية»[٨].

لقد دخل الحوار الدائم بين الدين والعلم – رغم خفوته في هذا العصر – في مملكة (عالم) السيكولوجيا الذي أصبح مجالا يحظى بالرعاية في وقت من الأوقات، عندما قام هارتلي Hartley وبريستلي Priestly بإعداد تفسير فسيولوجي للربط بين الأفكار وعندما استوحى علماء التشريح – بشكل متزايد – فكرة العلاقة بين الجسد والعقل (النفس). وفي سنة ١٨١١ نشر شارلزبل Bell مبحثه «فكرة جديدة عن تشريح المخ A new Idea of the Anatomy of the Brain» وبدأ في هذا المبحث يبرهن على أن أجزاء مخصوصة في الجهاز

* راجع عصر فولتير، ص ٥٧٩ – ٥٨١.

العصبي تحول انطباعات الحواس إلى أجزاء مخصوصة في المخ، وأن أعصاباً مخصوصة تحمل أوامر الحركة إلى أعضاء الاستجابة المنوط بها التنفيذ . وبدت ظاهرة التنويم المغناطيسي - التي زاد انتشارها - تشير إلى تحول فسيولوجي للإحساس إلى أفكار ومن ثم إلى أعمال ، وقد تم تناول تأثير الأفيون من حيث جلبه للنوم وتأثيره في الأحلام وحفزه للخيال وإضعافه للإرادة (كما ذكر كولردج Coleridge ودى كوينسي De Quincey) في سياق الحديث عن حرية الإرادة، وتم تقليص هذه القضية الكبيرة (حرية الإرادة) إلى مقادير جبرية تصوغ الدوافع والمحركات والخيالات المختلفة المتصارعة. وبدا الوضع المزدهر الصاعد للمناقشات العلمية والمركز الاجتماعي المرموق لمهنة الطب مقارنة بالمركز المتدني للإكليروس الأنجليكاني (رجال الدين الأنجليكان) الذي قلت فعاليته كثيرا - يعكس اللامبالاة الدينية التي كانت قد بدأت تنتشر بشكل سري، بل وتعكس ماحاق بالدين من شك لدرجة وجود من أنكره تماما .

٥- الطب: جنر Jenner

لايكاد الإخاء الطبي (تمتع الجميع بالرعاية الطبية) يستحق هذا الاسم الذي أطلق عليه لأن « الرعاية الطبية » تعكس تماما الولع البريطاني بالتمييز بين الطبقات، فكلية الأطباء الملكية Royal College of physicians - الفخورة بتأ سيسها في عهد هنرى الثامن في سنة ١٨١٥ - تقصر زمالتها على نحو خمسين كانوا قد حصلوا على درجاتهم العلمية من أكسفورد أوكامبردج، كما تقصر « إجازاتها Licentiate » على نحو خمسين من الممارسين المميزين. ويكون هؤلاء المائة نوعاً من المجالس أقرب مايكون إلى مجلس لوردات الأطباء ودارسي الطب House of Lords to medicos في إنجلترا. ويحصل هؤلاء الأعضاء على دخول كبيرة فأحيانا مايصل دخل الواحد منهم إلى عشرين ألف جنيه في السنة. ولايمكن للواحد منهم أن يكون نبيلا أو أميرا، وإن كان يمكن أن يصبح في رتبة فارس وقد يطمح للبارونتية (درجة دون البارون) والكلية الملكية للجراحين التي أسست سنة ١٨٠٠ من بين المؤسسات الأدنى درجة. ويلي تلك الدرجة الأطباء القائمون بتوليد النساء (الذين يقومون بعمل القابلات male midwives) الذين تخصصوا في سحب الأجنة من الأرحام (حيث

الدفء والأمان) إلى العالم الخارجي حيث المنافسة والصراع. وفي قاع السلم الاجتماعي للعاملين في المهن الطبية يأتي الصيادلة الذين يقدمون كل الرعاية الطبية تقريبا في المناطق الريفية.

ولا تقدم أي كلية من هذه الكليات الآنف ذكرها أي نوع من التعليم الطبي فيما عدا بعض المحاضرات التي يلقيها مشاهير الأطباء في المناسبات. ولم يكن في أكسفورد ولا كامبردج مدرسة للطب فالطلاب الذين كانوا يرغبون في الحصول على تعليم وتدريب طبيين كان عليهم أن يلتمسوه في إسكتلندا وفيما عدا ذلك فإن تدريب الأطباء الإنجليز ترك للمدارس الخاصة التي أقيمت بالقرب من المستشفيات الكبرى بأموال المؤسسات الخيرية وتبرعات المحسنين. وقد أنفق السير توماس برنارد Thomas Bernard كثيرا من ثروته في إصلاح مستشفى اللقطاء الشهيرة في شمال لندن وشارك غيره من الأثرياء في تمويل مستوصفات (عيادات Clinics) لعلاج السرطان والرمد والفتق، في لندن وأماكن أخرى. لكن وسائل منع انتشار الأمراض كانت هزيلة في المدن مما أدى إلى انتشار الأمراض بل وظهور أمراض جديدة، وكانت سرعة انتشار الأمراض تفوق إمكانات العلاج.

وفي سنة ١٨٠٦ سجلت لندن حدثا فريدا: لقد مضى أسبوع كامل دون أن يتوفى أحد بمرض الجدري – ذلك المرض المسبب للبثور والحمى والمشوّه للوجه والمعدي والذي كان في وقت من الأوقات متوطنا في إنجلترا وقد ينتشر في أي وقت مرة أخرى ليصبح طاعونا مميتا (المقصود كارثة مسببة للموت).

وقد أعاد أسبوع المعجزات طبيب إنجليزي بسيط هو إدوارد جنر كان مدمنا على الصيد (القنص) وعلم النبات وقرض الشعر، وعزف الفلوت والضرب على الكمان (العثيولين)، بنشر التطعيم ضد هذا المرض طوال عقد من الزمان منهيا بذلك موقف المجتمع البريطاني المتحفظ ضد كل ما هو جديد. لقد كانت الوقاية من مرض الجدري عن طريق التطعيم بفيروس المرض بعد إضعافه طريقة يمارسها الصينيون القدماء ووجدت الليدي ماري وورتلي مونتاجو Mary Wortley Montagu هذه الطريقة معتادة في القسطنطينية (إسطنبول أو استانبول) في سنة ١٧١٧ وقد أوصت عند عودتها إلى إنجلترا باستخدام هذه الطريقة. وقد

جرب نظام التطعيم هذا على المجرمين ومن ثم على الأيتام وحقق نجاحا ملحوظا. وفي سنة ١٧٦٠ قرر الدكتور روبرت ستون sutton والدكتور دانيال ستون أنه من بين ثلاثين ألف حالة طعمت ضد الجدري لم يصب بهذا المرض سوى ١٢٠٠ (ألف ومائتي حالة). أيمكن أن تكون هناك طريقة أفضل لمنع الجدري؟

لقد اهتدى جنر إلى طريقة أفضل عندما لاحظ أن كثيرات من العاملات في حلب ماشية اللبن في بلده جلوسسترشير Gloucestershire يصابون بجدري البقر من خلال ملامستهم لحلمات الأبقار المصابة وبالتالي يصبحن ذوات مناعة ضد مرض الجدري (الذي يصيب البشر)، وتراءى له أنه يمكن تكوين مناعة شبيهة باستخدام طعم (لقاح) (الكلمة الإنجليزية Vaccine من الكلمة اللاتيينة Vacca وتعني بقرة) من فيروس جدري البقر الذي يمكن الحصول عليه من الأبقار المصابة. وفي بحث نشر في سنة ١٧٩٨ ذكر جنر الإجراء المغاير لما هو متبع والذي وضع به أسس الطب التجريبي وعلم الطب الوقائي (علم المناعة):

« .. لقد تخيرت صبيا صحيحا في نحو الثامنة من عمره بغرض تجريب تطعيمه بجدري البقر، وتم الحصول على القيح من قرحة من يد إحدى العاملات في حلب ألبان البقر وحقن الصبي بهذا القيح في ١٤ مايو سنة ١٧٩٦ في ذراعه ... وفي اليوم السابع اشتكى متوعكا .. وفي اليوم التاسع أصبح يرتعد وفقد شهيته وأصيب بصداع خفيف ... وفي اليوم التالي كان في حالة جيدة تماما...

وكي أتأكد مما إذا كان الصبي بعد تعريضه لإصابة خفيفة من فيروس جدري البقر، أصبح آمنا (اكتسب مناعة) ضد الجدري (الذي يصيب البشر)، فقد تم حقنه في أول يوليو التالي بقيح الجدري الذي يصيب البشر Variolous matter (الكلمة اللاتينية Variola تعنى الجدري Smallpox) تم أخذها مباشرة من بشرة مصاب بالجدري ... فلم تظهر على الصبي أعراض الجدري وبعد عدة أشهر تم حقنه مرة أخرى بقيح الجدري الذي يصيب البشر لكن لم يظهر على بدنه أي عرض من أعراض الجدري.»[٩] واستمر جنر Jenner يصف حالات أخرى بلغت اثنتين وعشرين حالة اتخذ معها الإجراء نفسه فكانت النتائج مرضية تماما. وقد تعرض لاتهامات بإجراء التجارب على الأحياء وبدا للذين اتهموه وكأنه يقوم

بتشريح الأحياء وحاول الاستفادة من الأقلية الموافقة ببناء بيت صغير له، وإنشاء حديقة زهور يزرعها بيديه[١٠] وفي عامي ١٨٠٢ و ١٨٠٧ وافق البرلمان على منح جنر ٣٠,٠٠٠ جنيه إسترليني لتحسين طرائقه لمقاومة الجدري ونشرها. وكاد الجدري يختفي من أوربا وأمريكا خلال القرن التاسع عشر، وإذا حدث وأصيب به شخص فإن هذا الشخص يكون غير مطعم (لم يتلق التطعيم ضد المرض). وتم تطبيق نظام التطعيمات الواقية ضد أمراض أخرى وأسهم علم المناعة الجديد بالإضافة للوسائل الجديدة التي أحرزها الطب وبالإضافة لتحسن الظروف الصحية والبيئية العامة في تحسين الأحوال الصحية في المجتمعات الحديثة التي نهشها الفقر وترعرع فيها الجهل وازداد فيها الجشع وثابر فيها المرض بأساليب شتى.

الفصل التاسع عشر



الفلسفة الإنجليزية

لم يكن للعلم في بريطانيا في الفترة من ١٧٨٩ إلى ١٨١٥ سوى تأثير ضئيل في الفلسفة. أعني أن العلوم الطبيعية Physical يمكن أن تتوافق مع اللاهوت (الثيولوجيا) الليبرالي (المتحرر) بل وحتى فكرة التطور يمكن مواءمتها مع تفسير الخلق في ستة أيام باعتبار كل يوم يمثل فترة من فترات التطور تتسم بالطول. لقد أصبح أفراد الطبقات العليا الآن بعد أن أنهت الثورة الفرنسية تعاطفهم مع فولتير والموسوعيين Encyclopedists، لايثقون في الأفكار (الجديدة) باعتبارها أمراضاً معدية تصيب الشباب. لقد اعتبروا العبادة الأسبوعية استثمارا حكيما يؤدي إلى الانضباط الاجتماعي والاستقرار السياسي واشتكوا لأن رئيس الوزراء بت Pitt لايجد وقتا للذهاب إلى الكنيسة وكان هناك بعض الأساقفة الذين تشككوا في أمور الدين فيما بينهم وبين أنفسهم لكنهم عرفوا بين العامة بتقواهم ومع هذا استمر الصراع القديم. وفي عام ١٧٩٤ ظهر صوتان معبران عن الفكرتين المتناقضتين: توماس بين Paine في كتابه عصر العقل The Age of Reason ووليم بيلي Paley في كتابه نظرة في البراهين على المسيحية A view of the Evidences of Christianity.

١- توم بين: عن المسيحية

لقد كان «توم» بين – الذي عرف بهذا الاسم «توم» في قارتين – رجلا إنجليزيا ولد في أسرة من الكوكر(*) Quaker في ثتفورد في نورفولك Norfolk في سنة ١٧٣٧، وهاجر إلى أمريكا في سنة ١٧٧٤ بناء على نصيحة بنيامين فرانكلين، وقام بدور ناشط في الثورة الأمريكية. وأثنى الجنرال واشنطن على كتيب بين Paine الموسوم باسم «الحصافة أو الفطرة السليمة Common Sense» (يناير ١٧٧٦) لأنه «أحدث تغييراً قويا في عقول أناس

(*) أصحاب مذهب ديني. (المترجم)

كثيرين»[١] وفي أثناء حروب الثورة الأمريكية أصدر سلسلة من نشرات الدعاية باعتباره معاونا للجنرال ناثانيال جرين Nathanael Greene بعنوان «الأزمة» لرفع الروح المعنوية لجيش الثوار وللمواطنين. وقد بدأت إحدى هذه النشرات بالعبارة الشهيرة «في هذه الأوقات تعرف معادن الرجال» أوبتعبير آخر «تلك هي الأوقات التي تختبر فيها أرواح الرجال». وفي الفترة من ١٧٨٧ إلى ١٨٠٢ كان يعيش معظم الوقت في أوربا عاملاً لصالح الثورة الفرنسية في كل من فرنسا وإنجلترا. ووجدناه يخاطر برأسه عند تصويته لصالح تخفيف عقوبة الإعدام الصادرة ضد لويس السادس عشر إلى النفي. وفي ديسمبر من هذا العام (١٧٩٣) - بتحريض ظاهر من روبيسبير - أصدرت الجمعية الوطنية مرسوما بطرد كل الأجانب من عضويتها ولم يبق فيها إلا اثنان: أناكارزيس كلوتس Anacharsis Cloots وتوماس بين Paine. وعندما توقع بين Paine أن يقبض عليه سارع بكتابة ما يعرف الآن بالجزء الأول من «عصر العقل The Age of Reason»، وأرسل مخطوطة الكتاب إلى أمريكا مشفوعة بالإهداء التالي:

«إلى رفاقي أهل بلدي في الولايات المتحدة الأمريكية: إنني أضع العمل التالي تحت حمايتكم. إنه يضم آرائي في الدين. إنكم ستسدون إليّ عدلاً إن تذكرتم أنني كنت دائما أؤيد بشدة حق كل إنسان في إبداء رأيه مهما كان مختلفا مع ما قد يكون رأيي. إن من ينكر على الآخرين حقهم في إبداء رأيهم إنما هو عبد لرأيه الحالي لأنه يسلب نفسه حق تغيير هذا الرأي.

إن العقل هو أمضى سلاح ضد كل أنواع الخطأ ولم يحدث أبداً أن استخدمت سواه وإنني واثق أنني لن أثق - مستقبلاً - في سواه.

صديقكم المخلص ومواطنكم

توماس بين

باريس، ٢٧ يناير ١٧٩٤[٢]

ويقدم لنا بين Paine في مستهل كتابه هذا سببا غير متوقع لتأليف كتابه فيقول: إنه لا

يهدف إلى تدمير الدين وإنما يهدف إلى منع الفساد الناتج عن أشكاله(أشكال الدين) غير العقلية(اللاعقلانية) من أن يقوض النظام الاجتماعي ويدمره « خوفا من الخراب العام الذي تسببه الخرافة، والذي تسببه النظم الحكومية الزائفة واللاهوت الزائف، فهذه النظم الزائفة تفقدنا الأخلاق والإنسانية واللاهوت الحق » ويضيف قائلاً ومؤكداً مجدداً: « إنني أومن بالله الواحد الأحد لا رب سواه One and no more، وإنني آمل في تحقيق السعادة بعد هذه الحياة أي بعد الموت »(٣).

ثم يستل موسى أكام Occam يقول: « إنني لا أومن بعقائد اليهود ولا عقائد كنيسة روما ولا كنيسة الأورثوذكسية الشرقية (الكنيسة اليونانية) ولا عقائد المسلمين (النص: الكنيسة التركية Turkish Church) ولا الكنيسة البروتستنطية ولا أي كنيسة (مؤسسة دينية) أعرفها. فعقلي هو كنيستي. فكل الكنائس كمؤسسات وطنية... لاتبدو لي أكثر من كونها بدع بشرية أقيمت لإرهاب البشر واسترقاقهم ولاحتكار السلطة وتحقيق المكاسب »(٤).

وكان معجبا بالمسيح « كرجل فاضل ودود » وكان مقتنعا أن « الأخلاق والقيم اللتين بشر بهما وطبقهما كانتا خيرتين إلى أقصى حد » لكن حكاية كونه ابن الله ليست سوى خرافة مشتقة من خرافة شائعة بين الوثنيين.

« إذ يكاد كل الرجال المميزين الذين عاشوا في ظل الميثولوجيا الوثنية قد كرروا الزعم بأنهم أبناء الآلهة ... لقد كان اتصال الأرباب (الآلهة) اتصالا جنسيا بالنساء رأيا شائعا بين الناس. فالرب جوبيتر Jubiter في زعمهم قد تعايش مع كثيرات عيشة الأزواج. وعلى هذا فحكاية أن المسيح ابن الله ليست جديدة ولا غريبة ولا مدهشة ولا فاحشة وإنما هي مجرد فكرة كانت موجودة بالفعل ومريحة ومتمشية مع آراء وعقول غير اليهود Gentiles، ولأنها كانت منتشرة بينهم فهم وحدهم الذين آمنوا بها. أما اليهود الذين احتفظوا بالإيمان بإله واحد ولا سواه (لا شريك له) فكانوا يرفضون دائما الميثولوجيا الوثنية ولم يوافقوا أبدا على هذه الحكاية (على أن المسيح هو ابن الله) »(٥).

وعلى هذا فالميثوجيا المسيحية ليست سوى الميثولوجيا الوثنية في شكل جديد. إنها لا

تعدو كونها تكراراً للميثولوجيا الوثنية:

«ففكرة التثليث أو وجود أرباب (أقانيم) ثلاثة التي ظهرت بعد ذلك ليست سوى تخفيض أو تنقيص للتعددية السابقة التي كانت تقول بوجود نحو عشرين ألف أوثلاثين ألف رب. وقد حل تمثال مريم (العذراء) محل تمثال ديانا الإفسوسية Diane of Ephesus، وحل تطويب القديسين(المصطلح المسيحي تطويب يعني ضم شخص ما إلى قائمة القديسين) محل تاليه (أو تعظيم) الأبطال. فالمؤمنون بالأساطير (الميثولوجيون) لديهم آلهة (أرباب) لكل شيء، والمسيحيون المؤمنون بالأساطير عندهم قديسون لكل شيء، وأصبحت الكنيسة مزدحمة بهم كما كان البانثيون Pantheon مزدحما بالآلهة. فالنظرية (العقيدة) المسيحية لا تختلف إلا قليلا عن وثنية الميثولوجيين القدماء بعد تحويرها (أي العقيدة المسيحية) لتخدم أغراض السلطة والدخل (الاقتصاد) وبقي على العقل والفلسفة أن يبطلا هذا الدجل المبهم»[٦]. ثم راح بين Paine يلقي أضواءه البحثية مستخدما العقل في سفر التكوين (السفر الأول في التوراة) ولم يطق صبرا على حكاياته الرمزية وأمثاله فهوى بمعوله على حواء والتفاحة. وكان مثل ميلتون Milton مفتونا بالشيطان أول الثائرين لقد كان الشيطان (إبليس) ملكاً أُدْخِل جهنم لمحاولته الإطاحة بالعرش، وفي جهنم ظل يعاني طول الوقت بلا نهاية. ومع هذا فلا بد أن يهرب من هذه النار التي لاتخمد (جهنم) في وقت أو آخر لأنه كان قد وجد طريقه إلى جنة عدن، ولأنه استطاع غواية (الناس) بأكثر الطرق التواء. لقد استطاع أن يقدم المعرفة لحواء ونصف عالم المسيح. ويعجب بين Paine من أن الميثولوجيا المسيحية قد أضفت على الشيطان (إبليس) شرفاً كبيرا. إنها تفترض أنه أجبر الله (عز وجل) على إرسال ابنه (المقصود المسيح) لبلاد اليهودية Judea ليُصلَب، وذلك ليعيد له (المقصود لله سبحانه) على الأقل جزءا من أهل الأرض كانوا على علاقة حب – بشكل واضح – مع الشيطان. ورغم صلب المسيح فلازال الشيطان يحتفظ لنفسه بكل الممالك غير المسيحية بل وله ملايين من الأتباع في الممالك المسيحية نفسها.

كل هذا – كما يقول مفكرنا المتشكك توماس – تُقدمه لنا بوقار شديد – على لسان

الله جل جلاله – سلسلة من الأقوال منسوبة إلى موسى وحتى القديس بول (بولس) . ورفض بين Paine كل هذه الأقوال (الحكايات) باعتبارها حكايات تصلح لأطفال الحضانة وللكبار الذين أنهكهم البحث عن الخبز والزبد وأعياهم المرض وأرهبهم الموت فباع لهم اللاهوتيون أوهام الوعود الموعودة . وقدم بين Paine لذوي الأرواح الأقوى الله بصورة لا تشبه الإنسان وإنما باعتباره حياة الكون (الروح الحي في الكون) .

« لا يمكننا أن نوحد كل أفكارنا عن الله إلّا من خلال الخلق .. إن الخلق (الكون) يتحدث لغة عالمية (كونية) ... إنه كلمة الله (الكون) التي توحي للبشر كل ما هو ضروري لمعرفة الله . أتريد أن تتأمل قوته؟ إنها تتجلى في عظمة خلقه . أتريد أن تتأمل حكمته؟ إنها تتجلى في سنن الكون التي لا يعتريها تبديل والتي تحكم الكل الذي لايحيط به أحد . أتريد أن تتأمل كرمه؟ إنها تتجلى في تلك الوفرة التي تملأ الأرض . أتريد أن تتأمل رحمته؟ إنها تتجلى في كونه لايمسك فضله حتى عن العصاة . باختصار أتريد أن تعرف الله؟ ابحث عنه في الخلق لا في الكتاب المقدس المسيحي Scripture »[٧] .

وقد سُجن في الفترة من ٢٨ ديسمبر ١٧٩٣ حتى سقوط روبيسبير في ٢٧ يوليو سنة ١٧٩٤ . « وفي ٤ نوفمبر دعتني الجمعية الوطنية Convention علناً وبالإجماع للعودة إليها (الجمعية الوطنية) . . . وقبلت »[٨] . وفي أثناء الاضطراب العظيم لرد الشيرموديريين Thermidorean reaction ألف الجزء الثاني من كتابه (عصر العقل The Age of Reason) وكرسه لتوجيه نقد حاد للكتاب المقدس Bible وأضاف قليلا لنقد أفكار وردت في دراسات أكاديمية كان معظمها من تأليف رجال الدين. لقد ضاعت سدى – في إنجلترا وأمريكا – اعتراضاته على الإيمان بالرب (المقصود هنا يسوع المسيح) بسبب اعتراضه وعدم تعاطفه مع الكتاب المقدس الذي كان عزيزا على الشعوب والحكومات، فوجد نفسه بلا تكريم في وطنه الأصلي ووطنه الجديد ، وعندماعاد في سنة ١٨٠٢ إلى نيويورك (التي سبق لها أن قدرت خدماته لجمهور الأمريكيين بمنحه ٣٠٠ أكر (فدان) في نيوروشل New Rochelle) ووجه باستقبال بارد . وأدمن الشرب في السنوات السبع الأخيرة من عمره ومات في نيويورك سنة ١٨٠٩ وبعد موته بعشرة أعوام عمل وليم كوبت William Cobbett على

نقل رفاته إلى إنجلترا، حيث لعبت روحه غير الواهنة – من خلال كتبه – دورا في المعارك الطوال التي تمخض عنها صدور مرسوم الإصلاح Reform Act في سنة ١٨٣٢ .

ورغم أن بين Paine كان من القائلين بوجود إله (دون إيمان بأديان منزلة) ولم يكن ملحدا إلا أن كثيرين من المؤمنين بالمسيحية شعروا أن إيمانه بوجود إله لم يكن إلا غطاء مهذبا لعدم إيمانه برب متجسد (المسيح كرب) وقدم وليم بالي William Paley كاهن أسقفية ويرموث Wearmouth دفاعا مقتدرا عن عقيدته في كتابه « نظرة في البراهين على المسيحية » (١٧٩٤) لدرجة أن قراءة هذا الكتاب ظلت حتى سنة ١٩٠٠ شرطا للقبول في جامعة كيمبردج وكان كتابه « لاهوت الطبيعة Natural history » (١٨٠٢) لايزال هو الأكثر شهرة فهو كتاب يبحث في البرهنة على وجود قوة ذكية علوية » بتجميع براهين وأدلة من العلوم المختلفة. لقد قال: برهنا إذا رأى إنسان ساعة ولم يكن قد سبق له رؤية ساعة من قبل، ألن يتفحص ماكينتها، ويضع في اعتباره أن كائنا ذكيا صممها؟! ثم أليس في الطبيعة مئات العمليات تشير إلى تنظيم الوسائل لتحقيق الأثر المطلوب؟! « فمن ناحية نحن نرى قوة ذكية ترتب نظام الكواكب ... ومن ناحية أخرى فإنها – أي هذه القوة الذكية تقدم العملية (الميكانيكية) المناسبة لحركة جناحي الطائر الطنان وحركة ريشه... فكل جسم طبيعي متسق، بما ينطوي عليه من إمكانية حفظ نوعه وكيانه وإمكانية تكاثره يشهد بعناية الخالق وتوجيهه لتحقيق أهدافه »[٩].

وبدأ نصف المتعلمين في إنجلترا بمناقشة كتب بالي Paley وساعته ، وتحدث كولردج Coleridge ووردسورث Wordsworth وهازلت Hazlitt عنها في مناقشة حيّة في كزويك Keswick. لقد عاش كتاب « اللاهوت الطبيعي Natural Theology طويلا، بل إن دارون العظيم نفسه درسه بعناية قبل صياغة نظريته المنافسة عن تكيف الأعضاء وتطورها لتحقيق الغايات المطلوبة وأن البقاء للأصلح من خلال الانتخاب الطبيعي. وبعد بالي Paley بقرن جاء هنري بيرجسون Bergson ليفيد – ببلاغة – صياغة « برهان من تصميم الكون » في كتابه L'évolution Créatrice الصادر في سنة ١٩٠٦ . واستمر الجدل[١٠].

٢- جودون: عن العدالة

رغم أن الجميع قد نسوا وليم جودون (١٧٥٦ – ١٨٣٦) الآن إلا أنه كان أكثر الفلاسفة الإنجليز تأثيرا في جيله. لقد كتب هازلت Hazlitt في نحو سنة ١٨٢٣ : «ليس ثمة عمل في زماننا وجّه لطمة للتفكير الفلسفي في هذه البلاد مثل العمل الشهير» «أسئلة حول العدالة السياسية Enquiry Concerning Political Justice»[١١] لقد قال وردسورث لطالب شاب «الق بكتب الكيمياء الخاصة بك واقرأ كتاب جودون عن الضرورة On Necessity»[١٢] وعندما كبر جودون في السن وراح يشك في نفسه رأى أفكاره تنتشر على جناحي أغنية تغنى بها الشاعر شيلي Chelley زوج ابنته وكان أبواه مسيحيين متمسكين بمذهب كالفن مؤمنين بالقضاء والقدر خيره وشره من الله (الجبرية) وقد أصبح جودون مثلهما قدريا (جبريا) وكان أبوه منشقا عن كنيسة إنجلترا وتلقى هو نفسه تعليماً ليكون واعظاً وعمل كرجل دين في مدن كثيرة، وبينما كان في ستوماركت Stowmarket قدمه شاب جمهوري للمفكرين الفرنسيين الذين سرعان ما قلبوا عقيدته رأساً على عقب. لقد أخذ الإلحاد عن دولباش D'holbach رغم أنه في سنوات لاحقة جعل لله مكاناً – بشكل مهذب – في مجلده الحاشد. لقد أخذ من هلفيتيوس Helvetius الإيمان بالتعليم والعقل باعتبارهما أساس اليوطوبيا (المدينة الفاضلة) وحذا حذو روسو في قبول مبدأ صلاح البشر لكنه كان يفضل إقامة مجتمع قائم على التعاون الطوعي بين الأفراد والجماعات – يفضله على دولة روسو ذات السلطة المطلقة. لقد تخلى عن منصبه في الكهنوت المسيحي وشرع في دهن خبزه بالأحبار والقلم. وانضم إلى لورد ستانهوب Stanhope وتوماس هولكروفت Holcroft في نادي «الثوريين» لكنه أسلم نفسه معظم الوقت للدراسة الشاقة والكتابة الصعبة، وفي سنة ١٧٩٣– وكان قد بلغ السابعة والثلاثين – أصدر أكثر الأعمال(الكتب) راديكالية في زمانه.

وقد جعل لكتابه عنواناً هو «سؤال عن العدل السياسي وتأثيره في الفضائل العامة والسعادة Enquiry Concerning Political Justice & its influence on General virtue & Happiness» وواضح أنه كتاباً عن الحكومة يغطي تقريبا كل قضايا الفلسفة من الإدراك إلى

فن الحكم (فن إدارة شؤون الدولة) ويتوقف غير بعيد عن تناول الرب (الله) . لقد احتقر خرافات الجنة والجحيم كأدوات (وسائل) واضحة لتسهيل أمور الحكم وفرض الطاعة[١٣] . وأدان الإكليروس (رجال الدين) الذين يقسمون على قبولهم الإيمان الرسمي المصاغ في تسع وثلاثين مادة (قانون الإيمان) بينما هم يتخلون عنه فيما بينهم وبين أنفسهم[١٤] . لقد رفض حرية الإرادة free will والإرادة نفسها إذا جرى فهمها كسلطة أو صلاحية أو مقدرة مميزة أو استثنائية . إنها بالنسبة إليه مجرد مصطلح مجرد للاستجابات الواعية للمواقف والرغبات والحوافز أو المثيرات[١٥] . وما دامت الأفعال مقررة سلفاً بفعل الوراثة والخبرة الفردية والظروف الحالية فلا بد أن نواجه أخطاء الآخرين بدون غضب أو اتهام مضاد وإنما لا بد من إصلاح نظامنا العقابي ليكون مبنياً على الإصلاح أو إعادة التأهيل أكثر من أن يكون مبنيا على العقاب، وعلى أية حال، فإنه قد يكون من الضروري أن نستخدم المديح واللوم والعقاب كوسائل معينة على الإصلاح مستقبلا »[١٦] .

ما هو الذي سنمتدحه وما هو الذي سندينه؟ سنمتدح ما هو حسن وسندين ما هو قبيح، فما هو الحسن؟ لقد سار جودون على خطى هيلفيتيوس Helvetius (١٧٥٨) وبنثام Bentham (١٧٨٩) فعرف الحسن (الخير) بأنه ما يزيد سعادة الفرد والجماعة وعرف السعادة بأنها بهجة الجسد والنفس والعقل والمشاعر، بهجة سوية، وهذه الفلسفة الأخلاقية ليست حسية جسدية (شهوانية) وليست هي فلسفة اللذة لأنها تجعل المباهج العقلية فوق مباهج الحواس . إنها ليست أنانية (ذاتية تتحلق حول الأنا) لأنها تقول بأن الفرد جزء من جماعة لأن صلاح الجماعة شرط لأمان الأفراد الذين يكوّنون هذه الجماعة، ولأن من بين أرقى أنواع المباهج إسهام الأفراد في إسعاد رفاقهم في الجماعة . فغرائزنا الاجتماعية تؤدي إلى قيامنا بأفعال غير أنانية (منطوية على حب الغير) وهذه الأفعال يمكن أن تمنحنا مسرة تفوق أي بهجة حسية أو عقلية وأكثر دواماً منها[١٧] . فأن تكون شفوقا رحيما يعني أن تكون سعيدا، وأن تنزع منك الرحمة يعني أن تكون بائسا » . فالأخلاق – علم السعادة البشرية – هي المبدأ الذي يربط الفرد بجنسه البشري وهي الدوافع التي تعمل على حثنا على تعديل سلوكنا وجعله على نحو أمثل لتحصيل مزايا يجنيها الجميع »[١٨] .

فالعدالة إذن هي تنظيم سلوك الفرد والجماعة لتحقيق أقصى قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس. « فالهدف العاجل للحكومة هو أمن الجماعة والفرد » وما دام الفرد يرغب في أكبر قدر من الحرية مما ينسجم مع أمنه، فإن « أفضل وضع للبشر هو الوضع الذي يحافظ على الأمن العام مع أقل انتهاك ممكن لاستقلال الفرد »[١٩]. وعلى هذا فليست هناك حاجة لمراسيم حكومية أو دينية للزواج، فاتفاق اثنين من البالغين على العيش معا يجب أن يكون كافيا، ويجب فسخ الارتباط (الاتفاق على العيش معا) إذا رغب في ذلك أحد الطرفين[٢٠]. (وقد أعجب الشاعر شيلي Shelley بهذا الاتجاه على نحو خاص).

ولم يكن جدون يحب الحكومات. فمهما كانت أشكالها ومهما كانت النظريات التي تقوم عليها، فإنها لاتعدو أن تكون سيطرة الأقلية على الأغلبية. لقد كان دوما يتبرأ من دعوى المحافظين أن الجماهير مفطورة على الدونية وأنها دائما تميل للقتل، ولهذا فلا بد من حكمها إما بالكذب عليها أو إرهابها أو إجبارها (بالكذب أو الإرهاب أو القوة). وكان - مثل أوين Owen - يعتقد أن هذه الصفات الدونية ترجع إلى نقص التعليم أو قلة الفرص أو فساد البيئة[٢١]. وسخر من المساواة أمام القانون لأنه كان يرى كل يوم الذين يحصلون الأموال الطائلة بطرق ملتوية وغير سليمة يفلتون من العقاب بحيل قانونية أو بسبب محاباة القضاة لهم[٢٢]. ولم يكن اشتراكيا فقد قبل مبدأ توريث الثروة ومبدأ تعيين أوصياء لإدارتها[٢٣]. وعارض السيطرة الحكومية على الإنتاج والتوزيع[٢٤]، لكنه أصر على ضرورة أن تكون الملكية الشخصية في خدمة الصالح العام[٢٥]، وحذر من أن تركيز الثروة ما هو إلا دعوة إلى الثورة[٢٦].

وعلى أية حال، لم يكن ميّالاً إلى الثورة. « فحين تتغير طبائع الأجناس البشرية تغيرا جوهريا » فإن الإطاحة بالنظام القائم بالقوة، وأية محاولة ثورية لإعادة توزيع الثروة، ستسبب فوضى اجتماعية « تلحق ضررا بالرخاء العام أكثر من الضرر الذي يلحقه عدم المساواة (التفاوت في الثروة) الذي تحاول إزالته »[٢٧]. فالثورة في الفكر (تغيير الآراء) هي السبيل الوحيد للوصول لتوزيع أفضل للثروة[٢٨]. وهذا يتطلب تعليماً يستغرق فترة طويلة ويتطلب صبرا.. تعليماً تتلقاه الأجيال من خلال المدارس والإنتاج الأدبي والفكري.

ومع هذا فسيكون من الخطأ أن نقدم تعليما عاما من خلال نظام وطني للمدارس (المقصود نظام حكومي تتبناه الدولة) لأنه سيكون في هذه الحال أداة من أدوات الشوفينية (الغلوّ في الوطنية) مما يؤدي إلى قيام الحروب، وأداة من أدوات البروبا جندا (الدعاية) الحكومية التي تهدف إلى ترسيخ قيم الطاعة العمياء(٢٩). إذ لا بد من ترك التعليم في أيدي القطاع الخاص الذي يجب دائما أن يقول الحق والذي يجب أن يعوّد الطالب على استخدام العقل. «فالعقل ليس» مبدأً مستقلاً أو ملكة أو قدرة كلية «وليس لديه ميل لحثنا على الفعل. فهو من الناحية العملية مجرد أداة للمقارنة – والموازنة – بين المشاعر المختلفة. فالعقل ... قد صُمِّم (بضم الصاد) لتنظيم سلوكنا على وفق القيمة المقارنة للمثيرات أو المنبهات أو الدوافع.» «فالأخلاق ليست إلا حساب النتائج أو العواقب»(٣٠) بما في ذلك النتائج أو العواقب التي تعود على المجتمع». وعلى هذا فتحسين العقل يعني تحسين أحوالنا الاجتماعية»(٣١).

إن الطريق إلى المدينة المثالية (اليوطوبيا) عن طريق التعليم طريق طويل وشاق لكن الإنسان قد حقق بعض التقدم في السيرفي هذا الطريق، وليس هناك حد لمزيد من التقدم فيه. إن الهدف أن تتلقى البشرية تعليما كافيا متبصرا يتيح لها إعمال العقل بحرية (دون قيود). إن إلغاء الحكومة (الأنارشية) هدف بعيد لكنه سيظل مع هذا هدفا لكثير من الأجيال القادمة وطبيعة الإنسان ستحتم شكلاً أو آخر من أشكال الحكومة. دعونا نواصل آمالنا في أن يتطور الذكاء – عبر أجيالنا القادمة – ليصبح حرية منضبطة.

ولابد أن جدون كان يمتلك نبعاً ثراً من الذكاء لأنه في سنة ١٧٩٤ أصدر – بعد عام واحد من نشرة كتابه الحاشد (أسئلة عن العدالة السياسية ...) أصدر رواية حكم عليها كثيرون بأنها الرواية الرائعة البارزة في ذلك العصر. إنها رواية كالب وليامز Caleb Williams التي أظهرت روح الحكومة وطبيعتها من حيث كونها تقحم نفسها في حياة كل طبقات المجتمع» وقد أضاف المؤلف إلى هذه الرواية قصة حياته: لقد تزوج ماري ولستونكرافت Wollstonecraft (١٧٩٧) وتبنى ابنتها فاني إمالي Fanny Imaly التي أنجبتها نتيجة اتصالها الجنسي بشخص دون زواج (نتيجة علاقة زنا) وعاش مع ماري مدة عام في عِشْرةٍ

مثيرة. يقول: «لقد قدرت فيها طاقاتها العقلية، ونزوعها النبيل إلى الكرم، ولم تكن الرقة وحدها كافية لتحقيق السعادة التي جربناها»[٣٢] وقد ماتت - كما رأينا - بعد فترة قصيرة من إنجابها ماري جدون شلي Mary Godwin Shelley وفي سنة ١٨٠١ تزوج من مدام ماري جين كليرمونت Mary Jane Clairmont التي كانت ابنتها (من زوجها الأول) واحدة من مديرات منزل بايرون Byron. وقد دعم الزوج والزوجة حياتهما المعقدة بنشر الكتب التي كان من بينها «حكايات من شكسبير» (١٨٠٧) الذي ألفه شارلز لامب وماري لامب Charles & Mary Lamb. ونتيجة تخلي وردسورث Wordsworth وكولردج Coleridge عنه وابتعادهما عن صداقته واجه أياما عصيبة، وساعده شيلي Shelley الذي كان هو نفسه معسرا، وفي سنة ١٨٣٣ - وبالسخرية التاريخ - عينته الحكومة - التي كان يعتبرها شرا لا بد منه - موظفاً في الخزانة براتب متواضع كان يكفي طعامه حتى مات في سنة ١٨٣٦.

٣- مالتوس: عن السكان

لقد عمل كتاب جودون الآنف ذكره (أسئلة حول العدالة السياسية) على دفع كتاب آخر إلى المطبعة وقد أصبح هذا الكتاب الآخر أكثر شهرة من كتاب جودون نفسه. وساعد على ذلك رد فعل غير عادي من ابن ضد فلسفة أبيه الليبرالية. لقد كان دانيال مالتوس Daniel Malthus (توفي سنة ١٨٠٠) شخصاً لطيفاً غريب الأطوار وكان صديقاً شخصيا لديفد هيوم (تكتب أيضا دافد / الصيغة العربيةللاسم هي داود) وجان جاك روسو. وشارك الإسكتلندي شكوكيتة والسويسري تشاؤمه، حول الحضارة. وقد كان هو شخصيا مشرفا على تعليم ابنه فيما قبل دخوله الكلية، وكان واثقا من أن توماس مالتوس (١٧٦٦ - ١٨٣٤) سيكون راديكاليا ممثلاً للقانون مثله (أي مثل أبيه دانيال مالتوس) مثل جودون. وواصل مالتوس في كامبردج ودخل في سنة ١٧٩٧ سلك الكهنوت الإنجليكاني، وعندما ظهر كتاب جودون (١٧٩٣) راح الأب والابن يتناقشان بشغف فيما ورد به من أفكار، ولم يشارك الابن أباه في حماسه لأفكار الكتاب. لقد شعر الابن بأنّ هذا الولع المثالي

(اليوطوبي) بالعقل المنتصر (بانتصار العقل) لامبرر له، لأنه قد جرى تسفيهه مرارا بالحقيقة البسيطة التي مؤداها أنه كلما زاد الطعام وتحقيق الرخاء سرعان ما يؤدي تزايد السكان إلى محق هذا الرخاء، وقد عبر سِفْر الجامعة في التوراة عن هذا ببلاغة. فمادامت خصوبة الأرض محدودة ولا سبيل لوقف الشهوة الجنسية فهذا يؤدي إلى تضاعف عدد الأفواه بسبب الزواج المبكر والإنجاب الكثير وانخفاض نسبة الوفيات بين الأطفال والشيوخ، وهذا بدوره يؤدي إلى استهلاك أية زيادة في الطعام بسرعة. ولم يتفق الأب مع ابنه في هذه النتيجة ولكنه كان معجبا بالطريقة التي دافع بها ابنه عن آرائه فطلب من ابنه أن يكتب وجهات نظره وبالفعل كتبها توماس ونشرها في سنة ١٧٩٨ في كتاب بعنوان: «مقال عن مبادئ السكان وتأثيرها في مستقبل المجتمع An Essay on the principle of population as it affects the future improvement of Society» وقد بدأ كتابه باعتذار يسترضي فيه الكاتبين اللذين يتحدى في كتابه نزعتهما التفاؤلية:

«لا أستطيع أن أشك في مواهب رجال مثل جودون، وكوندرسيه Condorcet ... لقد قرأت – وبسرور شديد – بعضاً من آرائهما عن طرائق الوصول بالإنسان والمجتمع إلى حد الكمال، ولقد ابتهجت وتفاعلت بحرارة مع الصورة البهيجة التي رسماها. إنني أرغب بشدة في تحقيق هذه التحسينات. إلا أنني – على وفق ما يهديني إليه تفكيري – أرى صعوبات شديدة لا تقهر أمام ما ذكراه. وهدفي هو تبيان هذه الصعوبات، لكنني أعلن في الوقت نفسه أنني أبعد ما يكون عن السعادة لوجود هذه الصعوبات، وأنني لم أتخذها سببا يسعدني للانتصار على أصدقاء الفكر، فلا شيء يسعدني أكثر من أن أرى هذه الصعوبات وقد تلاشت»[٣٣]. وحاول مالتوس أن يصيغ حججه بشكل رياضي. فافترض أن الطعام يزيد كل ٢٥ عاما بمتوالية حسابية (من ١ إلى ٢ إلى ٣ إلى ٤ إلى ٥ إلى ٦ وهكذا) أما السكان فيزيدون – إذا لم تكن هناك عوائق تمنع الزيادة – بمتوالية هندسية (١، ٢، ٣، ٤، ٨، ١٦، ٣٢ .. وهكذا) مفترضا أن كل زوج وزوجة سينجبان ٤ أبناء يظلون على قيد الحياة. وعلى وفق هذه النسبة فإنه «في غضون قرنين سيصبح (عدد السكان) بالنسبة إلى موارد الرزق ٢٥ إلى ٩، وفي غضون ثلاثة قرون ٤,٠٩٦ الى ١٣، وفي غضون ألفي سنة

سيصبح الفارق مهولا »[٣٤] والسبب في أن عدد السكان لايرتفع بمثل هذه السرعة هو أن الناس يواجهون بعوامل سلبية أو إيجابية تحول بينهم وبين التناسل. فالعوامل السلبية مانعة (وقائية): تأجيل الزواج بسبب الفقر أو غيره من الأسباب، الرذيلة (ويعنى بها مالتوس العلاقات الجنسية خارج نطاق الزوجية) والعلاقات غير الطبيعية (كالشذوذ الجنسي ..الخ) واستخدام وسائل منع الحمل أو تمديد النسل داخل نطاق الزوجية أو خارجها. وإذا فشلت هذه العوامل السلبية في حفظ التوازن بين السكان والطعام المتاح فإن الطبيعة nature والتاريخ يقدمان لنا عوامل إيجابية تؤتي مفعولها مع الأفراد الموجودين بالفعل: قتل الأطفال، الأمراض، المجاعات، الحروب، وبذلك تتم الموازنة بين المواليد والوفيات.

وخلص مالتوس من هذا التحليل الكئيب بنتائج غريبة. أولا، لا يوصي بزيادة أجور العمال لأنه إن زادت أجورهم تزوجوا مبكرا وأنجبوا مزيداً من الأطفال مما سيؤدي إلى زيادة السكان زيادة تفوق الزيادة المتاحة في الطعام فيعود الفقر من جديد. وعلى النحو نفسه لا داعي لزيادة الضرائب المخصصة للإنفاق على العاطلين فهذا سيؤدي إلى التشجيع على الكسل وسيجعل عدد أفراد الأسرة يزداد فتتضاعف الأفواه بسرعة أكثر من تضاعف الطعام المتاح، وسيؤدي التنافس بين المشترين لأن يرفع البائعون أسعار بضائعهم المتناقصة، وسرعان ما يعود الفقراء الذين كانوا قد نعموا بشيء من الرخاء إلى الفقر من جديد[٣٥].

وليواصل تدمير (أفكار) جودون، استمر مالتوس متناولاً «حلم» فلسفة اختفاء الحكومة (الاستغناء عنها) فإذا اختفت الحكومة تعين على كل فرد أن يحرس مخزونه القليل بالقوة» كما نحكم اغلاق أبوابنا ونوافذنا إذا ضاع القانون وعمت الفوضى. وستنتصر الأنانية وسيصبح النزاع أبديا »[٣٦] وبإزالة كل العوائق أمام الاتصال الجنسي سيزيد عدد السكان زيادة تفوق زيادة الإنتاج مما سيؤدي إلى تقليص نصيب الفرد وستضيع المدينة الفاضلة (اليوطوبيا) في خضم منافسة يائسة وستحل فوضى لا سبيل إلى تجنبها وسينتشر البؤس[٣٧]. فلا يكون هناك حل إلا إعادة الحكومة وحماية الملكية الخاصة وتشجيع الإنتاج والاستثمار وإن حدث تمرد قامت عليه جماعة مخصوصة تحتم قمعه بالقوة وسيعود التاريخ

إلى صيغته التقليدية: منتجات الطبيعة nature تقتسمها طبيعة الإنسان، أو طبيعة الإنسان هي التي تقسم منتجات الطبيعة. وفي صياغة جديدة موسعة ومراجعة لكتابه وضّح مالتوس بشكل أكثر حدة وتفصيلا العلاجات الوقائية التي تحول بيننا وبين الكوارث التي يلحقها بنا التاريخ والطبيعة كعلاج لمشكلاتنا (عدم التوازن بين عدد السكان والطعام المتاح). لقد اقترح وقف الإعانات عن الفقراء وعدم التصدي للمشروعات الخاصة (الحرة) واقترح ترك قانون العرض والطلب ليقوم بدوره في العلاقات بين المنتجين والمستهلكين وبين العاملين وأصحاب العمل. واقترح وضع العوائق أمام الزواج المبكر لخفض نسبة المواليد. «إن التزامنا هو ألا نتزوج إلا بعد أن تكون إمكاناتنا في حالة تسمح لنا بدعم (رعاية) أبنائنا»[٣٨] وفوق هذا يجب أن يتعلم الناس كيف يكبحون شهواتهم قبل الزواج وبعده «ولا بد أن تتسم الفترة الواقعة بين سن البلوغ والزواج، بالعفة والتزام الفضيلة»[٣٩] فإذا ما تم الزواج لا بد أن يمنع الحمل بأي طريقة وبأي صورة من الصور». وإذا لم نلتزم بهذه التدابير أو تدابير مماثلة، فلا بد أن نوطن أنفسنا على مجاعات أو أوبئة أو حروب تقوم بدورها في إنقاص عدد السكان. وتلقى المحافظون البريطانيون ما ورد في كتاب مالتوس كوحي مقدس (إلهي)، وشعر البرلمان وأصحاب الأعمال بأن لديهم مايبرر موقفهم في مقاومة مطالب الليبراليين – مثل روبرت أوين Robert Owen – التي تنادي بالتخفيف من وطأة قانون العرض والطلب بإصدار قوانين لتخفيف آلام المحتاجين. وسحب وليم بت Pitt المرسوم الذي كان قد قدمه لتوسيع نطاق قوانين إغاثة الفقراء[٤٠]. وبدت الإجراءات التي كانت الحكومة قد اتخذتها بالفعل ضد الراديكاليين البريطانيين عادلة بفعل مبررات مالتوس واتهاماته لهؤلاء الباعة الجوالين الذين يسوقون المدينة الفاضلة (اليوطوبيا) والذين يضلون البسطاء تضليلا مأسويا. واشتد إيمان أصحاب الصناعة البريطانيين في جدوى خفض الأجور لتحقيق الطاعة والانضباط في العمل. وجعل ريكاردو Ricardo من نظرية مالتوس أساسا «لعلمه الكئيب his dismal Science» (أطلق كارليل Carlyle هذا الاسم «العلم الكئيب» على الاقتصاد بعد قراءته لكتابات مالتوس). والآن أصبحت كل الشرور تقريبا تعزى إلى خصوبة الفقراء الطائشة أو بتعبير آخر تعزى إلى كثرة إنجابهم بشكل غير محسوب – لقد أحدث كتاب

مالتوس الاضطراب والفزع في صفوف الليبراليين، فاستغرق جودون عشرين عاما لإعداد رده وأخيرا أصدر كتابة «عن السكان، رد على مالتوس» (١٨٢٠) وكان في غالبه تكراراً لآماله وشكوى من أن مالتوس حول أصدقاء التقدم إلى رجعيين[٤١]. وكان وليم هازلت Hazlitt استثناء: ففي مقال عن مالتوس في كتاب «روح العصر The spirit of the Age» (١٨٢٤) هاجم هذه «القدسية التي لاتعرف الرحمة» أوبتعبير آخر هاجم نسبة القسوة إلى الله بكل ما أوتي من طاقة عقلية وحدة في الذهن. لقد ذكر أن خصوبة النبات تفوق كثيرا خصوبة النساء «فالحبوب ستتكاثر وتتضاعف أسرع بكثير جدا من زيادة الجنس البشري، فمقدار بوشل bushel(مكيال للحبوب يساوي ثمانية جالونات أو نحو ٣٢ لترا ونصف اللتر) يزرع حقلا، وهذا الحقل سيثمر حبوبا تكفي لزراعة عشرين حقلا آخر». ستكون هناك «ثورات خضراء green revolutions»[٤٢].

وفي أوقات لاحقة راح الكتاب يجمعون الحقائق لإبطال مخاوف مالتوس وتسكينها. ففي أوروبا والصين والهند زاد السكان لأكثر من الضعف بعد مالتوس، ومع هذا كان لديهم من موارد الطعام أكثر من ذي قبل. وفي الولايات المتحدة الأمريكية تضاعف السكان عدة مرات منذ سنة ١٨٠٠ ومع ذلك زاد الإنتاج الزراعي عن الحاجة وتبقى فائض وفير للتصدير. وعلى العكس مما قاله مالتوس أدى ارتفاع الأجور إلى انخفاض نسبة المواليد. فلم تعد المشكلة نقصا في البذور أو الحقول وإنما نقصا في الطاقة غير البشرية (الآلية) لاستخدامها في الزراعة والصناعة، وإمداد القرى والمدن.

وبطبيعة الحال فإن الإجابة الحقيقية بالنسبة إلى مالتوس كانت هي منع الحمل – لقبوله على المستوى الأخلاقي، ولانتشاره وكفايته وقلة تكلفته. لقد حطمت علمانية الفكر الحواجز اللاهوتية التي وضعها رجال الدين في وجه ضبط النسل. لقد حولت الثورة الصناعية الأطفال من موجودات اقتصادية ذات نفع كما كان الحال عند عملهم في المزارع إلى موجودات معوقه اقتصاديا في المدن إذ راح تشغيل الأطفال ينقص تدريجيا، وارتفعت تكاليف التعليم وزاد ازدحام المناطق الحضريّة. وانتشر الوعي (الذكاء) فقد تحقق الرجال والنساء أن الأحوال التي تغيرت لم تعد تتطلب أسرة كبيرة العدد. وحتى الحروب لم تعد

تتطلب حشوداً من الشباب ينتشرون في مواجهة حشود أخرى ليلقوا مصرعهم بقدرما أصبحت في حاجة إلى الابتكار التقني لتحقيق التدمير المادي. وعلى هذا فالرد على مالتوس لم يكن متمثلاً في نظريات جودون وإنما من « المالتوسيين الجدد Neo Malthusians » ودعوتهم إلى « ضبط النسل ». وفي سنة ١٨٢٢ نشر فرانسس بلاس Place كتابيه « توضيحات وبراهين حول قضية السكان ». لقد وافق على المبدأ الذي وضعه مالتوس والذي مؤداه أن السكان يزيدون بمعدل أسرع من زيادة مقادير الطعام. ووافق على ضرورة وضع قيود على الزواج لكن ليس بتأجيله وإنما الأفضل قبول منع الحمل كبديل شرعي ومقبول – نسبيا – من الناحية الأخلاقية لمواجهة الخصوبة الطبيعية العمياء (غير الموجهة) والتدمير الجماعي الذي تسببه الحروب.

(وكان هونفسه قد أنجب خمسة عشر طفلا مات منهم خمسة في مرحلة الطفولة) وقد وزع في لندن نشرات طبعها على نفقته الخاصة يدعو فيها لضبط النسل وواصل معركته (دعوته) هذه حتى موته وهو في الثالثة والثمانين من عمره (مات سنة ١٨٥٤). ولقد عاش مالتوس عمرا طويلا يسمح له بالشعور بمدى قوة حجج بلاس Place . وفي سنة ١٨٢٤ ساهم في دائرة المعارف البريطانية بمقال راجع فيه نظريته وتراجع عن نِسَبه الرياضية المرعبة، وركز – بشكل جديد – على زيادة عدد السكان كعامل في النضال من أجل الوجود. وبعد ذلك بسنوات طوال كتب شارلز دارون في سيرته الذاتية:

« في أكتوبر سنة ١٨٣٨ بعد أن بدأت بحثي النظامي بخمسة عشر شهرا، حدث أن قرأت – ترفيها عن نفسي – كتاب مالتوس عن السكان وكنت مهيأ لتقدير قيمة الصراع من أجل البقاء . . . من خلال ملاحظاتي المستمرة الطويلة لعادات الحيوانات والنباتات. لقد أذهلني ذات مرة أنه في ظل هذه الظروف فإن التغييرات الملائمة (المناسبة) ستسبب حفظ النوع، والتغييرات غير الملائمة ستؤدي إلى التدمير. ونتيجة هذه العملية هو ظهور أجناس جديدة. وهنا أمسكت بنواصي نظرية البقاء للأصلح »

وعلى هذا وبعد نحو جيل استمر فيه المزيد من البحوث والتأمل والتفكير نشر دارون في سنة ١٨٥٩ كتابه « أصل الأنواع » The Origin of species وهو الكتاب الأكثر تأثيرا في

القرن التاسع عشر. إن سلسلة من الأفكار تزين «السلسلة الكبرى للوجود» وتشكل تاريخ الحضارة.

٤- بنثام: عن القانون

استخلاص أفكار جرمي بنثام أصعب من استخلاص أفكار جودون ومالتوس، لأن جودون قدم مثاليات مغرية، ومالتوس قدم بعض الرعب الفاتن أما بنثام (١٧٤٨ - ١٨٣٢) فكتب في الاقتصاد والربا والمنفعة والقانون والعدالة والسجون - بالإضافة إلى أنه كان ماردا انعزاليا ظل يتعلم بلا نهاية، دائم التفكير في الأمور التي يصعب تحديدها، وكان لاينشر إلا قليلا وفكر في إصلاح كل شيء، وتذمر من اقتران العملاقين (الغولين): المنطق والقانون، واستمر تأثيره يزداد في أثناء حياته (بلغ من العمر ٨٤ عاما) وساد طوال قرن.

لقد كان ابنا لمحام ثري كاد يسحقه من كثرة التعليم. وقيل إنه قرأ في الثالثة من عمره كتاب تاريخ إنجلترا ذي الثمانية مجلدات الذي ألفه بول دي رابين Paul de Rapin وكان قد بدأ تعلم اللغة اللاتينية وهو في هذه السن (كانت هذه التربية القاسية الخانقة قد انتقلت إلى جيمس ميل Mill تلميذ بنثام وطبقها على ابنه جون). وفي مدرسة وستمنستر Westminster تفوق جيرمي في كتابة الشعر باليونانية واللاتينية.

وفي أكسفورد تخصص في المنطق وحصل على درجته العلمية وهو في الخامسة عشرة من عمره. وواصل دراسة القانون في لينكولن Lincoln لكن اضطراب كتب القانون أثار سخطه وانتهى إلى إدخال المنطق والنظام للتشريعات البريطانية وعلم القانون في بريطانيا مهما كلفه ذلك . وفي ديسمبر سنة ١٧٦٣ وكان في الخامسة عشرة من عمره سمع مديح وليم بلاكستون William Blackstone للقانون البريطاني فاعترته الدهشة والسخط لهذا النفاق الصدّاح الذي سيؤخر الإصلاح التشريعي ولا شيء غير ذلك ويكاد يكون قد قضى عمره منذ ذلك الوقت حتى وفاته في إدخال المنطق والاتساق والروح الإنسانية للقانون الإنجليزي. لقد سأل نفسه: «ألدي عبقرية في أي شيء؟ ماذا أستطيع أن أنجز؟ ما هو الأكثر أهمية في هذه الحياة؟ التشريع. ألدي عبقرية في التشريع (سن القوانين)؟ لقد أحببت

نفسي خائفا مرتجفا: نعم»[٤٣] إن هذه الثقة وهذا الاعتزاز المصحوب بالخوف يمكن أن يكون ينبوعا للإنجاز.

لقد جلب إلى عمله الروح العملية (الواقعية) وسيف النظام والمنطق (العقل). لقد امتعض من التجريدات شديدة الوطأة، امتعض من المجردات كالواجب والشرف والسلطة والحق. لقد أراد أن يحولها إلى حقائق مشخصة (محددة) وأن يفحص كل جزء ليعرضه على الحقيقة من خلال وجهة نظر ثاقبة مثابرة. فما هو الحق - على سبيل المثال؟ أهو «طبيعي natural» - شيء مرتبط بنا منذ الميلاد كما افترض إعلان حقوق الإنسان الذي أصدرته الثورة الفرنسية؟ أم أنه مجرد «حرية فردية» تابعة للصالح العام أو في إطار الصالح العام؟ ما هي المساواة؟ أثمة شيء اسمه المساواة خارج نطاق المفاهيم الرياضية المجردة؟ هل التفاوت (عدم المساواة) قدر لا فكاك منه لكل كائن حي سواء عدم المساواة في القدرات أو الممتلكات أو السلطان؟ . ما هو «القانون الطبيعي»؟ وما هي «الحصافة أو الفطرة السليمة Common sense»؟ كل هذه المجردات - في رأي بنثام هراء»[٤٤] تضلل به الجامعات والبرلمانات والمحاكم.

وقد يمكننا أن نتخيل ما أحدثه هذا «الواقعي realist» في اللاهوت السائد في عصره وفي بلاده. إنه لم يجد جدوى في الألوهية التقليدية عند محاولته النظر بتجرد إلى عالم العلم أو التاريخ أو الاقتصاد أو الحكم[٤٥]. لقد حاول أن يمسك لسانه الحاد الذَّرِب عن هذه الأمور لأنه شعر أن الكنيسة الإنجليكانية تعد كنيسة عقلية (تحترم العقل) بالنسبة إلى غيرها من الكنائس، وقد تكون خيِّرة، لكن الإكليروس (رجال الدين) شعروا بخصومته الصامتة وشجبوا مذهبه النفعي his utilitarianism تماماً باعتباره «فلسفة إلحادية godless philosophy»[٤٦] لقد بدأ بمحاولة عزل بلاكستون Blackstone كاقتصادي يقوم بدور في نسج الدستور البريطاني، لقد بدا له هذا الوجود الباطني (الغامض) كخليط وناتج عتيق (عفا عليه الزمن) لمصادفات وأمور عارضة يتسم بالتناقض والتنقيحات المتعجلة غير قائم على منطق ولا أساس، وعلى هذا أصدر بنثام واحدة من الشرارات من سندانه، إنه كتابه A fragment on government (١٧٧٦) - كأول سهم تطلقه «الراديكالية الفلسفية

philosophical radicalism » التي كان عليها أن تناضل طوال نصف قرن قبل أن تحرز نصف انتصار في سنة ١٨٣٢.

وفي الوقت الذي قام فيه هذا المتحدي البالغ من العمر ثمانية وعشرين عاما بامتداح بلاكستون Blackstone لأنه علّم عِلْم القانون أن ينطق لغة الباحثين والسادة الأماجد gentlemen » إلا أنه لامه لانه قلص الدستور فجعله لاينص إلا على سلطة الملك المطلقة. وعلى العكس من ذلك فالدستور السليم (الذي يميز الخطأ من الصواب) هو الذي يوزع سلطات الحكومة بين أجزائها (مكوناتها) المختلفة، وسيسهل تعاونها وفرضها للقيود المتبادلة – فالمبدأ الهادي للمشرعين يجب ألا يكون هو الرغبة في الهيمنة وإنما « تحقيق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس » فهؤلاء الناس هم هدف التشريع والتشريع لم يوضع إلا لهم، والاختبار الصحيح لأي قانون مقترح هو مدى نفعه لتحقيق هذه الغاية (إسعاد أكبر عدد من الناس)(٤٧) هنا نجد أن « مبدأ النفعية » الشهير كان هو جوهر تعاليم بنثام التشريعية والأخلاقية. لقد كان هناك ارتباط ملحوظ بينه وبين إعلان الاستقلال الذي أصدره توماس جيفرسون في هذا العام نفسه. باختصار لقد تعانق التاريخ والفلسفة وعمل التراث المسيحي – بغير قصد من بنثام – على توثيق عرى هذه الوحدة (المقصود هذا التلازم) ومباركتها. لقد كتب بنثام كتابه الصغير الذي عرض فيه أفكاره هذه بأسلوب أكثر وضوحا وبروح أكثر جاذبية من مباحثه اللاحقة. والآن راح يقضي بعض الوقت في السفر والترحال. ومن روسيا أرسل في سنة ١٧٨٧ إلى إنجلترا مبحثه « دفاع عن الربا Defence of usuary » – أي الفائدة. لقد عارض الإدانة اللاهوتية للفائدة interest، ففي مجال الاقتصاد ومجال السياسة يجب أن يترك الفرد حرا في تنفيذ ما يراه على وفق لأحكامه على أن يكون هذا في صالح المجتمع. لقد كان بنثام ليبراليا ولكن الكلمة (ليبرالي) في المفهوم السائد في القرن الثامن عشر كانت تعني المدافع عن الحرية. لقد اتفق مع الفزيوقراط Physiocrates ومع جيفرسون على أن يكون تدخل الدولة في حرية الفرد في حده الأدنى. لقد كان راديكاليا – يحب الوصول إلى جذور الأمور، ولكنه لم يكن مؤيدا لتأميم الصناعة. وفي سنة ١٧٨٧ لم تكن الصناعة منتشرة انتشارا كبيرا ليطالب بتأميمها.

وعند عودته من روسيا أعد لنشر كتابه المهم: مبادئ الأخلاق والتشريع The Principles of Morals & Legislation (١٧٨٩، ارتبط طبعه بالتواريخ الثورية). لقد كان كتابا صعبا مدعما بصرامة بمئات التعريفات لدرجة تترك القارئ غير المختص مشوشاً لكن بنثام كان يأخذ على عاتقه عملاً عقليا مجهدا: لقد كان يهدف إلى إحلال الأخلاق الطبيعية محل اللاهوت، وإقامة السلوك والقانون على أسس قوامها صالح المجموع أو الوطن أكثر من إقامتها على أسس قوامها إرادة السلطة التنفيذية أو مصالح طبقة من الطبقات، وتحرير القانون والسلوك من فروض الدين من ناحية ومن الأحلام الثورية من ناحية أخرى.

إن هذه الأسس الجديدة – لكل من الأخلاق والقانون – قامت على مبدأ النفعية – فائدة الفعل act للفرد، وفائدة العادة للجماعة، وفائدة القانون للشعب وفائدة الاتفاقات الدولية للجنس البشري. وذهب بنثام إلى أن كل النظم تسعى لتحقيق المسرة وإبعاد الألم. وعرّف السروربأنه أي ترضية وعرّف الألم بأنه أي إزعاج سواء للبدن أو النفس. والنفعية هي ميزة تحقيق السعادة أواجتناب الألم، والسعادة هي استمرار السرور. والنفعية لا تحتاج لقصرها على الفرد فقد تكون – جزئيا أو أساساً – للأسرة أو المجتمع أو الدولة أو الجنس البشري. وقد يجد الفرد (من خلال غرائزه الاجتماعية) السعادة أوتجنب الألم في ربط ما يرضيه بما يرضي الجماعة التي ينتمي إليها[٤٨] وعلى هذا فعلاوة على تحقيق الهدف العاجل، فإن الهدف النهائي والمحك الأخلاقي لكل الأعمال والقوانين هو مدى إسهامها في تحقيق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد. «قد يكون لدى صديق هو أعز الأصدقاء لكنني إن عرفت أن مصالحه تتعارض مع مصالح المجموع، فإنني لن أضع مصالحه في اعتباري. إنني سأخدم أصدقائي وأتوقع أن يخدموني»[٤٩] ولم يدع بنثام أنه أصل هذه الصيغة النفعية. لقد أعلن بصراحته المعتادة – أنه وجد أساسها في كتاب «جوزيف بريستلي Joseph Prestly» «مقال عن المبادئ الأساسية للحكم Essay on the first principles of Government» (١٧٦٨) وكان يمكن أن يجده في كتاب فرانسيس هتشسون Hutcheson عن «الخير والشر في الأخلاق Enquiring Concerning Moral Good & Evil» (١٧٢٥) حيث عرف المواطن الصالح بأنه الذي يقدم «أقصى قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس»[٥٠] أو في كتاب

بيكاريا Beccaria الموسوم باسم: Trattato dei delitti e dille pene (١٧٦٤) الذي وصف لنا محك الأخلاق وهدفها « La massima felicita divisa nel maggior numero » أو كما أورد هيلفيتيوس Helvetius – بشكل أوضح – في كتابه عن الروح De L'esprit ١٧٥٨ « النفعية هي أساس كل الفضائل البشرية وأساس كل التشريعات ... فكل القوانين يجب أن تتبع مبدأ واحدا – منفعة العامة – أي أكبر عدد من الناس يعيشون في ظل الحكومة نفسها »[٥١] إن بنثام لم يفعل أكثر من تقديم صيغة كمية لوصية الكتاب المقدس « أحب لجارك ما تحب لنفسك »[٥٢] لقد كان إنجازه هو تطبيق « مبدأ السعادة القصوى » على قوانين إنجلترا. لقد أصبح لديه الآن حقيقة أخلاقية فكرتها واضحة وأصبح لديه معيار يمكن به الحكم على وصايا المبشرين وتحذيرات المعلمين ومبادئ الأحزاب وقوانين المشرعين ومراسيم الملوك. فلا يجب أن يقدم القانون كليات غامضة (باطنية) « كالحقوق » طبيعية أو جماهيرية أو مقدسة (إلهية) ولا يجب عليه أن يقدم وحيا أوحاه الله إلى موسى أو محمد أو عيسى، ولاعقوبات بقصد الثأر. فكل اقتراح تشريعي يجب أن يجيب عن هذا السؤال: ما هو الأفضل أوما هو الأصلح؟ ما هو الأصلح للفرد أو للأقلية أو للكثرة أو للجميع؟ فالقانون يجب أن يكيف نفسه مع الطبيعة البشرية التي لا سبيل لتغييرها ومع القدرات المحدودة للبشر ومع الحاجات العلمية للمجتمع، ولابد أن يكون واضحا ويسمح بالتنفيذ أو التطبيق العملي والمحاكمة العاجلة والحكم الحازم والعقوبات الصحيحة والإنسانية. ولهذه الغايات كرس بنثام الفصول العشرة الأخيرة من كتابه والسنوات الأخيرة من حياته.

وفي هذه الأثناء راح يطبق معياره هذا على القضايا المثارة في أيامه. لقد أيد آراء الفزيوقراط في مبدأ عدم التدخل الحكومي في الشؤون الصناعية وإدارة الشؤون العامة Politics إلا في الحدود الدنيا ، فالفرد هو – بشكل عام – أفضل من يجيد الحكم فيما يحقق سعادته ولا بد من تركه حرا في نطاق ما هو مقبول اجتماعيا، وعلى أية حال لا بد أن يشجع المجتمع المؤسسات الخيرية التي يتنازل أعضاؤها عن جانب من حريتهم لتوحيد الجهود لخدمة قضية عامة. وانطلاقا من المبادئ نفسها دافع بنثام عن حكومة التمثيل الغيابي فهي الأفضل مع كل أخطائها ومفاسدها.

وقد لاقى كتاب «مبادئ الأخلاق والتشريع» ترحيبا وثناء على نطاق واسع أكثر مما كان متوقعا فقد كان الكتاب صعبا في صياغته ذا روح انتقادية وذا منحى علماني. وكان الترحيب به خارج البلاد أشد حرارة من الترحيب به داخلها. لقد ترجم في فرنسا التي جعلت مؤلفه مواطنا فرنسيا (منحته حق المواطنة الفرنسية) في سنة ١٧٩٢. وراسله القادة السياسيون والمفكرون وأتته الرسائل من العواصم المختلفة ومن جامعات أوروبا. وفي إنجلترا أدان المحافظون Tories مبدأ النفعية باعتباره مبدأ غير وطني وغير مسيحي وأنه مبدأ مادي. ودافع بعض الكتاب ذاكرين أن أفعالا كثيرة - مثل الحب الرومانسي والأبوي والتضحية بالنفس وتبادل المساعدة - لاتنطوي على حسابات واعية بإرضاء الذات (أو إشباع رغبات الذات)، واعترى الفنانون الإحباط للحكم على أعمالهم الفنية بمقياس المنفعة. لكن الجميع فيما عدا الموظفين الحكوميين وافقوا على أن «النفع الذاتي» هو خلق كل الحكومات وسياساتها إذا نحينا جانبا الادعاء والخداع.

لقد عاش بنثام لفلسفته وجعل أعوامه مفيدة بشكل متواصل. لقد ناضل في كتابه عن «العقلانية في الدليل القضائي Rationale of Judical Evidence» (١٨٢٥) وفي مواضع أخرى ليوضح القوانين القديمة والحالات المعاصرة ونجح في تحديث (التخفيف من وطأة) المبالغات البربرية في أساليب إدارة السجون ومعاملة المجرمين. وبدأ في سنة ١٨٢٧ - وكان قد بلغ التاسعة والسبعين من عمره - في تقنين Codify القوانين الإنجليزية لكن المنية وافته بين المجلد الأول والثاني. وقد ساهم في تأسيس The Westminster Review (١٨٢٣) كمنبر للأفكار الليبرالية. وجمع حوله جماعة من التلاميذ والمريدين اعترفوا بحرارة قلبه وطيبته رغم فظاظته الخارجية. وكان بيير إتين دومون Pierre - Etienne Dumont داعيا لأفكاره في فرنسا، وجيمس ميل Mill - المفكر البارز - حرر بنفسه المخطوطة التي كتبها بنثام، ورفع جون ستيوارت مل Mill الدافع أو السبب من مرحلة الحساب إلى مرحلة الإنسانية.

لقد عمل هؤلاء «الفلاسفة الراديكاليون» بقيادة بنثام على حق التصويت للذكور البالغين والاقتراع السري وحرية التجارة وتحسين الصحة العامة وتطوير السجون وتطهير

الأدب والفكر في مرحلة انتقال

١- الصحافة

إن كانت فرنسا قد هيمنت على المسرح السياسي في هذه الحقبة، فقد كانت إنجلترا هي قائدة الأدب والحركة الفكرية. فإذا استثنينا شاتوبريان فَمَن لفرنسا في هذه الفترة يمكن مقارنته بوردزورث Wordsworth وكولردج Coleridge وبايرون Byron وشلي؟ ولم نُدرج كيتسي Keats (١٧٩٥ - ١٨٢١) في هذه القائمة فأعماله الكبرى لا تدخل في مجال مقارناتنا الحالية، فقد كانت أزهى الورود في الشعر الإنجليزي طوال أربعة قرون بعد عصر إليزابث الأولى.

فحتّى الرسائل المتبادلة كان يمكن اعتبارها في ذلك العصر أدباً، فخطابات بايرون وكولردج تبدو أقرب إلى روحنا من أشعارهما. وفي تلك الأيام عندما جرت العادة أن يدفع المُرْسَل إليه ثمن طابع البريد، فإنّه كان يطلب لقاء ما دفعه ثروة أو أسلوباً (المقصود أنه كان يتوقع نظير دفعه لتكاليف البريد أن يكون الخطاب مشتملاً على أموال أو أن يكون على الأقل ذا أسلوب جميل) وكان معنى أن يتلقى خطابا من هذه الأرواح المتوهجة (المقصود الشعراء المشاهير) أنه حصل على جواز سفر يخلد ذكره بعد الوفاة.

ولم تكن الصحف على أية حال تمثل أدبا وفكرا. فعادة ما كانت الصحيفة صفحة كبيرة مطوية لتصبح أربع صفحات؛ الأولى والرابعة للإعلانات، والصفحة الثانية تتناول السياسة بما في ذلك ملخص للأعمال البرلمانية في اليوم السابق . وكان يصدر في لندن عدة صحف يومية : خاصة التايمز Times (الأزمنة) التي أسست في سنة ١٧٨٨ وكانت تبيع نحو خمسة آلاف نسخة ، والكوريير Courier (الوقائع) التي تبيع عشرة آلاف نسخة، وصحيفة مورننج بوست Morning Post وهي صحيفة حزب الأحرار Whigs (حزب الهويج الذي عُرِف فيما بعد بحزب الأحرار) والمراقب Examiner صوت الليبراليين من أمثال لاي هنت Leigh Hunt . وكان لكل مركز من المراكز التي لها ممثلون في البرلمان ولكل كونتية (إقليم أو

مقاطعة) صحيفته الخاصة وأحيانا صحيفتان، واحدة للضالعين في السلطة، وأخرى لغير الضالعين فيها. وكانت هناك صحف أسبوعية مختلفة كان أشهرها بوليتكال ريجستر (المسجل السياسي) التي يصدرها وليم كوبت William Cobbet وكان هناك عدة دوريات سياسية واجتماعية وأدبية. كان أقواها « مراجعات أدنبره Review Edinburah » التي تصدر أربع مرات في السنة (فصلية) وكان قد أسسها في سنة ١٨٠٢ كل من فرانسيس جفري Francis Jeffery وهنرى بروهام Brougham وسدني سميت(*) Sydney Smith للدفاع عن الأفكار التقدمية والمراجعات الفصلية Quarterly Review التي أسسها في ١٨٠٧ جون مري Murry وروبرت سوثي Sauthy ووالتر سكوت Scott للدفاع عن أفكار حزب المحافظين (التوري Tory) وكانت سلطة الصحافة عنصرا مهيمنا على الساحة البريطانية. فلم تعد أداة للتعبير الأدبي كما كانت في الأيام المتمهّلة التي عاشها أديسون وستيل Addison & Steele وإنما أصبحت منفذاً للمعلنين ولساناً ناطقا باسم الجماعات السياسية . وما دام المعلنون يدفعون على وفق مدى انتشار الصحيفة فقد كان على المحرر والناشرين أن يضعوا في اعتبارهم الرأي العام حتى لو كان هذا على حساب الحزب في السلطة ، وعلى هذا راحت الصحافة تسخر من أبناء الملك الذين لا عمل لهم رغم كل جهود الحكومة لحمايتهم، وبالتدريج وكلما تقدمت أعوام القرن التاسع عشر، أصبحت الصحافة أداة – أصبحت أخيراً أداة لا مفر منها – للديمقراطية الصاعدة

٢ – الكتب

تضاعف عدد الكتب مع نمو الطبقة الوسطى وزيادة عدد القراء وأصبح النشر عملاً مربحاً بشكل كاف حتى إنه أصبح مهنة مستقلة، منفصلة عن بيع الكتب – لقد تنافس الناشرون للتعاقد مع المؤلفين ودفعوا لهم مبالغ جيدة وكرموهم في الصالونات الأدبية ومن هنا وجدنا الناشر جوزيف جونسون Joseph Johnson يفوز بالنشر لجدون Godwin وبين Paine وبلايك Blake، ووجدنا الناشر أرشيبالد كونستابل Archibald Constable يشرك والتر سكوت في

(*) يجب تمييزه عن سير وليم سدني الذي أحبط محاولة نابليون في عكا.

ديونه، ووجدنا توماس نورتون لونجمان Longman ينشر لوردزورث Words worth وجوزيف كوتل Cottle – في بريستول Pristol – ينشر لكولردج وسوثي. ووجدنا جون مري Murry – من لندن يستأثر ببايرون Byron ويتحكم في تجواله. وفي هذه الأثناء راحت شركة آل لونجمان العريقة تنفق ثلاثمائة ألف جنيه لنشر طبعة جديدة (١٨١٩) من موسوعة شامبرز Chamber's Cyclopaedia في ٣٩ مجلدا، وصدر من الموسوعة البريطانية ثلاث طبعات جديدة في فترة وجيزة – الطبعة الثالثة في ١٨ مجلداً (١٧٨٨ – ١٧٩٧)، والطبعة الرابعة في ٢٠ مجلدا في سنة ١٨١٠ والطبعة الخامسة في ٢٥ مجلدا في سنة ١٨١٥. وكان الناشر يدفع مبلغا إجماليا (دفعة واحدة) عند تسلمه مخطوط الكتاب من المؤلف، ولايتحدد المبلغ بنسبة من سعر كل نسخة مبيعة، كما كان الناشر يدفع بعض المال بالإضافة إلى هذا المبلغ الإجمالي الآنف ذكره إذا طبع من الكتاب طبعات أخرى وذلك بعد بيع النسخ المطبوعة من هذه الطبعات الجديدة، ومع هذا فقد كان قليلون من الكتّاب هم الذين يعيشون من حصاد مؤلفاتهم – لقد هيأ التأليف لتوماس مور Moore معيشة مريحة، وكان الأمر مشكوكا فيه بالنسبة إلى سوثي Southy وهازلت Hazlitt ، وتراوحت حياة سكوت Scott بين الثراء والفقر. لقد خلف الناشرون النبلاء كحماة للأدب والفكر وظل بعض الأثرياء يقدمون يد العون، ومن هنا رأينا آل ودجوودز Wedg woods يقدمون العون المالي لكولردج Coleridge ووجدنا ريزلي كالفرت Raisley Calvert يوصي لوردزورث بتسعمائة جنيه، وأرسلت الحكومة للمؤلفين حَسَني السلوك مكافآت شرفية في المناسبات، ورعت شاعر البلاط بمائة جنيه لذا كان من المتوقع أن يؤلف قصائد تتناول نصرا حققه الجيش، أوتهنئة بمولود ملكي أو زواج ملكي أو رثاء لفقيد من الأسرة المالكية.

وقد عاق حركة القراءة العامة ارتفاع أسعار الكتب، لكن حركة القراءة هذه قد زادت بانتشار نوادي الكتب وبإتاحة الاستعارة من المكتبات التي كان أفضلها المكتبة العامة (قاعة المطالعة أو الأثينايوم Athenaeum) وقاعة المحاضرات (الليسيوم Lyceum) وكلتاهما في ليفربول، وكان في الأولى ثمانية آلاف مجلد وفي الأخرى أحد عشر ألفا. وكان على المشترك أن يدفع رسماً (اشتراكا) سنويا يتراوح ما بين جنيه (إنجليزي) وجنيهين مما يعطيه

الحق في استعارة أي كتاب من الكتب المصفوفة فوق الرفوف. وكان في كل مدينة مكتبة لإقراض (إعارة) الكتب. وكلما انتشرت القراءة بين العوام متخطية حدود الطبقة الوسطى فقدت شيئا من مذاقها ومستواها. فكلما اتسع جمهور القراء زاد التحول من التراث الكلاسي إلى الكتابات العاطفية (الرومانسية) ومما ساعد على هذا التحول أيضا زيادة انعتاق حب الشباب وانفلاته من الرقابة الأبوية وروابط الملكية (بكسرالميم) وكان من الممكن توظيف حكاية حب واحدة في خلق مائة عقدة قصصية. إن موضوعات ريتشاردسون Richardson المبكية مستقاة من حكايات فيلدنج Fielding عن العشاق المتيمين ومن حكايات سمولت Smollett عن المغامرين المفعمين رجولة.

لقد غلبت النساء (المقصود الشخصيات النسائية) على أعمال الروائيين باستثناء متى «لويس مونك(*) Monk» وقصة أمبروزيو Ambrosio أو الراهب (١٧٩٥) التي عرض فيها مشاهد مرعبة، ويليه في مدرسة الغموض والرعب السيدة آن راد كليف Ann Radcliffe، فهي فقط التي تستحق المكانة الثانية بعده في هذه المدرسة بأعمالها الناجحة: قصة صقلية (١٧٩٠) قصة الغابة (١٧٩١) وأسرار أدولفو (١٧٩٤) وعادة ما يطلق العامة من الإنجليز على مثل هذه الكتب: قصص romances (من الكلمة الفرنسية roman التي تعني قصة) أما الكلمة novel فخصصت للأعمال القصصية الممتدة التي تتناول أحداثا طبيعية في حياة مألوفة كما هو الحال في كتابات فيلدنج Fielding و الكاتبة جين أوستن Jane Austin وقد وصلت «روايات ويفرلي» التي ألفها سكوت بين هذين الفرعين أو بتعبير آخر كانت عوانا بينهما. وفي القصص الرومانسي تفوقت النساء على الرجال، وكان هذا أمراً طبيعيا. لقد أحدثت فرانسس (فانى Fanny) (بيرنى Frances (Burney زوبعة بروايتها إيفيلينا Evelina (١٧٧٨) واستمرت رواياتها كشرارات في الوسط الأدبي: سيسيليا Cecilia (١٧٨٢) وكاميلا Camilla (١٧٩٦) والمتجول Wanderer (١٨١٤) وبعد موتها (١٨٤٠) شغلت يومياتها (١٨٤٢) جيلاً آخر وكانت ماريا إدجورث Maria Edgeworth أكثر شهرة، فرواياتها Castle Rackrent (١٨٠٠) «والمتغيب Absentee» (١٨١٢؟)

(*) الكلمة تعني راهب.

من أشغاله الأكثر أهمية المتمثلة في اختيار الشريك المناسب ليراقصه أو ليعيش معه. وفي بيوت هذه الطبقة يجد المرء للدين مكانا يحفظه إذ إنهم نزعوا من الدين ما يجعله يسبب الرعب نتيجة التكلف الباطني (المقصود غالبا المصطنع) الذي قد يزدهر في بيت قسيس. ولم تكن الثورة الصناعية قد وصلت بعد إلى الريف لتغيظ الطبقات وتشوه المناظر وتلوث الهواء. إننا نسمع صوت جين أوستن الموثق والموثوق به في مواساتها لفاني بريس Fanny Price التي كان عليها أن تقضي شهورا في لندن على غير رغبتها:

لقد حزنت فاني لا فتقادها كل مباهج الربيع .. إنها لم تكن تعرف إلى أي مدى كانت تسببه لها بداية ظهور الأوراق واستمرارها في الاخضرار من بهجة وسرور، إلا بعد أن افتقدتها. يا للانتعاش الذي كان يحس به الجسد والروح عند مراقبة تقدم الربيع الذي لا يمكن - رغم نزواته وتقلباته - أن يكرهه المرء... انظر إلى جماله الذي يزداد رويدا رويدا من بداية ظهور وروده الباكرة في أكثر الأجزاء دفئا في حديقة خالتها إلى البراعم في مزرعة عمها وعظمة الأشجار وسموقها»[١].

لقد كانت مثل هذه البيئة هي التي أضفت على روايات جين أوستن جوا منعشا من السلام والصحة والطبيعة - إنها بيئة تمثل المنزل المريح والحديقة ذات العبير والتجول في الأمسيات مع الأخوات السعيدات، وكلمات التشجيع التي كانت تسمعها من أبيها عن تصفح مخطوطات رواياتها، هذا كله جعل قراءها من النوع غير المتعجل الذين كانوا راضين بهدوء عما يقرأون وقلما نجد قراء من هذا النوع لأي نوع من الروايات. لقد تعلمت أن النهار نفسه به ما يكفي من البركة.

لقد كتبت رواياتها الست وصبرت كثيرا على عدم نشرها. ففي سنة ١٧٩٥ - وكانت قد بلغت العشرين - ألفت أول أعمالها «الشعور والإحساس» لكنها لم تكن راضية عنه وفي العامين التاليين أنهت روايتها «الكبرياء والكراهية» وواصلت مراجعتها وتنقيحها وأرسلتها إلى الناشر وأعادها إليها لأنها لن تحقق ربحا. وفي سنة ١٧٩٨ - ١٧٩٩ وضعت التخطيط العام لرواية «دير نور ثانجر» فاشترى كروسبي Crosby حق نشرها لكنه تركها - بعد أن دفع للمؤلفة - دون نشر. ثم مرت بها فترة غير مثمرة (بلا إنتاج) ربما كانت بسبب

تغير محل الإقامة وربما كانت بسبب عدم التشجيع . وفي فبراير ١٨١١ بدأت كتابة رواياتها حديقة مانسفيلد، وفي نوفمبر أعادت صياغة روايتها « الشعور والإحساس » وتمت طباعتها. وفي آخر خمس سنوات عمرها ظهر الحصاد الكبير: فوجدت رواية « الكبرياء والكراهية » ناشرا في سنة ١٨١٣ وحديقة مانسفيلد في سنة ١٨١٤ ، وإيما Emma في سنة ١٨١٦، وبعد موتها في سنة ١٨١٧ ظهرت رواية دير نور ثانجر وبعدها بقليل رواية « الإقناع ».

وتقدِّم رواية « الكبرياء والكراهية » في بدايتها خمس أخوات كلهن جاهزات للزواج وتواقات إليه. فقد كانت السيدة بنت Bennet ذات روح متقلبة مندهشة وكانت دعواتها كل صباح أن تجد لبناتها أزواجا، وكان فكرها دوماً يدور حول هذا الأمر. أما زوجها السيد بينت فقد تعلم الهروب من حياته اليومية إلى المكتبة حيث يجد عالما آخر بلا إزعاج وكان قد تخلى تماما عن مشكلة تقديم خمس « دوطات » – من الأراضي والجنيهات – لبناته، فهو يحتفظ ببيته طوال حياته فقط ، وبعد الموت ينقل على وفق وصية للسيد المبجل كولنز Collins وهو قس بروتستنطي في مدينة قريبة ولما يتزوج بعد . آه لو أن إحدى بناته (بنات السيد بنت) استطاعت أن توقع هذا القسي في شراكها! لقد كانت كبرى البنات وألطفهن (جين Jane). قد عقدت الآمال على الزواج من السيد بنجلي Mr Bingley الثري الوسيم لكن يبدو أنه كان يفضل أخرى، ولم تكن جين تستطيع إخفاء أحزانها إلا بالكاد. أما إليزابث التي تليها في العمر فلم تكن فخورة بجمال وجهها وقوامها وإنما باستقلالها وكونها شخصية معتمدة على نفسها فكانت تفكر بنفسها في أمر نفسها ولم تكن لتقبل أن تطرح في مزاد. لقد كانت تقرأ كثيرا في مجالات مختلفة وكان يمكنها مواجهة أي رجل في مضمار الثقافة والفكر، وأبدت المؤلفة إعجابا بمثل هذه الشخصية. والأخت الثالثة ماري كانت صالحة للزواج من حيث السن وكانت تواقة إليه وكانت مغيظة ساخطة لأن الأكبر منها سنا سيستغرقن وقتا طويلا قبل أن يفسحن لها الطريق (المقصود أنها لن تتزوج إلا إذا تزوجن). أما ليديا Lydia أصغرهن فكانت مندهشة تتساءل لم يتحتم على البنت أن تنتظر الزواج الرسمي؟ ولِمَ لايسمح لها باكتشاف أسرار الجنس قبل ذلك؟[٢].

لقد ابتهجت الأسرة بأخبار مفادها أن السيد كولنز Collins يخطط لزيارتها. وكان السيد

كولنز هذا رجلا معتزا بنفسه وواعيا بقداسته، لكنه يراعي بعناية الفروق الطبقية والمصالح المادية. ومن خلاله قدمت المؤلفة صورة قاسية للتبعية المطلقة للطبقة الاجتماعية المغلقة، تلك التبعية التي وقع فيها هذا القس الإنجليكاني المتدني الرتبة في السلك الكهنوتي. لقد كان هجاء المؤلفة شديدا، لكنه كان واضحا وعميقا وحادا كحد المقصلة.

وأتى الشاب المبجل ورأى أن جين الجميلة منيعة صعبة القياد فتقدم للزواج من إليزابث التي أربكت الأسرة برفضها إياه فقد كانت إليزابث حبيسة الصورة المثالية التي رسمتها لشريك حياتها. لكن ماري تُوجِّه عينيها وابتساماتها صوب وريث الثروة الموعود وراحت تلفت نظره برقتها وقد دفعه هذا إلى طلب يدها من والديها السيد والسيدة بنت، وهي لم تفعل ذلك إلا لإحساسها أن زواج الأخت الثالثة قبل الأخريات سيكون شركاً بكل معنى الكلمة.

لقد بدت كل الأمور على مايرام ولكن ليديا Lydia كانت خائفة أن يفوتها قطار الزواج بسبب تهور السيد وكمان Wickman معها. لقد تلوثت الأسرة كلها بسبب خطيئتها مع السيد وكْمان وتجنبها كل الجيران تقريبا. وأرسل السيد المبجل كولنز توبيخاً للسيد بنت: إن موت ابنتك كان أفضل مما حدث... من الذي سيرتبط بمثل هذه الأسرة؟» وأنقذت إليزابث الجميع بإغرائها السيد داركي Darcy الطبقي المتحفظ بتمنعها وكبريائها فألقى بملايينه تحت قدميها وأجبر وكمان Wickman على إصلاح خطئه بالزواج من ليديا Lydia وحلت كل المشكلات وعبّرت المؤلفة عن هذا بطريقتها الساحرة لدرجة أن السيد بنجلي Bingley اكتشف أنه كان دوماً يحب جين.

أماراوية حديقة مانسفيلد فقد كانت أفضل بناء، فقد كان «الحل» متوقعاً في مستهل القصة. ويكاد يكون الإعداد له في كل حدث من أحداث الخطة بشكل تدريجي (خطوة خطوة). ولم تكن شخصيات القصة مجرد دمى في حبكة فنية وإنما كانت أرواحا تشق طريقها في الحياة بحيوية، وكلها توضح بشكل سوي توجيه (أو ملاحظة) هيراكليتوس Heracleitus التي مؤداها «شخصية الإنسان هي قدره» (وستكون هذه الملاحظة هي الدليل المرشد في كل القصة) أما الحديقة فمن الممتلكات الجميلة للسيد توماس برترام Thomas

Bertram الذي كان أبا أكثر تدقيقا ومراقبة من السيد بنت. وعلى أية حال فقد ارتكب هو أيضا أخطاء غريبة؛ فقد انشغل بجمع الثروة والحصول على الرتب الشرفية فترك ابنه الكبير الذي انحط أخلاقيا وتدهور بدنيا بسبب عدم رعاية أبيه له، وسمح هذا الأب أيضا لابنته بقضاء إجازة طويلة في لندن حيث تصبح كل أخلاق الريف مجالا للسخرية مع أن أهل الريف هم عماد الحياة. وكان مما يحسب له أنه تبنى في أسرته فاني بريس Fanny Price ابنة أخت زوجته الفقيرة والمتواضعة والحساسة. وكان محط فخره هو ابنه الأصغر إدموند Edmund المكرس للكنيسة والذي وصف بأنه نموذج لما يجب أن يكون عليه رجل الدين. لقد كان بديلاً مؤقتا للسيد كولنز. لقد استغرق الحديث عن إدموند مئات الصفحات لتؤكد المؤلفة أن تأثيره في فاني كبير، وقد عرضت المؤلفة في سياقها الهادئ ارتباطهما معا بالطريقة التي يحدث بها مثل هذا الارتباط في الحكايات الكلاسية.

لقد كانت جين أوستن حتى في روايتها هذه وفي دراساتها عن الحب كلاسيّة ذات عقل رزين وتناول ممتاز. ففي زمن سادت فيه أسرار أدولف Udolphian mysteries وقلاع والبول Walpolian Castles ظلت واقعية وظلت مراقبة تحكم أحكام العقل. وكان أسلوبها عفيفا محتشما كأسلوب دريدن Dryden وكانت تقواها غير انفعالية وإنما كانت كتقوى البابا (رزينة متعقلة) وكان مجال اهتمامها ضيقا لكنه كان عميقا تسبره بمسبارها. لقد أدركت أن الجانب الأساسي في الحياة هو تجنيد الفرد لخدمة الجنس البشري، فحتى أزمات الحكومات وصراع القوى بل والمطالبة بالعدالة الاجتماعية، كل ذلك أقل أهمية من الجهود غير الواعية للشباب للوصول إلى مرحلة النضج، واستخدام قواهم والاستفادة منها. ونظرت المؤلفة إلى عنصري البشرية – الرجال والنساء – على قدم المساواة، فكلاهما – الرجل والمرأة – تستعصي أمراضهما على العلاج وتستعصي أهدافهما على الفهم، فيما ترى المؤلفة. إنها تتناول موضوعها بهدوء، فلا نسمع لها صراخا لكننا نستطيع تتبع أفكارها بشوق بالقدر الذي تسمح به سرعة خطى الحياة أو سرعة وقع أحداثها، ويمكن في وسط هذه السرعة أن نكون هادئين أو بتعبير آخر أن نسمح لهدوء المؤلفة بالانتقال إلينا. في هذه الأيام كنا قلما نجد قرية في إنجلترا إلا وفيها متعبدوها (طائفة من المتدينين).

٤ – وليم بلايك(*) (١٧٥٧ – ١٨٢٧)

ولد وليم بلايك قبل جين أوستن بثمانية عشر عاما ولاقى نحبه بعد موتها بعشر سنين. ويمثل بلايك حلقة الوصل أو المرحلة الانتقالية إلى الرومانسية. لقد عاش في عالم الأسرار ورفض العلم وشك في الله وعبد المسيح وحوّل الكتاب المقدس ونافس الأنبياء ودعا إلى مدينة مثالية (يوطوبيا) يقطنها قديسون يمشون على الأرض.

لقد كان ابنا لصانع جوارب في لندن، واعتراه الرعب وهو في الرابعة من عمره عندما رأى الرب ينظر إليه عبر النافذة. وبعد ذلك بقليل رأى الملائكة ترفرف فوق شجرة، كما رأى النبي حزقيال Ezekiel يتجول في حقل[٣]. وربما لم يُرسل به أهله إلى المدرسة حتى العاشرة من عمره بسبب خيالاته التي كانت تختلط بحواسه دون فاصل أو قاعدة. وقد التحق بعد وصوله هذه السن (العاشرة) إلى مدرسة رسم، وفي الخامسة عشرة بدأ التدرب على مهنة النحت مع النحات جيمس باسير Basire واستمر على هذه الحال طوال سبع سنوات . لقد قرأ كثيرا بما في ذلك أعمالا رومانسية مثل ذخائر الشعر الإنجليزي القديم لبيرسى Percy ومؤلف ماكفرسون Macpherson المعروف باسم « أوسيان Ossian » وكتب هو نفسه الشعر ورسم الرسوم التوضيحية. وعندما بلغ الثانية والعشرين تم قبوله كدارس للحفر في الأكاديمية الملكية Royal Academy ولكنه تمرد على نصائح رينولدز Reynolds الكلاسية، وفي وقت لاحق ندم على أنه « أضاع جهده » وشبابه وعبقريته في ظل كابوس السيد يشوع Joshua وجماعته الماكرة من الخدم المستأجرين » وقد طور أسلوبه الخيالي في الرسم رغماً عنهم وكان قادرا على إبراز شخصيته من خلال الألوان المائية وأعمال الحفر[٤].

ولم يكن ميالاً بشدة إلى الجنس الآخر وقد عبر ذات مرة عن أمله في ألا تكون هناك لقاءات جنسية وعن أمنيته في زوال هذه الرغبة من البشر[٥]. ومع هذا فقد تزوج وهو في الخامسة والعشرين من كاترين بوشير Catherine Boucher وكان غالبا ما يسبب لها المتاعب بنوبات غضبه كما كان يرعبها برؤاه، ومع هذا فقد اعترفت بعبقريته واهتمت به بإخلاص حتى آخر حياته ولانعرف أن له أطفالا لكنه كان يجب اللعب مع أطفال أصدقائه. وفي سنة

(*) Blake بلاك أو بليك (مع إمالة الألف إلى الياء أو الياء إلى الألف) وفضلنا كتابتها على نحو ما ورد في معجم المورد. (المترجم)

١٧٨٣ قام جون فلاكسمان Flaxman و أ. س. ماثوس A.S. Mathews بتمويل طبعة خاصة لأشعار بلايك الباكرة، وقد أعيد نشر هذه الاسكتشات الشعرية في سنة ١٨٦٨ فأسهم ذلك في تحقيق شهرته التي تأخرت. وبعض هذه الأشعار مثل «إلى نجم المساء (الزهرة)» وهي مقطع ملحمي غير مقفى احتل مكانا حفيا في الشعر الإنجليزي(٦). وقد كان مثله في ذلك مثل أي روح شاعرة حساسة باغضا لتركز الثروة وشيوع الفقر في إنجلترا. لقد كان مثل توم بين Paine وجودون Godwin وماري ولستونكرافت Wollstonecraft وغيرهم من الراديكاليين الذين تعاملوا مع الناشر جوزيف جونسون Johnson، قد شرب حتى الثمالة من نبيذ التنوير الفرنسي وتغنوا بالعدالة الاجتماعية والمساواة. وكان مظهره ينم عن روح نافرة من أي نظام مفروض. كان قصيرا ممتلئا ذا ملامح نبيلة.مفعمة تعبيرا وحيوية وكان شَعره بنيا مُشرباً بصفرة مصففا بإتقان وكانت خصلاته غير متدلية وإنما منتصبة وكان ينظر وكأنه رادار لما هو بعيد ، ولابد أن عينه الحادة وجبهته العريضة وفراسته الشديدة قد أضفت على مظهره جاذبية حقيقية(٧).

وفي سنة ١٧٨٤ افتتح محل طباعة في شارع برود Broad Street واتخذ من أخيه الأصغر روبرت مساعداً له فكانت علاقتهما حميمة لأن كل واحد منهما كرس حياته للآخر، ولكن روبرت كان متلافا كثير الإنفاق وقد أدى موته في سنة ١٧٨٧ إلى تعميق التوتر والكآبة في نفس وليم، وأدّى إلى الجانب الصوفي في فكره. لقد كان مقتنعا أنه رأى روح روبرت لحظة موته وهي تصعد عبر السقف. رآها وهي تصفق من فرط السعادة(٨) وقد عزا إلى شبح روبرت طريقة الحفر على إحدى اللوحات – سواء حفر النص أو حفر الرسوم التوضيحية. وكانت كل كتب بلايك تقريبا محفورة على النحو نفسه وكانت تباع بمبلغ يتراوح بين شلنات قليلة وعدة جنيهات للواحد منها. وكان قراؤه – حتى ذلك الوقت – قليلين.

وفي سنة ١٧٨٩ أصدر أول عمل كبير من أعماله هو «أغاني البراءة» وكان يضم تسع عشرة مقطوعة شعرية. ومن الواضح أنه كان يعني بالبراءة مرحلة ما قبل البلوغ عندما كانت الحكايات المجمعة والمتعلقة بالمسيح تحظى بالتصديق وتسبب للمستمع إليها سعادة قصوى وبهجة، وعلى أية حال فقد كان بلايك قد بلغ الثانية والثلاثين من عمره عندما ظهرت

قصائده هذه ونحن نحس أن الخبرة راحت تنمي موت البراءة. ولابد أن نعيد هنا سطوره الشهيرة التي يمكن أن نضاهيها بأبياته التي وجهها لنمر Tiger بعد ذلك بخمس سنوات :

أيّها الحمل الصغير، من خلقك؟

ألا تعلم من سوّاك؟

ألا تعلم من نفخ فيك الحياة ورزقك؟

وهيأ لك المجرى تشرب منه

وكساك ثوب البهجة

ياله من ثوب ! إنه أنعم الأثواب

ثوب من صوف فاتن متألق

أيها الحمل الصغير، من سوّاك فعدلك حملا؟

ألا تعرفه؟ !

أيها الحمل الصغير

أنا سأقول لك

إنه يدعى باسمك

لأنه أسمى نفسه حَمَلا(*)

إننا ندعو نفسنا باسمه

أيها الحمل الصغير ليباركك الرّب

ليباركك الرّب.

وربماكانت القصيدة التالية هي الأجمل. إنها بعنوان «الصبي الأسود الصغير» وفيها يعجب الصبي الزنجي لم خلقه الله أسود البشرة. إنه يحلم بوقت يأتي يلعب فيه الصبي الأسود مع الصبي الأبيض دون أن تعوق ظلال اللون لعبهما. وثمة قصيدتان بعد ذلك -

---

(*) من المصطلحات التي يستخدمها بعض المسيحيين للدلالة على السيد المسيح أنه «حَمَل الله» وهي عبارة وردت في الأناجيل، ويرى مسيحيون آخرون أن إطلاق «حمل الله» على السيد المسيح على سبيل المجاز مما يعني أيضا أن (ابن الله) لاتعني أكثر من المعنى المجازي أي القريب من الله. (المترجم)

قصيدة « كنّاس المدخنة » وفيها يتخيل ملكاً (ملاك) ينزل من السماء ليحرر العاملين في تنظيف المداخن من معاطفهم الملوثة بالسخام التي يعملون – وينامون – وهي تغطي أبدانهم، أما القصيدة الأخرى فهي « الخميس المقدس » والتي ينهيها بتحذيره : « والآن، فلتتمسك بالرحمة والشفقة، وإلا أبعدت الملائكة عن بابك »

ومرت خمسة أعوام: إنها الأعوام التي اندلعت فيها الثورة الفرنسية وتألقت مثاليتها (١٧٩١) ثم عادت إلى المذابح والإرهاب (١٧٩٢ – ١٧٩٤) . وفي سنة ١٧٨٩ – على وفق بعض الروايات – وضع بلايك فوق رأسه غطاء الرأس الأحمر الذي يرمز للثورة الفرنسية وانضم إلى بلين Plaine في مهاجمة الكنيسة الإنجليزية وأثرت فيه الاضطرابات والفوضى فانفجر مؤلفاً قصيدة قصصية بسيطة زاخرة بالنبوءات تعكس ما ورد في إرمياء Jeremiah وهوشع Hosea، فكانت إعلانا مشئوما لعالم تجلله الخطايا والآثام.

ولانوصي أولئك الذين يمتعضون من الإبهام بقراءة عمله هذا ولكننا نلاحظ أن بلايك في ديوانه « زواج الفردوس وجهنم » (في معرض هجائه لسويدنبرج Swedenborg) يقارن بين هاتين المملكتين (مملكة الفردوس ومملكة جهنم) من ناحية والبراءة والخبرة من ناحية أخرى. وبعض الأمثال التي أتى بها من الجحيم» استوحت راديكالية هوتيمان وفرويد ونيتشة Whitmanic - Freudian - Nietzschean radicalism :

كل الطعام المفيد يتم الحصول عليه دون شباك أو شراك . . .

فما هو أجدى وأرفع أن تجعل آخر في مواجهتك . . .

فكبرياء الطاووس هي عظمة الرب ... وعري

النساء هو عمل الرب . . .

وقتله لطفل في مهده لا تجدي معه رغبات ممرضة

لاجدوى من جهودها . . .

فالرب هو – فقط – الفعل والوجود في الكائنات

أو البشر . . .

فكل الأرباب في صدور البشر . . .

فعبادة الرب هي توقير مواهبه للآخرين .. وهي حب أعظم الرجال ... إن أولئك الذين يغارون من الرجال العظماء أو يشوهون سمعتهم إنما يكرهون الرب لأنه ليس هناك أرباب سوى هؤلاء العظماء.

وفي ديوانه أغاني الخبرة (١٧٩٤) نجد الشاعر يعارض ما ورد في ديوانه « أغاني البراءة » بقصائد غنائية أخرى عامرة بالشك والإدانة:

أيها النمر .. أيها النمر
المتألق كالنار في ظلمات الغابة
أي يد خالدة أوعين ساهرة
أمكنها صياغة سيمتريّة رُعبك ؟!
يالكتفيك! يالمكرك ! ويالحيلك!
أيمكنها أن تتحمل قلبك؟!
ومتى بدأ قلبك يسحق ويضرب ويخفق؟
يا لقسوة أقدامك! .. يالقسوة قدميك الخلفيتين!
وقدميك الأماميتين!
متى تطرح النجوم حرابك؟
ومتى ترتوى السماء بدموعك؟
أليس هوالذي يسرّه فعلك؟
أليس هو الذي جعل «الحمل(*) Lamb» يوجدك؟

وبينما نجد في ديوانه « أغاني البراءة » الصبي الصغير التائه وقد أنقذه الرب وأعادهُ مسرورا إلى بيته، نجد في أغاني الخبرة» صبيا يحرقه القُسس لأنهم لم يعرفوا له دينا . وفي ديوان « أغاني البراءة » يصف في قصيدته « الخميس المقدس » كاتدرائية القديس بول مزدحمة بالأطفال السعداء الذين ينشدون الترانيم، نجده يتساءل في « أغاني الخبرة»

(*) الحمل أو حمل الله ، عبارة يطلقها المسيحيون على السيد المسيح عليه السلام. (المترجم)

يتساءل:

أهذا شيء مبارك (مقدس) يستحق أن نراه؟.

في بلاد غنية مثمرة

يرزح الأطفال في البؤس

يأكلهم البرد والمرابون

أتلك أغنية صارخة مضطربة؟

أيمكن أن تكون أغنية مرحة؟!

وهذا العدد الكبير من الأطفال الفقراء فيها

إنها بلاد الفقر.

ولم تكن الثورة فيما يبدو علاجا لهذه الشرور «فالقبضة الحديدية أطاحت برأس الطاغية، ثم أصبحت طاغية بدلاً عنه»[٩]. لقد وجد بلايك - الذي لم يكن يحب الثورات العنيفة - العزاء فيما تبقى لديه من عقيدة دينية. إنه الآن لا يثق في العلم لأنه خادم للماديّة وأداة يستخدمها النشيط ضد البريء وتستخدمها السلطة ضد البسطاء. «فالفن هو شجرة الحياة والعلم هو شجرة الموت، والرب هو يسوع المسيح»[١٠].

وبعد سنة ١٨١٨ لم يكتب بلايك شعرا إلا قليلا ولم يجد له إلا قلة من القراء، وعاش على إنتاجه في الفن. وفي بعض سني الستينات من عمره عانى الفقر الشديد حتى اضطر إلى حفر الإعلانات لمصنع ودجوود Wedgwood للخزف. وفي سنة ١٨١٩ أنقذه من فقره جون لينل John Linnel إذ عهد إليه برسم الرسوم التوضيحيه لسفر أيوب Book of Job والكوميديا الإلهية لدانتي. ووافته منيته (١٨٢٧) بينما كان يعمل في هذين العملين، ولم يكن ثمة حجر يشير إلى موضع دفنه لكن بعد قرن كامل من وفاته نصب لوح حجري عليه اسمه في البقعة التي دفن فيها، وفي سنة ١٩٥٧ صنع له سير جاكوب إبستين Jacob Epstein تمثالا نصفيا وضع في كنيسة وستمنستر Westminster وعند موته كان الانتقال إلى مرحلة الرومانسية قد غدا انتقالا كاملا. لقد بدأ هذا الانتقال مترددا عندما كانت الكلاسية في ذروتها مع الفصول Seasons التي ألفها (١٧٣٠) طومسون والقصائد الغنائية

Odos التي ألفـهـا كـولنز (١٧٤٧)، و Clarissa Harlowe التي ألفـهـا ريشـاردسـون Richardson (١٧٤٧) وأغاني الرثاء Elegy التي ألفها جري Gray (١٧٥١) وجولي Julie لروسـو (١٧٦١)، ou la nouvelle Héloise، وFingel (١٧٦٢) التي ألفـهـا مـاكـفـرسـون Macpherson وقلعة على أوترانتو Otranto (١٧٦٤) التي ألفـهـا والوب Walope وكـتـابات بيـرسي Percy عن الشـعـر الإنجليـزي القـديم (١٧٦٨) والقـصـائد الغنائيـة الإسكتلنديـة والألمانيـة، وما كتبه شتـرتون Chatterton (١٧٦٩) وويرثر Werther (فيرثر) التي كـتـبـهـا جوته Goethe (١٧٧٤). حقيقة أن أي عهد لم يكن يخلو من الرومانسية، فالرومانسية لم تنعدم أبداً في أي وطن أو عصر عند أي فتى أوفتاة، وكانت الكلاسية بناء متغلغلاً غير راسخ في الحكم وكانت قيدا على نبضات وعواطف تسري في العروق مسرى الدم.

ثم أتت الثورة الفرنسية فجلبت الحرية حتى في مرحلة انهيارها - أي انهيار الثورة، ففقدت الأشكال القديمة للقوانين والنظم التقليدية هيبتها وسطوتها، وانطلقت المشاعر والخيالات والطموحات والتطلعات تعبّر عن نفسها بالكلمة والفعل. لقد أشعل الشباب نيران الشعر والفن تحت كل قاعدة أدبية وكل حظر أخلاقي وكل تضييق عقدي وكل دولة مكتسية بقشور القانون، وفي سنة ١٧٩٨ راح وردزورث وكولردج يكتبان معا القصائد والمباحث التقديمية للقصائد الغنائية المعروفة باسم Lyrical Ballads وراح بيرنز Burns وسكوت Scott يغنيان للحب والثورة والحب في سكتلندا، وراحت جيوش نابليون تحطم الحدود بشكل أسرع من قدرة الثورة على نشر حلمها. لقد أصبح الأدب في كل مكان هو صوت الحرية. قلما بدا المستقبل مفتوحا بلا آفاق تحده كما هو الآن، وقلما كانت الآمال بلا نهاية كما هو الآن، وقلما بدا العالم شابا كما يبدو لنا الآن.

الفصل الواحد والعشرون

شعراء «منطقة البُحَيْرة»

[١٧٧٠ - ١٨٥٠م]

١- البيئة المحيطة

لقد جمعنا في فصل واحد مُرْبك بين وردزورث، وكولردج وسوثي، لا لأنهم أسسوا مدرسة أدبية، فهذا لم يحدث ولا لأنهم اشتركوا في سمات أدبية واحدة ، فأشعار كولردج الساحرة تغوص في أسرار عامرة بالغموض والأرواح الغريبة بينما أشعار وردزورث ذات روح نثري تجول برضا بين ما هو عام مألوف، من البشر رجالاً ونساء وأطفالا وما هو عام مألوف من الأشياء. ولقد عاش كولردج ومات رومانسيا – لقد كان رجل المشاعر والآمال والمخاوف والهوى، أما وردزورث – باستثناء فترة رومانسية انتقالية في فرنسا وفترة الإعلان الثوري سنة ١٧٩٨ – فقد كان كلاسيا مثل كريب Crabbe وكان يتسم بهدوء محافظ. أما بالنسبة إلى سوثي Southey فكان شعره رمانسياً في وقت راج فيه هذا الشعر، وكان نثره ملتزما جديرا بدريدن Dryden (المقصود يضارع كتابات دريدن) وكانت سياساته الناضجة مرتبطة بالوضع الحالي (الراهن) وكانت حياته الزوجية المستقرة وصداقاته الخصبة توازن الاتجاهات الفلسفية والمالية والجولات الجغرافية لرفيق الشاعر الذي راح يحلم وإياه في وقت من الأوقات بمدينة مثالية (يوطوبيا) اشتراكية على شواطئ سسكويهانا Susquehanna. إن هؤلاء الرجال لم يكونوا مدرسة إلا بمعنى أنهم جميعا قطنوا لسنوات طوال منطقة (ولاية أومحافظة) البحيرة في شمال غرب إنجلترا – إنها منطقة ضبابية ممطرة تتجمع فيها السحب .. إنها منطقة تجلّل ذرى جبالها الثلوج وتمتلئ بالبحيرات والبرك الفضية مما يجعل المنطقة من كندال Kendal وعبر وندمير Windemere أومبلسيد Ambleside وريدال ووتر Rydal Water وجراسمير Grasmere ودروننتووتر Derwentwater وكزويك Keswick حتى كوكرموث Cockermouth واحدة من أجمل مناطق كوكبنا. إن جبال المنطقة غير شاهقة فأعلاها لا يتجاوز ارتفاعه ثلاثة آلاف قدم وهي غير متجانسة (لا يشبه بعضها بعضها

الآخر) ويكاد المطر يهطل يوميا لكن الضباب يعانق الجبال بحب، وتكاد الشمس تطل يوميا واعتاد المترددون على تحمل تقلبات المناخ بسبب السلام الذي يخيم على القرى وبسبب الخضرة الدائمة وكثرة الورود السعيدة يبللها الندى وروحي كولردج المجنون، ووردزورث الرصين اللتين تتردد أصواتهما بين التلال . هناك في كوكرموث Cockermouth ولد وردزورث وفي جراسمير Grasmere مات، وهناك في كزويك Keswick عاش كولردج فترات متقطعة وعاش سوثي Suthey أربعين سنة، وهناك عاش فترات مختلفة كل من : دي كوينسي De Quincey وأرنولد الروجبي Arnold of Rugby ورسكين Ruskin وباختصار، فهناك أتى كل من سكوت Scott وشيلي Shelley وكارليل Carlyle وكيتس Keats ليتذوقوا طعم الجنة Eden ويتشمموا عبيرها.

٢ - وردزورث : ١٧٧٠ - ١٧٩٧

كانت أمه ني آن كوكسون Nee Ann Cookson ابنة تاجر كتان في بنريث Penrith – أما أبوه جون وردزورث فكان محامياً نجح في عمله كوكيل لأعمال السير جيمس لوثر Lowther، وقد ربى الزوج والزوجة في منزلهما المريح في كوكرموث خمسة أطفال :ريتشارد الذي أصبح محاميا ووكيل أعمال، وأدار الأمور المالية للشاعر، ووليم ودوروثي وهما اللذان سنهتم بهما في سياقنا هذا، وجون الذي مات في حادث جنوح سفينة، وكريستيان الذي درس وتدرج في المناصب حتى صار رئيسا لكلية التثليث في كمبردج. ولأسباب لانعلمها الآن لم يتم تعميد وليم إلا بعد ميلاد دوروثي التي ولدت بعده بعام (في سنة ١٧٧١) فقد تم تعميد الأخ وأخته في اليوم نفسه كما لو كان هذا لمباركة حبهما الذي استمر مدى الحياة.

لقد أصبحت دوروثي هي صديقة طفولته وكان ارتباطه بها يفوق ارتباطه بإخوته الآخرين . وكان وليم وردزورث حاد الذهن حساسا ، وكانت هي أكثر منه حدة وأشد حساسية إذ كانت أسرع منه في تمييز أشكال النباتات وألوانها، وأنواع الأشجار وطبيعتها وما تفرزه وحركة السحب البطيئة وكانت شديدة الإحساس بضوء القمر الفضي الذي

يكسو البحيرات. لقد كان على الشاعر أن يقول عن أخته: «لقد كانت عيني التي أرى بها وأذني التي أسمع بها». لقد كانت تلطف من حدة اندفاعه في القنص ليطارد ويقتل، لقد أصرت على أن عليه ألا يؤذي أي كائن حي[١].

وعندما بلغت دوروثي السابعة من عمرها فُجعا بموت أمهما. وحزن أبوهما حزنا شديدا ورفض أن يتخذ له زوجه أخرى، واستغرق في عمله وأرسل أطفاله ليعيشوا مع أقاربهم. فذهبت دوروثي إلى خالة لها في هاليفاكس Halifax في يوركشير فلم تعد الآن قادرة على رؤية وليم إلا في فترة الإجازات. وتم إلحاقه في سنة ١٧٧٩ بمدرسة جيدة في هوكشيد Hawkshead بالقرب من بحيرة وندرمير Windermere وفيها درس الكلاسيّات الإغريقية واللاتينية وبدأ – كما قال – «ينسج الشعر».

ويبدو أن الغابات والمياه القريبة قد لعبت دورا أكبر من دور كتبه في تشكيل أسلوبه وشخصيته. ولم يكن عازفا عن الحياة الاجتماعية فقد كان يشارك غيره من الشباب في المباريات وأحيانا كان يقضي أمسيات صاخبة في فندق محلي لكنه كثيرا ما كان يتجول وحيدا بين التلال على طول شاطئ اسثويت Esthwaite Water وبحيرة وندرمير Windermere. وبين الحين والآخر كان لا يعبأ بالمناخ فقد ألف تغيراته، فكان يمعن في تجوله إلى أماكن لا يكون فيها آمنا وعرف المخاوف التي يمكن أن تلم بالشباب الذين يترددون على الأماكن التي بها كائنات حية غير بشرية، لكنه بالتدريج بدأ يحس بالروح الكامنة في نمو النباتات وفي لعب الحيوانات وصراعها، وفي شموخ الجبال وفي ابتسام السماء وتجهمها. لقد بدا له وكأن كل هذه الأصوات المنبعثة من الحقول والغابات والذرى والسحب تتحدث إليه بلغتها الخاصة. لغة أدق من لغة الكلمات وأرق وأكثر باطنية، لكنه يحس معانيها التي تؤكد له أن الأشياء المتعددة الكثيرة كثرة لا تصدق الموجودة حوله ليست مجرد ماديات لاحول لها وإنما هي إبداع رب أعظم وأقرب من الإله البعيد الصامت الذي لا شكل له، الذي يتوجه إليه في صلواته. ومن هنا أصبح ذا مزاج استبطاني جعله يستغرق في تأمل الحياة الداخلية أو الباطنية بالإضافة للعبادة الظاهرة.

وفي سنة ١٧٨٣ مات أبوه فجأة. وكانت ممتلكاته متفرقة وغير موثقة، فمرت عبر قضايا

استغرقت وقتاً طويلا وكلفت الكثير من الأموال وتأخر سداد مبلغ ٤,٧٠٠ جنيه إسترليني التي كان السير جيمس لوثر مدينا بها كثيرا حتى إن الوصية الموجودة لم تكن تسمح سوى بستمائه جنيه لكل طفل وهو مبلغ لا يسمح أبدا بمواصلة تعليمهم[٢] ومع ذلك وجد أخوهم ريتشارد من الوسائل ما يمكنه من رؤية وليم في هوكشيد Hawkshead وفي أكتوبر سنة ١٧٨٧ التحق وردزورث بكلية القديس جون في كمبردج. وحث أحد أعمامه مدير الكلية لتقديم منحة دراسية له على أمل أن يتمكن من إعداد نفسه لتسنم منصب كهنوتي في الكنيسة الإنجليكانية، وبالتالي لايشكل عبئا مالياً على أقاربه . لكن وليم بدلاً من أن يعكف على دراسات تؤهله لمنصب كهنوتي راح يقرأ ما يعجبه، خاصة شوسر Chaucer وسبنسر وشكسبير وميلتون – واعترض على إلزامه بالحضور إلى الكنيسة مرتين في اليوم، فقد كان من الواضح أن قراءاته قد أزاحت شيئا من عقيدته الموروثة. لكن كثيرا من إيمانه وعقيدته الموروثة هذه لا بد أن يكون قد ظل مصاحباً له لأنه لم يكن يأنس لأفكار فولتير. وفي يوليو سنة ١٧٩٠ حث زميل دراسته، ابن ويلز، روبرت جون على أن يدخرا معا عشرين جنيها للقيام معا برحلة – مشيا على الأقدام – في القارة الأوربية. واتخذا طريقهما إلى بحيرة كومو Como واتجها شرقا في سويسرا، وهناك أصبح المال اللازم معهما قليلا فأسرعا بالعودة إلى إنجلترا ليهدئا من غضب المسؤولين الماليين. وعوض وردزورث، دوروثي عن إهماله لها طوال عام بأن راح يقضي أيام الكريسماس معها في فورنست ركتوري Fornsett Rectory (المقابل الحرفي للكلمة ركتوري هو بيت القسيس) بالقرب من نورويتش Norwich – لقد كتبت دوروثي إلى جين بولارد «لقد اعتدنا أن نتمشى كل صباح نحو ساعتين ، وكنا في كل يوم نذهب إلى الحديقة في الساعة الرابعة مساء... لنسير جيئة وذهابا حتى السادسة .. آه يا جين .. إنني لم أكن أشعر بالبرد عندما يكون معي»[٣] وكانت تأمل أن يصير رجل دين وأن يسمح لها عندئذ بأن ترعى بيته. وعندما تخرج من كمبردج (يناير ١٧٩١) تحطمت كثير من آماله بذهابه إلى لندن « حيث عاش في خمول يكاد يكون تاما »[٤] وكان في كل شهر من شهور مايو يقوم مع جونز Jones بجولة في أنحاء ويلز، فكانا يتسلقان جبل سنودون Snowdon (١,٣٥٠ قدما) ليريا شروق

الشمس. وفي ٢٧ نوفمبر عبر مرة أخرى بمفرده إلى فرنسا. لقد كانت الثورة الفرنسية وقت وصوله إلى فرنسا هذه المرة في أجمل وأرق مراحلها، لقد كانت الثورة قد صاغت دستورها الليبرالي وتم إعلان حقوق الإنسان للعالم، فإلي أي حد كان شاب صغير لازال يتمرغ في مهاد الفلسفة، يستطيع أن يقاوم هذه الدعوة للعدالة والأخوة العالمية (على مستوى العالم)؟ لقد كان يصعب كثيرا على دارس فقير لحقه بعض الضرر من اللوردات وذوي الألقاب الطبقية (سير جيمس لوثر Lowther) أن يدين هؤلاء الفرنسيين الذين وصفهم بعد ذلك في مستهل ترجمته الذاتية (كتابته عن تاريخ حياته)[٥]:

- «**هؤلاء الفرنسيون الذين يعرضون أموراً علينا النظر إليها،**
- **إنهم يعرضون جمهورية حيث يكون،**
- **كل الناس فيها - إلى حد كبير - سواء،**
- **يقفون على أرضية مشتركة**
- **لنصبح جميعا إخوة**
- **متساويين في الكرامة والشرف لنكوّن مجتمعا**
- **واحدا كريما وشريفا،**
- **مجتمعا واحداً يضم السادة والدارسين، ولاتغدو**
- **هناك فوارق**
- **ويقل شأن الألقاب والثروة**
- **أمام المواهب والجدارة والحرف (الصناعات) المزدهرة».**

وعندما وصل إلى فرنسا تأثر بحماسة أمةٍ تفزع إلى السلاح لمواجهة تهديدات الدوق برونسويك Brunswick بسحق الثورة وتسوية باريس بالأرض إن قاومته. وعقد صداقة مع أحد ضباط جيش الثوار ميشيل دي بوبوى Michel de Beaupuis الذي كان ينتمي بحكم ميلاده إلى طبقة النبلاء، لكنه يشعر الآن بضرورة الدفاع عن فرنسا ضد الغزاة. لقد حرك هذا الانفلات من أسر الطبقية مشاعر وردزورث وأوحى له أن يكون مفيدا لخدمة قضية الثورة، لكنه شعر أنه أوهن من أن يحمل سلاحا وأن ما يعرفه من اللغة الفرنسية لا يؤهله

للعمل في المجال المدني أو السياسي، فاستقر في أورليان Orleans لدراسة الفرنسية، هذه اللغة الفاتنة خاصة إذا تحركت بها شفاه النساء.

ووجد هذه اللغة رائعة جذابة، ومما زاد من هذه الروعة وتلك الجاذبية أنه تلقاها على يد أنت فالون Annette Valon الشابة دافئة القلب دافئة الدماء التي لم تكتف بتعليمه الفرنسية وإنما وهبته جسدها أيضا. ولم يقدم لها مقابل هذا إلا شبابه فقد كان في الواحدة والعشرين بينما كانت هي في الخامسة والعشرين. وعندما ظهرت عليها بوادر الحمل ظنت أنها جديرة أن تكون زوجة له، ولكن وليم تساءل: أيستطيع هو - الذي يعرف من اللاتينية أكثر مما يعرف من الفرنسية أن يكون زوجاً في فرنسا، وهل تستطيع هي ، وهي كاثوليكية وثنية(*) Pagan Catholic أن تعيش في إنجلترا البيوريتانية (التطهرية)؟

وفي ٢٩ أكتوبر سنة ١٧٩٣ تركها في أورليان واتجه إلى باريس وقبل مغادرتها وقع مستنداً يخول السيد م. دفور Dufour أن يقوم بدور الأب الغائب عند تعميد الطفل المرتقب (الذي ستنجبه أنت Annette)[٦] وفي ١٥ ديسمبر أنجبت طفلة أطلق عليها اسم كارولين.

وانخرط وردزورث وهو في باريس في هذا الوقت في وقائع الثورة، فحضر اجتماعا للبعاقبة وزار الجمعية التشريعية وكون صداقات مع الجيرونديين. لقد دهمته حمى العصر (المقصود أحداثه الساخنة) فوجد نفسه في وسط أحداث صنعت التاريخ وهزته[٧]:

- **«أن تكون على قيد الحياة في فجر هذه الأحداث، فتلك نعمة،**
- **أما أن تكون شابا فقد أدركت الفردوس بعينه!»**

ووصله خطاب من أخيه ريتشارد يرفض تقديم مزيد من الدعم المالي ويصر على عودته السريعة. ولم يعرض عليه الثوار دعما فعبر إلى لندن وحاول تحسين الأمور المالية للأسرة، وظل الأخ ريتشارد صارماً رغم حبه. أما العم وليم كوكسون Cookson وكاهن فورنست Fornsett ومضيف دوروثي (أي الذي تقيم عنده دوروثي) فقد أوصد أبوابه في وجه هذا الشاب الذي كان يقدم له الدعم المالي لمواصلة تعليمه ليكون رجل دين فإذا به الآن يتحول فيما يبدو إلى يعقوبي كسول.

(*) المقصود مخالفة له في المذهب. (المترجم)

لقد أضير وليم ضررا شديدا، فعكف على الشعر يدرسه ويقرضه، وشعر أنه كتابع مخلص لربة الشعر والغناء (موزيه Muse) جدير بدعم الإخوة والأعمام والأخوال، وانضم إلى الراديكاليين الذين كانوا يترددون على مكتبة جونسون (لبيع الكتب ونشرها) وواصل تأييده العلني للثورة. وفي السطور الخمسين الأخيرة لإسكتشاته الوصفية Descriptive التي كتبها ونشرها في سنة ١٧٩٣ امتدح الثورة الفرنسية لا باعتبارها تحريرا لأمة فحسب وإنما باعتبارها تنطوي على تحرير الجنس البشري كله، وقد اعترف في كتابات نشرت بعد وفاته أنه كان يكتم سعادته لانتصارات الثورة الفرنسية حتى عندما كان آلاف الإنجليز يلقون حتوفهم في ميدان المعركة دون أن يتركوا وراءهم مجدا»[٨] وفي أول فبراير سنة ١٧٩٣ أعلنت فرنسا الحرب على إنجلترا وفي مارس من العام نفسه وصل إلى وردزورث خطاب من أنت Annette تتوسل إليه أن يعود إليها لكن القنال الإنجليزي كان قد أغلق في وجه المسافرين المدنيين. ولم ينسها أبدا، فقد كانت ذكراها تحرق شعوره، وسنراه بعد ذلك بتسع سنين يحاول تقديم بعض الترضيات، وخلال هذه الأعوام أصبحت أنت Annette من أنصار الملكية المتحمسين، واكتشف وليم شيئا فشيئا مزايا الدستور البريطاني. لقد تضاءل إيمانه بالثورة الفرنسية عندما قطعت المقصلة رؤوس الجيرونديين في عهد الإرهاب في سنة ١٧٩٤، وكان وليم معجباً بهم. وفي نحو هذا التاريخ كان متأثرا تأثرا شديدا بكتاب جودون Godwin عن العدالة السياسية Enquiry Concerning Political Justice لقد شجع هذا الكتاب اتجاهه الراديكالي لكنه أثر في تحذيره من الثورات التي يشعل الثوريون نيرانها. وفي سنة ١٧٩٥ قابل جدون Godwin نفسه وأعجب به ودعي سبع مرات في هذا العام إلى منزل الفيلسوف الشهير. وحتى عندما أصبح هو محافظا متحمساً للاتجاه المحافظ ظل على صداقته لجودون حتى فرق الموت بينهما (١٨٣٦).

وفي سنة ١٧٩٥ أوصى له ريزلي كلفرت Raisley Calvert بتسعمائة جنيه، فزاده هذا اعتدالا ووقارا لكنه أقرض - بطيش - ثلاثمائة جنيه من هذه الثروة لصديقه المتلاف سيىء السمعة بازل مونتاجو Basil Montagu كما أقرض لصديق مونتاجو الحميم المدعو شارلز دوجلاس Douglas مائتي جنيه - وفي كلتا الحالتين لم يكن هذا الرهن ليدر أكثر من ١٠٪،

وحسب وردزورث (وردزورث) أن الفوائد السنوية التي قوامها خمسون جنيها (لم تكن تدفع بانتظام) مع الأربعمائه جنيه المتبقية لن تكفي حتى مع العشرين جنيها التي تمثل دخلا سنويا لدوروثي لتمويل حلم أخته بإقامة سكن يعيشان فيه عيشة مشتركة متواضعة قوامها الشعر والحب، لكن منذ الآن قدم لهما صديق آخر هو جون بني البريستولي John Pinney of Bristol مقر إقامته المؤثث في دورست Dorset ليقيما فيه مجانا، وهناك ظلا حتى يونيو سنة ١٧٩٧ ونعما في هذا المكان بما لم يكونا يتوقعانه من راحة وخير.

إننا نصفه الآن وقد بلغ الخامسة والعشرين. شخص متوسط الطول، نحيل، منحن انحناء خفيفا، يتدلى شعره غير الكثيف وغير المرجَّل حول أذنيه و « ياقة » قميصه، وتنظر عيناه الداكنتان الحزينتان على طول أنفه المتسائل العدواني المستفز على نحو ما. وكان سرواله « بنطاله » ذا طابع ريفي من نسيج مزخرف بالمربعات، وكان معطفه عباءة واسعة، ولديه منديل أسود يستخدمه كرباط عنق وكان واهن الجسم لكنه كان ذا طاقه كبيرة وروح قوية وإرادة شديدة، وكان يستطيع أن يلبي حاجة ضيوفه مهما ثقلت وكان يستطيع أن يجعل نيرانه مشتعلة في الأخشاب التي جمعها من الغابة أو قطعها من أشجارها مستخدما قوة ذراعيه وضربات فأسه. لقد كان حساساً كشاعر، وعصبيا كامرأة وكان يعاني من الصداع خاصة عندما ينخرط في تأليف الشعر. وغالباً ما كان مكتئباً متقلب المزاج يميل إلى الهيبوكوندريا (الوسواس المرضي) وكان قريب الدمع، وفكر ذات مرة في الانتحار[٩] - لكن هذا كان وسيلة معروفة في العلم للتظاهر بالشجاعة. وكان يحب المال حبا جما، معتزا بنفسه واثقا من تفوق أحاسيسه وسموه العقلي ورقيه الخلقي (متساهلاً مع ما أتاه من اتصالات جنسية لاتتسم بالمبالاة) لكنه كان متواضعا أمام الطبيعة معتزا بنفسه خادماً لها ومعبراً عنها.

أما دوروثي فكانت على نقيضه، أكسبت وجهها سمرة بكثرة مشيها تحت أشعة الشمس، ولم تكن أنانية مستغرقة حول ذاتها أو مفرطة بالإعجاب بنفسها فعكفت على خدمة أخيها ولم تكن تشك في عبقريته أبدا وجعلت بيتهما نظيفا دافئا ورعته في مرضه وكانت تبحث عن مباهج الطبيعة وعجائبها وخوارقها « بعينين متوهجتين » وذلك على حد

تعبيره، وكانت تدون بسرعة في يومياتها هذه المدركات لتتذكرها، وكان هو يستخدم هذه اليوميات (لتوحي له أفكارا وأشعارا). لقد جعلت أذنيها ويديها وعينيها في خدمته، فلم تكن تمل أبدا من الإصغاء إليه وهو ينشد أشعاره، ولم تكن تمل من نسخها. أما من ناحيته هو فقد أحبها حبا عميقا – دون أن يمنع نفسه عن إقامة علاقات جنسية محرمة معها – لأنها كانت أعز مساعداته له، كما كانت لاتطلب منه الكثير، وكانت بالنسبة إليه تمثل الجزء الذي يحتاجه النبات المعترش للتعلّق والامتداد(١٠).

وعندما عادا إلى بيتهما حيث الأسرة، وحصلا على خمسين جنيها إضافية لدخلهما السنوي، شرعا يرعيان بازل Basil ذا الأعوام الثلاثة وهو ابن بازل مونتاجو Montagu وسعدا لرؤية هذا القاصر الغض وهو يتحول من نبات مرتعش هش على وشك الموت إلى صبي مفعم حيوية متورد لايعرف الخوف إليه سبيلا»(١١). وفي ربيع سنة ١٧٩٧ أتت صديقة دوروثي، ماري هتشنسون من بنرث Penrith لتقيم معها حتى الخامس من يونيو. وفي السادس من الشهر نفسه اقتحم شاب في الخامسة والعشرين من عمره مسكون بالشِّعر البوابة وجاس خلال الحقل ودخل بكل قوته حياة وليم وردزورث (وردزورث) ودوروثي وردزورث، وكان هذا استجابة لدعوة أرسلها إليه وليم وردزورث. إن هذا الشاب الشاعر هو كولردج.

٣ – كولردج ١٧٧٢ – ١٧٩٤

كولردج هو أكثر أفراد المجموعة التي نتناولها في هذا الفصل تشويقا وأكثرهم تباينا في مواهبه وتنوعا في جاذبيته، وأفكاره وقلقه ونقائصه. لقد اجتاز السلسلة كاملة من المثالية إلى كوارث في الحب والأخلاق، ونكبات في الأدب والفلسفة. وقد اقتبس من أفكار – وكلمات – مؤلفين كثيرين تأثربهم واستوحى أفكارهم ولا يمكن لقسمٍ من فصل أن يوفيه حقه.

ولد صمويل (صموئيل) تايلور كولردج في ٢١ أكتوبر سنة ١٧٧٢ وكان هو الابن العاشر والأخير لجون كولردج ناظر المدرسة والذي كان عند مولده قسا في أوتري سانت

ماري Ottery St. Mary في ديفونشير Devonshire وكان جون دارسا للرياضيات المتطورة وعالما باللغتين اليونانية واللاتينية واللغات الشرقية، وهو مؤلف كتاب عن نحو اللغة اللاتينية Acritical Latin Grammer أما الابن الذي أصبح بعد ذلك يشير إلى اسمه بالأحرف الأولى (S. T. C) فقد وقع في إسار هذا التراث الذي تعلمه إذ كادت كل فقرة من فقراته تتضمن اقتباسا يونانيا أو لاتينيا. وقد روى - فيما بعد - ما كان عليه حاله من الثالثة إلى السابعة:

«لقد اصبحتُ نكداً شكِساً رعديدا تماما واشيا، وكان رفاقي في المدرسة يبعدونني عن اللعب معهم وكانوا دائما يؤذونني لذا فلم أسعد بألعاب الصبية ومن ثم عكفت على القراءة باستمرار.. لقد قرأت في السادسة من عمري بيليزاريوس Belisarius وروبنزون كروزو Robinson Crusoe وألف ليله وليلة ... فتملكتني الأشباح ... وأصبحت حالما وأصبحت أعاني انحرافا في صحتي إثر أي نشاط جسماني، وكنت جباناً رعديدا عاطفيا انفعاليا بشكل مبالغ فيه .. وكنت كسولا مكروها من الصبية لأنني كنت أستطيع القراءة والهجاء ... وكانت لدي ذاكرة قوية وقدرة على الفهم تكادان تنمان عن نضج غير طبيعي، وكنت موضع إطراء وإعجاب من النسوة كبيرات السن ... ولذا فقد أصبحت مختالا فخورا، وأصبحت قبل أن أبلغ الثامنة من عمري «شخصية» (المقصود شخصا ذا سمات خاصة) من حيث الأحاسيس والخيال والزهو والكسل، ومشاعر الاحتقار العميق والمرير لكل من يمر على تفكيري. حتى لو كان من المبرزين المشاهير»[١٢].

وكان موت أبيه (١٧٧٩) الذي كان الشاعر يحبه بعمق صدمة عنيفة له. وبعد موت أبيه بعامين أُرسل إلى مدرسة خيرية في لندن تابعة لمستشفى يسوع Christ's Hospital لمواصلة تعليمه. وكانت الوجبات التي تقدمها هذه المدرسة هزيلة وكان النظام فيها صارما، وقد تحدث في أواخر حياته عن العقاب الشائن الذي أنزلوه مضاعفا وبقسوة على صبي شعر أن أسرته قد نسيته. لقد أرادوا له أن يكون قسّا بينما كان هو يرنو أن يكون صانع أحذية. وفي سنة ١٨٣٠ (في هذا التاريخ كانت ذاكرته - على نحو خاص لا يُعوّل عليها) جُلد، وهو يروي لنا قصة جلده ولم تكن هي المرة الوحيدة، فيقول:

عندما كنت في الثالثة عشرة من العمر ذهبت إلى صانع أحذية وتوسلت إليه أن أعمل عنده ليعلمني المهنة. وكان رجلا أمينا لذا فإنه سرعان ما دبّر لي لقاء مع بوير Bowyer رئيس جماعة صانعي الأحذية، فثار غاضبا وركلني .. وسألني لماذا أبرهن هكذا على غبائي؟ فأجبته إنني شديد الرغبة في أن أكون صانع أحذية وأكره أن أكون رجل دين، فسألني «لماذا؟» فقلت له: «الحق أقول لك يا سيدي .. إنني كافر» وبمجرد أن قلت ذلك لم يسمح بوير بمزيد من الكلام، وجلدني»[١٣] ومن الواضح أنه اقتطف بعض الفاكهة المحرمة، وربما كان ذلك من كتب إحدى محلات بيع الكتب بشارع الملك (كنج ستريت) ففي هذه المكتبات - كما زعم بعد ذلك - بطريقته التذكارية:

«لقد قرأت في كل الكتب الواردة في الفهرس (المقصود كتالوج المكتبة) وفي كل الكتب الضخام (من القطع الأعظم) سواء كنت أفهم ما أقرأه أم لا ... وكنت أغامر بكل شيء للحصول على المجلدين اللذين فرضت على نفسي الحصول عليهما يوميا. لقد كنت مدركا لما يجب أن أكون عليه وأنا في الرابعة عشرة من عمري. لقد كنت محموما دائما (المقصود أنه كان شديد التوق للقراءة). لقد كان كياني كله موجها نحو الانسحاب إلى ركن مشمس لأقرأ وأقرأ وأقرأ، مغمضا عيني عن أي هدف آخر»[١٤].

وبطبيعة الحال فإننا نلمح زهواً مبالغا فيه هنا. وعلى أية حال فقد أنجز إنجازا طيبا في مدرسة مستشفى يسوع حتى إن أسرته رتبت أمر إدراجه بين الطلبة المساعَدين (بفتح العين) الذين يعملون ويدرسون في آن واحد في كلية يسوع بكمبردج (١٧٩١) وهناك حاول دراسة الرياضيات المتقدمة واللغة اليونانية المغرقة في قدمها «لقد قرأت بندار Pindar ورحت أؤلف الشعر باللغة اليونانية وكأنني كلب مجنون أو بتعبير آخر ككلب مصاب بالسعار ... وفي أي وقت فراغ يتاح لي كنت أترجم Anacreon .. وتعلمت العزف على الفيولين (الكمان)»[١٥].

وعندما نقرأ عن كولردج لابد أن نسمح لأنفسنا بتقبل ما هو عليه من غلو وإفراط. لقد أهمل صحته، وأصيب في سنة ١٧٩٣ بالحمى الروماتزمية، ولجأ إلى الأفيون لتسكين آلامه، وكان الأفيون في ذلك الوقت شائعا كعقار مسكن لكن كولردج أدمنه، وأبطأت خطاه في

المجال الدراسي، وسمح لنفسه بمزيد من الأهتمام بالأمور العامة. وعلى أية حال فقد تجاوز ما سمحت له به أسرته ووقع في الديون وطارده دائنوه وفي جهد يائس للهرب منهم غادر كمبردج فجأة، وفي ديسمبر سنة ١٧٩٣ تطوع في جيش كان يعد لحرب فرنسا. واشترى أخوه جورج إطلاق سراحه مقابل أربعين جنيها إنجليزيا وحثه على العودة إلى كمبردج. ودبر أمر تخرجه من الجامعة في سنة ١٧٩٤ دون الحصول على الدرجة العلمية، ولم يزعجه هذا كثيرا لأنه في هذه الأثناء كان قد اكتشف اليوطوبيا (المدينة المثالية).

وكان يعد نفسه لهذا الاكتشاف بتخليه عن عقيدته الدينية، وعقد آماله على السعادة واليوطوبيا (المدينة المثالية) وقد حركت الثورة الفرنسية مشاعره كما كادت تحرك مشاعر كل المتعلمين وغير الماليين في إنجلترا. والآن، في ربيع سنة ١٧٩٤ وصلته رسالة من صديقه روبرت ألن Allen في أكسفورد مفادها أن طلبة مختلفي المشارب راغبون جدا في إصلاح الأساليب والمؤسسات البريطانية، وذكر ألن أن أحد الطلبة يتميز بالألمعية ويكتب شعرا يحتفي فيه بالثورة الاجتماعية. أيستطيع كولردج أن يذهب إلى أكسفورد للقاء هؤلاء الشباب؟. لقد فعلها كولردج في يونيو سنة ١٧٩٤.

٤ – سوثي: ١٧٧٤ – ١٨٠٣

من بين ثلاثي منطقة البحيرة كان روبرت سوثي Southey أفضل الرجال وأسوأ الشعراء (أقلهم قيمة). ولد في بريستول وكان ابنا لتاجر أثواب وأقمشة، لكن من بين هذه البيئة التجارية (الميركانتيلية) كانت خالته إليزابت تايلور غالبا ما تدفعه إلى التهذب بسلوكيات المجتمع الأرستقراطي في باث Bath، وتم إرساله في الرابعة عشرة من عمره إلى مدرسة وستمنستر الراقية في لندن وفيها – بلاشك – قرأ سرا أعمال فولتير وروسو وجيبون كما قرأ «فيرثر Werther» لجوته (تكتب أيضا جيته) كما كتب بعض الشعر الملحمي وقطعا نثرية ثورية، وأثارت مهاجمته للعقاب البدني في مجلة مدرسية بعنوان الضارب بالسياط Flagellant ناظر المدرسة الذي حار جوابا ففصله من المدرسة وهو على وشك التخرج، لكن روبرت استطاع بطريقة أو أخرى أن يتقدم إلى كلية باليول Balliol في أكسفورد في

ديسمبر سنة ١٧٩٢ . وهناك واصل أعماله السرية، فكتب ملحمة John of Arc امتدح فيها الثورة الفرنسية، واشتغل بالدراما الشعرية محاكيا وات تيلر Wat Tyler الثائر الإنجليزي في سنة ١٣٨١ - عندما وصل كولردج. ووجد الشاعر الأكبر سنا أن الرجل الأكثر شبابا مستغرق في تفكير عميق لأن روبيسبير كان قد أطاح برؤوس أكثر قادة الثورة الفرنسية حيوية - دانتون Danton وديمولان Desmoulins، ألم تنته حقوق الإنسان التي تم إعلانها إلى مجرد تنافس على القتل؟ لكن كولردج طمأن باله شارحاً أن أوربا ممزقة مهترئة، ومع هذا ففي غضون أسبوع أو نحو ذلك أبحرت من مدينة بريستول موطن سوثي سفينة متجهة إلى أمريكا الرحبة الخصبة الجمهورية. لم لا ينظم كولردج وسوثي مجموعة من الشبان والشابات الجسورين ويتم عقد قرانهم بشكل صحيح ويهاجرون معاً إلى بنسلفانيا ليقيموا مستعمرة جماعية (اشتراكية) على شواطئ سسكويهانا Susquehana الجميلة غير الملوّثة؟ لقد كان كل ما هو ضروري هو أن يشارك كل شاب بمبلغ ١٢٥ جنيه إسترليني لتكوين ميزانية موحّدة (مشتركة، وكان لا بد أن يكون لكل زوجين صوت - على قدم المساواة - في حكم المستعمرة، ومن هنا أطلق كولردج على هذه المستعمرة اسم «البانتيسوكراسيا Pantisocracy» .

وليرفع المؤسسان من نصيبهما المالي في التكاليف اشتركا معا في كتابة دراما شعرية بعنوان «سقوط روبيسبير» وتم نشرها لكنها لم تحقق المبيعات المطلوبة. وباع سوثي عمله الأدبي Joan of Arc إلى كوتل Cottle البريستولي of Bristol نظير خمسين جنيها.

وقام الخريجون (الذين لم يحصلوا على درجاتهم العلمية) بالقاء محاضرات في بريستول وكسبوا ما يكفي لتمكين سوثي من الزواج وبالفعل فقد قبلته إديث فريكر Edith Fricker زوجاً لها (١٤ نوفمبر ١٧٩٥) وكانت أخت إديث واسمها ماري قد قبلت بالفعل روبرت لوفل Lovell زوجاً لها كما قبلت مبدأ البانتيسوكراسيا (العيش في مستعمرة اشتراكية). والآن كما يقول سوثي كان من المرغوب فيه جدا أن يحب كولردج الأخت الثالثة سارة، وأن يتزوجها.

وقبل سوثي دعوة لزيارة لشبونة كمرافق لعم كان قسا بالسفارة البريطانية، وقد وسعت

الرحلة أفق هذا الشاب (سوثي) . لقد ارتحل في إسبانيا وكذلك في البرتغال، وعندما عاد إلى إنجلترا (مايو ١٧٩٦) اكتشف أنه يحب إليزابث تيلر Tyler التي سبق أن رفضته لأفكاره المخربة وعدم عراقة أصله، كما اكتشف أن فكرة البانتيسوكراسيا أضاعت شبابه، فدرس القانون ووجد عملاً كصحفي، وكان لديه الوقت الكافي لكتابة ملاحم لم يكتب لها الخلود بالإضافة إلى بعض القصائد القصصية البسيطة مثل « معركة بلنهايم The Battle of Blenheim » في سنة ١٨٠٣ وأقام في جريتا هول Greta Hall في كزويك Keswick مستعينا بإعانة ودية قوامها ١٦٠ جنيها إسترلينيا .

٥ - كولردج: ١٧٩٤ - ١٧٩٧

كان كولردج مزقا بين أعصاب حية وجَلَد وصَبْر من ناحية، وإرادة مترددة من ناحية أخرى . لقد أحب ماري إيفانز ابنة لندن لكنه جفل من مهمة الإبقاء عليها في ظل أسلوبها المعتاد، أما هي فقد أحبت روحه الثرية المتحمسة لكنها لم تكن واثقة في قدرته على الكسب فابتعدت عنه، فوجد نفسه مستسلما لسارة فريكر فهي رغم بساطتها وإفلاسها يمكن أن تحافظ له على بيته وتنجب أطفالا وإن كانت غير قادرة على إلهامه أشعاره .

وليموّل زواجه المأمول وأحلامه الباقية راح يلقي المزيد من المحاضرات في بريستول محصلا شلنا كرسم دخول (لقاعة الاستماع) (واستمر هذا في الفترة من يناير إلى يونيو ١٧٩٥)، وكان نشاط هذه الجماعة راديكاليا بشكل طائش: لقد شجبوا الكنيسة القائمة Established Church كخادمة للأثرياء، وأنها لا تعرف ربا Lord سوى المالك الإقطاعي Lord of the manor وأدانوا الحرب ضد فرنسا لقمع الثورة وإحداث ردة تاريخية . والتمسوا الأعذار « للإرهاب » باعتباره رد فعل « لحرب بت Pitt's war » وأدانوا « مراسيم تقييد حرية الرأي Gag Bills » كجهود حكومية لكبت إرادة الجماهير . لقد كان ما حصلوه من الأموال قليلا لكنه كان كافيا ليعقد كولردج قرانه على سارة فريكر في مذبح الكنيسة في ٤ أكتوبر ١٧٩٥ .

وفي هذا الخريف نفسه التقى لأول مرة بوردزورث(*)، ولم يكن وليم ليكبر صمويل

(*) تكتب أحياناً وردسورث.

(صموئيل) بأكثر من عامين لكنه كان قد خَبَر الثورة الفرنسية، كان قد عاين « اليوطوبيا » معاينة حية « معاينة من رأى لا من سمع ». وقد شارك الرجل الأصغر منه بعامين الخشية من استعادة البوربون عرش فرنسا، لكنه لم يكن قادرا على العيش في بنسلفانيا فقد كانت أوربا هي مسرح الصراع الفكري، أما بالنسبة إلى بهاء منطقة سوسكويهانا Susquehanna وجمالها، فلم لا يكتفي قانعا بعظمة البحيرات الإنجليزية وبهائها؟ ولم يكن كولردج مقتنعا تمام الاقتناع لكنه كتب في مذكراته (مجموعة أوراقه) أن يتابع تطور وليم وربما ليتعلم منه كيف يتخطى صعوبات الحياة (يجتاز عواصفها ومنحدراتها) لقد ملأ كثيرا من الأوراق بمعلومات وأفكار كثيرة جمعها من الكتب وممن قابلهم. لقد كان يقرأ قراءات واسعة في مجالات شتى وبشغف في اثني عشر مجالا، لقد قرأ في التراجم وعن الحيوانات والنباتات والعلوم والأديان والفلسفة والأمم والأدب والفكر والفنون. وكان واحداً من أكثر من عرفنا شغفا بالقراءة واستيعابا لما يقرأ وقدرة على التذكر. لقد أصبحت ذاكرته مخزنا يسحب من رصيده حتى نهاية حياته يسحب منه الأفكار والأخيلة والعبارات والأدلة، بل وحتى فقرات كاملة. وكثيرا ما كان يهمل ذكر مصدر معلوماته وربما كان ينسى المصدر سعيدا بهذا النسيان، وكان يخلط دون اهتمام أفكاره بالأفكار التي استقاها من مصادر أخرى. وفي خاتمة المطاف ضاق عقله بهذا المخزون الكبير من المعرفة المتباينة خاصة وأن عقله كان نزاعا للحرية نافراً من الانضباط. لقد كاد المخزن ينهار على المخزون.

وربما رغبة منه في تحرير ذاكرته أو رغبة منه في إطعام زوجته وجدناه يركز على فكرة طبع مجلة وبيعها، وكاد هو أن يكون كاتبها الوحيد، وأجبر معارفه والمستمعين لمحاضراته على الاشتراك في هذه المجلة ووزع عددا محدودا من هذه « النشرة التمهيدية Prospectus » حتى يعلم الجميع « الحقيقة » فقد تجعلنا « الحقيقة » « أحرارا ». وفي يوم الجمعة، الخامس من فبراير سنة ١٧٩٦ تم نشر العدد الأول (بسعر أربعة بنسات) على أن تصدر كل ثمانية أيام بعنوان (المراقب Watchman) بقلم س. ت. كولردج Coleridge مؤلف « نداءات إلى الشعب Addresses To the People »[١٦]. وهنا - كما هو الحال في محاضراته - كان يتحدث كراديكالي أحرق خلفه كل الجسور، لقد راح يهاجم الحرب والعبودية (الرق) وتعويق حرية

الصحافة والنشر، وكان يهاجم بشكل خاص الضرائب على المبيعات لوطأتها الثقيلة على عامة الشعب[١٧]. لكنه لم يوص بحق الانتخاب العام للبالغين من الذكور أو الإناث. «يجب أن تكون لدينا الجرأة بالاعتراف بالحقيقة السياسية فقط لأولئك الذين هم قادرون على استخدام عقولهم والإقناع بما هو منطقي، ولا نعترف بها أو نقرها للغالبية الجاهلة المحتاجة التي تحركها بالضرورة عواطفها المهتاجة»[١٨]. ووجد كولردج أنه من غير المحتمل أن يكتب اثنتين وثلاثين صفحة كل ثمانية أيام إذ راحت هذه الصفحات - بشكل متزايد - تمتلئ بكتابات غرباء لم يكونوا دائما معروفين. واحتج بعض القراء المتابعين للمجلة وقل التوزيع وارتفعت الديون وبعد العدد العاشر توقفت هذه المجلة (مجلة المراقب Watchman).

وفي أول سبتمبر سنة ١٧٩٦ وُلد لكولردج أول مولود. فأسماه ديفد هارتلي David Hartley على اسم رائد علم النفس الارتباطي (سيكلوجية الترابط أو التداعي). لقد كان المولود صبوح الوجه باعثاً للمسرة، لكنه كان فماً جديدا يطالب بالطعام. وفي هذه الأثناء كان كولردج نفسه يعاني متاعب في القلب والرئتين، وراح يزيد من جرعات الأفيون لتسكين آلامه، وكادت موارده تنفد عندما قدم له صديق متساهل ودود هو توماس بول Poole منزلا صغيرا بالقرب من منزله (منزل بول) في نثر ستوي Nether Stowey بالقرب من بردجووتر Bridgewater - بإيجار رمزي مقداره سبعة جنيهات سنويا. وفي ٣١ ديسمبر سنة ١٧٩٦ انتقل كولردج وسارة وابنهما (ديفد) إلى هذا المنزل. وجعلت سارة المنزل نظيفا مريحا، وعمل كولردج في حديقة مجاورة وساعد في رعاية خنازير بول Poole ودواجنه، وكتب شعرا جديراً بأن يخلد.

وفي نحو هذا الوقت - على وفق ذاكرته الثرية العامرة دائما - ظهرت له فكرة «قبلاي خان Kubla Khan» في حلم رائع وقد كتب غالبها مستوحيا هذا الحلم:

(في صيف سنة ١٧٩٧ عكف المؤلف - وكان معتلا صحيا - في منزل ريفي منعزل بين بورلوك Porlock ولينتون Linton ... ونتيجة توعك صحته وتناوله العقارات المسكنة (الأفيون) غلبه النوم وهو جالس على مقعده بينما كان يقرأ ... في كتاب رحلة بورشاز Purchass Pilgrimage. وفي الحلم «أمر قبلاي خان ببناء قصر بداخله حديقة، وتم تسوير

هذه الأميال العشرة من الأرض الخصبة بسور » . ولقد استمر المؤلف في نوم عميق نحو ثلاث ساعات – على الأقل كانت حواسه الخارجية هي النائمة – وخلال هذه الساعات كان واثقاً ثقة تامة أنه لا يستطيع أن يكتب أقل من مائتي سطر أو ثلاثمائة سطر دون أن ينتابه الإرهاق والتعب . وعندما استيقظ ظهر أنه يتذكر تفاصيل الحلم فامسك بقلمه وأدنى منه الحبر والورق، وراح يكتب بشكل مستمر وبشغف السطور التي بقيت لنا) .

هذه المقدمة الشهيرة فسرها النقاد بأنها خرافة خدع بها كولردج نفسه أو آخرين لقبول فكرة « الحَبَل بلا دنس Immaculate Conception »(*) وديمومة قبلاي خان . وعلى أية حال فمن غير المعلوم أن المؤلف بعد صياغة جُمله خلال النهار، واصل عمله في أثناء الحلم أم لا، لكن تكاد هذه الدرّر دوما تغوص في اللاشعور وكأنها يقظة نائم Sleeper wakes وربما كان للأفيون أثره ليس في الحلم (الرؤيا) فقط وإنما في الإيهام بأن التأليف كان جزءا من الحلم . وعلى أية حال فإن كولردج بمهارته المميزة في السجع والجناس قد حول نثر بورشاز Purchas إلى واحد من أكثر النصوص – التي لم يكتمل إنجازها – تشويقاً في اللغة الإنجليزية .

وربما كان الحدث (الأدبي) الأكثر أهمية من « قوبلاي Kubla » بالنسبة لكولردج في عام ١٧٩٧ هو دعوة ودزورث له لزيارته في ريسدون Racedown، فاستأذن من زوجته ساره وابنه ديفد David وانطلق ليسير كل المسافة تقريبا . وتراءى له هدفه في ٦ يونيو فجرى – وقد أخذت الإثارة منه مأخذها – إلى باب أخيه الشاعر . وعندما فتح له وليم ودوروثي الباب وفتحا له مع الباب قلبيهما، بدأت حقبة جديدة في حياة ثلاثتهم، وكان تعاونهم واحداً من أعظم ما حققه التعاون بين الأدباء إثماراً في تاريخ الأدب .

٦ – الثلاثي : ١٧٩٧ – ١٧٩٨

كان كولردج آنئذ في ذروة تألقه . كان بدنه – رغم آلامه وسمومه غير الظاهرة – مستجيباً لاهتمامات عقله الحيوية . وكان وجهه الوسيم – بفمه الشهواني وأنفه دقيق التكوين وعينيه الرماديتين تتألقان شغفا وحب استطلاع، ورقبته وأذنيه، وشعره الأسود

(*) إشارة إلى حمل العذراء مريم بلا زواج . (المترجم)

المهوّش المتدلي على رقبته وأذنيه – قد جعله جذابا خاصة في عيني دوروثي.

لم يطل الأمر أحبته بطريقتها الخجولة، وإن ظل إعجابها بوليم في المحل الأول. لقد أخذ كولردج برقتها وجذبته إليها بعاطفتها الهادئة. لقد كانت صديقة جارتْه في كل آثامه وتجاوزت عن كسله لتستمتع بمشاعره الدافئة وخيالاته العميقة الغريبة وإيمانه المهتز، وضاعت آلام الشاعر المبرحة بين الحيل والصراع. وعلى أية حال، فقد كاد يرى في هذه الفتاة شبحاً رعديدا سحقها أخوها (سيطر عليها تماما).

وهنا تحقق كولردج أن هذا الرجل وردزورث بوجهه الهادئ الحزين وجبهته المرتفعة وعينيه المتأملتين شاعر حقيقي وحيوي حساس لكل خلجة ونبضة من خلجات الأشياء والأشخاص ونبضاتهم، وينأى بنفسه عن أي اضطراب اقتصادي جاعلاً من خلجات الطبيعة والناس ونبضهما وسيلة للبحث عن الكلمات المعبرة بعمق وعاطفة عن بصيرته وأحلامه. وكان كولردج – الذي كانت (أغاني البحار القديم) تعتمل بالفعل في نفسه – هو أعظم الشاعرين – لكنه أحسّ بتكريس هذا الشاعر (وردزورث) نفسه للشعر وحسده لتكريس نفسه تماما للشعر، وربما كان قد تعجب ما إذا كانت الأخت ليست أفضل من الزوجة. لقد كتب حالما وصل: «لقد شعرت بضآلتي بجواره، ومع هذا لم أعتبر نفسي أقل مما كنت أظن نفسي سابقا إن وليم (وردزورث) رجل عظيم جدا. إنه الرجل الوحيد الذي أحسست أنني أقل منه في كل الأوقات وفي كل حالات تفوقي»[١٩].

وبدأ ثلاثتهم ثلاثة أسابيع يحث بعضهم بعضاً، لقد راح كل واحد منهم يقرأ قصائده على الآخرين. وكان وردزورث يقرأ أكثر، بينما كان كولردج يتحدث أكثر. كتبت دوروثي: «إن مناقشاته وحواراته تتزاحم في الروح والنفس والعقل. وهو خيِّر جدا حسن الطباع جذاب .. وهو يتحدث بعينه التي تعبر عن كل عواطفه»[٢٠].

وعادة ما يبرد الحب بين هذا الثلاثي بعد ثلاثة أسابيع فرجا كولردج كلاً من وليم ودوروثي أن يصحباه إلى نذر ستوي Nether Stowey ليكرمهما كما أكرماه، فانطلقا معه متوقعين أن يعودا سريعا إلى ريسدون Racedown لكن الصديق بول Poole علم أن الفترة التي يقضيانها مع كولردج ستنتهي ولا مجال لتمديدها فدبر لهما منزلا جميلا مؤثثا في

ألفوكسدن مقابل ٢٣ جنيهاً استرلينياً سنويا، وألوفكسدن هذه على بعد أربعة أميال من مقر كولردج، وهناك أقام وليم وردزورث ودوروثي في راحة، وراحا يستلهمان الشعر طوال خمسة عشر شهرا.

وفي هذه الفترة السعيدة راحوا يسيرون وهم ينشدون الشعر أو يتناقشون فيه : أحيانا كان الرجلان يسيران معا، وأحيانا كولردج ودوروثي، وأحيانا ثلاثتهم معا. لقد راحوا يتبادلون المشاعر والأفكار والملاحظات: وردزورث شجع كولردج على ترك الخيال كمرشد له؛ وزاد كولردج من معارف وردزورث عن الفلاسفة وتحداه ليكتب ملحمة شعرية. وفي أعوام لاحقة تذكر وردزورث في (المقدمة) صديقه الذي كان يجول معه (كولردج) ذاكرا أنه صديق «الأرواح المرحة / حيث كنا نخصص جانبا من أيامنا لأول مرة لننغمس معا في الشعر الجامح»[٢١] وكانت دوروثي هي رباطهما محفزتهما (مشجعتهما). لقد كانت تبهجهما بمديحها، وباستماعها باهتمام وشغف متحدية إياهما بحماسها وعمق إدراكها ونفاذ بصيرتها، موحدة إياهما كعروس روحية لكليهما. لقد كانوا - كما قال كولردج ثلاثة أشخاص في روح واحدة[٢٢].

ولابد أن وردزورث وكولردج قد طالعا اليوميات التي بدأت دوروثي كتابتها في أفوكسدن في ٢٠ يناير سنة ١٧٩٧. ولا بد أنهما توقفا عند سطر في الصفحة الثانية «طنين الحشرات، تلك الضوضاء الصامتة (غير المزعجة) التي تملأ أجواء الصيف» أما سارة كولردج فلا بد أنها كانت أكثر تأثرا بما ورد عن الفترة من ٣ إلى ١٢ فبراير:

٣ فبراير: سرت مع كولردج فوق التلال ...

٤ فبراير: سرت مسافة طويلة في الطريق إلى ستوي Stowey مع كولردج ....

٥ فبراير: سرت إلى ستوي مع كولردج ...

١١ فبراير: سرت إلى قرب ستوي مع كولردج

١٢ فبراير: سرت وحدي إلى ستوي، وعدت مساء مع كولردج[٢٣].

ولم تكن ساره سعيدة بحكاية المشي هذه، لقد بدا الأمر لها بريئاً غير مرتبط بعلاقة جنسية، لكن أين تنتهي هذه الحكاية؟

وفي يناير سنة ١٧٩٨ ظهر في كولردج حافز آخر يحفزه على التفرغ للشعر، إذ إن جوسياه Josiah وتوماس ودجوود Wedgwood – ابني جوسياه ودجوود(١٧٣٠ – ١٧٩٥) ووريثاه – عرضا على الشاعر شبه المفلس راتباً سنوياً مقداره ١٥٠ جنيهاً (٣,٧٥٠ دولار) شريطة أن يتفرّغ تماماً للشعر والفلسفة. وكان أبوهما صانع فخار أتقن صنعته فجعل فخاره وخزفه مشهورا في أوربا كلها. وكتب كولردج لهما خطابا في ١٧ يناير يرحب فيه بهذه المنحة، وأغرق في التأمل والاندماج في عملية الإبداع ليكمل (أغنية الملاّح القديم) واقترح كولردج على وردزورث بعد أن تسلح بهذه المنحة الدالة على شهرته في مضمار الشعر – أن يجمعا معا قصائدهمــا الجديدة في مجلدات تحمل اسميهما فقد تعود عليهما بمبالغ مالية تكفي لتمويل رحلة يقومان بها إلى ألمانيا. لقد كان كولردج يأمل في أن عاما يقضيه في ألمانيا سيمكنه من تعلم اللغة الألمانية بشكل يكفي لقراءة الأعمال الكبرى التي ألفها الألمان من جوته (جيتة) إلى كانط Kant في لغتها الأصلية وفهمها، فهؤلاء الأعلام الألمان قد جعلا من ألمانيا رائدة في مجال الفلسفة الأوربية بلا منازع أو على الأقل جعلتها تنافس إنجلترا وفرنسا في مجال الأدب والفكر. ولم يكن وردزورث متحمساً لألمانيا، لكن لأن فرنسا وشمال إيطاليا كانا في قبضة الثورة الفرنسية، فقد وافق كولردج على خطته.

وفي أبريل سنة ١٧٩٨ وجها دعوة للناشر كوتل Cottle ليأتي إليهما من بريستول ليسمع أشعارهما الأخيرة، وأتى واستمع إليهما وعرض ثلاثين جنيها لشراء حق الطبع، وأراد أيضا أن ينشر اسمي الشاعرين ولكن كولردج رفض قائلا «إن اسم وردزورث ليس شيئا أما اسمي فيلاقي احتجاجا عنيفاً»[٢٤].

وبعد ذلك بثمانية عشر عاما شرح كولردج نظريته الكامنة وراء هذا التعاون (العمل المشترك):

«من المتفق عليه أن محاولاتي تتناول شخوصاً وشخصيات ميتافيزيقية (فوق الطبيعة) أو على الأقل رومانسية .... أما السيد وردزورث فقد جعل هدفاً له أن يضفي الجدَّة والجاذبية على أمور تحدث كل يوم، وأن يثير مشاعر تناظر ما أثيره من أمور فوق طبيعية

(ميتافيزيقية) بلفت الأنظار إلى ما في العادات من بلادة ولا مبالاة، إنه يوجه شعره إلى ما في العالم أمامنا من جمال وعجائب . . .لقد كتبت «الملاح القديم» من هذا المنطلق وكنت أجهز أيضا بمثل هذه الروح لعمليّ «الليدي السوداء» و«كريستابل Christable» اللذين كنت فيهما أكثر اقترابا من تحقيق هذه الغاية»[٢٥].

وربما أخذت هذه النظرية شكلها بعد كتابة القصائد. وقد وضح هذا وردزورث في مقدمة الطبعة الأولى:

«تعتبر معظم القصائد الواردة في هذه الطبعة تجارب شعرية. لقد كتبت في الأساس من وجهة نظر مؤداها التحقق من المدى الذي يمكن فيه للغة العادية (لغة الحوار) في الطبقتين الوسطى والدنيا أن تكون قادرة على تحقيق أغراض الشعر وما يحدث من بهجة. لقد اعتاد القراء على الزخارف اللفظية والأساليب الفارغة لكثيرين من الكتاب المعاصرين، لذا فإن هؤلاء القراء إذا ثابروا على قراءة هذا الكتاب إلى نهايته ربما كان عليهم أن يقاوموا ما يحسون به من غثاثة وسماجة وغرابة. إنهم سينظرون إلى الشعر الذي ألفوه واعتادوا عليه ثم يندفعون متسائلين بأي حق أطلقنا على محاولاتنا هذه لفظ الشعر؟ إنه لمن المرغوب فيه ألا يعاني مثل هؤلاء القراء أمام كلمة الشعر «المتفردة، تلك الكلمة التي تنازع الناس حول معناها؟ انه لمن غير المرغوب فيه أن تقف هذه الكلمة عائقا بين الناس وبين الاستمتاع (بما نكتب) . . . .

والقراء الأرقى حكما قد لايوافقون على الأسلوب الذي كتبنا به كثيرا من هذه القصائد . . . فسيظهر لهم أن المؤلف (الشاعر) رغبة منه في تجنب الأخطاء الشائعة قد تنازل كثيرا واستخدم كثيرا من التعبيرات الشائعة جدا والتي لا تتسم لفرط تداولها بالوقار الكافي . . .»[٢٦].

وتدخل النثر[*] ليقطع عليهم روح الشعر: مالك منزل أفوكسدن أحاط آل وردزورث علما أن لاحق لهم في الإقامة في المنزل بعد ٣٠ يونيو ١٧٩٨. وفي ٢٥ يونيو غادر وليم وردزورث ودوروثي إلى بريستول للتفاوض مع كوتل Cottle (الناشر) وفي ١٠ يوليو

(*) المقصود بالنثر هنا: الواقع. (المترجم)

استقلتهما سفينة ليعبرا نهر سيفرن Severn وسار عشرة أميال في ويلز إلى كنيسة تنتيرن Tintern Abbey . وبالقرب من هذه «الخرائب الجميلة جدا»(٢٧) وفي طريق العودة إلى بريستول ألف وردزورث القصيدة التي أضيفت كقصيدة أخيرة إلى ديوانهما «الشعر الغنائي Lyrical Ballads» .

وتم نشر هذا الديوان الصغير في ٤ أكتوبر ١٧٩٨ بعد تسعة عشر يوما من مغادرة الشاعرين – غير المعترف بشاعريتهما – قاصدين ألمانيا . لقد كان عنوان الديوان مناسبا؛ فقد كان إسهام كولردج الرئيس يسير على نسق الأشعار الإنجليزية القديمة – حكايات شعرية صالحة للغناء، وكان معظم إسهام وردزورث قصائد غنائية بسيطة تتناول الحياة البسيطة تكاد تقتصر على استخدام ألفاظ من مقطع واحد يستخدمها الفلاحون الإنجليز .

وكانت القصيدة الأولى في الديوان هي (أغنية الملاح القديم) وشغلت ١٥ صفحة من ١١٧ صفحة هي كل صفحات الديوان وهي أطول قصائده وربما أفضلها رغم أن إنجلترا لم تدرك ذلك إلا ببطء، أما وردزورث فلم يعترف بقيمتها أبدا . حقيقة ان هذه القصيدة كانت حاوية على أخطاء كثيرة لكن لايجب التركيز على الأخطاء التي نعتبرها منافية للعقل (أفكار اللامعقول) في الحكاية الشعرية، ذلك لأن كولردج كان قد اقتحم عالم الغموض حيث الأسرار والرموز وحيث الخيال الذي يجعل كل شيء ممكنا، ففي عالم الخيال يمكن أن تنتج أحداث جسام من وقائع تافهة أو بسيطة . ومع هذا فإنه يتمسك بعبير الأسرار في الحكايات والأساطير القديمة، كما يتمسك بأوزان وايقاعات الأشعار الغنائية والقصصية البسيطة القديمة (فالملاح القديم) تكاد تحملنا معه إلى النهاية . إنها (الملاح القديم) تعتبر – بالطبع – واحدة من أعظم قصائد الشعر الغنائي في اللغة الإنجليزية .

أما إسهامات وردزورث فتكاد كلها تكون نماذج من الحكمة التي وجدها في شخصيات البسطاء . وبعض هذه القصائد مثل (الصبي الأبله Idiot boy) و(سيمون لي Simon Lee) هجاهما المتابعون (النقاد) بصخب، لكن من منا لم يتعاطف مع حب الأم المتسم بالصبر لطفلها غير المؤذي ضعيف العقل (طفلها الأبله) ؟ (إن شطراً واحدا من هذه القصيدة المفهومة يخبرنا «عن العشب الأخضر – الذي تكاد تسمعه في أثناء نموه»(٢٨) أيمكن أن

يكون هذا التعبير اقتباساً من دوروثي؟) وبعد أن أطال كثيرا في قصائده ذات المذاق الريفي أنهى وردزورث الديوان بأبيات تأملية من (أميال قليلة) فوق (دير تنترن Tintern Abbey) . إنه هنا يقدم لنا تعبيرات فائقه (سامية) تعبر عن مشاعره عن أن (الطبيعة) و(الرب) هما شيء واحد (على وفق تعبير سبينوزا Deus sive Natura) إنهما (الطبيعة) و(الرب) لايتحدثان فحسب من خلال معجزات النمو (أو التطور) وإنما أيضا من خلال الرهبة التي تبدو (من خلال قصر نظر البشر) قوى مدمرة كان تيرنر Turner يتعبد في محرابها (أي الرهبة) عند ممارسة فن الرسم . ومن جولاته (وردزورث) في الغابات والحقول، وتجديفه على صفحات البحيرات الهادئة وتسلقه فوق الصخور الضخام الوعرة، وعن آلاف النداءات صياحا أو همساً الصادرة من آلاف الكائنات الحية، وحتى من تلك الموجودات التي يفترض ألا حياة فيها نسمعه -- عن هذا ينشد -- :

- إليها ... إنني مدين لها بكل ما هو مقدس ومبارك ،

- ففيها تكمن الأسرار ،

- وفيها يلقى الضوء ،

- على كل ما هو غامض مبهم في عالمنا ،

- وعن طريقها تريح هذا العبء الثقيل المرعب من الغموض والإبهام في عالمنا

- فبسلطان التناسق (الهارمونية) تسعد العين بالهدوء

- وبسلطان البهجة العميقة

- نرى أعماق كل ما هو حي(٢٩).

وبعد ذلك يشرئب إلى دقائق إيمانه :

- لقد تعلمت ،

- أن أنظر إلى الطبيعة ،

- لاكشاب لافكر له ، لكنني أسمع في أحوال كثيرة ،

- هارمونية الصمت ، وموسيقاه الحزينة ،

- إنها ليست فجة وليست ضبابية غامضة رغم سلطانها الواسع الممتد ، وقدرتها

- على التطهير (تطهير النفس) والسيطرة (القهر). ولقد شعرت،
- بحضور يثيرني بالبهجة،
- بهجة الأفكار السامية: معانٍ تسمو،
- الأشياء سمواً عميقا وبعيدا بما يتخللها،
- معانٍ محورها ضوء الشمس الغاربة،
- والمحيط الهائل والهواء الطلق،
- والسماء الزرقاء، وفي نفس الإنسان،
- الحركة والروح اللتان تدفعان،
- كل ما هو مفكر، وكل أهداف للأفكار،
- وتدور في كل الأشياء، لذا ألا زلتُ
- عاشقا لكل المروج والغابات
- والجبال ... معترفا أن،
- في الطبيعة ولغة المعاني
- دليل قلبي وحارسه وروح،
- كل وجودي المعنوي (أو بتعبير آخر مغزى وجودي)[٣٠].

وقد وصلت دوروثي أيضا إلى هذه العقيدة (الإيمان) الشافية التي توحّد بين الطبيعة والرب ووجدت أنها لا تتفق مع العقيدة المسيحية. وفي نهاية قصيدته أضاف وردزورث إهداء يعبر فيه عن شكره لها وتسبيحه بفضلها كأخت روحه معلنا تمسكه بها حتى النهاية:

- إن إيماننا البهيج الذي نتمسك به جميعا،
- إيمان مقدس ومبارك. لذا دع القمر،
- يبزغ بنوره عليك عندما تكون سائرا بمفردك،
- ودع رياح الجبال التي بللها السديم تهب حرة،
- دعها تهب عليك، .... وفي الأعوام التالية،

- عندما تصبح هذه الانجذابات البرية ناضجة

- في بهجة رصينة، عندما تصبح نفسك

- ملاذاً لكل ما هو محبب

- ستصبح ذاكرتك مسكناً

- لكل الأصوات الحلوة، وكل ما هو متناسق جميل . . .»[٣١].

ولم يحظ هذا الديوان (Lyrical Ballads) باستقبال حسن إذ ذكرت السيدة كولردج «أن أحداً لم يحب هذه القصائد» - لقد كانت السيدة كولردج زوجة معذورة إذ كانت تغار من ملهمة زوجها الشاعر[*].

وانشغل المتابعون (النقاد) انشغالا شديدا بعدم الحبكة في قصيدة (البحار القديم) وعدم الترابط في الأفكار العاطفية في القصائد الغنائية القصيرة التي كتبها وردزورث، وبدا أن أحدا منهم لم يعترف بقصيدة (البحار القديم) كشكل سيسود مستقبلا في كل الأعمال الأدبيه الشعرية رغم أن بعض التابعين لاحظ وحدة الوجود (كون الطبيعة والرب شيئا واحدا) والإيمان بهما إيمانا شديداً في قصيدة (دير تينتيرن Tintern Abbey)، وبيع من هذا الديوان الصغير خمسمائة نسخة على مدار عامين وعزا كولردج أحد أسباب نقص المبيع منه إلى كلمه (البحار) التي أوحت أن الديوان يتناول أغاني التجارة أما وردزورث فقد عزاه إلى احتواء الديوان في على قصيدة (الملاح القديم) هذه وليس مجرد اسم (الملاح).

وفي سنة ١٧٩٩ بينما كان كولردج في المانيا أعد وردزورث طبعة ثانية من هذا الديوان. وفي ٢٤ يونيو كتب إلى الناشر كوتل: من خلال ما سمعته وقرأته يبدو أن قصيدة (الملاح القديم) قد ألحقت ضررا بالديوان (قد يكون هذا صحيحا) . . .إذا قدر طبع الديوان طبعة ثانية فإننى سأضع مكانها بعض المقطوعات الصغيرة قد تكون أكثر مواءمة للذوق العام»[٣٢] ومع هذا فقد اشتمل الديوان في طبعته الثانية على قصيدة (الملاح القديم) مع شروح غير متعاطفة قدمها وردزورث ، يبيّن فيها عيوب القصيدة وأخطاءها ولكنه لفت الأنظار إلى

(*) النص: تغار من الموزية Muse وهي إحدى الربات التسع الشقيقات في الأساطير الاغريقية، كن يحمين الغناء والشعر، والمعنى الذي أوردناه في المتن هو المقصود. (المترجم)

كونها قصيدة ممتازة . وهذه الطبعة (يناير١٨٠١) اشتملت على قصيدة جديدة لوردزورث هي قصيدة تحمل عنوان « ميشيل Michael » – وهي حكاية كتبها بالشعر المرسل (غير المقفى) عن راع بلغ من العمر أربعة وثمانين عاما مخلص في عمله متمسك بالأخلاق الحميدة ، محبوب في قريته ، وعن ابنه الذي انتقل إلى المدينة فغدا فاسقا منحلا . وذكر وردزورث في مقدمة جديدة للديوان بالتفصيل – وفي عبارات أصبحت الآن مشهورة – نظريته في الشعر : إن أي شيء وأية فكرة أن تثمر شعرا إذا حملت بالمشاعر والمعاني ، وإن أي أسلوب أولغة يمكن أن يكون شعرية إ ذا كان قادراً على نقل هذه المشاعر والأحاسيس والمعاني « فالشعر هوفيض عفوي للمشاعر القوية . التي تعود إلى أحاسيس وعواطف تراكمت بهدوء »[٣٣] وعلى الشاعر نفسه أن يتحكم في هذه الأحاسيس وتلك العواطف قبل أن يعطيها شكلها الفني ، ولكن مثل تلك المشاعر والأحاسيس ليست قصرا على المتعلمين أو النخبة المثقفة إذ يمكن أن تكون لدى الفلاح الأمي كما يمكن أن تكون لدى الدارس أو الباحث أو اللورد وربما تتخذ شكلها أنقى وأوضح عند الأشخاص الأكثر بساطة، ولا يحتاج التعبير عنها إلى مفردات شعرية خاصة أوأسلوب شعري خاص فأفضل الأساليب هو أبسطها وأفضل الألفاظ هو أقلها زخرفة وخلوا من الادعاء والخيلاء. والوضع الأمثل هو أن يتحدث الشاعر بلغة الرجل العادي وحتى الكلمات العلمية أو المكتسبة بالتعليم يمكن أن تكون شعرية إذا نقلت المشاعر والقيم المعنوية . وفي خاتمة المطاف فإن المضمون المعنوي –مشاعر وأحاسيس – هو المعول عليه في كل الفنون والآداب .المسألة إذن هي إلى أي مدى إذن نوظف مهارتنا (كشعراء) في توضيح الأفكار وتبرِئتها مما يشوبها والتسامي بها (جعلها نبيلة)، فالشاعر العظيم يجب أن ينقي المشاعر الإنسانية إلى درجة معينة. . . ليجعلها أكثر معقولية ونقاء ودواما – باختصار أكثر توافقا وتناغما مع الطبيعة – أعني مع الطبيعة الخالدة، والروح العظمى للأشياء. لابد للشاعر أن يكون إلى جوار الإنسان، وأن يسبقه (يستشف المستقبل) بين الحين والحين[٣٤] . والشاعر المثالي – أو الرسام أو النحات – هو فيلسوف يلبس الحكمة ثوب الفن والأدب، ويوحي المعاني من خلال الشكل الأدبي أو الفني الذي ابتغاه.

لقد قامت هذه المقدمة (التي كتبها وردزورث) بدور في التاريخ لأنها ساعدت في وضع نهاية للذوق اللغوي الذي كان سائدا غالبا في الشعر والخطابة لدى الإنجليز في العهد الأوغسطي كما ساعد على وضع نهاية للظلم الطبقي والمرجعيات الكلاسية في ذلك العصر. لقد أعلنت هذه المقدمة حرية المشاعر (حق الجميع في الشعور)، وكانت عاملا آخر من عوامل الترحيب بالقصص الرومانسي - وإن صاغها وردزورث بأسلوب أبعد ما يكون عن الرومانسية. لقد كان وردزورث نفسه ذا مزاج وصفات كلاسية فكرا وحكما لقد تفاعلت ذكرياته معه بهدوء، بينما كان كولردج رجل عواطف وأحاسيس وخيال. لقد كان التعاون بين الرجلين تعاونا مثمرا ومفيدا. إنها مشاركة ممتازة.

٨- الباحثان المتجولان: ١٧٩٨ - ١٧٩٩

لم ينتظر الشاعران (وردزورث وكولردج) ليريا ديوانهما منشورا وأبحرا ومعهما دوروثي في ١٥ سبتمبر سنة ١٧٩٨ من يارموث Yarmouth إلى همبرج Hamburg، وكان أحد أسباب قرارهما منحة إضافية تلقاها كولردج من جوزياه ودجوود Josiah Wedgwood وقرضا تلقاه وردزورث من أخيه رتشارد. وفي همبرج، افترقا بعد أن قاما بزيارة غير ملهمة للشاعر العجوز كلوبستوك Klopstock. وذهب كولردج للدراسة في جامعة جوتنجن Gottingen أما وردزورث ودوروثي فاستقلتهما مركبة عمومية إلى جوسلار Goslar «المدينة الإمبراطورية الحرة» عند السفوح الشمالية لجبال هارتس Harz، وهناك مكثا أربعة أشهر، ولم يكن ذلك في خطتهما وإنما بسبب البرد الشديد. وفي هذه الفترة راحا يتسكعان في الشوارع ويتدفآن أمام الموقد «المدفأة» ويكتبان الشعر أو ينسخانه. وليدفئ نفسه بالذكريات ألف وردزورث الكتاب الأول من مقدمته (The Prelude) وهو ملحمة سيرته الذاتية. وفجأة تحققا من أنهما يحبان إنجلترا كثيرا فانطلقا سيرا على الأقدام في ٢٣ فبراير سنة ١٧٩٩ وكان البرد قارسا ليودعا كولردج في جوتنجن، ثم أسرعا عائدين عبر بحر الشمال القارس إلى يارموث ومنها إلى سوكبيرن Sockburn حيث كانت ماري هتشنسون تنتظر بصبر قدوم وليم (وردزورث) ليتزوجها[٣٥].

وفي هذه الأثناء كان كولردج قد بذل قصارى جهده في جوتنجن ليكون ألمانياً إذ تعلم الألمانية وأصبح مشغولاً بالفلسفة الألمانية. ولم يجد توضيحا للعقل (أو النفس mind) في سيكلوجيا المادية Psychology of materialism وتخلى عن نظرية هارتلي Hartley عن التداعي Mechanistic associationism وتبنى مثالية idealism كانط ولاهوت شلنج Shelling الذي جعل الطبيعة Nature والعقل Mind هما وجهي الرب (جانبي الله). وقرأ أو سمع محاضرات أوغسطس فيلهلم فون شليجل August Wilhelm Von Schlegel عن شكسبير واقتبس منها أفكارا كثيرة في محاضراته اللاحقة عن الدراما في عهد إليزابث. وبعد أن تشبع تماما بالفكر والمجردات، فقد ميله للمشاعر والخيال وترك الشعر إلى الفلسفة. وكتب: «لقد مات الشعر فيّ. لقد نسيتُ كيف أنظم قصيدة»[٣٦]. لقد أصبح هو حامل الفلسفة الألمانية إلى إنجلترا. وفي يوليو سنة ١٧٩٩، غادر ألمانيا عائداً إلى نذر ستوي Nether Stowey لكن ابتعاده عن زوجه مدة عام كان قد أثر في قدرتها على رعاية بيتها، لم تعد ساره كولردج رومانسية حالمة، وأصابها هم بسبب موت ابنهما الثاني حديثا - بيركلي Berkeley. وفي شهر أكتوبر انطلق - وقد اعتراه الملل - شمالا ليرى وردزورث في سوكبيرن Sockburn. وفي تلك الزيارة أبقى يد سارة هتشنسون - أخت ماري - في يده طويلا، وسرى تيار باطني غامض من المرأة إلى الرجل، وانشغل كولردج بحبه الثالث غير السعيد، فسارة هذه - لم تقدم له أكثر من التعاطف لأنها كانت تدرك التزاماته تجاه الأخرى. وبعد عامين من التودد إليها بلا أمل استسلم للهزيمة وكتب قصيدة غنائية مؤثرة بعنوان «الأحزان» تكاد تكون آخر نبض شعري له.

وصحب وردزورث في جولة على الأقدام في منطقة البحيرة يبحث كل منهما عن مسكن، وفي كزويك Keswick ظن أنه وجد مكانا للإقامة لكنه تلقى عرضا للعمل في جريدة مورنينج بوسط Morning Post فغير خطته واتجه إلى لندن. وفي هذه الأثناء استأجر وردزورث مسكنا على بعد ثلاثة عشر ميلا إلى الجنوب - في جراسمير Grasmere. وعاد إلى سوكبيرن ورضيت دوروثي بالتحرك للمنزل الجديد وفي ١٧ ديسمبر ١٧٩٩ بدأ الأخ والأخت رحلتهما الطويلة سيرا على الأقدام في معظم الوقت قطعا خلالها أميالا كثيرة في

طرق وعرة وغير مستوية في فصل الشتاء. وفي ٢١ ديسمبر أقاما مدفأتهما في المنزل الجديد فيما أ سماه وزروث «طرف المدينة» وأصبح فيما بعد يحمل اسم مسكن اليمامة (دوف كوتاج Dove Cottage) وهناك قضيا أصعب أعوامهما وأسعدها في الوقت نفسه.

٩ - قصيدة رومانسية في جريسمير: ١٨٠٠-١٨٠٣

احتفظت لنا دوروثي في يومياتها في جريسمير في الفترة من ١٤ مايو ١٨٠٠ إلى ١٦ يناير ١٨٠٣ بتفاصيل شغلت ١٥٠ صفحة تمكننا من معرفة الحياة اليومية للأخ والأخت - والتي أصبحت باختصار فيما بعد حياة أخ وأخت وزوجة في آن واحد. ولم يكن مناخ جراسمير صحيا: فالمطر والثلج يكادان يسقطان يوميا. وبرد الشتاء بما يصاحبه من ثلوج قد يعاود الظهور في يونيو أو يوليو[٣٧]. لقد كانت الأيام المشمسة تمثل - لندرتها - بهجة غامرة، وكان ظهور القمر بين الحين والحين إلهاما وتجليا. وكان المنزل يدفأ بإشعال الفحم في المستوقد ولكن دوروثي ذكرت «أنني لم اكن أستطيع النوم بسبب شدة البرد وقسوته»

لقد اعتبرا مسألة المناخ هذه مسألة مفروضة وتصرفا إزاءها على نحو رُواقي، وكانا ممتنين للربيع وهوادة الأمطار «لقد كانت السماء تمطر باعتدال وبشكل لطيف». هذه العبارة تكررت مرارا في يوميات دوروثي. وورد فيها أيضا أنه «في بعض الأحيان كانت جريسمير تبدو جميلة جمالا يكاد يذيب القلب»[٣٨].

وكانا يسيران مسافات طويلة، معاً، أو فرادى وأحيانا كانا يقطعان ميلا إلى أمبلسيد Ambleside حيث مقر البريد، وأحيانا كانا يقطعان رحلة تستغرق نصف يوم إلى كزويك keswieck بعد استقرار كولردج بها. وبدا ورد زورت راضيا بزواجه من أخته إذ كان يدعوها:

رفيقة وحدتي في مسيرتي،
أملي وفرحتي وأختي وصديقتي،
وأحيانا أعز عليّ من هذا كله إن كان
العقل يدرك ما هو أعز من ذلك، أو كان،
في قلب الحب، ما هو أعز.

وفي وقت تأخر حتى سنة ١٨٠٢ (عام زواجه) كان يشير إليها بعبارة (حبي) وكانت راضية بدعوتها له (أخي اللطيف) [٣٩].

لقد أصبح دخلها الآن أربعين جنيها أما هو فدخله سبعون جنيها بالإضافة إلى مبالغ ضئيلة متقطعة تصل إلى حوالي ١٤٠ جنيها (٣,٥٠٠؟ دولار) وهذا هو كل دخلهما السنوي. وكان عندهما خادم أو خادمان، ذلك لأن الفقر كان منتشرا جدا حتى إن نسوة كثيرات بل ورجالا من غير المتزوجين كانوا راغبين في أداء عمل مقابل المأوى والطعام..

وكان الشاعر وأخته يرتديان ملابس بسيطة: دوروثي كانت ترتدي عباءة عادة ما تكون من صنعها هي، بل إنها عادة ما كانت تصنع حذاءها[٤٠] أما وليم وردزورث فكان يرتدي ملابس فلاح أو ملابس مستعملة أرسلها له أصدقاؤه[٤١].

وكان لديهما حديقة خضراوات، وكانا أحيانا يصطادان الأسماك من البحيرة. وأكثر من هذا فقد ورد في يوميات دوروثي: «لقد كنت أصنع كعكة الفاكهة والحلوى»[٤٢] «الخبز والحلوى»[٤٣] «الحلوى والكعك»[٤٤]. لقد كانت تدلل وليم.

لقد كان وليم يعمل أيضا: فقد خصص شطراً من كل يوم عادي للتأليف، وعادة ما كان يؤلف في أثناء سيره منفردا فإذا ما عاد أملى على دوروثي. وكان أيضا يقطع الأخشاب ويعزق أرض الحديقة ويزرعها «كان وليم يطهر المجرى المائي اللازم»[٤٥] مثل المجرى اللازم حفره في الجليد للتخلص من صرف المرحاض. وبالإضافة إلى هذا كانت دوروثي تخمر الجعة[٤٦] وكنا نستعير بعض الزجاجات لتعبئة الرُّم (شراب مسكر)[٤٧] ورغم تناول وليم للخضراوات[٤٨] فقد كان يعاني من البواسير وبعد سنة ١٨٠٥ أصبح يعاني من ضعف الإبصار والأرق فكان على دوروثي في كثير من الأمسيات أن تقرأ له حتى ينام[٤٩].

وفجأة اضطربت تلك الأيام[*] بسبب المال والزواج. ففي ٢٤ مايو سنة ١٨٠٢ توفي سير جيمس لوثر James Lowther إيرل لونسديل Lonsdale تاركا ثروته ولقبه لابن أخيه - السير وليم لوثر الذي رتب دفع المبالغ المدين بها السير جيمس لورثة جون وردزورث. وكان

(*) النص Those Theocritean days.

من الواضح أنه قد جرى تقسيم أربعة آلاف جنيه بين الأطفال ورغم أن نصيبي وليم ودوروثي لم يتم دفعه حتى سنة ١٨٠٣ فإن وليم شعر أن توقعاته المعقولة تدعم تقدمه لطلب الزواج من ماري هتشنسون لكن ذكرى أنيت فالون Annette VaIon راحت تعتمل في وعيه. ألا يجب عليه الكشف عن علاقته بها قبل أن يطلب من ماري الاقتران به؟ وفي التاسع من يوليو غادرا جالوهل Gallow Hill استقلتهما عربة إلى لندن. لقد أخذ بروعة المدينة كما بدت له في الصباح الباكر من جسر وستمنستر Westminster Bridge. وألف وردزورث واحدة من سونيتاته (السونيتة قصيدة من أربعة عشر بيتا) الخالدة – «ليس على وجه البسيطة ما هو أجمل من ذلك»[٥٠] وواصلا طريقهما إلى دوفر Dover واستقلتهما سفينة نقل البريد عبر القنال وفي ٣١ يوليو وجدا أنيت Annette وابنتها كارولين ذات الأعوام التسعة في انتظارهما في كاليه Calais. ولا ندري ما توصلا إليه من اتفاق، وكل ما نعرفه أنه بعد ١٤ سنة، عندما تزوجت كارولين، كانت حالة وردزورث وقتها منتعشة خصص لها راتبا سنويا مقداره ٣٠ جنيها (٧٥٠ دولار). ومكث الأربعة في كاليه Calais مدة أربعة أسابيع حيث راحوا يسيرون على شاطئ البحر في وفاق ظاهر. ونسج وردزورث قصيدة (سونيتة) أخرى رائعة:

«إنها أمسية جميلة، هادئة وسمحة

الزمن القدسي هادئ كراهبة

كتم أنفاسه لفرط الوقار».

وانتهى بالدعاء لكارولين. وفي ٢٩ أغسطس غادر وردزورث ودوروثي إلى دوفر ولندن. ومن الواضح أنه لم يكن في عجلة من أمره فلم يعد الأخ ولا أخته إلى جالوهل Gallow Hill حتى ٢٤ سبتمبر.

وفي ٤ أكتوبر ١٨٠٢ تزوج وليم وماري ولم تتلق العروس هدايا لأن أقاربها لم يكونوا موافقين على زواجها منه[٥١] أما دوروثي التي كانت قد كتبت في يومياتها مؤخرا عن وليم أنه (عشيقها) فلم تستطع أن تثق في قدرتها على حضور مراسم زواجه «فقد كانت مشاعرها مهتاجة تكاد لا تستطيع السيطرة عليها»[٥٢] فصعدت السلم وهي لا تكاد تحس

بما حولها حتى دعتها سارة هتشنسون قائلة «إنهما عادا» من الكنيسة. كان هذا – كما ذكرت في يومياتها – بعد الظهر – فاضطرت إلى انتزاع نفسها من سريرها وتحركت لا تدري كيف ... وهي لا تكاد تحمل نفسها حتى «قابلت حبيبي وليم فارتميت على صدره، فقام هو وجون هتشنسون باقتيادي إلى البيت وهناك مكثت لأرحب بعزيزتي ماري».

وفي هذا اليوم نفسه بدأ الشاعر وزوجته وأخته رحلة طويلة إلى جراسمير Grasmere في عربة خفيفة تجرها خيول. وبالتدريج كيّفت دوروثي نفسها للعيش كثالثة ثلاثة وسرعان ما تعلمت أن تحب ماري كأخت وصديقة حميمة. بالإضافة إلى ذلك فقد جلبت ماري إلى بيت الزوجية دخلها السنوي البالغ عشرين جنيها. وعندما وصل مبلغ لوثر Lowther الآنف ذكره أخيرا ارتقت أحوال الأسرة فنعمت بالرفاهية البورجوازية، وأصبح وليم وطنيا غيورا وأُدرج اسمه في قائمة متطوعي جراسمير Grasmere للدفاع المدني عن إنجلترا ضد نابليون.

ومن أناشيده الرعوية الرومانسية التي تعد من أجمل قصائده (إلى فراشة To a Butterfly) وأقوى سونيتاته (ميلتون)، أما قصيدته (الثبات والاستقلال) فتعكس نزعته إلى الحزن الشديد، وبين عامي ١٨٠٣ و ١٨٠٦ ظهر أشهر أعماله (إعلانات الخلود من ذكريات الطفولة الباكرة) فقلما تكون هناك فنتازيا فلسفية جرى التعبير عنها بمثل هذا الجمال[٥٣].

لقد بدأت بملاحظة كئيبة عن إعتام عينيه:

«أدور قدر مايمكن

ليلا أونهارا

فالأشياء التي كنت أراها لم أعد أراها الآن».

لقد جعل هذا رمزا لرؤانا المثالية التي تذوب أوتتلاشى مع شبابنا – «أين هي الآن .. أين العظمة والجلال والأحلام؟» ويدهش لم لاتساعدنا المعجزات البائسة التي أتتنا من البيت السماوي، والتي كانت تبهج طفولتنا وتجعلها متألقة، ترى لم تخبو كلما تقدم بنا السن؟

– ميلادنا ليس سوى نومٍ ونسيان،

– فروحنا التي تشب معنا ونجم حياتنا،

- لابد أن يخبوا (يغربا) في مكانٍ ما،

- لقد أتت روحنا من بعد قَصِي

- ليست من المجهول تماما

- وليست من العري الكامل

- لكننا أتينا من مؤخرات سحب الجلال

- من الرب الذي هو سكننا

- فالفردوس حولنا في مرحلة طفولتنا

- وتبدأ ظلال السجن تدرك الصبي النامي،

- لكنه يمسك النور، وحيثما ينساب النور

- يراه في لحظات سعادته ومرحه

- وأخيرا يدرك الانسان أنه يتلاشى،

- ويذوب في وضح النهار.

ومن ثم يحيى الشاعر الطفل باعتباره:

- أنت أفضل فيلسوف، فأنت لاتزال تحتفظ

- بتراثك ...

بل وعندما نبلغ من العمر مبلغا يكون لدينا وعي غائم بهذا الأفق الضائع:

- الهواجس الشاحبة للخلق

- تتحلق حول عوالم غير مؤكدة ...،

- تلقي أرواحنا نظرة على هذا البحر الخالد

- الذي ألقى بنا هنا

- أيمكن في لحظة أن نرحل إلى هناك،

- ونرى ألعاب الأطفال على الشاطئ،

- ونسمع أصوات الأمواج الجليلة مرة أخرى؟

تلك إنثر وبولوجيا كُسيت كساء لاهوتيا: الطفل لايزال حيوانا يسعد بحريته وأطرافه وعواطفه الحيوانية، ينفض أي كساء وأية قيود وأي حظر، يتطلع إلى الحرية في الحياة الحيوانية والحركة في الحقول أو الغابات أو البحار أو الهواء وشيئا فشيئا يفقد - بامتعاض - تلك الحريات كلما تقدم به السن وكلما أصبح شابا يعيش في ظل الحضارة. لكن وردزورث لم يرد أن يكون كذلك، لقد راح يتذكر فيثاغورث وراح يأمل أن يجد فيه جسرا يعبر منه إلى عقيدته أيام الطفولة (عقيدة الطفولة أو إيمانها) إن الرجل الهرم يبحث عن رحم لمشاعره كالرحم الذي أتى به إلى الحياة.

١٠ - حب وعمل وأفيون: ١٨٠٠ - ١٨١٠

في أبريل سنة ١٨٠٠ أتى كولردج إلى جراسمير بعد أن أكمل مهمته في جريدة مورننج بوست Morning Post ليقضي ثلاثة أسابيع مع آل وردزورث، فأخبرته دوروثي أنها وجدت مأوى جميلا له ولأسرته في منزل كبيريقال له جريتا هول Greta hall على بعد نحو ثلاثة أميال خارج كزويك Keswick وذهب كولردج ورأى البيت في عز الصيف ووجد في إحدى الغرف مكتبة تضم خمسمائة مجلد، كثير منها غلال ملائمة لطاحونته (المقصود ملائمة لمزاجه الفكري) فوقع عقد الإيجاربحماس. وفي أغسطس سنة ١٨٠٠ اصطحب زوجته سارة وابنه هارتلي من نذر ستوي Nether Stowey إلى منزلهم الجديد، حيث وضعت ساره طفلا آخر أسموه درونت Derwent على اسم بحيرة ومجرى مائي قريب. وسرعان ما حل الشتاء فنبه الأسرة إلى خطئها فقد فاقم البرد والمطر من استعداد كولردج لمرض الربو والحمى الروماتيزمية، كما أن ابتعاد الزوجة عن أقاربها عمَّق اكتئابها لأن زوجها كان غالبا ما يتركها وحيدة مرتحلاً ببدنه وفكره.

فكثيرا ما كان يتركها ليسير على قدميه ستة عشر ميلا إلى كزويك وجراسمير ليسعد بمناقشات وردزورث المثيرة، ورعاية دوروثي الودودة. ولم يكن وردزورث ودورثي ليسيرا في اتجاه الشمال كثيرا ليبهجا أيام كولردج. وفي نوفمبر سنة ١٨٠٠ أقبلت سارة هتشنسون من جالوهل Gallow Hill لتمكث عدة شهور مع ماري ووليم ودوروثي في دوف كوتاج Dove

Cottage وهناك تابع كولردج ملاحقته لها، وببساطة قاسية غير مقصودة اعترف لزوجته بحبه لسارة الثانية وطلب منها أن تأذن له بحبهما معا. ويوما فيوم ابتعدت عنه نفسيا منشغلة باهتماماتها كأم، وانكفأ هو على كتبه وتأملاته.

وحاول أن يكمل قصته الشعرية (كريستابل Christabel) التي كان قد بدأها في سنة ١٧٩٧ لكنه لم يجد في نفسه حماسا أو إلهاما فتركها ولما تكتمل. وقد امتدح سكوت Scott وبايرون Byron هذه القصيدة في شكلها المخطوط رغم أنهما أخذا عليها بعض الهنات في الموضوع والوزن والحالة النفسية، وأخيرا (١٨١٦) طبعها الناشر مري Murray بتشجيع وحث من بايرون إنها بقايا لم تكتمل لأثر راح ما به من جمال يذوي.

وبعد عام في جريتا هول Greta Hall كانت صحة كولردج وميزانيته تنفد شيئا فشيئا وأحس أنه لن يستطيع الحياة شتاء آخر في منطقة البحيرات. وسعد لتلقيه دعوة للانضمام إلى هيئة تحرير المورننج بوست Morning Post وفي أكتوبر سنة ١٨٠١ ذهب إلى جراسمير Grasmere للوداع وفي التاسع من الشهر نفسه سارت معه دوروثي وماري إلى جريتا هول Greta Hall، وفي العاشر من الشهر نفسه غادر إلى لندن، أما دوروثي وماري فقد عادتا إلى جراسمير. وكتبت دوروثي في يومياتها «لقد قضى كولردج يوما ممتعا ...

إن كل مشهد وكل صوت يذكرني به كرفيق عزيز عزيز.. لقد كنت مكتئبة ولا أستطيع الحديث لكنني أخيرا هوّنت على نفسي بالبكاء - قال وليم: يا له من انتحاب عصبي. ولم يكن الأمر كذلك، آه يالكثرة الأسباب التي تجعلني قلقة عليه!».

وصل كرلردج إلى لندن وانشغل بالكتابة بجدية كاملة في كتاب (الزعماء) الذي كان يتمشى مع سياسة الجريدة (مورننج بوست) الأداة الرئيسية لحزب الأحرار (الهويج) - المعارض للوزارة، وإن كان مؤيداً للملكية (بكسر الميم). لقد أدان الرق و« التنظيم الإداري القابل للرشوة rotten boroughs » (الذي كان يرسل بانتظام التورى - المحافظين - إلى البرلمان) وأدان الحكومة لرفضها السلام الذي عرضه نابليون (١٨٠٠) وكاد يحطم بت Pitt بتحليلاته التي لا ترحم له كرجل دولة. وعلى أية حال فقد دافع عن الملكية (بكسر الميم) الشخصية كأساس ضروري لمجتمع متقدم ومنظم وساق الأدلة على أن الحكومة هي أفضل

من يجعل «سلطان كل فرد متناسبا مع ممتلكاته»[٥٤](*) لقد كانت كتاباته قوية ومؤثرة فزاد توزيع الجريدة كثيرا أثناء كتابته فيها[٥٥]. لكن عاما من العمل الشاق أسهم في تدمير صحته. وعندما عاد إلى جريتا هول (١٨٠٢) كان منهاراً صحيا ومعنويا – آلام بدنية، وانصراف عن الزوجة، وبُعد عن الحب وأصبح عبدا للأفيون. وكان قد بدأ في تناول الأفيون في سنة ١٧٩١، وهو في التاسعة عشر من عمره[٥٦] لتهدئة أعصابه وتخفيف آلامه وجلب النوم ووقف ما حاق به من تدهور في القلب والرئتين. وعندما وافاه النوم المتقطع أخيرا اجتاحته في أثنائه الأحلام المروعة (الكوابيس) التي أشار إليها في «آلام النوم» (١٨٠٣).

– حشد شيطاني شرير،

– خليط غريب من الرغبة والقرف،

– أشياء كريهة وحشية يختلط بعضها ببعضها الآخر،

– عواطف جامحة وهدير مثير،

– وخجل، ورعب شامل[٥٧].

ويخبرنا في مذكراته عن بشر خياليين على سطح القمر «إنهم مثل البشر على الأرض في كل شيء إلا أنهم يأكلون بمؤخراتهم (ألياتهم – جمع ألية) ويتبرزون (يتغوطون) في أفواههم .. ولا يمارسون التقبيل كثيراً»[٥٨]. لقد كانت تعتريه الأحلام المزعجة (الكوابيس) مثل غالبنا، لكن أحلامه المزعجة هذه كانت حية جدا تكاد تكون حقيقية حتى إنه كان – في بعض الأحيان – يوقظ ساكني المنزل بصراخه[٥٩].

وربما فتحت له آلامه وما يتناوله من عقاقير آفاقا جديدة وأتاحت له صورا ذهنية ومدركات حسية وخيالات غير متاحة للعقل العادي، رغم أنها – أي هذه الأمراض وتلك العقاقير – كانت تشوش على أفكاره وتضعف إرادته. على أية حال فقد كان محصوله المعرفي لايبارى في جيله، فهو في هذا يفوق وردزورث بمراحل، فلم يكن وردزورث يستطيع أن يتحدث في غير قصائده، بينما كان الحوار مع كولردج – حتى في فترة تدهوره

---

to make "each man's power porportionate to his property"(*)

– يشمل موضوعات كثيرة ويتسم بالحيوية كونه شائقا حتى إنه ترك بصماته على كارليل Carlyle، وربما كان قادرا حتى على إلزام مدام دي ستيل Stael الصمت. وماجعله مبهورا بوردزورث هو أن هذا الأخير كان شديد التركيز لتحقيق هدفه، بالإضافة إلى قوة إرادته أما هو (كولردج) فكان – شيئا فشيئا – يحل الإرادة محل الرغبة، ويزيح الخيال ليحل محله الحقيقة. لقد كان تواضعه شديدا بشكل غريب لكنه كان واعيا بذاته بشكل مكثف مدركاً أنه يكاد يكون مهتما بكل الموضوعات (وهو في هذا مثل وردزورث ومثلنا) وكان في طويته معتزا بنفسه بشكل عدواني (يفوق الحد) وقد لفت الانتباه بأمانته والتزامه الخلقي الصارم ولامبالاته بالشهرة والمال، لكنه كان يتطلع إلى المكانة. وانتحل عبارات الآخرين وأفكارهم بسعادة، واقترض المال وترك أصدقاءه ينفقون على زوجته وأولاده وربما أضعف الأفيون من قدرته على ممارسة الجنس[٦٠].

وفي أبريل سنة ١٨٠٤ راح يبحث عن تقليص آلامه التي ضاعفها الربو والحمى الروماتيزمية بالتوجه إلى شمس البحر المتوسط وهوائه فقبل مائة جنيه قرضا من وردزورث[٦١] وأبحر إلى مالطة التي كانت في ذلك الوقت معقلا للقوة البريطانية وإن كانت موضع نزاع. وأخذ معه أوقية (أونصة) من الأفيون الخام وخمس أوقيات (أونصات) من اللودانيوم (مستحضر أفيوني يسمى أحيانا صبغ الأفيون) وقد كتب عن الرحلة في مذكراته (يوم ١٣ مايو) دعاء يائس:

«يا ربي العزيز! أعطني القوة أن أقوم بتجربة واحدة عميقة – إذا رسوت في جزيرة مالطة، فلا يكون الجو متعباً طوال شهر واحد، وأن تكون الطبيعة هادئة .. إنني عاشق رقيق القلب ولا أستطيع ممارسة الخطيئة دون إفلات من العاقبة، لكن آه إنني واهن جدا جدا منذ أيام طفولتي وحتى الآن، فلترحمني أيها الأب والرب»[٦٢].

وفي نحو عام بدا وكأنه استعاد سيطرته على نفسه وفي يوليو تم تعيينه سكرتيرا خاصا لحاكم مالطة – السير إسكندر بول Ball، وفي يناير ١٨٠٥ رقي إلى منصب السكرتير العام وهو منصب صلاحياته أكثر. لقد مارس عمله بجدية وأظهر براعة مدهشة في الحكم والتنفيذ. وبعد عام من الخدمة اعتراه إرهاق شديد، حتى إنه أسرف في تناول المخدرات،

وغادر مالطة إلى صقلية وإيطاليا وعاد إلى إنجلترا (١٨٠٦) وفي هذا الوقت أصبح أكثر اعتمادا على الأفيون، وكان يقاوم تأثيره المنوم بتناول « البراندي » .

وفي ٢٦ أكتوبر ١٨٠٦ قابل وردزورث في فندق في كندال Kendal، وكتبت دوروثي تحت هذا التاريخ « لم أشعر أبدا قبل ذلك بصدمة مثل صدمتي عندما وقع عليه نظري، فمن النظرة الأولى وجدته سمينا جدا حتى إن عينيه بدتا غائرتين في وجهه المنتفخ والتألق الوحيد الذي بدا في عينيه للحظة كان « تعبيرا مقدساً عن هدوء محياه »[٦٣] وذهب إلى كزويك Keswick ليطلب من زوجته الانفصال لكنها رفضت فتركها واخذ معه ابنه درونت Drewent البالغ من العمر ست سنوات، وحول لزوجته الراتب السنوي الذي كان يتلقاه من ودجود[٦٤] Wedgood لكن جوزياه ودجود سحب مساهمته في هذا الراتب السنوي في سنة ١٨١٣ . وأخذت سوثي Southey التي استقرت في جريتا هول Greta Hall منذ سنة ١٨٠٣ – على عاتقها رعاية امرأة أخيه . وتغلب كولردج على أزمته بفضل هدية أرسلها له رفيقه في الإدمان دي كوينسي De Quincey، وقد أرسلها له دون أن يحدد أنه هو مرسلها (أرسلها مجهولة المصدر) وبفضل المحاضرات التي ألقاها في المعهد الملكي Royal Institution في سنة ١٨٠٨ و١٨٠٩ و١٨١٠ .

وفي هذا العام انتهت الصداقة الكبيرة التي كان أساسها تبادل الخبرات الشعرية . لقد توقفت عندما جف ينبوع الشعر عند كولردج بعد سنة ١٨٠٠ بسبب وهن جسمه وتأثير الأفيون المنوم والنفور الزوجي وافتتانه بالفلسفة . وكان وردزورث قد شجع كولردج على ترك ربات الشعر، واقترح عليه كتابة النثر لأنه أقرب إلى عبقريته . وقد انزعج كولردج عندما علم أن آل وردزورث الثلاثة قد حذروا سارة هتشنسون من الاقتران به وبلغ الخلاف أشده عندما كتب وردزورث خطابا في ٣١ مايو ١٨٠٩ يحذر فيه بول Poole من الارتباط كثيرا بالعمل في مجلة كولردج الجديدة (١٨٠٩ – ٩١٨١٠) والتي تحمل عنوان « الصديق The friend » باعتباره – أي بول – أحد أعز أصدقاء كولردج وأقربهم إليه . كتب وردزورث : « إن ما أقوله لك هو رأيي الذي لم أقدمه لك إلا بعد ترو وتفكير، وهو رأي قائم على أدلة وبراهين تعمقت طوال سنوات . وإن كولردج لايقدر ولا يستطيع ولايريد تنفيذ أي شيء مفيد

لنفسه أو لأسرته أو للبشرية. فلا مواهبه ولا عبقريته ولا معلوماته الواسعة ستفيده في أي شيء، لقد خابت جميعا بسبب ما اعترى تفكيره من تشويش. والحقيقة أنه لم يعد لديه طاقة عقلية من أي نوع ولا هو قادر على تنفيذ أي عمل يحتمه الواجب أو الالتزام المعنوي»[٦٥] لقد كان هذا الرأي قاسيا متطرفا لكن وردزورث كان قد ذكر لكولردج الكثير في خطاب أرسله له منذ أسابيع قليلة سابقة[٦٦]. وتفاقم الأمر سوءا عندما أخبر بازل مونتاجو Basil Montagu كولردج أن وردزورث نصحه بألا يدعه (أي يدع كولردج) يقيم معه بسبب إدمانه الشديد الذي جعله مزعجا لايطاق عندما كان يقيم في جراسمير[٦٧] إلا أن وردزورث بعد ذلك أكد لكولردج أن مونتاجو أساء فهم كلماته، وتظاهر كولردج أنه اقتنع ولكن الخيوط بينهما كانت قد تقطعت واستحال وصلها وماتت الصداقة التاريخية.

١١- كولردج فيلسوفا

ربما نكون قد بالغنا في انهيار كولردج، فلا بد أن نلاحظ أنه بين عامي ١٨٠٨ - ١٨١٥ ألقى محاضرات في بريستول وفي المعهد الملكي في لندن - ظهر فيها أنه يعاني تشوشاً في الفكر والتعبير لكنه أثر في مستمعين مثل شارلز لامب Lamb ولورد بايرون وصمويل (صموئيل) روجرز، وتوماس مور ولاي هنت Leigh Hunt، وكأنما دفعهتم وغيرهم من الكتّاب للتضامن مع زميلهم الذي أصابه ما أصابه. وقد وصف هنري كراب Crabb الذي يعتبر واحداً من أصدقائه البارزين إنجليزاً وألماناً، المحاضرة الثالثة التي ألقاها في لندن «بأنها محاضرة ممتازة وألمانية جدا» وذكر أنه بالنسبة إلى المحاضرة الرابعة «فقد كانت ذات صبغة ألمانية جدا وكانت طريقة التناول فيها تتسم بالتجريد الشديد بما لا يطيقه المستمعون الذين كان عددهم قليلا»[٦٨]. لقد كان تجميع كولردج للحقائق والأفكار والفروض المسبقة تجميعا مزدحما وهائلا حتى إنه لم يستطع السيطرة على موضوعه. لقد كان يطوف بعناصر موضوعه بجموح لكنه كان مُلهما. لقد لخّص شارلز لامب، كولردج في عبارة مشهورة «إنه كملاك - بفتح الميم واللام - من الطبقة العليا، لحقه بعض الدمار»[٦٩] وانتهى إلى أنه «يكفينا أن نكون في نطاق رياح عبقريته ونسماتها حتى لا نمتلك مشاعرنا أو بتعبير آخر

حتى لاتصبح أرواحنا مستقرة»[٧٠].

وفي الفترة من ١٨١٥ إلى ١٨١٧ عندما كان كولردج مرة أخرى على وشك الانهيار دفع بخلاصة فكره إلى المطبعة[٧١]. ففي كتابه نظرية الحياة Theory of Life (١٨١٥) أظهر لنا معلومات مثيرة في العلم - خاصة الكيمياء التي تعلمها عن طريق صداقته لهمفري ديفي Humphry Davy لكنه رفض كل المحاولات ليشرح العقل mind من خلال مصطلحات فيزيو كيميائية. لقد سمى فكرة إرازموس داروين السخيفة .. بأنها فكرة رجل انطلق من حالة انبثاق برتقالية orange - outagestate وفي مطبوع Statesmans manual (١٨١٦) قدم الكتاب المقدس باعتباره أفضل مرشد للفكر السياسي، والتبصر بالعواقب». نجده يقول:

«يجد المؤرخ أن الأحداث الكبرى - وحتى التغيرات الأكثر أهمية في العلاقات التجارية العالمية .. أنا لانجد جذورها لدى مجموعة رجال الدولة ولا في الرؤي العملية لرجال الأعمال وإنما نجد جذورها لدى المنظرين الذين لاتتسم كتاباتهم بالتشويق، وفي رؤى العباقرة المنعزلين (المتفردين)... كل الثورات الدينية التي أعادت صياغة فترات زمنية في العالم المسيحي، والثورات الدينية التي أعادت معها صياغة العادات المدنية والاجتماعية والمحلية تزامنت مع قيام نظم (نظريات) ميتافيز يقية أوسقوطها»[٧٢].

(ربما كان يفكر في نتائج الفكر الذي أتى به يسوع، وكوبر نيكس وجوتنبرج ونيوتن وفولتير وروسو) وبعد موجز واضح للعوامل التي أدت إلى الثورة الفرنسية انتهى كولردج إلى أن صوت الشعب ليس هو صوت الله لأن الناس (الشعب) يفكرون في مجردات عاطفية أو «مطلقات عاطفية» ولا يمكن الوثوق بهم عند تولي السلطة[٧٣]، وأن أفضل طريق للإصلاح لايكون إلا من خلال وعي الأقلية المتعلمة ذوات الممتلكات[٧٤]، وأفعالها. وبشكل عام فإن أفضل مرشد للعمل الصحيح في السياسة وفي كل مجال هو الكتاب المقدس Bible لأنه يحتوي على كل الحقائق المهمة في التاريخ والفلسفة «فأنتم يا من تتحركون في الطبقات العليا من المجتمع «يجب أن تعلموا أيضا التاريخ والفلسفة واللاهوت، فأنتم أهل لها وليس أفراد الطبقات العاملة فتعلمهم التاريخ والفلسفة واللاهوت غير مطلوب إلى حد كبير بل وربما كان غير مرغوب فيه عموما. إن ترياق زيف رجال الدولة هو التاريخ ذلك أن جمع

الحاضر مع الماضي في سياق واحد، وتأصيل عادة مقارنة أحداث عصرنا – بعمق – بأحداث عصور خلت مسألة مطلوبة»[٧٥] ويواصل في كتابه (A Lay Sermon) الصادر في سنة ١٨١٧ دعواه للطبقات العليا والوسطى «باعتبارها أفضل أداة للإصلاح الصحيح وباعتبار أفرادها حراسا ضد الغوغائية والسفسطائية وضد المدرسة الثورية المضرمة للنيران»[٧٦] لكن الكتاب يعترف ببعض الشرور الجارية (الموجودة في زمنه): تضخم الدين الوطني بشكل غير محسوب، فقر الفلاحين فقرا شديدا، وعمل الأطفال في المصانع، ولاحظ كولردج «الحماقات والوقاحات والتبذير والتطرف الذي أعقب الرخاء الذي حل بنا والذي لم يسبق لنا أن شهدناه، كما لاحظ الممارسات العمياء والولع الأعمى بالمضاربات على مستوى التجارة العالمية بما في ذلك من مخاطر غير واضحة ومفاسد» لقد تفجّع بسبب احتمال تعرض الاقتصاد الجديد لهزات دورية تؤدي إلى انهيار عام ومعاناة يشرب الجميع كأسها[٧٧].

وأوصى ببعض الإصلاحات الأساسية «ضرورة خضوع أصحاب المصانع للقوانين العامة خاصة فيما يتعلق بتشغيل الأطفال[٧٨]، ولا بد أن تعترف الدولة أن أهدافها الإيجابية، هي: ١ - أن تجعل مصادر الرزق ووسائل الإعاشة أكثر يسرا لكل فرد. ٢– أن تؤمن لكل المواطنين آمالهم في تحسين أحوالهم وأحوال أبنائهم. ٣– تطوير القيم الضرورية لإنسانية المواطن – كمخلوق عاقل»[٧٩] ودعا إلى إنشاء منظمات (نقابات) تضم رؤساء كل العاملين في كل الحرف لدراسة المشاكل الاجتماعية من منظور فلسفي ولتقديم توصيات للجماعة، ولابد أن تمول الدولة هذه الطوائف الوطنية national churchs»[٨٠].

وأنهى كولردج كتابه (عظات غير دينية Lay Sermon) بأن رضخ للاهوتيين معترفاً بأنه ليست هناك عظة أو حكمة علمانية خالصة أو بتعبير آخر ليست هناك حكمة خالية من البعد الديني يمكنها أن تحل مشاكل البشرية[٨١] فلا يستطيع إلا الدين الغيبي (الفوق طبيعي) والنظام الأخلاقي الذي قدمه الله للبشر أن يواجه الشر الموروث في نفوس البشر، فالشر من شيم النفوس لدرجة أن الذكاء البشري وحده لايعتبر كافيا لجعل الإرادة البشرية مبرأة من العيوب[٨٢]. لقد دعا إلى العودة بتواضع إلى الدين وإلى الاعتقاد الكامل في يسوع

كرب مات لتخليص البشرية[٨٣] وفي ١٨١٥ / ١٨١٦ ألف (أو أملى) «فقرات عن حياتي الأدبية وآرائي» Sketches of my Literary Life & opinions لتكون أساساً لكتابة سيرته الذاتية. ولم يكمل هذا المجلد (سيرته الذاتية) ونشر (فقرات عن حياتي الأدبية وآرائي) في سنة ١٨١٧ بعنوان (ترجمة أدبية Biographia Literaria) التي تعد الآن أكثر مصادرنا أهمية عن فكر كولردج في مجالي الأدب والفلسفة. إنه كتاب متماسك وواضح بشكل ملحوظ رغم أنه كتب غالبه خلال فترة قنوط وجزع بسبب إدمانه الأفيون وتراكم ديونه، وعدم قدرته على تقديم المال اللازم لتعليم أبنائه. لقد بدأ بالتبرؤ من علم النفس الترابطي associationis Psychology الذي كان مفتوناً به في وقت من الأوقات. لقد رفض فكرة أن الفكر كله ما هو إلا نتيجة آلية (أوتومايتكية) للحواس (للإحساس)، فالإحساس – كما أصبح يعتقد – يعطينا مجرد مواد خامة تقوم النفس – التذكر، والمقارنة، والفردية المستمرة – بإعادة تكييفها لتصبح خيالا خلاقا وفكرا موجها ذا هدف، وفعلا واعيا. فكل تجاربنا – واعية أوغير واعية – مسجلة في الذاكرة التي هي مخزن يستقي منه العقل – بوعي أوبغير وعي – المادة اللازمة لتفسير التجربة (الخبرة) الحالية، ولتنوير الخيارات الحالية (أي التي تعين الفرد على الاختيار من بين متعددات كثيرة) وهنا – بطبيعة الحال – نجد كولردج يتبع خطى كانط Kant. إن الشهور العشرة التي قضاها في ألمانيا لم تحوله فقط من شاعر إلى فيلسوف وإنما من جبري determinist كإسبينوزا Spinoza إلى نصير لحرية الإرادة مثل كانط free - will Kantian وهنا اعترف اعترافا كاملا بدينه (المقصود اعترف لمن هو مدين له بفكره الجديد) «كتابات الحكيم المشهور حكيم كونيجسبرج Konigsberg أكثر من أي كتابات أخرى، تلك الكتابات التى كانت في وقت من الأوقات قد أنعشت تفكيري ونظمته»[٨٤] ومن أفكار كانط Kant تقدم كولردج إلى فكرة فيشته Fichte عن النفس وإعلاء مقامها باعتبارها الحقيقة الوحيدة المعروفة بشكل مباشر، ومن ثم جاس خلال أفكار هيجل (الديالكتيك الهيجلي) بين الفكرة ونقيضها، والوحدة بين الطبيعة والنفس، إلى أفكار شلنج Schelling عن خضوع الطبيعة للنفس أوتبعيتها لها، باعتبارهما – أي الطبيعة والنفس – وجهان لحقيقة واحدة إلا أن الطبيعة – على أية حال – تعمل بلا وعي، بينما

يعمل العقل بشكل واع ويصل إلى أسمى درجات التعبير من خلال الخلق العبقري الواعي. لقد اقتبس كولردج بانطلاق كامل من شلنج Schelling إلا أنه غالباً ما كان يهمل ذكر مصادره[٨٥]. لكنه اعترف بشكل عام بمن هو مدين لهم بأفكاره وأضاف قائلا:

«بالنسبة إلي يكفيني سعادة وشرفا إن نجحت في نقل فكر شلنج بشكل واضح إلى أهل بلدي»[٨٦].

والأحد عشر فصلا الأخيرة من كتابه الآنف ذكره (ترجمه أدبية .. Biographia) تقدم مناقشة فلسفية للأدب باعتباره إفرازا للخيال، وقد ميز بين الوهم fancy والخيال، فالوهم فانتازيا (أو خيال جامح) كما في حالة حورية الماء (المخلوق البحري الذي له جسد امرأة ورأس سمكة) بينما الخيال (كتب كولردج الكلمة بحروف كبيرة / كابيتال هكذا IMAGINATION) فهو توحيد واع بين أجزاء لتشكل كلا جديدا كما في حالة حبكة الرواية، وتصنيف كتاب، وخلق عمل فني أو صياغة نتائج العلوم في نسق (نظام) فلسفي. هذا التصور (أو الإدراك) يصبح أداة لفهم – ونقد – أي قصيدة أو كتاب أو رسم أوسيمفونية أو تمثال أو عمارة؛ إلى أي مدى استطاع الشاعر أو الفنان أن يجعل مكونات عمله متناسقة أو بعبارة أخرى إلى أي مدى استطاع أن يصل بين الأجزاء بالأجزاء الأخرى المرتبطة بها أو ذات الصلة بها، لتحقيق معنى العمل ككل ولتجعله متماسكاً في كل واحد؟ إلى أي مدى نجح المنشئ في هذا وإلى أي مدى فشل؟ وفي هذه الصفحات قدم لنا كولردج الأساس الفلسفي للحركة الرومانسية في الأدب والفن.

وقد أنهى كتابه الآنف ذكره بنقد حاد لفلسفة وردزورث، وطريقته الشعرية. هل حقيقة أن أسمى فلسفة في الحياة يمكن أن يجدها المرء في طرائق التفكير عند أبسط الناس؟ أحقا أن لغة هؤلاء البسطاء هي أفضل وسيلة شعرية؟ أليس هناك فارق جوهري بين الشعر والنثر؟ في كل هذه النقاط وجه كولردج نقده لوردزورث بشكل دمث لكنه حاد ومؤثر. وانتهى أخيرا بما يفيد ولاءه وتقديره لحكيم جراسمير كاعظم شاعرمنذ ميلتون[٨٧] Milton.

وبعد أن قام آل وردزورث بجولات قصيرة نقلوا مقر سكناهم (١٨٠٨) من دوف كوتاج Dove Cottage إلى مسكن أوسع بالقرب من الان بانك Allan Bank وهناك أبدع الشاعر كبستاني فزرع حول البيت نباتات وورودا راحت تختال تحت أمطار جراسمير. وفي سنة ١٨١٣ انتقلت الأسرة أخيرا إلى عقار بسيط في جبل ريدال Rydal Mount في أمبلسيد Ambleside إلى الجنوب من جراسمير بميل. لقد أصبح آل وردزورث الآن في رغد من العيش ولديهم عدد من الخدم وصادقوا بعض ذوي المكانة. وفي هذا العام رتب اللورد لوندسديل Londsdale لتعيين وردزورث موزعا للطوابع في إقليم وستمورلاند Westmorland فاستمر يزاول هذا العمل حتى سنة ١٨٤٢ وكان يدر عليه مائة جنيه إضافية في العام. أما وقد تخلص من متاعبه المالية فقد راح يقضي مزيدا من الوقت في بستانه فجعله فردوساً من الورود والنباتات المزهرة لاتزال موجودة.

ومن نافذته في الطابق الثاني كان يطل على مشهد ملهم - انه منظر بحيرة ريدال Rydal water التي تبعد مسافة ميلين.

وفي هذه الأثناء (١٨٠٥) أكمل كتابه (المقدمة The Prelude) الذي كان قد بدأه سنة ١٧٩٨. وقد كتبت دوروثي: «إنه كان يجمعنا كل يوم في اجتماع كبير كله متعة وصفاء»[٨٨] بعد أن يقوم بجولاته مشيا على الأقدام. لقد كانت هي وسارة هتشنسون تنشغلان دوما بكتابة ما يُملى عليهما، وكان وردزورث قد تعلم التفكير من خلال الشعر المنثور. وكان يضع العناوين الجانبية لملحمته الشعرية التي تأتى في كتابتها «تطور عقل شاعر The growth of Poet's mind»، قد قصد بهذا العمل أن يكون سيرة ذاتية لتطوره العقلي والنفسي، وكمقدمة «للنزهة The Excursion» التي تعرض بالتفصيل الفلسفة التي تمخض عنها هذا التطور. وقد قدم لنا ما يفيد مودته لكولردج بأن راح مرارا يستعيد ذكرياته معه، وتوجيه الحديث إليه. لقد اعتذر للأنانية والحديث عن الذات كما تبدوان في القصيدة لمن تناولها بشكل سطحي، فقد اعترف «أنه لم يسبق لأحد أن تحدث عن نفسه بهذه الكثرة»[٨٩] وربما لهذا السبب لم ينشر هذا العمل في أثناء حياته.

لكنها مقبولة ومحتملة تماما إن تناولناها في جرعات قليلة، وأكثر ما هو مبهج فيها هو مشاهد طفولته (كتاب ١ و ٢) حيث ذكر جولاته في الغابات المنعزلة حيث بدا له أنه يسمع صوت الرب الكامن وراء كل شيء، الذي يأخذ صورا شتى، كلما جلس. لقد بدا له أنه يسمع هذا الصوت في أصوات الطيور والحيوانات وحفيف الأشجار بل ويسمعه حتى في الصخور نفسها وفي التلال:

- **وحدي فوق ربوة ناتئة،**
- **مع تنفس الصبح**
- **ففي هذه اللحظات يكون - غالبا - هذا الهدوء القدسي،**
- **الذي يغمر روحي، فلا أعود أرى بعيني بدني**
- **إنني أنسى ذلك تماما، فما أراه**
- **يبدو لي وكأنه داخل نفسي، يبدو حلماً**
- **يبدو مشاهد موجودة داخل نفسي..**
- **لقد كنت في هذا الوقت**
- **أرى بركات تنتشر حولي وكأنها بحر...**
- **بركات قدسية لا توصف..**
- **لقد شعرت بعاطفة الموجود Being تنتشر،**
- **فوق كل ما يتحرك، وفوق كل مايبدو ساكنا،**
- **فوق كل ما لا يطوله فكر**
- **وفوق كل المعرفة البشرية، وفوق ما لا**
- **تراه عين البشر، بل إنني أحسست أنه يعيش حتى في القلب،**
- **فوق كل ما يثب وكل ما يجري، وكل ما يصيح وكل ما يغني**
- **أو يحرك الهواء العليل، فوق كل ما هو بين الأمواج، بل إنه موجود حتى في الأمواج نفسها،**

– وفي أعماق البحار، وأعماق أعماقها،

– أحس بالبهجة القصوى، إن وصل الاتصال ذروته

– بين الأرض والسماء

– اتصال بين كل ما هو مخلوق، مع

– الخالق (غير المخلوق) ..

(قد نرى هنا تناقضا أو تراجعا، فالبيت الأخير يفترض وجود فاصل حقيقي بين الخلق والخالق، بينما نظرة وردزورث – كنظرة سبينوزا ترياان الرب) والطبيعة شيئاً واحداً – النظرة القائلة (بوحدة الوجود).

وفي كابردج كان أحيانا ينضم إلى حفلات السمر التي يرتبها الطلبة كما كان أحيانا يشاركهم عبثهم ، ومع هذا فقد كان منزعجا لفهمهم للحياة بشكل سطحي طائش ، فقد كان يجد متعة أكثر في دراسة الكلاسيات الإنجليزية (الأعمال الأدبية الكلاسية) أو ركوب الزوارق (النص boating on the Cam) وفي أوقات العطلات كان يعود إلى مأواه الأصلي فيتناول طعامه على مائدة أسرته ويأوي إلى فراشه المعتاد :

– هذا السرير المنخفض الذي كنت أسمع وأنا ثاو فيه عصف الريح ، وصوت المطر المنهمر بعنف

– وكنت في ليالي الصيف أظل يقظان رغم تمددي على السرير وكان هذا يحدث كثيرا ، لأراقب

– القمر في بهائه مضطجعا بين أوراق

– أشجار الدردار الباسقة القريبة من مسكننا ،

–ورحت أرقب هذه الأشجار بعينين لا تبغيان عنها حولا ، بينما تتحرك ذراها بين الحين والحين

– مع كل هبة من هبات النسيم .

وفي كوكرموث Cockermouth كان يستطيع السير مع كلبه الهرم الذي كان يتركه يؤلف الأشعار وينشدها بصوت عال دون أن يتهمه بخلل أصاب عقله :

– آه ، أأنا في حاجة – يا صديقي العزيز

– أن أقول إن قلبي قد فاض؟ ، إنني لا

– أقدم نذورا ، إنما كانت النذور تقدم لي

– ذلك أنني لا بد كنت روحا مكرسة يُهدى إليها

لقد كان يعيش للشعر. كما كان يجد مسرة أيضا في تلك الرحلات الممتعة التي كان يقوم بها خلسة في القنال الإنجليزي ليشعر بالسعادة المجنونة لفرنسا الثورة، وبالفوران فوق الألب (المفهوم طبعا انه لا يصل إلى هذه الأماكن) ومن ثم يعود إلى لندن « تلك المدينة الضخمة التي تشبه كثيب الرمال الناتج عن تشييد النمل لمساكنها »(*) حيث برلمانها الذي يرتل تراتيل فضائل التقاليد « مع احتقار شديد لنظرية (أفكار) محدثي النعمة » (المقصود ثوار فرنسا) وراح يراقب الجموع المزدحمة في فوكسهول Vauxhall والذين يتعبدون في كنيسة القديس بول، وراح يرى أويسمع الجموع المتحركة تضم مختلف الأجناس والوجوه والأزياء واللغات، وفوضى المرور، وابتسامات المومسات ونداءات البائعين، ومناشدة النسوة، والفنانين يرسمون بالطباشير على أحجار الطريق (الرسم التقليدي – قرود على ظهور جمال) والمغنين في الطريق وكأنهم عشاق يعزفون السرينادات (أغان يرددها العشاق تحت شرفات المعشوقات) – كل هذا شعر به الشاعر شعورا قويا كشعوره بالغابات لكنه لم يرتبط بها وانسل إلى المشاهد الأكثر هدوءا حيث الحب لكل الطبيعة يمكن أن يعلمه أن يفهم ويعفو. ثم يعود مرة أخرى لفرنسا حيث برر الحكم الطاغي والبؤس القديم قيام الثورة وجعلها عادلة نبيلة بل إنه حتى البريتوني a Briton يمكنه أن ينخرط في هواها (تعتريه نشوة حب لها) :

– الجمال بشير بالوعود ،

– ليس في الأماكن الأثيرة وحدها وإنما في كل الأرض ،

– فأي منا لايتطلع مفكراً في السعادة المرتقبة .

(*) «monstrous ant - hill» ، والمعنى ينطوي على كناية بطبيعة الحال، والمقصود بالنمل هنا الإنجليز الذين أنشأوا لندن بدأب. (المترجم)

ومن هذه النشوة التي بلغت السؤدد انحدرت فرنسا إلى الجريمة وانحدر وردزورث إلى النثر:

- لكن الآن أصبح الثوار ظلمة

- حولوا الحرب من أداة للدفاع عن أنفسهم

- إلى أداة للغزو، ولم يعودوا يرون

- كل ما كانوا يناضلون من أجله...

وببطء وتردد أنهى الشاعر «مقدمته his Prelude» داعيا صديقه للعودة من مالطة (المقصود كولردج) لينضم للجهود المبذولة للعودة من الحرب والثورة إلى حب الطبيعة والبشر. ولم يكن على وفاق مع قصيدته(٩٠) فقد كان يعلم أنه توجد صحراوات شاسعات حول الواحات. ولم يكن وردزورث يرى إلا فروقا قليلة بين النثر والشعر. لقد اعترف بذلك، وكان غالبا أيضا ما يمزج بينهما في شعره غير المقفى، المتسم بفتور نبرته وتؤدة وقعه. لقد جعل العاطفة والأحاسيس تنبع من السكون وهدوء النبرة، وجعل من هذا جوهر الشعر وروحه (دعنا نقل الموسيقا الداخلية) لكن هذا السكون الشعري الذي يستمر على نحو متواصل طوال أربع عشرة مقطوعة قد يحيلها إلى هوادة أو هدهدة تبعث على النوم. وبشكل عام فإن طبيعة الملحمة أنها تتناول حدثا عظيما أو نبيلا، أما الأفكار فهي شخصية جدا حتى إنه لا يصلح تناولها في ملحمة. ومع هذا فإن (المقدمة The Prelude) تركت القارئ المصمم على مواصلة قراءتها وقد شعر بقبول سليم للحقيقة الباقية. وفي بعض الأحيان كان وردزورث - كأغاني الطفولة - يطهرنا بنقاء الغابات والحقول ويجعلنا - كالتلال الراسخات - نتحمل العواصف صامتين صابرين.

وكان وردزورث قبل المغادرة قاصدا ألمانيا في سنة ١٧٩٨ قد بدأ (الناسك The Recluse) وهو عمل بث فيه فكرة أن الانسان الذي يعرف الحياة حق المعرفة هو الذي عايشها ومن ثم انسحب منها، وقد حثه كولردج على تطوير هذه الفكره في صياغة كاملة ونهائية لفلسفته. وبتحديد أكثر اقترح عليه كولردج قائلا «أريدك أن تكتب قصيدة بالشعر الحر (غير المقفى) موجهة إلى هؤلاء الذين فقدوا كل أمل في تحسن أحوال

البشرية وانغمسوا فيما يكاد يكون أنانية لا تبحث إلا عن اللذة أو بتعبير آخر الأنانية الأبيقورية – وذلك نتيجة الفشل الكامل للثورة الفرنسية»[٩١] لقد اتفقا على أن ذروة الأدب هو الزواج السعيد بين الفلسفة والشعر. وعندما عاود وردزورث التفكير شعر أنه غير مستعد لمواجهة هذا التحدي. وكان قد أحدث تطويرا مهما في (المقدمة The Prelude) ليجعل منها تاريخا لتطوره العقلي (النفسي) فكيف يستطيع كتابة شرح أفكاره أو عرضها قبل إنجاز هذا العمل (الناسك)؟ لقد نحى (الناسك The Recluse) جانبا وتابع كتابة (المقدمة The Prelude) إلى نهايتها. وبعد ذلك وجد نفسه واهن العزم قليل الثقة، وكان خروج كولردج من حياته قد حرمه من الإلهام الحي الذي كان يحفزه على العمل في وقت من الأوقات. وفي ظل هذه الأحوال المثبطة كتب (الرحلة The Excursion) لقد بدأها بداية جيدة بوصفه لأطلال المسكن حيث كان يعيش الجوال (الرحالة) ويبدو أنه أخذ هذا الوصف من عمله الذي تخلى عنه ولم يكمله ونعني به الناسك Recluse وهذه الصورة التي رسمها وردزورث تقود الرحالة إلى العزلة والتنسك Solitary فهو يحكي لنا كيف فقد إيمانه الديني وأصبح متخماً بالحضارة فعاد إلى سلام الجبال. وقدم لنا الجوال الدين على أنه العلاج الوحيد لليأس، والمعرفة شيء طيب لكنها تزيد من قوتنا أكثر من زيادتها لسعادتنا، ثم ينقاد للقس (راعي الأبرشية) الذي يقدم الإيمان البسيط والترابط الأسري عند رعاياه الفلاحين باعتبارهما أكثر حكمة من محاولة الفيلسوف صياغة حكمة العصور في روابط فكرية. لقد كره الجوال حياة المدن المصطنعة وشرور الثورة الصناعية ودعا إلى تعليم عالمي وتنبأ بآثاره العظيمة. وعلى أية حال فإن القس (راعي الأبرشية) كانت لديه الكلمة الأخيرة فراح ينشد أنشودة التسبيح للرب. وقد نُشرت (الرحلة) وهي في جانب منها (الناسك Recluse) في سنة ١٨١٤ وبيعت النسخة بجنيهين (ومن المفترض أن المقدمة Prelude لم تكن قد طبعت حتى سنة ١٨٥٠) وطلب وردزورث من جيرانه – كلاركسون Clarksons – مساعدته في بيع نسخ مطبوعة بين أصدقائهم من طائفة الكويكر Quaker الذين كانوا أثرياء وشغوفين بالكتب التنويرية والثقافية» وقدم نسخة للروائي شارلز لويد Charles Lloyd على ألا يعيرها لأي قادر على شراء نسخة ورفض أن يعير نسخة لأرملة

ثرية اعتبرت أن سعر النسخة مرتفع بالنسبة «إلى جزء من عمل»[٩٢] وبعد ثمانية أشهر من النشر لم يكن قد باع إلا ثلاثمائة نسخة .

أما المتابعون للعمل فقد تباينت آراؤهم فاللورد جفري Jeffrey أدان في نوفمبر سنة ١٨١٤ (في مطبوع مستخلصات أدنبره Edinburgh Review) القصيدة بمقدمة تعتبرها نذير سوء «إن هذا لن يحدث أبداً» أما هازلت Hazlitt فبعد أن امتدح «الفقرات البهيجة المتعلقة بوصف الطبيعة، والأفكار الموحية» ذكر أن القصيدة طويلة ومتكلفة» وكرر «النتائج نفسها حتى أصبحت سطحية وتافهة»[٩٣] أما كولردج الذي دعا إلى تأليف عمل كبير خالد، فقد رأى في (الرحلة Excursion) «إسهابا وإطنابا وتكرارا وإعادة»[٩٤] لكن كولردج راح بعد ذلك في (Table Talk) يمتدح الكتابين (الجزئين) الأول والثاني باعتبارهما من أجمل القصائد في اللغة الإنجليزية[٩٥] . أما شيلي Shelley فقد كره (الرحلة) لأنها تبين استسلام وردزورث للفكر الحلولي (كوْن الرب والطبيعة شيئا واحدا)، لكن كيتس Keats اعتبر وردزورث بسبب هذه القصيدة أعلى مرتبة من بايرون Byron، وبمرور الوقت ترسخ رأي كيتس[٩٦] .

١٣- حكيم الهايجيت: ١٨١٦ - ١٨٣٤

في أبريل سنة ١٨١٦ كان كولردج قريبا من الأنهيار الجسدي والنفسي وهو في الثالثة والأربعين، وفي هذه الأثناء استقبله د. جيمس جيلمان James Gillman كمريض في هايجيت بلندن، وكان كولردج في هذه الأثناء يتناول ما وزنه باينت Pint من اللودانيوم (مستحضر أفيوني) يوميا. وقد وصفته سوثي Southey في نحو هذه الفترة بأنه كان كزوج «هائلا كمنزل». لقد أصبح منحنياً غير متماسك، وأصبح وجهه شاحبا منتفخا مترهلا وأصبح ينهج (قصير النَّفَس)، وأصبحت يداه واهنتين مرتعشتين لا يستطيع إلا بالكاد أن يرفع كوباً إلى شفتيه[٩٧] وكان له بعض الأصدقاء المحبين له مثل لامب Lamb ودي كوانسي De Quincey وكراب روبنسون Crabb Robinson لكنه قلما كان يرى زوجته وأولاده. وربما كان الطبيب الشاب قد سمع أن بايرون Byron ووالتر سكوت Scott قد اعتبرا هذا الإنجليزي

المكسور أعظم رجال الأدب الإنجليز(٩٨). وعلى أية حال فقد كان من رأي هذا الطبيب أنه يمكن إنقاذ كولردج - فقط - بالمداومة على العناية الطبية به والإشراف عليه، فأخذه إلى بيته (أي بيت الطبيب) بموافقه زوجته (زوجة كولردج) وأطعمه واعتنى به وعالجه، وظل تحت إشرافه إلى أن مات.

لقد استعاد كولردج نشاطه العقلي بشكل مدهش، ودهش الطبيب لاتساع دائرة معارف مريضه وثراء أفكاره وألمعية حواراته ومناقشاته التي فتحت أبوابه لعدد كبير من الشباب وكبار السن اعتبروا هذا «الملاك المحطم» ذا تأثير كبير وذا فطنة، ولحديثه مذاق خاص رغم أنه قلما يلتزم الوضوح الكامل والنظام المنطقي الصارم. ولازالت متفرقات من هذه المناقشات المدونة في (الحوارت Table Talk) تبرق تألقا: «كل إنسان ولد أرسطيا أو أفلاطونيا» «إما أن تكون لنا أرواح خالدة، أو لاتكون. فإن لم تكن لنا فنحن دواب، دواب من الدرجة الأولى أو دواب حكيمة أو أحكم الدواب ليس هذا مهما، المهم أننا بدون أرواح خالدة نكون دواباً (بهائم) حقيقية»(٩٩).

ولم يكن يرضيه أن يكون من بين أحكم الدواب. وكلما اقترب من الموت كان يبحث عن راحته وسلواه في أحضان الدين، كما لو كان يريد التأكيد من صفقته فقد اعتنق الدين (المسيحي) في أقصى درجات سلفيته (أورثوذ كسية(*)) المعروفة - ممثلة في كنيسة إنجلترا باعتبارها ركيزة الاستقرار والأخلاق في إنجلترا والتي لها الدوام للأبد.

وقد قدم في مقاله «عن دستور الدولة وكنيستها» الدستور والكنيسة باعتبارهما ثنائيا ضروريا لوحدة الأمة يحمي كل منهما الآخر(١٠٠). وقد عارض هو ووردزورث التحرر السياسي للكاثوليك البريطانيين على أساس أن قوة البابوية ستعرض الدولة للخطر بازدياد تنازع الولاء بين الوطنية والدين.

وقد أخذ الجانب المحافظ حتى كبر سنه. ففي سنة ١٨١٨ أيد روبرت أوين Robert Owen والسير روبرت بيل Peel في معركتهما لفرض قيود على تشغيل الأطفال، لكنه في سنة ١٨٣١ عارض مرسوم الإصلاح Reform Bill الذي كان سيؤدي إلى كسر هيمنة

(*) لا علاقة لكلمة الأورثوذكس هنا بالمذهب الأورثوذكسي المعروف (المترجم)

التوريين (حزب المحافظين) على البرلمان، وعارض إلغاء الرق في الهند وجزر الهند الغربية[١٠١] وكان هو من درس العلوم وأيد العلم - أكثر من غيره من الفلاسفة، ومع هذا فقد رفض فكرة التطور وفضل على حد تعبيره « التاريخ كما أجده في الكتاب المقدس »[١٠٢] وفي النهاية استسلم ذكاؤه الرحب ورؤيته البعيدة المدى لآلام جسده وما اعترى إرادته من اعتلال، واعتراه خوف شديد من أي تغيير في السياسة أو العقيدة الدينية.

وكان يفتقد الصبر والدأب لتأليف عمل متكامل مترابط، ففي « السيرة الأدبية Bigorophia Literaria » (١٨١٧) أخبرنا عن عزمه على كتابه اللوجوسوفيا Logosophia كعمل كبير يلخص فيه العلم والفلسفة والدين ويربط بينها، لكن كل ما سمح له به بدنه وروحه هو خليط غير مترابط مشوش وغامض. لقد أصبح هذا هو حال العقل الذي وصفه (في وقت من الأوقات) دي كوينسي De Quincey « بأنه أرحب عقل بشري وأكثر العقول دقة وفهما »[١٠٣].

وفي يوليو سنة ١٨٣٤ بدأ كولردج وداعه للحياة. «إنني أموت، لكن دون أن أتوقع راحة سريعة... هوكر Hooker رغب العيش ليُنهي كتابه « الحكومة الإكليريكية » - كذلك أنا أرغب أن تمهلني الحياة ويكون لدي القوة لإكمال فلسفتي، لأنني - والله يسمعني - عزمت وصممت في قلبي على السمو باسمه الجليل كما أهدف - بعبارات أخرى - للرقي بالبشرية. لكن المرء يريد والله يريد والله فعّال لما يريد، وما أراده الله كان وما لم يرده لم يكن»[١٠٤] ومات كولردج في ٢٥ يوليو ١٨٣٤ في الثانية والستين من عمره.

وصدم وردزورث لرحيل « أفضل من عرفهم » وقال لامب Lamb الصديق الصدوق لكليهما « إن روحه العزيزة والعظيمة تلبّستني »[١٠٥].

١٤ - على الهامش

كان شارلز لامب (١٧٧٥ - ١٨٣٤) واحداً من عدة أرواح قلقة ومؤثرة جعلتهم مؤلفاتهم أجدر بالتناول في فترة ما بعد سنة ١٨١٥، لكننا تناولناه في فترتنا هذه التي نتناولها الآن لأنه دخل بشكل حميم في حياة شعراء منطقة البحيرة. فقد كان لامب واحداً

من أقرب أصدقاء كولردج في لندن. لقد تعارفا كرفيقي دراسة في مدرسة مستشفى يسوع، وفي هذه المدرسة لم يتفوق لامب بسبب ما يعانيه من تلعثم شديد. وغادر المدرسة في الرابعة عشرة من عمره ليعول نفسه، وفي السابعة عشرة عين محاسبا في مؤسسة الهند الشرقية وظل في هذه الوظيفة حتى أحيل للتقاعد في الخمسين من عمره.

وشهدت حياته سلسلة من حالات الجنون فقد قضى هو نفسه ستة أسابيع في مصحة للأمراض العقلية (١٧٩٥ - ١٧٩٦)، وفي سنة ١٧٩٦ قتلت أخته ماري آن Ann (١٧٦٤ - ١٧٤٧) - في نوبة جنون شديدة - أمها، وبسبب جنونها ظلت ماري محتجزة في مصحة الأمراض العقلية عدة فترات، لكن لأن لامب Lamb لم يكن يرغب في الزواج فقد جعلها تقيم معه حتى وفاته. وقد شفيت ماري من جنونها بدرجة كانت تكفي لتشاركه في كتابة (حكايات من شكسبير Tales from Shakespeare) (١٨٠٧). أما عمله الوحيد الذي أنجزه بمفرده فهو (مقالات إليا Essays of Elia) (١٨٢٠ - ١٨٢٥) وفيه تجلى أسلوبه العبقري ووقاره وفنه الذي أوحى بواحدة من أكثر الشخصيات المحببة في هذا العصر غير المفرط في تسامحه.

وفي سنة ١٧٩٧ - وكان لايزال متأثرا بالمآسي التي واجهها في العام السابق - قبل دعوة من كولردج لزيارته في نذر ستوي Nether Stowey. وكان لا يكاد يتكلم - بسبب تلعثمه - عندما يكون في مواجهة شاعرين (كولردج، ووردزورث) يباري كل منهما الآخر في ذرابة اللسان. وبعد ذلك بخمس سنوات زار مع أخته عائلة كولردج في جريتا هول Greta Hall، وذكر لامب أنه تلقاهم «بفيض من الكرم يفوق الوصف»[١٠٦] ورغم أنه هو نفسه ظل شكوكيا حتى آخر عمره إلا أنه لم يسمح أبداً لتجاوزات كولردج اللاهوتية أن تتغلغل إليه رغم تأثره به ورغم إعجابه الشديد به.

ويضم المتحف الفني للفنون The National Portrait Gallery (المفهوم أنه متحف مقتصر على رسوم الأشخاص) رسما مؤثرا ولطيفا للامب Lamb إلى جوار صديقه وليم هازلت (١٧٨٧ - ١٨٣٠) الذي كان أبرع النقاد وأكثرهم حيوية في عصره. وقد زار هازلت كولردج سنة ١٧٩٨. كما زاره مرة أخرى في جريتا هول في سنة ١٨٠٣. وفي

المناسبة الثانية انضم إليهما وردزورث وهناك راح ثلاثتهم يتناقشون فيما إذا كان الله God موجودا. وكان وليم بالي Paley – كما رأينا – قد دافع مؤخرا عن وجوده بادلة من التصميمات الهندسية والفنية، وقد رفض هازلت هذه الأدلة، أما وردزورث فاتخذ موقفا وسطا مؤكدا أن الله ليس موجودا خارج الكون، يوجّهه من مكان قصي وإنما هو كامن فيه إنّه حياة الكون وعقله. وفي هذه الزيارة أثار هازلت غضب الجيران باغتصابه تلميذة، وخوفا من القبض عليه أو حدوث ما هو أسوأ هرب إلى جراسمير حيث آواه وردزورث هناك طوال ليلة، وفي الصباح قدم له مبلغا من المال ليسافر إلى لندن.

وعندما عاد كولردج ووردزورث وهاجما الثورة وأدانا نابليون في قصيدة هجاء شديدة اعتبرهما هازلت متراجعين عن أفكار آمنا بها يوماً، وكتب أربعة مجلدات عن (حياة نابليون بونابرت ١٨٢٨ – ١٨٣٠) مدافعا عن وجهات نظر نابليون. وفي هذه الأثناء كان معروفا كناقد من خلال محاضراته (١٨٢٠) عن الدراما في العصر الإليزابيثي وكتابه عن (روح العصر – ١٨٢٥) ولم يكن وردزورث سعيدا بهجومه على مدرسة البساطة في الأدب أو على حد تعبير وردزورث (Peasant school). لقد أحب الشاعر العجوز أكثر توماس دي كونسي (١٧٨٥ – ١٨٥٩) الذي كان يبدي إعجابه به بشكل مستمر. لقد كان توماس عبقريا فيما يرى لأنه نبَّه بريطانيا في سنة ١٨٢١ بمؤلفه Confessions of an English Opium Eater أي (اعترافات إنجليزي يتعاطى الأفيون).

لقد كانت بدايته كولد معجزة يتحدث اليونانية الكلاسية بطلاقة وهو في الخامسة عشرة من عمره، وأنهى الدراسة في المدرسة بسرعة وانتقل إلى أكسفورد حيث كانت خطاه أسرع من خطى أقرانه (المقصود أنه كان أكثر تفوقا) ولابد أنه اندهش مبتهجاً بالبساطة الخلابة التي صيغت بها الأشعار الغنائية Lyrical Ballads وفي مايو سنة ١٨٠٣ كتب إلى وردزورث خطابا ربما أدار رأس الشاعر المتفرد(١٠٧).

«ليس هناك ما يغريني بصداقتك أكثر – فيما أظن – مما يغري كل من قرأ Lyrical Ballads وأحس بها كما أحس. إن محصلة البهجة التي أحسست بها من ثماني قصائد أو تسع استطعت الحصول عليها جعلت العالم يبدو مقصراً تقصيراً لا حد له عن إدراك ما

يعنيه هذان المجلدان الفاتنان – إن اسمك سيرتبط معي إلى الأبد بمشاهد الطبيعة الجميلة ... أي زعم يمكنني من ادعاء القدرة على مرافقة جماعة فيها مثلك تشع عبقرية وسناء فائقين؟.»

وأضاف أن وردزورث لن يجد أبداً أحدا «أكثر استعدادا .. للتضحية حتى بحياته (مثله) لتحقيق مصالحك وسعادتك» وكان رد وردزورث ينطوي على توجيهات رقيقة، فقد كتب له «إنني لا أقدر على منح صداقتي (لأحد) فهذا ليس في يدي. إنها هبة لا يستطيع الإنسان تقديمها ... فالصداقة الصحيحة والحقة تتكون بمرور الوقت وتحكمها الظروف. إنها ستزهو كالزهور البرية إن كانت الظروف حولها ملائمة، فإن لم يحدث هذا فعبثا البحث عنها.» وحاول أن يثني الشاب عن مراسلته بشكل منتظم فقال له «إنني أكثر الناس كسلاً في هذا العالم وأكثرهم عزوفاً عن كتابة الخطابات» لكنه أضاف قائلا: «وسأكون سعيداً جدا حقا أن أراك في جراسمير»(١٠٨).

ورغم حرارة دي كوانسي De Quincy ورغبته في لقاء وردزورث، فإنه لم يقبل الدعوة إلا بعد ثلاث سنوات، وعندما أصبح منزل وردزورث على مرأى منه فقد الشجاعة وكأنما هو حاج واهن يقترب من روما، فرجع ولم يواصل رحلته للقاء وردزورث، ولكن في سنة ١٨٠٧ وفي بريستول قبل كولردج دعوته لمرافقة زوجته (زوجة كولردج) وأولاده إلى كزويك Keswick، وفي الطريق توقف معه عند منزل وردزورث، والآن، وأخيرا رأى دي كوانسي، الشاعر وردزورث رأي العين، كما كان على براوننج Browning أن يرى شيلي Shelley. قال دي كوانسي: «رأيته كومضة نور. إنه رجل أقرب إلى الطول. مد يده وحياني مرحبا ترحيبا ودوداً جداً»(١٠٩).

١٥ – سوثي: ١٨٠٣ – ١٨٤٣.

وفي هذه الأثناء – في كل من جريتا هول ولندن – كان سوثي يعول زوجته إديث Edith وبناته الخمس (ولدن في الفترة من ١٨٠٤ و١٨١٢) وابنه – الذي أحبه حبا يفوق الوصف، والذي وافته منيته سنة ١٨١٦ وهو في العاشرة من عمره. كان سوثي ينفق على كل هؤلاء من

حصاد كتاباته المتقنة – لكنها غير ملهمة. وبعد انتقال كولردج إلى مالطة تولى سوثي رعاية أولاده (أي أولاد كولردج) وزوجته. وحتى وردزوث كان أحيانا يعتمد عليه: فعندما فقد أخو وليم في البحر (١٨٠٥) اضطربت الأسرة في جراسمير. فأرسل وردزورث خطابا إلى سوثي متوسلا إليه أن يأتي ويساعده لبث الطمأنينة في دوروثي وماري. واستجاب سوثي، وكان رحيما رفيقا جدا»: إذ كتبت دوروثي: «لقد كان ودودا حتى إنني أحببته في وقت من الأوقات. لقد بكى معنا وأبدى حزنه لحزننا، لذا أظن أنني لا بد أن أحبه دائما»[١١٠].

وعبثا حاولوا إثناءه عن التسرع في الكتابة. فكتب ملحمة شعرية في إثر ملحمة، لاقت جميعا الفشل، فكرس نفسه للنثر فكانت النتائج أفضل، ونشر في سنة ١٨٠٧ (خطابات من إنجلترا لدون مانويل ألفاريز إسبريلا Letters from England by Don Manuel Alvatez Esprlella) ووضع على لسان هذا الإسباني المتخيل شجباً عنيفا لتشغيل الأطفال والأحوال الأخرى السائدة في المصانع البريطانية:

«إنني أجد الجرأة الكافية لأتساءل عن أحوال هؤلاء البشر الذين يعملون في ظل هذه الأحوال الرهيبة، وأجد... أنه نتيجة جمع مثل هذه الأعداد من الجنسين بشكل يتنافى تماما مع مبادئ الدين والأخلاق، لابد أن يكون هناك تهتك وخلاعة وفساد، ورجال سكيرون ونساء منحلات، ومهما كانت الأجور التي يحصلون عليها مرتفعة، فإن قصر نظرهم سرعان ما يجعلهم في حالة عوز. وإن على المحافظات (الدوائر) التي هي غير قادرة على حمايتهم كأطفال، أن تقدم لهم العون في حالة المرض الناتج عن أسلوب حياتهم، وفي حالة العجز والشيخوخة»[١١١] وكان ما انتهى إليه هذا الأرستقراطي فيما يتعلق بالاقتصاد البريطاني هو أنه في «التجارة – ربما أكثر مما في الحرب – يعتبر البشر والدواب – في الأساس – مجرد آلات، ويتم التضحية بهم دون أي وخز من ضمير»[١١٢].

وسرعان ما أدرك سوثي أنه لن يستطيع العيش من حصاد كتاباته فقد وجد نفسه عاجزا عن إعالة من يعولهم خاصة زمن الحرب، إلا إذا تبنى اتجاها أكثر محافظة، وتم هذا التغير بسهولة بسبب إعانة حكومية قوامها ١٦٠ جنيهاً في السنة (١٨٠٧) وبسبب دعوة للمساهمة بتقديم مقالات بشكل منتظم لمجلة حزب المحافظين (التوري) ربع السنوية Tory

Quarterly Review . وفي سنة ١٨١٣ رفع من شأن نفسه كمؤلف وكوطني بإصداره كتابا عن حياة نلسون Life of Nelson فكان كتابا واضحا وحيويا يتضح فيه أثر البحث الجاد، وكتبه بأسلوب القرن الثامن عشر، بسيطا واضحا وسهلا يحمل القارئ رغم انحياز المؤلف الطبيعي للتعاطف مع نلسون بطلاً ومع بريطانيا وطنا . أما عن افتتان نلسون بإمّا هاملتون Emma Hamilton فلم يتناوله المؤلف سوى في فقرة واحدة .

وقد حزن بايرون Byron وشيلي Shelley وهازلت Hazlitt عندما بدأ سوثي يحط من شأن الشعر بقبوله جائزة إنجلترا Laureateship of England . وكان شأن هذه الجائزة قد انحط عندما قدمها بت Pitt في سنة ١٧٩٠ لهنري بي Pye قاضي السلام الغامض . وعند موت بي Pye (١٨١٣) عرضت الحكومة المنصب على والتر سكوت Scott فرفضه وأوصى به لسوثي وقبل سوثي فكوفئ بزيادة معاشه السنوي إلى ثلاثمائة جنيه وعلق وردزورث الذي كان يجب أن يحصل على هذا التعيين بلطف قائلا : « إن لدى سوثي عالما صغيرا يقوم على أكتافه »(١١٣) .

أما بايرون الذي أدان سوثي أخيرا بكلمات هي وسط بين التجريح والعفو فقد راح يتحدث عنه بشكل طيب بعد لقائه في دار هولندا Holland House في سبتمبر ١٨١٣ : « إنه أفضل من رأيت من الشعراء منظرا »(١١٤) وذكر لتوماس مور Moore : « إنه رجل ذو موهبة .. لطيف المعشر .. نثره يتسم بالكمال »(١١٥) لكن حرص سوثي على إرضاء ذوي المال والسلطة جعل بايرون يشن عليه حربا علنية في سنة ١٨١٨ ، وتمت القطيعة الكاملة مع الجميع عندما استطاعت مجموعة من هؤلاء الثوار الحصول على مخطوطة مسرحية (وات تيلور Wat tyler) وهي دراما راديكالية كان سوثي قد كتبها في سنة ١٧٩٤ وتركها مخطوطة لم يطبعها وقاموا بنشرها – سعداء بما فعلوا – في سنة ١٨١٧ .

وعاد سوثي إلى جريتا هول ومكتبته وزوجته التي كانت قد اقتربت من الجنون أكثر من مرة، وفي سنة ١٨٣٤ فقدت عقلها تماماً وماتت في سنة ١٨٣٧ . أما سوثي نفسه فقد تخلى عن معركته مع المناوئين له في سنة ١٨٣٤ ، ومن ثم جعل وردزورث أميرا للشعراء رغم معارضته هو نفسه (أي وردزورث) وقد حظي هذا التعيين بموافقة عالمية .

الشعر للشباب، وقد عاش وردزورث ثمانين عاما ومات كشاعر في نحو سنة ١٨٠٧ وعندما كان عمره ٣٧ سنة ألف أنثى الظبي البيضاء في ريلستون The White Dove of Rylstone . وفي هذا الوقت كان والتر سكوت قد نشر (أنشودة آخر المغنين The Lay of the Last Minstrel) (١٨٠٥)، وقد أثارت حسد وردزورث لأسلوبها المزهر فاستخدم الوزن نفسه لكتابة أنشودة من تأليفه - قصيدة قصصية غنائية عن الحروب الدينية في شمال إنجلترا في السنة الثانية عشرة من حكم إليزابث الأولى. إن أسرة كاملة تقريبا - أب وثمانية أبناء - قد هلكت في معركة واحدة. إميلي Emily - الأخت التي ظلت على قيد الحياة - قضت ما تبقى لها من الحياة في حالة حداد، وكانت أنثى الظبي البيضاء تأتيها كل يوم لتعزيها وكانت تصحبها كل سبت لزيارة قبر أخيها الصغير في ساحة كنيسة بولتون» وعندما ماتت إميلي ظلت أنثى الظبي البيضاء تقوم بهذه الرحلة الأسبوعية وحدها من رايلستون إلى بولتون وتظل إلى جوار القبر حتى تنتهي صلوات السبت sabbath(*) في الكنيسة ثم تعود بهدوء قاطعة الغابات والمجاري المائية إلى مأواها في رايلستون. إنها حكاية جميلة حكاها بطريقة جميلة ورائعة ومؤثرة.

وكان هذا العمل هو آخر انتصار أدبي لوردزورث، بصرف النظر عن بعض السونيتات Sonnets (السونيتة قصيدة تتألف من أربعة عشر بيتا) التي عبر فيها عن مشاعره بأقل قدر من الإثارة - وفيما عدا ذلك - لم يقدم للشعر جديدا آخر. وبعد أن بلغ الخمسين بدا حكيما، طويلا، رزينا متدثرا بعباءة تقيه البرد الشديد وأصبح شعره مهوشا ورأسه مطأطأ وعيناه غائرتين مغرقتين في التأمل كما لو كان بعد أن رأى شيلي Shelly وبايرون ينتقلان من الطفولة إلى الانجذاب الصوفي إلى الموت - راح ينتظر الآن - بهدوء - دوره راضيا أن ترك من الآثار الأدبية ما هو أكثر خلودا من المدن المثالية (اليوطوبيات) أو الأشعار الساخرة.

لقد كان في فضائله نقص فقد تحدث عن ذاته كثيرا. لقد كتب هازلت «إن ميلتون هو وثنه الأكبر أو بتعبير آخر هو إلهه الزائف، وكان أحيانا يجد الجرأة لمقارنة نفسه به»[١١٦]

(*) المقصود يوم العبادة وهو يوم الأحد عند المسيحيين. (المترجم)

وقد قبل المديح كأمر لا يمكن تجنبه وكان يكره النقد ويعتبره جحودا، وكان يحب إنشاد شعره وقد لاحظ ذلك - بخبث - إمرسون Emerson الذي زاره في سنة ١٨٣٣، لكنه كان قد قال في مقدمة سنة ١٨١٥ إن قصائده قد ألفت لتقرأ بصوت عال والحقيقة أنها كانت قصائد تحوي من الموسيقا قدرا يساوي ما تحويه من معان، والقصيدة في حاجة إلى قيثارة.

وبطبيعة الحال كان اتجاهه المحافظ يزداد كلما تقدم به السن. إنها ميزة التقدم في السن، وربما كان واجب الأعوام أن تجعل المرء محافظا. وإذا كان بايرون وشيلي لم يعترفا بهذا فربما لأنهما ماتا وهما لا يزالان في حالة جنون الشباب. لقد أدى تدهور الثورة الفرنسية من الدستور إلى الفوضى إلى تحفظ وردزورث إلى حد ما، كما أن وحشية الثورة الصناعية بدت على نحو ما مرضية لمشاعره؛ ذلك أن شيئا لطيفا ومفيدا قد لحق بإنجلترا بإحلال عمال المصانع محل الحرس الوطني المكون من فرسان غلاظ شداد من طبقة صغار مالكي الأرض، ذلك الحرس الذي أنشئ سنة ١٧٦١. وفي سنة ١٨٠٥ أصبح - عن طريق الشراء أو تلقي الهبات - مالكا لعدة عقارات متواضعة، وكان كمالك للأرض مستعدا للتعاطف مع فكرة (الرّيع) أو (عوائد الأرض) كأساس للنظام الاقتصادي والاستقرار الاجتماعي. وقد عارض الحركة الإصلاحية كخطة تبناها أصحاب المصانع لخفض أسعار الغلال، وبالتالي أجور العمال بإبطال (قوانين الغلال Corn Laws) وكذلك الرسوم الجمركية العالية التي تفوق استيراد الغلال من الخارج.

وقد أصبح وردزورث الذي كان طوال سنوات عديدة معجبا بأفكار جودون - أصبح الآن يرفض دعوة جودون للفردية (الحرية الفردية Free individualism) على أساس أن الأفراد لا يمكنهم العيش إلا من خلال وحدة اجتماعية (إلا من خلال جماعة) لا يمكنها الاستمرار إلا من خلال الاحترام العام للتقاليد والملكية والقانون. وبعد سنة ١٨١٥ أيد الحكومة في كل إجراءاتها القمعية، ووصف بأنه ارتد عن مبدأ الحرية. وتمسك بموقفه ولخص تشخيصه لحال العصر قائلا: «العالم يجري بجنون معتقدا أن شفاءه من شروره لا يكون إلا بالتغيرات السياسية والعلاجات السياسية والحلول السياسية، بينما الشرور العظمى - وهي الحضارة والرق والبؤس - تكمن عميقة في قلوب البشر ولا علاج لها إلا بالتمسك بالفضيلة

وأهداب الدين»[117].

وعلى هذا فقد دعا الشعب الإنجليزي مناشدا لدعم الكنيسة الإنجليزية وكتب (١٨٢١) مقطوعات شعرية دينية بلغت سبعا وأربعين مقطوعة (سونيتات) تناول فيها جانبا من جوانب التاريخ الإنجليزي، نقلنا فيها إلى أبطال إنجليز لم يعد أحد يذكرهم، وأثار في قرائه الدهشة. على وفق ما قاله هنري كراب روبنسون، فإن وردزورث قال «إنه سيبذل دمه عند الضرورة للدفاع عن الكنيسة القائمة (الإنجليزية) ولم يهتم بالضحكات الصاخبة التي قهقهها الآخرون ذاكرين أنه سبق أن اعترف أنه لايدري متى كان تابعا لكنيسة في بلاده»[118].

ونحن لا نعرف أنه بحث عن سلواه في أحضان الدين عندما بدأ عالم الحب حوله ينهار. في سنة ١٨٢٩ عانت دوروثي من حصاة في الكلى مما أدى إلى ضعف صحتها وانهيار روحها المعنوية باستمرار. وتعرض جهازها العصبي للتلف، وبعد سنة ١٨٣٥ لم تعد تستطيع تحريك ساقها، ولم تعد تتذكر إلا الأحداث البعيدة التي مضى عليها زمن طويل، وقصائد أخيها التي كانت – لاتزال – تستطيع إنشادها. وظلت قعيدة طوال العشرين سنة التالية بلا معين وأطبق عليها الجنون، وكانت تجلس صامتة على مقعد قرب المدفأة منتظرة الموت صابرة. وفي سنة ١٨٣٥ ماتت ساره هتشنسون، وتُرِك وردزورث مع زوجته ماري للعناية بأخته وأولاده. وفي سنة ١٨٣٧ كان لديه الجلد الكافي للقيام بجولة طوال ستة أشهر في فرنسا وإيطاليا مع روبنسون ذي الشخصية المؤثرة.

وتوفي في ٢٣ أبريل ١٨٥٠ ودفن بين من مات من جيرانه في باحة كنيسة جراسمير. وعاشت دوروثي (أخته) بعد موته خمس سنوات صابرة تعينها ماري التي أصبحت الآن شبه عمياء. وماتت ماري سنة ١٨٥٩ عن عمر يناهز التاسعة والثمانين ، وبعد عمر طويل أدت فيه واجباتها بإخلاص. ولا بد أن وردزورث كان يتحلى بصفات أعظم من كونه شاعرا كبيرا لأنه احتفظ بحب امرأتين – من هذا النوع – أخلصتا له دوما. – ومثلهما في ملايين البيوت – لا بد من تذكرهما كلمحة من ملامح صورة إنجلترا.

الفصل الثاني والعشرون

الشعراء الثوريون

[١٧٨٨ - ١٨٢٤][(*)]

١- قافلة فقدت بريقها: ١٠٦٦ - ١٨٠٩

كي نفهم بايرون لابد أن نُعرّف ببعض التفاصيل تاريخ أجداده وطبيعتهم الذين تجري دماؤهم - كالحمّى المتقطعة - في عروقه. إن بعضاً من هذه الدماء - كاسمه - قد تعود إلى فرنسا، فالتاريخ يذكر لنا عديداً من آل بيرون Byrons في فرنسا، وقد ذكر بايرون نفسه متفاخراً في (دون جوان) (النشيد ١٠ / البيت ٣٦) أحد جدوده - «ردولفس دي بورو Burun الذي قدم إلى إنجلترا في ركاب وليم الفاتح. وفي القرن الثاني عشر أصبح آل بورو Buruns هم آل بايرون Byron (أي تغير نطق الاسم ليتماشى مع طبيعة اللغة الإنجليزية أو الأسماء الإنجليزية)، وعمل السير جون بايرون في خدمة هنري الثامن بإخلاص حتى أن الملك عندما حل الأديرة نقل إليه نظير مبلغ ضئيل ملكية دير (أسس في نحو ١١٧٠) والأراضي التابعة له، ودير راهبات نيوستيد Newstede .. في زمام نوتنجهام»[(١)] ولعب آل بايرون بعد ذلك أدوارا صغرى في التاريخ الإنجليزي وأيدوا أسرة ستيوارت المالكة وتبعوا شارلز الثاني في المنفى وصادرت الحكومة منهم مبنى دير نيوستيد، واستعادوه بعد عودة الملك للعرش وخدم وليم عم والد الشاعر- لورد بايرون الخامس (١٧٢٢ - ١٧٩٨) في البحرية، وكان وسيما طائشا وأطلق عليه اسم «اللورد الشقي» أو «اللورد الشرير» إذ عاش حياة الخلاعة في مبنى الدير الآنف ذكره وأتلف كثيرا من ثروته وقتل قريبه وليم شورث Chaworth في مبارزة مرتجلة (لم يُعد لها) في غرفة مظلمة بأحد الفنادق، فتم إرساله إلى القلعة بتهمة القتل وحاكمه مجلس اللوردات (١٧٦٥) الذي قرر «أنه ليس مذنبا كقاتل عمدا وإنما هو مذنب بالقتل غير العمد» فعاد إلى مبنى الدير وعاش في عزلة كئيبة حتى وافته منيته.

(*) نحن مدينون بكثير من المعلومات الواردة في هذا الفصل لكتاب ليزلي مارشاند عند بايرون (٣مج، نيويورك، كنوبف، ١٩٥٧) وهو دراسة نزيهة.

وقد أصبح أخوه جون بايرون (١٧٢٣ - ١٧٨٦) ضابط صف بحري وتعرض لجنوح سفينته ونشر سرداً قصصيا عن جنوح السفينة استقى منه حفيده مشاهد حية في (دون جوان) . وقد دار جون - كقبطان للسفينة دولفين - حول الكرة الأرضية . وأخيرا عاد لموطنه في غرب إنجلترا وعرف باسم (الملاح العاشق) لأنه كان يحتفظ بزوجة أو خليلة في كل ميناء .

وكان ابنه الأكبر الكابتن جون بايرون (١٧٥٦ - ١٧٩١) وهو والد شاعرنا الذي نتناوله الآن . قد مارس كثيرا من الأعمال الشريرة في سنوات عمره البالغة خمسا وثلاثين سنة حتى عُرف « بجاك المجنون » . وبعد أن خدم في المستعمرات الأمريكية قضى بعض الوقت في لندن وجعل خليلاته يدفعن ديونه . وفي سنة ١٧٧٨ فرَّ مع مرليزة كارمارثن Carmarthen فطلقها زوجها المركيز، وتزوجها القبطان بايرون ونعم بثروتها وأنجبت له ثلاثة أبناء كان منهم أوجستا لاي Angusta Leigh الأخت غير الشقيقة لشاعرنا، وأحيانا خليلته .

وفي سنة ١٧٨٤ ماتت لادي كارمارثن .وبعد ذلك بعام تزوج الأرمل الأنيق من فتاة إسكتلندية في العشرين من عمرها ولها دخل يبلغ ٢٣,٠٠٠ جنيه إسترليني - إنها كاترين جوردون الجيتية of Gight، وكانت متكبرة جدا وتعود شجرة نسبها إلى ملك سكوتلندا جيمس الأول . وعندما حملت بشاعرنا أورثته التميز والقلق : فرنسي الأصل، عاصف الشخصية أو بتعبير آخر ذو طبيعة عاصفة ميال للنهب والقتل والعداوة، وكانت الأم نفسها مزيجا من الحب العنيف والكراهية . لقد أنفقت على زوجها الذي بدد ثروتها ثم هجرها ثم على ابنها الوحيد الذي غمرته بعواطفها فأصبح لفرط الدلال « كالطفل الكسيح » . قال شيلدهارولد « لا بُد أن يعرف المرء الثمرة التي تثمرها شجرة هذه بذورها »(٢) .

ولد جورج جوردون بايرون في لندن في ٢٢ يناير ١٧٨٨، ولحق بقدمه اليمنى تشوّه عند الولادة بسبب ليّة للداخل مع رفع الكعب لأعلى، وكان يمكن معالجة هذا الخلل بتدليك يدوي يوميا لكن الأم لم يكن لديها صبر ولاطاقة على هذا بالإضافة إلى أن هذا قد يبدو للطفل قسوة مقصودة كما أن الأطباء لم يكونوا ميالين لنصيحتها لهذا العمل العلاجي وفي سن الثامنة، تحسنت القدم المصابة كثيرا حتى أصبح الصبي يستطيع لبس الحذاء المعتاد

فوق حذاء داخلي مصمم لموازنة الاعوجاج والتقليل من أثره. وفي الحياة العامة، وفي أثناء ممارسة الألعاب الرياضية اتسم بالرشاقة رغم عرجته لكنه لم يكن يستطيع عبور قاعة الاستقبال دون أن يحس بألم وفي شبابه كان يغضب بشدة عند أي إشارة لعاهته. وقد ساعد هذا على جعله حساسا، وربما حثه هذا على تحقيق انتصارات في مجال السباحة والتودد للنساء والشعر، فربما يصرف هذا النظر عن إعاقته.

وفي سنة ١٧٨٩ انتقلت الأم مع ابنها إلى أبردين Aberdeen، وبعد ذلك بعام هرب زوجها إلى فرنسا حيث مات في سنة ١٧٩١ معدما فاجرا. ولم يكن قد ترك إلا قليلا من ثروة زوجته التي بذلت قصارى جهدها لتعليمه تعليما يليق بلورد. وكانت تصفه أوصافاً تنم عن حبها الشديد له عندما كان في السادسة من عمره (إنه ولد لطيف يمشي ويجري كأي ولد آخر)[٣] وفي السابعة دخل مدرسة أبردين الإعدادية حيث تلقى أساسا طيبا في اللغة اللاتينية وعن طريق مزيد من التعليم وكثير من الأسفار في اليونان وآسيا الصغرى وإيطاليا أصبح عاشقا للآداب اللاتينية واليونانية لدرجة أن الدارسين للآداب الكلاسية هم وحدهم الذين يمكنهم فهم الاقتباسات والإشارات التاريخية التي بثها في عمله (دون جوان). لقد أحب بايرون التاريخ – مبرأً من الوطنية والميثولوجيا – كحقيقة – لا حقيقة سواها – عن الإنسان – أما شيلي Shelley فقد أنكره وكان لا يرتاح للتاريخ.

وفي سنة ١٧٩٨ مات عم والده «اللورد الشقي أو الشرير» الآنف ذكره في نيوستيد تاركا لقب البارون لابنه البالغ من العمر عشرة أعوام، ومبنى الدير و ٣٢٠٠ أكر (فدان إنجليزي) وديونه (أي ديون اللورد الشقي)، وكان هذا لا يكفي إلا لتمكين الأرملة من الانتقال من أبردين إلى مبنى الدير لتعيش هناك مستمتعة بمزايا الطبقة الوسطى. لقد أرسلت الصبي إلى مدرسة في دلوش Dulwich، وفي سنة ١٨٠١ أرسلته إلى مدرسة ثانوية داخلية مشهورة في هارو Harrow على بعد أحد عشر ميلا من لندن. وفيها بَشِم العبادات المملة التي كان يفرضها الطلاب الأكبر سنا على الطلاب الأصغر سنا، وعندما أصبح هو نفسه كرجل من الطبقة العليا – يتحتم عليه القيام بهذه العبادات، أداها بحماس. وكان طالبا قلقا يكره النظام ويحب التهريج ويهمل الواجبات المدرسية لكنه قرأ كثيرا من الكتب

غالبها جيد، بل وقرأ بيكون ولوك Locke وهيوم Hume وبيركيلي Berkeley . وكان من الواضح أنه فقد عقيدته الدينية لأن أحد رفاق دراسته وصفه بأنه «ملحد ملعون»(٤). وفي السابعة عشرة من عمره التحق بكلية التثليث Trinity College في كامبردج، وهناك أقام في جناح مكلف به خدم وكلب كما اتخذ له رفيقاً غير متزن يشاركه السكن وتعامل مع العاهرات والأطباء وكان بين الحين والحين يبحث عن « خدمات » متميزة في لندن. وفي إجازة قضاها في بريتون Brighton (١٨٠٨) كان معه فتاة متنكرة في شكل صبي، لكنه طور في كامبردج ما أسماه « حبا شديدا وعاطفة قوية – رغم نقائها though Pure » لشاب وسيم(٥). وقد أقام صداقات دائمة بسبب مرحه وحيويته وكرمه، وكان أفضل هذه الصداقات هي صداقته مع جون كام هوبهوس Hobhouse الذي كان يسبقه في الدراسة بعامين إلا أنه ساهم في ضبط حياة بايرون غير المنضبطة في بعض الأحيان. فقد كان الشاعر الشاب (بايرون) يبدو على وشك تدمير نفسه بتحرره (المقصود عدم انضباطه الخلقي) فلم يكن ذكاؤه بقادر على أن يحل محل المحاذير الدينية التي لم يعد يأخذ بها.

وفي يونيو سنة ١٨٠٧ – وكان قد بلغ التاسعة عشرة من عمره. ونشر ديوان « ساعات من الكسل بقلم جورج جوردون ولورد بايرون، الصغير ». وذهب إلى لندن لترتيب أن يحظى ديوانه بتعليقات طيبة وقد حيته دورية « مستخلصات أدنبره » (عدد يناير ١٨٠٨) بتعليقات ساخرة. لقد سخرت من العنوان كعنوان يليق بالنثر لا بالشعر، وانتقدت المؤلف واعتبرت ذكر اسمه مقرونا بغيره هو نوع من الاعتذار، فلم لا ينتظر هذا اللورد المراهق الوقت المناسب للنشر عندما يصبح أكثر نضجا. وبلغ الحادية والعشرين من عمره في ٢٢ يناير ١٨٠٩، ودفع ديونه الملحة وانغمس في المقامرة وشغل مقعده في مجلس اللوردات وعانى كثيرا بسبب الصمت الذي ينصح به العضو الجديد (المبتدئ) لكن بعد ثلاثة أيام شن هجوما على ناقدي كتابه في دورية (English Bards & Scotch Reviewers) لقد شن هجوما حادا وحيويا وكأنما هو يحاكي – بل ويضارع – بيانات البابا. لقد سخر من الحركة الرومانسية الوجدانية (التي أصبح بعد ذلك رائدها) ودعا للعودة إلى الروح الرجولية والأسلوب الكلاسي اللذين سادا في عصر أوغسطس Augustan Age :

- سوف تؤمن بملتون ودريدن والبابا،

- ولن تُعلي من شأن وردزورث وكلردج وسوثي،....

- إننا نعلم من هوراس إن «هوميروس ينام أحياناً»،

- ونشعر بدونه أن وردزورث أحيانا يستيقظ (يظل يقظان - والمقصود أنه نائم عادة)[٦].

وبعد أن حصل بايرون على درجة الماجستير في كمبردج صادق الملاكمين وتعلم تحاشي الضربات وأخذ دورة عملية أخرى في حياة الليل في لندن، وأبحر في ٢ يوليو ١٨٠٩ مع هوبهوس إلى لشبونة وتطلع للشرق.

٢- الرحلة الكبرى: بايرون ١٨٠٩ - ١٨١١

لم تكن رحلة - من الناحية التقليدية - هائلة: فقد كانت إنجلترا في حالة حرب، وكان نابليون يحكم فرنسا وبلجيكا وهولندا وألمانيا وإيطاليا، لذا فقد قضى بايرون معظم العامين اللذين استغرقتهما رحلته في ألبانيا واليونان وتركيا، وقد تركت هذه الرحلة أثرا مهما في سياساته وفي وجهات نظره عن النساء والزواج بل وأثرت في موته. لقد خلف ديونا مقدارها ١٣,٠٠٠ جنيه إسترليني وراءه (المقصود قبل أن يبدأ رحلته) واصطحب معه أربعة من الخدم. لقد وجد لشبونة فقيرة مسلوبة القوة ولم تكن حرب شبه الجزيزة الأيبيرية مبررا كافيا لهذه الحال، وبدا كل الناس عدوانيين فكان بايرون يحمل مسدسيه أينما ذهب. وانتقل ركبه على ظهور الخيل إلى أشبيلية وقادش ومنها - على ظهر فرقاطة بريطانية - إلى جبل طارق (وهناك أعفى كل خدمه ما عدا خادمه الخصوصي متولي أمور ملابسه وليم فلتشر) ومن جبل طارق اتجه إلى مالطة حيث أحب السيدة سبنسر سمث (١ - ١٨ سبتمبر ١٨٠٩)، وتصرف بشكل مناف للذوق حتى إن القبطان البريطاني علق على تهوره وعدم كياسته. فتحداه بايرون مع تلميح ادعائي سخيف «طالما أن السفينة التي عليّ أن أركبها لا بد أن تبحر على أول تغير في اتجاه الريح، فإن الإبحار في الساعة السادسة غدا هو الوقت المناسب تماما، فهذا أدعى لترتيب أشغالنا بشكل أفضل وأسرع» واعتذر القبطان عن عدم تنفيذ ذلك. وفي ١٩ سبتمبر غادر بايرون وهوبهوس على السفينة سبيدر Spider

(الكلمة تعني العنكبوت أو المقلاة) وبعد أن ظلت مبحرة طوال أسبوع وصلت إلى باتراس Patras. فنزلا إلى الشاطئ فورا لمجرد وضع أقدامهما على تربة اليونان، لكن في الليلة نفسها عاودا ركوب السفينة (سبيدر) وأبحرت السفينة متجاوزة ميسولونجي Missolonghi وبينيلوب الملحقة بإيثاكا Penelopes Ithaca نزلا إلى الشاطئ في بريفيزا Preveza بالقرب من أكتيوم Actium التي شهدت معركة تحدد فيها مصير أنطونيو وكليوباترا. ومن هنا اتجها شمالا على ظهور الخيل خلال إبيروس Epirus ودخل ألبانيا التي كان التركي المرعب علي باشا يحكم من عاصمتها - بالسيف والأوامر - كل ألبانيا وإبيروس، وقد رحب ببايرون ترحيبا يليق بلورد بريطاني لأنه (كما قال للشاعر) عرف أنه ذو أصل نبيل لصغر يديه وأذنيه.

وفي ٢٣ أكتوبر عاد بايرون ورفاقه. وفي ٢٧ من الشهر نفسه وصلا إلى يانينا Janina عاصمة إبيروس. وهناك بدأ يسجل انطباعاته عن الرحلة في (Childe Harold's Pilgrimage) على شكل سيرة ذاتية. وفي ٣ نوفمبر ارتحلت المجموعة جنوبا حتى ما يعرف اليوم باسم إيتوليا Aetolia في حماية حرس الباشا من المرتزقة الألبانيين، وكان كل واحد من هذا الحرس بارعاً في القتل والسرقة. وقد أحبوا سيدهم الجديد (المقصود لورد بايرون) وكان أحد أسباب ذلك أنه بدا لهم غير هيَّاب من الموت. وعندما أصابت الحمى بايرون هددوا الطبيب بالقتل إذا مات مريضه، ففر الطبيب وشفي بايرون. وفي ٢١ نوفمبر استقلت المجموعة سفينة نقلتهم من ميسولونجي Missolonghi إلى باتراس Patras وتقدموا يصحبهم حرس جديد على ظهور الخيول في البلوبونيز وأتيكا Attica (في اليونان الحالية) ورأوا دلفي Delphi وثيبز Thebes ودخلوا أثينا في يوم الكريسماس ١٨٠٩ . وكان لابد أن يمر على الرحالتين يوم حافل بالأفراح والأحزان معا. عظمة الآثار القديمة، والدمار الذي لحق بالبلاد حديثا، وعدم الترحيب الشديد بالحكم التركي، فاليونانيون كانوا يوما شعبا فخورا معتزا بنفسه وأصبحوا الآن وقد نزلوا من علياء مجدهم السياسي والفكري ورضوا بحكم الأيام. لقد كان هذا مدعاة لتسلية هوبهوس لكنه أحزن بايرون الذي تجسدت فيه روح الاستقلال، والفخر بالعرق.

وعلى أية حال فقد كانت نساء اليونان جميلات، عيونهم سوداء مثيرات، خضوعهن (استسلامهن) لطيف. وقد سكن بايرون وهوبهوس عند الأرملة ماكري Macri التي تولت خدمتهما، وكان لديها ثلاث بنات كلهن دون الخامسة عشرة. الفاسقة الصغيرة تعلمت أن تحسّ إزاءهم بعاطفة أبهجتهما وذكرتهما بحبهما أيام براءتهما الأولى. إنها تريزا البالغة من العمر اثنتي عشرة سنة وهي التي علّمته التحية الشجية: «يا حياة حياتي، أنا أحبك Zoe mou sas agabo وقد كتب أغنيته الشهيرة مستوحيا أفكارها من هذه الكلمات: «ياعذراء أثينا، هل سنفترق ! أعيدي إليّ قلبي!» وفي ١٩ يناير ١٨١٠ انطلق بايرون وهوبهوس مع خادم ودليل ورجلين للعناية بالخيول لزيارة واحد من أكثر المشاهد إلهاما في اليونان، واستغرق انتقالهم راكبين أربعة أيام لكن الغاية تبرر الوسيلة: لقد أصبحوا على مرأى الأعمدة الباقية من معبد بوسيدون (النص temple to Poseidon) في الماضي البطولي على قُنةً جبل سونيوم Sunium Promontorium (Cape Colonna) لتخبر البحارة أنهم وصلوا بلاد الإغريق. ومما يذكر أن مشاهد هذا الكمال القدسي المتناثرة ومنظر بحر إيجه الذي يبدو على البعد هادئا ناعما، كل ذلك أوحى للشاعر بتأليف قصيدته (جزر اليونان) التي أدرجها أخيرا في النشيد الثالث في عمله (دون جوان). ومن سونيوم Sunium تستغرق المسافة إلى الماراثون ثلاثة أيام فقط على ظهور الخيل، وفي الماراثون تحركت قريحة الشاعر بالأبيات المشهورة التالية:

- الجبال تُطل على الماراثون،

- والماراثون يُطل على البحر،

- ورحت أسلّي نفسي هناك ساعة وحدي،

- وحلمت أن تعود اليونان حرة

- تقف على جثث الفرس (المقصود الأتراك)

- إنني لا أُطيق أن أكون عبدا.

وفي ٥ مارس غادر بايرون وهوبهوس أثينا واستقلتهما سفينة إنجليزية (البايلادز Pylades) قاصدين سميرنا Smyrna، وأجبروا هناك على الانتظار شهرا حيث أكمل الشاعر

النشيد الثاني في مؤلفه الشعري (شايلد هارولد Childe Harold) . وقام برحلة جانبية استغرقت ثلاثة أيام إلى إفسوس Ephesus واستوحى خرائب (آثار) مدينة شهدت أوج الحضارات الثلاث - الإغريق، والمسيحية والإسلام (النص: الديانة المحمدية) . ولاحظ هوبهوس أن « انحلال الأديان الثلاثة يقدم هناك من وجهة نظر واحدة »(٧) .

وفي ١١ أبريل عبروا (الشاعر وهوبهوس ومن معهما) على الفرقاطة سالست Salsette إلى القسطنطينية (المقصود إستانبول)، وأدت الرياح القاسية والموانع الدبلوماسية للإبقاء على السفينة طوال أسبوعين راسية على الجانب الأسيوي من الدردنيل، ووطئ بايرون وهوبهوس سهل طروادة Troad Plain على أمل أن يكون قد غطى عظام هومر Homers Ilium ولكن شليمان Schliemann لم يكن قد ولد بعد . وفي ١٥ أبريل قام بايرون والضابط البحري الإنجليزي - الليفتنانت وليم إكنهيد بالانتقال عبر الهيليسبونت Hellespont إلى الجانب الأوربي، وحاولا العودة سباحة لكنهما عانيا من شدة التيار وبرودة الماء . وفي ٣ مايو حاولا مرة ثانية وعبرا من سيستوس Sestos في الجانب الأوربي من تركيا إلى أبيدوس Abydos في آسيا الصغرى . وأنجز إكنهيد Ekenhead قطع المسافة في ٦٥ دقيقة أما بايرون فأنجزها في سبعين دقيقة، وكان طول القناة في هذا الموضع (المقصود القناة الموصلة بين البر والأسيوى والبر الأوربي) ميلا واحدا فقط، لكن التيارات المائية أجبرتها على السباحة أكثر من أربعة أميال »(٨) .

ووصل السائحان إلى القسطنطينية (المقصود إستانبول) في ١٢ مايو وأثارت المساجد إعجابهما وغادراها في ١٤ يوليو وفي السابع عشر من الشهر نفسه رست سفينتهما في مرفأ زي Zea في جزيرة كوس Koes، وهناك افترقا فتابع هوبهوس طريقه إلى لندن واستقل بايرون وفلتشر قارب آخر متجها إلى باتراس Patras. ومرة أخرى عبر الطريق البري إلى أثينا . وهناك راح بايرون يواصل بحثه الطويل عن الفروق بين النساء (الفوارق الأنثوية) . لقد تباهى بغزواته (المفهوم طبعا غزواته النسائية) وأصيب بالسيلان، وسار سراعا في طريق الاكتئاب، ففي ٢٦ نوفمبر كتب إلى هوبهوس: «لقد رأيت العالم الآن . . . وذقت كل أنواع اللذة . . ليس لي من أمل آخر . وربما بدأت في التفكير في أفضل طريقة للخروج من هذا العالم . .

آمل أن أستطيع أن أجد بعضاً من نبات الشوكران (نبات سام) الذي حصل عليه سقراط»[٩] وفي يناير سنة ١٨١١ استأجر غرف لإقامته وإقامة بعض خدمه في دير كابوشن Capuchin عند سفح الأكروبوليس وراح يحلم بالسلام (النفسي) الذي تتيحه الحياة في دير.

وفي ٢٢ أبريل غادر أثينا لآخر مرة ومكث شهرا في مالطة ثم واصل رحلته عائدا إلى إنجلترا التي وصلها في ١٤ يوليو بعد عامين واثني عشر يوما من مغادرتها، وبينما كان منشغلا بتجديد عقوده في لندن تلقى خبر وفاة أمه عن عمر يناهز السادسة والأربعين، فاندفع متجها إلى مبنى دير نيوستيد Newstead، وقضى الليل جالساً في الظلام إلى جوار جثمان أمه وعندما توسّلت إليه الخادمة أن يترك الجثمان ويعود إلى غرفته رفض قائلا: «لم يكن لدي إلا صديق وحيد في العالم إنها أمي. وقد فارقتني!»[١٠] وكان قد قال عبارة قريبة من هذه ونقشها على قبر كلبه (من نيو فوندلاند) بوتسوين Boatswain الذي مات في نوفمبر سنة ١٨٠٨ ودفن في سرداب بحديقة الدير:

«للتذكير ببقايا صديق أقمت هذا الشاهد، فلم يكن لي إلا صديق واحد – انه يرقد هنا.» وفي أغسطس سنة ١٨١١ سجل وصية لوقف مبنى الدير على ابن عمه جورج بايرون، وخصص منحاً لخدمه، وترك توجيهات تنفذ عند دفنه «أريد أن يدفن جسدي في قبو في حديقة نيوستيد دون أية شعائر أو صلوات وألا ينقش على شاهد القبر أي شيء سوى الذي هو مدفون فيه» وبعد أن رتب الأمور المتعلقة بموته اتجه إلى لندن لمواصلة غزواته.

٣- أسد لندن: بايرون ١٨١١ – ١٨١٤

لقد كان لديه – في لندن – أصدقاء بالفعل لأنه كان جذابا دمثا جيد الحديث واسع المعرفة في الأدب والتاريخ كما كان مخلصا لأصدقائه أكثر من إخلاصه لخليلاته. لقد استأجر مقراً في ٨ شارع جيمس، وهناك في مقره هذا استقبل بترحاب توماس مور وتوماس كومبل Compbell وصامويل (صموئيل) روجرز، وهوبهوس... كما زارهم ورحبوا به

بدورهم. وعن طريق روجرز، ومور دخل بايرون دائرة الضوء في دار هولاند Holland House، وهناك قابل ريتشارد برينسلي شريدان Sheridan الذي كان نفوذه السياسي قد قل لكنه لم يكن قد فقد ميله للنقاش والحديث لقد روى بايرون متذكرا «عندما كان يتحدث كنا نصغي من الساعة السادسة حتى الواحدة دون أن يتثاءب واحد منا .. يا له من رفيق بائس! لقد انهمك في الشراب بشدة .. لقد كان من نصيبي في عدة مناسبات أن أنقله للبيت»[11] وتبنى بايرون موقف «اللوديت Luddite» (محطمو الماكينات في موطنه نوتنجهامشير Nottinghamshire) متأثرا بهؤلاء المثقفين المؤيدين للإصلاح (الهويجيين Whiggish– الهويج هو حزب الأحرار فيما بعد)، وفي ٢٠ فبراير سنة ١٨١٢ أجاز مجلس العموم مرسوما بالحكم بالإعدام على كل من يضبط متلبساً بتحطيم الماكينات، وعند مناقشة هذا المرسوم في مجلس اللوردات في ١٧ فبراير عارضه بايرون، وكان قد كتب خطابه مقدما بلغة إنجليزية راقية. وذكر أن بعض العمال مذنبون لقيامهم بأعمال عنيفة سببت خسائر في الممتلكات وأن الماكينات المحطمة كانت – على المدى البعيد – ستحقق مكاسب للاقتصاد الوطني. لكنها – أي هذه الماكينات – قد أدت إلى حرمان المئات من العمال من العمل الذي كانوا يعولون أسرهم عن طريقه، فأصبحوا الآن فقراء بائسين يعتمدون على ما يتلقونه من هبات وصدقات، وأن هذا اليأس وهذه المرارة هما اللذان أديا إلى قيامهم بأعمال العنف. وكلما تقدم في خطابه تخلى الخطيب الشاب عن حذره وراح يهاجم الحرب كمصدر لبؤس غير مسبوق يعاني منه العمال الإنجليز. لكن اللوردات تجهموا لمقالته وأجازوا المرسوم الآنف ذكره. وفي ٢١ أبريل ألقى بايرون خطابا ثانيا أدان فيه الحكم البريطاني في أيرلندا ودعا إلى تحرير (عتق) الكاثوليك في كل أنحاء الإمبراطورية البريطانية، وقد امتدح اللوردات بلاغته ورفضوا قضيته وأجبروه على الجلوس (عدم مواصلة حديثه) باعتباره غرا سياسيا لما ينضج بعد، وتخلى عن السياسة وقرر الدفاع عن قضاياه وأفكاره من خلال الشعر.

فبعد اثني عشر يوما من خطبته غير المسبوقه قدم النشيدين الأولين الواردين في مؤلفه Childe Harolds Pilgrimage للناس. وكادا يلقيان نجاحاً غير مسبوق فقد نفدت الطبعة

الأولى (٥٠٠ نسخة) في ثلاثة أيام مما أقنعه أنه وجد وسيلة أكثر بقاء وقوة من الخطب المثيرة للجدل. لقد لفت الآن الأنظار إليه بشدة «لقد استيقظت ذات يوم فوجدت نفسي مشهورا»[١٢]. حتى أعداؤه القدامى في دورية (مستخلصات أدنبره) امتدحوه، وإقراراً بالفضل أرسل اعتذارا لجفري لتعرضه له في دورية English Bards & Scotch Reviewers. تكاد تكون كل الأبواب مشرعة أمامه الآن، ودعته النساء الشهيرات – اثنتا عشرة امرأة تحلّقن حوله مبتهجات بوجهه الوسيم كل منهن تأمل في إيقاع الأسد الشاب في حبائلها. ولم يبعدهن عنه ما عرف عنه من نهم جنسي، كما أن لقب اللورد الذي يحمله جعله يبدو صيدا ثمينا لمن لا يعرفن ديونه. لقد سعد باهتمامهن به وكان بالفعل مستثارا بسحرهن الغامض. لقد قال: «هناك شيء فيَّ مريح جدا يظهر في حضور امرأة – إنه تأثير غريب على نحو ما حتى لو كنت غير عاشق لها – شيء لا أعرف كُنهه، فلست خبيرا بالجنس خبرة يشار إليها بالبنان»[١٣].

وكانت الليدي كارولين لامب (١٧٨٥ – ١٨٢٨) تمثل إحدى غزواته النسائية الأولى، وهي ابنة الإيرل الثالث لبيسبورو Bessborough وتزوجت في العشرين من عمرها من وليم لامب الابن الثاني للورد ميلبورن وليدي ميلبورن. وبعد أن قرأت كتابه (Childe Harolds Pilgrimage) قررت مقابلة المؤلف لكنها عندما رأته اعتبرته شخصا من الخطر معرفته وابتعدت عنه سريعا، فأثاره ذلك وعندما التقى بها ثانية رجاها أن يلتقيا وأتى إليها وكانت وقتها أكبر منه بثلاث سنين وكانت قد أنجبت بالفعل وكانت وارثة لثروة كبيرة كما كانت عطرة مرحة. وأتى إليها ثانية، وتكررت زياراته فغدت كل يوم تقريبا. وكان زوجها مشغولا بأعماله فقبله كمرافق لزوجته أو عشيق لها وهو أمر شائع في إيطاليا Cavalier Servente وتعلقت به أكثر فأكثر وذهبت إلى بيته علنا أو متنكرة في زي غلام وكتبت له خطابات غرامية حارة، وازداد اندماجهما حتى إنه اقترح عليها أن تفر معه تاركة بيت الزوجية[١٤] لكن عندما ذهبت إلى أيرلندا (في سبتمبر ١٨١٢) مع أمها وزوجها، كان قد تخلى عنها بالفعل وسرعان ما وثّق علاقته بليدي أوكسفورد. وفي خضم مثل هذه الأمور المعكرة للصفو، احتفظ بايرون ببعض الاستقرار النفسي بأن راح يكتب بسرعة شعراً سهلاً كان

آلام له فلا بد أن أترك علاقاتنا في المستقبل حسب تقديره وحكمه. وليس لدي سبب يحملني على التخلي عن معرفة ما يشرفني فهو قادر على منحي كثيرا من المباهج والمسرات الفكرية إلا أنني أخشى خداعه بشكل غير مقصود.»[١٨].

وتلقى بايرون هذا الرفض بتسامح فلم يكن في حاجة ماسة لهذه الليدي المتعلمة يقظة الضمير، ذلك أنه - بالفعل - كان يجد سلواه في أحضان كونتيسة أكسفورد، وفي أحضان الليدي فرانس Frances وبستر وفي الوقت نفسه في أحضان أخته غير الشقيقة أوغسطا لاي Augusta Leigh لقد مضى على زواجها الآن (١٨١٣) من ابن عمها الأول الكولونيل جورج لاي، ست سنوات وأنجبت منه ثلاثة أطفال. وفي هذه الأثناء أتت إلى لندن من منزلها في كمبرد جشير Cambridg shire لتطلب من بايرون مساعدة مالية لتعينها في مواجهة الصعاب بعد الخسائر التي مني بها زوجها وغيابه الطويل في حلبات السباق ولم يستطيع بايرون أن يقدم لها الكثير لأن دخله كان متقلقلاً غير قائم على أساس وطيد. لكنه أمتعها بحواراته الممتعه واكتشف أنها امرأة (المعنى مفهوم). لقد كانت في الثلاثين ولم تكن أنثى متفجرة وكان ينقصها الجانب الفكري والثقافي كما كانت الحيوية تنقصها أيضا لكنها كانت عاطفية لينة العريكة وربما كانت متأثرة بشهرة أخيها، فكانت ميالة لإعطائه ما ترغبه، فطول بعادها عنه بالإضافة لإهمال زوجها جعلها في حالة خواء عاطفي. وكان بايرون قد نحى جانبا كل المحاذير الأخلاقية أو كل المحرمات التي لم تتفق مع عقله الشاب فتساءل متعجبا لم لا يتزوج أخته كما كان الفراعنة يفعلون. وتشير الدلائل اللاحقة أنه الآن أو بعد ذلك أقام مع أخته أوجستا Augusta علاقات جنسية[١٩]. وفي أغسطس سنة ١٨١٣ فكر في اصطحابها في رحلة في البحر المتوسط[٢٠]. لكن الخطة فشلت فأخذها إلى مبنى دير نيوستيد في شهر يناير، وعندما أنجبت بنتا في ١٥ أبريل كتب بايرون إلى الليدي ميلبورن أنه «إذا كانت قردة، فلا بد أن يكون ذلك خطئي» وكانت الطفلة نفسها - ميدورا لاى Medora Leigh - تعتقد أنها ابنته[٢١]. وفي شهر مايو أرسل إلى أوجستا ثلاثة آلاف جنيه لدفع ديون زوجها. وفي يوليو كان معها في هاستنجز Hastings وفي شهر أغسطس أقامت معه في مبنى الدير.

وبينما راح يندمج أكثر وأكثر في علاقاته الجنسية مع أخته غير الشقيقة أرسلت له الآنسة ميلبانك خطابات أججت مشاعره حتى إنه كتب في يومياته عند حديثه عن الأول من ديسمبر سنة ١٨١٣ : « بالأمس وصلني خطاب رقيق من (أنابلا) وقد أرسلت لها خطابا رداً على خطابها. إن لصداقتنا وموقفنا وضعاً فريداً غريباً، وأي غرابة! - فبدون بارقة حب واحدة من كلينا. . . هي امرأة متفوقة جدا، عيوبها قليلة جدا بالنسبة لامرأة لها هذا النصيب الوافر من المال والثراء وفي العشرين من عمرها . . فمن هي في وضعها وفي سنها قد لا تزيد عن طفلة. إنها شاعرة ورياضية ومتيافيزيقية ومع ذلك - وفوق هذا - فهي لطيفة جدا وكريمة جدا وظريفة جدا، لا تدعي كثيرا. إن أحداً غيرها قد تدور رأسه إذا امتلك ما تملك وإن كان لديه عُشر مزاياها »[٢٢].

وكأنما كانت قد قرأت هذا التقدير لها (مع أنه لم يكتبه لها وإنما سجله في يومياته) فقد أصبحت خطاباتها في سنة ١٨١٤ تعجّ شوقا وأكدت له أن قلبها غير مشغول الآن بأحد وطلبت منه صورة له ووقعت خطاباتها مشفوعة بكلمة (مع حبي) أو (المحبة). وقد كتب لها تجاوبا مع خطاباتها الدافئة في ١٠ أغسطس: « كنت دوما ولا زلت أحبك » فأجابت أنها لا تصلح للزواج فقد استغرقتها الفلسفة والشعر والتاريخ[٢٣]. وقد أجاب على تحديها بأن أرسل لها في ٩ سبتمبر اقتراحاً آخر أقل عاطفية يدعوها لتواجهه في لعب الشطرنج فإن رفضت مرة أخرى فإنه سيخطط لمغادرة بريطانيا مع هوبهوس إلى إيطاليا. وقبلت مواجهته في (دَوْر) شطرنج.

لقد بدأ قدره ينحو به نحو الانضباط. لقد كان قد فقد الحرية التي اعتادها - حرية في الصداقة والجنس والأفكار آملاً في أن ينقذه الزواج من الروابط المتشابكة المعقدة والخطرة. لقد شرح لأصدقائه: « لا بد بطبيعة الحال أن أصلح حالي . . .إنها إنسانة طيبة » وقال لخطيبته « آمل أن تكوني صالحة طيبة . . سأكون كما تريدين »[٢٤] وقبلت مهمتها على أساس أنها مهمة يقوم بها الصالحون الأتقياء. وكتبت لإميلي ميلنر Milner في نحو الرابع من أكتوبر سنة ١٨١٤ :

« إن شخصية لورد بايرون الحقة لا مجال للبحث عن نظيرلها في هذا العالم، وكل ما

يمكننا هو البحث عن شخصية أقرب ما تكون إلى شخصيته. نبحث عن التعس الذي واساه وعن البائس الذي ساعده وعن أتباعه الذين كان لهم نعم السيد. أما عن قنوطه فأخشى أن أكون مسؤولة عنه طوال العامين الأخيرين. إنني أحس باطمئنان عميق – فأنا أثق في الله وفي الإنسان »[٢٥].

وعندما حان وقت ذهاب بايرون إلى أسرة أنابلا في سيهام (بالقرب من درهام) لطلب الزواج منها خانته شجاعته فعرّج في الطريق على منزل أوجستا وهناك كتب خطابا إلى خطيبته معلنا انسحابه من مشروع الارتباط بها لكن أوجستا حثته على تمزيق الخطاب[٢٦] وأن يقبل الزواج كرباط منقذ له. وفي ٢٩ أكتوبر تابع طريقه إلى سيهام وبصحبته هوبهوس الذي كتب في يومياته: «لم يكن متعجلا. لم أر عاشقا أقل تسرعا منه»[٢٧] ورحبت أسرة العروس به وأظهر هو من الصفات الطيبة ما جعلهم مسرورين وفي الثاني من شهر يناير ١٨١٥ ذهب معها إلى مذبح الكنيسة (لإتمام الزواج).

٤- محنة الزواج: بايرون: ١٨١٥ – ١٨١٦

وبعد إتمام طقوس الزواج ركبا في يوم من أيام الشتاء العابسة متجهين إلى (هالنابي هول) في ضواحي درهام لقضاء شهر العسل. لقد كان عمره الآن يقترب من السابعة والعشرين، وكانت هي في الثالثة والعشرين. وقضى ثماني سنوات أو أكثر يكاد لا يكف عن اللقاءات الجنسية غير الشرعية وغير المسؤولة وقلما كانت معاشرته الجنسية ترتبط بالحب. وعلى وفق ما ذكره مور Moore عن فقرة قرأها في مذكرات بايرون (تم إحراقها في عام ١٨٢٤) فإن الزوج لم ينتظر حلول الليل، وإنما « طرح الليدي بايرون على الأريكة قبل تناول العشاء في يوم الزواج نفسه » وبعد تناول العشاء إن جاز لنا أن نثق في ذاكرته سألها إن كانت تنوي أن تنام معه في السرير نفسه، وأضاف قائلا إنني أكره النوم مع أي امرأة لكن إن اخترت ذلك فسأفعل »[٢٨] وكيّف وضعه مع طبيعتها (المعنى غير عادته ونام معها في السرير نفسه) لكنه أخبر هوبهوس أنه في تلك الليلة الأولى « حاصرته نوبة مفاجئة من الانقباض وغادر السرير» وفي اليوم التالي (كما زعمت الزوجة) « قابلني عازفا عني وتمتم

بكلمات ساخرة لاذعة » لقد نفد القضاء، وكان ما كان »[٢٩] ووصله خطاب من أوجستا لاي فقرأ على أنابلا استهلاله : « يا أعز خلق الله وأفضلهم وأولهم »[٣٠] وعلى وفق ما روته الزوجة فإنه كان يشكو قائلا إنه « إذا كنت تزوجته قبل ذلك بعامين لكنت قد أنقذته من علاقة لا يستطيع هو نفسه أن يسامح نفسه عليها – لقد قال إنه يستطيع أن يخبرني لكن لا يجوز لأن هذا سر شخص آخر . . . وتساءلت إذا كانت أوجستا تعرف هذه العلاقة، فبدا مرعوبا لتساؤلي »[٣١] وعلى أية حال فيبدو أن أنابلا لم تكن تشك في أوجستا وقتها . وبعد ثلاثة أسابيع في (هالنابي هول) عاد العروسان وهما لا يزالان في شهر العسل إلى (سيهام) ليقيما مع أسرة (ميلبانك) . وكيّف بايرون نفسه وأصبح أليفا لكل من حوله بمن فيهم زوجته . وبعد ستة أسابيع بدأ يَحِنّ لمباهج لندن وأصوات أصدقائه . ووافقت (أنابلا) . وفي لندن أقاما في مقر فاخر في ١٣ (بيكادللي تراس) وبعد يوم من وصولهما أتى (هوبهوس) واستعاد بايرون روحه الفَكِهه . تروي زوجته أنه « طوال عشرة أيام كان رقيقا رقة لم أعهدها فيه أبداً من قبل »[٣٢] وربما عرفاناً بالجميل أو خوفاً من الوحدة دعت أوجستا لقضاء بعض الوقت معهما . وبالفعل أتت أوجستا في أبريل سنة ١٨١٥ وظلت مقيمة معهما حتى يونيو . وفي العشرين من هذا الشهر زار جورج تكنور المؤرخ الأمريكي الذي تخصص في تاريخ الأدب الإسباني عش الزوجية الجديد وأثنى على مسلك بايرون . وفي هذه المناسبة دخل عم (أنابلا) مبتهجا بأخبار يحملها مفادها أن نابليون قد هزم لتوه في واترلو، فقال بايرون « لقد كدت أموت كمداً لذلك » .

وواصل بايرون كتابة الشعر . وفي أبريل ١٨١٥ اشترك مع مؤلفين يهوديين في إصدار (ألحان عبرية Hebrew Melodies) وقد ألف بايرون كلماتها ووضع اليهوديان ألحانها . وبيع منها عشرة آلاف نسخة رغم أن سعر النسخة كان جنيها إنجليزيا، وأصدر الناشر مري Murry طبعة بالقصائد وحدها (دون الألحان الموسيقية) لاقت أيضا رواجا كبيرا . وفي أكتوبر أنهى بايرون (حصار كورنيث The Siege of Corinth)، وقدمت الليدي بايرون نسخة واضحة للطابع . لقد قال بايرون لليدي بليسنجتون Blessington : « إن (أنابلا) على درجة كبيرة من الانضباط والتحكم في النفس بشكل لم أر له مثيلا . . وهذا يؤثر فيّ

سلبا»[٣٣]. وكان لديه بعض العذر لنزقه وسرعة استثارته. وقد استأجر بيتا مفروشا غاليا ليقيم فيه مع زوجته وراح ينفق ببذخ في إعادة تأثيثه – كل هذا لأنه افترض أن الثمن الذي سيتقاضاه من بيع بيته في نيوستيد Newstead Abbey سيكون مرتفعا، لكن الأسعار تدنت في هذه الأثناء ووجد بايرون نفسه محاصراً بكل ما تعنيه الكلمة. وفي نوفمبر سنة ١٨١٥ دخل مساعد المأمور البيت المؤثث واحتجز بعض الأثاث وهدد بالمبيت في البيت إلى أن يدفع بايرون ما عليه من ديون (يسدد فواتيره). وشعر بايرون أن والديْ (أنابلا) الثريين لابد أن يساهما مساهمة أكثر كرما في تكاليف منزل الزوجية الجديد.

وقد طبعت متاعبه أثراً واضحا بسبب ما سببته من مرارة وكآبة. لقد قال لزوجته «إذا كانت هناك امرأة قادرة على جعل الزواج أمراً محتملاً لي، فهو أنتِ. أعتقد أنك ستظلين تحبينني حتى أضربك» وعندما عبَّرت عن أملها ويقينها أنه سيعرف كيف يحبها، راح يكرر «هذا متأخر جدا الآن. لو أنّك تزوجتني منذ عامين مضيا .... لكن قدري هو أن أحطم كل من أقتربُ منه»[٣٤]. وقبل بايرون وظيفة في الهيئة الحكومية لمسرح درورى لين Drury Lane Theatre فاستغرقه الشّراب مع شريدات وآخرون، وكوّن علاقة جنسية مع إحدى الممثلات[٣٥]. ودعت (أنابلا) أخته غير الشقيقة (أوجستا) للقدوم لمعاونتها على ضبطه. وفي ١٥ نوفمبر ١٨١٥ قدمت (أوجستا) ووبخّت أخاها، ووجدت نفسها هي و (أنابلا) ضحايا حنقه وغضبه «وحزنت (أوجستا) كثيرا لحال زوجة أخيها»[٣٦].

وخلال أصعب هذه الشهور حملت الليدي بايرون وفي العاشر من ديسمبر ١٨١٥ وضعت أنثى وأسمتها (أوجستا أدا) وأصبح اسمها بعد ذلك (أدا) وفرح بايرون وسَعِد بالطفلة وبالتالي بزوجته. لقد قال لهوبهوس في هذا الشهر «إن زوجتي كاملة .. إنها الكمال نفسه. إنها أفضل مخلوق يتنفس .. لكن نفسي ترفض الزواج»[٣٧] وسرعان ما عاودته نوبات الغضب بعد مولد (أدا) وفي إحدى نوبات غضبه قذف في نار المدفأة ساعة ثمينة كانت معه منذ صباه ثم كسرها بالقضيب المعدني الذي يحرّك به وقود المدفئة[٣٨]، وفي ٣ يناير ١٨١٦ – على وفق ما قالته (أنابلا) لأبيها – دخل بايرون غرفتها وتحدث بعنف ظاهر عن علاقته الجنسية بإحدى نساء المسرح. وفي ٨ يناير استدعت الدكتور متّى بيلي

Matthew Baillie لفحص بايرون، فأتي وفحص الشاعر الحبيس، ومال إلى وصف الأفيون له.

وكان من الواضح أن بايرون موافق على ضرورة ذهاب (أنابلا) مع طفلها لتقيم مع أمها الليدي (ميلبانك) وكان اسم أسرتها قبل زواجها هو نول Noel – المقيمة في عقارات نول Noel في كيركبى Kirkby في ليسسترشير وفي بكور الخامس عشر من شهر يناير غادرت مع (أدا) بينما كان بايرون لايزال نائما. وفي ووبورن Woburn توقفت لترسل له تحذيرا وعظيا، جديرا بالذكر:

«بايرون الأعز: الطفلة على مايرام وهي أفضل المسافرين. آمل أن تكون صالحا good، وتذكر دعواتي وصلواتي ووصاياي لا تستسلم لحرفة الشعر البغيضة ولا للبراندي (نوع من الخمور) ولا لأي شيء غير شرعي أو شخص لا يكون على جادة الطريق. رغم أنك غير مطيع فدعني أسمع أنك أصبحت مطيعا وأنا في كيركبى Kirkby ابنتنا (أدا) تحبك. وكذلك أنا.» بيب Pip[٣٩].

وكتبت له من (كيركبى) مرة أخرى كتابات فكهة وعاطفية ذاكرة له أن والديها يتطلعان لرؤيته. وفي اليوم نفسه كتبت لأوجستا (التي كانت لاتزال تقيم مع بايرون) تنصحها بتخفيف اللودانيوم (مستحضر أفيوني) الذي يتناوله بايرون بثلاثة أرباعه ماء. وبالتدريج أخبرت (أنابلا) والديها كيف كان بايرون يعاملها – ذلك من وجهة نظرها، فَصُدِما وأصرا على انفصالها عنه نهائيا، فاندفعت الليدي (ميلبانك) إلى لندن لمناقشة الطبيب الذي كان يراقب سلوك بايرون، فإذا كان خبل (جنون) بايرون محقَّقا لأمكن إبطال زواجه دون ضرورة الحصول على موافقته. وكتب الطبيب تقريراً ذكر فيه أنه لا يرى علامات الجنون على الشاعر لكنه سمع أنه كانت تنتابه حالات هياج عصبي وأرسلت (أنابلا) تحذيرا لأمها بألا تُدخِل (أوجستا لاي) في الأمر لأن (أجستا) هي «أصدق صديقاتي.. وأخشى كثيرا أن تدرك أن كثيرين يؤيدون الانفصال عن بايرون، وسيكون هذا قاسيا بالنسبة إليها»[٤٠].

وفي الثاني من فبراير سنة ١٨١٦ راسل السير (رالف ميلبانك) – والد (أنابلا) – بايرون طالبا منه الانفصال عن ابنته بشكل ودي، فأجابه بايرون متوددا ذاكراً أنه لا يرى سببا لأن

تغير زوجة ظلت ترسل إلى وقت قريب رسائل ملؤها الحب موقفها هذا التغيير الكامل. وكتب إلى (أنابلا) متسائلا هل هي حقا موافقة بكامل إرادتها على موقف أبيها. وأصبحت في حالة أسى ومحنة بسبب هذا الخطاب لكن والديها منعاها من كتابة خطاب ترد فيه عليه. وكتبت (أوجستا) إليها طالبة إعادة النظر في الأمر، فأجابتها (أنابلا): « إنني فقط – أذكر اللورد بايرون بمقته الشديد الذي يفوق الحد للحياة الزوجية. وبرغبته وتصميمه. اللذين عبر عنهما – حتى منذ بداية الزواج – على التخلص من هذا الرباط الذي كان يرى فيه قيدا لايحتمل »[٤١] وفي ١٢ فبراير ذهب (هوبهوس) ليرى بايرون. وفي الطريق سمع بعض الإشاعات تدور في الأوساط الاجتماعية والأدبية في لندن مفادها عدم إخلاص بايرون لزوجته وفيما يلي نُتفة مما كتبه (هوبهوس) في مذكراته عن هذا اليوم: « رأيت السيدة (لاي) وجورج بايرون – ابن عم الشاعر – وعلمت منهما ما أخشى أن يكون حقيقة وهو أن بايرون مذنب لطغيانه الشديد، كثير التهديد والوعيد دائم الغضب والثورة، مهمل لزوجته، بل وألحق بها أذى حقيقيا فكان على سبيل المثال يخبرها بأنه كان « يعيش » مع امرأة أخرى... لقد كان يغلق الأبواب، ويلوح بالمسدسات .. وهي أمور ترويها جميعا الليدي بايرون تؤكد أنه مدان (مذنب) – لكنهم يبرئونه – كيف؟ بقولهم انه مجنون.... بينما سمعت هذه الأمور أتت السيدة (لاي) وراحت تقول إن أخاها يصرخ بمرارة في غرفة النوم.. إنه بائس .. بائس حقا.

الآن وجدت من واجبي أن أخبر بايرون أنني غيرت رأيي... وعندما أخبرته بما سمعته في الشوارع في هذا اليوم ذهل – لقد كان قد سمع أنه متهم بالقسوة والإغراق في الشراب وعدم الإخلاص لزوجته. لقد ذكرت له كثيرا مما سمعته في الصباح – فاهتاج هياجا هائلا وقال إنه محطم وإنه سيحطم رأس نفسه.. وكان أحيانا يقول: « وحتى لو أحبتني ذات مرة »، وفي أوقات أخرى كان يقول إنه سعيد للتخلص من مثل هذه المرأة – وقال: لو أنني غادرت البلاد لانفصلت عنها فورا »[٤٢].

وفي نحو هذه الفترة تلقى بايرون فاتورة مطلوباً سدادها بمبلغ ألفي جنيه ثمنا للمركبة الكبيرة التي كان كان قد اشتراها له ولزوجته. ولم يستطع تسديد الدين فلم يكن معه إلا

١٥٠ جنيها، ومع هذا فإنه في نحو ١٦ فبراير ١٨١٦ أرسل مائة جنيه إلى الشاعر كولردج وهذا دليل على كرمه الطائش الذي تتسم به شخصيته.

وفي ٢٢ فبراير أتت (أنابلا) إلى لندن وذكرت للدكتور (ستيفن لوشينجتون) أن الانفصال عن بايرون أصبح ضروريا بناء على تقريره عن حالة بايرون. وفي هذا الأسبوع سرت إشاعات ذكرت السيدة لاي وبايرون المتهم باللواط، أو العلاقة الجنسية غير السوية، وهنا أدرك بايرون أن الاستمرار في رفضه الانفصال بهدوء عن زوجته قد يؤدي إلى إجراء قضائي تتعرض فيه (أوجستا) لتدمير سمعتها. وفي ٩ مارس وافق على الانفصال وعرض التخلي عن كل حقوقه في ثروة زوجته التي كانت تتيح للزوجين ألف جنيه في السنة. لكنها وافقت على حصوله على هذا المبلغ سنويا ووعدت علانية بتجديد صداقتها مع (أوجستا) وأوفت بوعدها، كما أنها لم تطلب الطلاق.

وسرعان ماألف بعد الانفصال قصيدة أرسلها إليها:

- Fare thee well, and if for ever.

- Still fare thee well.

وواساه في إخفاق زواجه جماعة من أصدقائه أتوا إليه هم: هوبهوس، سكروب ديفز، لاي هنت، صامويل روجرز، لورد هولاند، بنيامين كونستانت. وحملت له ربيبة جودون (ابنة زوجة جودون) – كلير Claire كلمة إعجاب من الشاعر المنافس بيرسي شيلي Shelley وعرضت نفسها عليه لتكون بلسماً لجراحه. وقبل عرضها مفتتحاً بذلك سلسلة جديدة من الأحزان. وفي ٢٥ أبريل ١٨١٦ أبحر مع ثلاثة من الخدم وطبيبه الخاص قاصدا أوستند Ostend ولم ير إنجلترا بعد ذلك.

٥- شباب شيلي: ١٧٩٢ - ١٨١١

كان بيرسي Percy معجباً بجده – السير بيشي شيلي Byshe Shelley لأنه «تصرف بشكل جيد جدا مع زوجاته الثلاث» وأكثر من هذا «فقد كان ملحداً كامل الإلحاد وشيد كل آماله على إبطال العقيدة (المفهوم المسيحي)»[٤٣] واتخذ بيشي اسمه غير المعتاد بين

المسيحيين من اسم جدته لأمه قبل أن تتزوج أي قبل أن تحمل اسم زوجها. وكان له شجرة نسب طويلة (مثل بايرون) تعود إلى أيام الفتح النورماندي Norman Conquest وفي هذه السلالة المميزة تم إعدام واحد لتأييده ريتشارد الثاني، وتم إعدام آخر لاشتراكه في مؤامرة لقتل إليزابث الأولى. وقد أغوى بيشي زوجته الثانية فهرب معها بعد أن تركت زوجها، وماتت عنده، فأغوى امرأة أخرى وهرب معها، وكانت تعود في نسبها إلى السير فيليب سدني وقد تضخمت ثروتها فزادت ثروة زوجها فساعده ذلك على الوصول إلى البارونية في سنة ١٨٠٦، وعاش إلى أن بلغ الثالثة والثمانين من عمره مما جعله عبئا على أبنائه الذين كان أكبرهم (تيموثي شيلي) الذي تخرج في أكسفورد وأصبح عضوا في البرلمان حيث اتخذ اتجاه حزب الهويج (الأحرار). وفي سنة ١٧٩١ تزوج من إليزابث بلفولد ذات الجمال الرائع والطباع الطيبة وشيء من اللاأدرية[٤٤] agnosticisn وقد ظهرت هذه الصفات جميعاً مرة أخرى في ابنها الأكبر.

وُلد بيرسي بيشي شيلي في ٤ أغسطس ١٧٩٢ في أحد عقارات الأسرة المعروف باسم فيلد بلاس (الترجمة الحرفية تعني مكان الحقل) - وهو بيت رحب بالقرب من (هورشام) بالقرب من سوزكس Sussex. وأنجبت أمه بعده أربع بنات وبعد ذلك بمدة طويلة أنجبت له أخا. ونشأ بيرسي بين أخواته فأخذ منهن شيئا من الرقة والخيال وسرعة الاستثارة، وكون مع أخته الكبرى علاقة حميمة.

وفي (إتون Eton) عانى كربا شديدا بسبب إلزامه بخدمة تلاميذ أكبر منه، وعزف عن كل أنواع الرياضة إلا التجديف ومن سوء الطالع أنه لم يتعلم السباحة أبدا، وسرعان ما نبغ في اللغة اللاتينية فراح يساعد زملاءه في دروسهم فرد لهم بذلك الكيل بتنمرهم له في مجالات أخرى. وكانت قراءاته الإضافية (الخارجة عن المقرر الدراسي) تضم كثيرا من الحكايات والأمور الغامضة والمرعبة، لكنه أيضا استساغ مادية لوكريتوس Lucretius في كتابه De rerum natura وكتاب بليني في العلوم - التاريخ الطبيعي Natural History وتفاؤل كوندرسيه Condorcet في كتابه Sketch of a tableau of the Progress of Human Mind وكتاب جودون الذي يفلسف الفوضوية (إلغاء الحكومة) والذي جعل له عنوانا هو

(البحث عن العدالة السياسية Enquiry Concerning Political Justice) لقد كتب في وقت لاحق أن هذا الكتاب «قد فتح عقلي على آراء جديدة ورحبة. لقد أثر في شخصيتي. لقد أصبحت بعد دراسته بإمعان، أفضل وأكثر حكمة... لقد آمنت أن عليَّ واجبات لا بد أن أؤديها»(٤٥).

وخلال الإجازة وقع في حب قريبة لم تتجاوز ستة عشر ربيعا. إنها هاريت جروف Harriet Grove التي كانت تزور أسرته في (فيلد بلاس) كثيرا. وبدأا يتبادلان الرسائل الحارة حتى إنهما في سنة ١٨٠٩ تعاهدا على الإخلاص الأبدي. لكنه اعترف لها بشكه في الرب، فأظهرت خطابه المنطوي على منحى «لا أدري» لأبيها فنصحها ألا ترتبط به (أن تتركه بلا هدف) وعندما نقلت هاريت في يناير سنة ١٨١١ تعهدها بالإخلاص الأبدي له إلى وليم هلير، كتب شيلي لصديقه توماس جيفرسون هوج خطابا جديرا بأن يكون على لسان أبطال بايرون القساة. «إنها لم تعد لي. إنها تمقتني مقتا شديداً كربوني (مؤمن بالله دون الإيمان بأديان منزلة deist) مع أنها كانت تؤمن الإيمان نفسه قبل ذلك. آه! آه أيتها الديانة المسيحية كيف أغفر هذا الاضطهاد القاسي، عسى أن يدمرني الرب (إن كان للرب وجود).. هل الانتحار خطأ؟ لقد نمت ومعي مسدس محشو وبعض السم ليلة البارحة، لكنني لم أمت»(٤٦).

وفي هذه الأثناء (١٨١٠) كان قد انتقل من (إتون Eton) إلى الكلية الجامعية في أكسفورد. وتجنب هناك الإفراط في العلاقات الجنسية – فيما عدا ليلة أو ليلتين مارس فيهما الجنس على سبيل التجريب، وكانت العلاقات الجنسية تبدو لمعظم الطلبة الذين لم يتخرجوا بعد أمرا لازما دالا على الرجولة. وكان يستمع بين الحين والحين إلى محاضرات يلقيها الأساتذة والعمداء الذين لم يكونوا يتفوقون عليه في اللاتينية واليونانية سوى بخطوة واحدة وسرعان ما راح يؤلف الشعر باللاتينية ولم ينس أبدا إيسخيلوس. وكان مقر إقامته غاصا بالكتب المبعثرة والمخطوطات والتعويذات غير الواضحة الواردة في كتب العلم القديمة (في الكتب العلمية قبل نضوجها). لقد كاد يملأ غرفته عند إجرائه لإحدى التجارب لقد كان يؤمن بقدرة العلم على صياغة الكون والإنسان. ولم يكن يهتم بالتاريخ

فقد كان يؤمن بما قاله فولتير وجيبون من أن التاريخ هو في الأساس سجل لجرائم البشر وغبائهم، ومع هذا فقد قرأ كتابات هذين المؤلفين المتشككين بشغف. وقد ظن أنه وجد حلا لسر الكون عند لوكريتيوس والمثقفين الآخرين، فحركة الذرات لابد أن تحكمها قوانين، ثم اكتشف سبينوزا وفسره شارحاً أنه يؤمن بجوهرين وحيدين: المادة والعقل (النفس) باعتبارهما جانبين لجوهر مقدس واحد - فشيء كالعقل (النفس) يسري في المادة، وشيء من المادة يغطي العقل (النفس)[٤٧].

لقد كان يقرأ بشغف، وقد وصفه رفيق دراسته هوج بأن «كتابا في يده طوال الوقت - إنه يقرأ .. وهو جالس إلى المائدة، وهو في السرير، بل وفي أثناء المشي خاصة ... لم يكن هذا في أكسفورد فقط، وإنما في الطريق السريعة بل وفي أكثر مناطق لندن ازدحاما.... لم تقع عيناي على من يلتهم الصفحات التهاما بشراهه أكثر منه»[٤٨]. وكان يعتبر تناول الطعام مضيعة للوقت إذا لم يكن مصحوبا بالقراءة، وكان يفضل أبسط أنواع الطعام، ولم يكن قد أصبح نباتيا بعد ومع هذا فقد كانت وجبة من الخبز والزبيب تبدو له متوازنة. وعلى أية حال فإنه كان مولعاً بما هو حلو، وكان يفضل عسل النحل على خبز الزنجبيل وكان يحب أن يخلط ماء الشرب بالنبيذ[٤٩]. وقد وصف في أيام أكسفورد بأنه طويل نحيل، حزمة منحنية من الأعصاب والنظريات والبراهين، غير مهتم بملبسه وغير مرجل لشعره، يترك قميصه مفتوحا من عند الرقبة يكاد يكون وجهه ذا ملامح أنثوية. عيناه متألقتان لكنهما غير مستقرتين وطباعه حادة لكنها ودودة، وكان كشاعر ذا أعصاب حساسة، دافئ المشاعر، مستسلما للأفكار الغامضة التي لم تتبلور بعد لكنه كان ينفر من التاريخ. وكان كالشعراء يركز على الحرية الفردية ويشك في القيود الاجتماعية وقد ذكر هوج Hogg أن الليالي في غرفة شيلي كانت رائعة عندما كانا يقرآن الشعر والفلسفة معاً ويدحضان القوانين والعقائد ويظلان يتبادلان الأفكار حتى الساعة الثانية صباحا ويتفقان - قبل كل شيء - على مسألة أساسية هي أن الرب God لا وجود له. وقد أعد المتمردان الشابان مؤلفا عن هذا الموضوع جعلا له عنوانا هو (ضرورة الإلحاد The necessity of Atheism) وكان هذا المصطلح Atheism (تستخدم القواميس المتداولة إنجليزي عربي، كلمه إلحاد كمعنى لهذا المصطلح)،

وكان هذا المصطلح ممنوع الاستخدام في المجتمع المهذب، فقد كان الشكاكون المهذبون يطلقون على أنفسهم deists أي الربانيين أو الربوبيين أي المؤمنين بوجود إله مع عدم إيمانهم بالأديان (المفهوم هنا كما هو واضح عدم إيمانهم بالمسيحية) وكانوا يتحدثون باحترام عن الله God كموجود لا يمكن معرفة طبيعته، كموجود في الطبيعة وهو حياتها – أي الطبيعة – والروح السارية فيها، وهو موجود غير مشخص Spirit (روحاني). وقد اعتنق شيلي في وقت لاحق أفكارهم، لكن عند صدور الكتاب الذي نتحدث عنه كان شيلي وزميله في مرحلة الشباب وكانا لا يقدران عواقب الأمور ففضلا استخدام لفظ Atheists ليطلقاه على نفسيهما متحدين بذلك كل ما هو طابو taboo (أي محرم) ولجذب الانتباه. وقد كانت الحجج التي ساقاها هي أنه لا الحواس ولا العقل ولا التاريخ تثبت وجود الرب فالحواس لا تدلنا إلا على المادة في حركتها على وفق قانون، والعقل يرفض الفكرة – فكرة وجود خالق واحد خلق الكون من لا شيء. والتاريخ لا يقدم مثلاً واحداً لفعل إلهي ولا لشخص إلهي ظهر على الأرض. ولم يوقع المؤلفان باسميهما لكنهما نسبا الكتاب على صفحة العنوان إلى «ملحد، ألحد لنقص البراهين على وجود الرب».

واحتوى مطبوع جامعة أكسفورد وسيتي هيرالد Oxford university and City Herald إعلانا عن هذا الكتيب في ٩ فبراير سنة ١٨١١ وظهر الكتيب فعلا في ١٣ فبراير، ووضع شيلي على الفور نسخا منه في مدخل مكتبة بيع الكتب في أكسفورد، ورآه جون ووكر Walker الإكليريكي الموقر فطلب من البائع تدمير كل النسخ وبالفعل تم هذا. وفي هذه الأثناء أرسل شيلي نسخاً إلى كثير من الأساقفة وكثير من الشخصيات المرموقة في الجامعة[٥٠]. وأحضر واحد من هؤلاء الكتيب (النشرة) إلى عميد الكلية الجامعية وأساتذتها فاستدعوا شيلي للمثول أمامهم في ٢٥ مارس، فمثل أمامهم فسألوه عن مؤلف الكتيب فرفض الإجابة ودعا لحرية الفكر وحرية الكتابة، فطلبوا منه مغادرة أكسفورد في الصباح التالي، وعندما سمع هوج Hogg بذلك اعترف أنه شاركه في تأليف الكتيب وطلب أن يطبقوا عليه العقاب نفسه الذي طبقوه على شيلي، وقد كان. وبعد الظهر ظهر في نشرة الكلية أن شيلي، وهوج قد فصلا «لتمردهما برفضهما الإجابة عن بعض الأسئلة

الموجهة إليهما» وأرسل العميد - بشكل شخصي إلى شيلي ذاكرا له أنه إذا تعذر عليه الرحيل (مغادرة أكسفورد) خلال هذه الفترة الوجيزة فإنه - أي العميد - يمكنه السماح له بالبقاء لأيام قليلة إن قدم طلبا بذلك، وتجاهل شيلي الرسالة وغادر ومعه هوج في ٢٦ مارس في أعلى مركبة قاصدين لندن.

٦- التطور الأول: شيلي ١٨١١ - ١٨١٢

استأجر شيلي وهوج مسكنا في ١٥ شارع بولاند Poland st وأتى والد شيلي - الذي كان في لندن لحضور جلسات البرلمان - إليهما وطلب منهما التراجع عن آرائهما فلما وجد ابنه متمسكا بموقفه أمره بالانفصال عن هوج لما له من تأثير شرير عليه وأن يعود إلى بيت الأسرة ويمكن هناك في رعاية «شخص سيعينه الأب وعليه الاستماع لتعاليمه وتوجيهاته»، ورفض شيلي فتركهما الأب غاضبا يائسا. لقد اعترف بقدرات شيلي وكان يتطلع لتبوئه مكانا مرموقاً في البرلمان. وترك هوج لندن قاصدا يورك لدراسة القانون وسرعان مانفد ما كان مع شيلي من مال وراحت أخواته اللاتي كن يدرسن في مدرسة مسز فننج Mrs. Fenning's School في محافظة (دائرة) كلافام Clapham يرسلن له ما يحصلن عليه من مصروف. وفي شهر مايو رق قلب أبيه فسمح له بمئتي جنيه استرليني في العام.

وكان من بين زميلات أخواته في (كلافام) فتاة في السادسة عشرة من عمرها هي هاريت وستبروك، وهي ابنة مالك ثري لحانة في ميدان جروسفينور. وعندما التقت ببيرسي فتنت بنسبه وبراعته في اللغة واتساع دائرة دراساته وسحر آرائه الفاتنة، وسرعان ما آمنت مثله أن الرب قد مات وأن القوانين إزعاج غير ضروري. وقرأت بشغف النصوص الثائرة التي أعارها إياها، والكلاسيات المترجمة التي تعكس حضارة رائعة، لم تسمع أبداً أن المسيح أتى بمثلها. ودعته لبيتها. وكتب شيلي إلى هوج في مايو سنة ١٨١١ «إنني أقضي معظم وقتي في منزل الآنسة وستبروك إنها تقرأ المعجم الفلسفي لفولتير[٥١] Dictionnaire Philosophique» وعندما اكتشفت زميلاتها أن صديقها ملحد atheist قاطعنها باعتبارها قد شمت بالفعل ريح جهنم وعندما ضبط معها خطاب منه تم فصلها[٥٢]. وفي بدايات شهر

أغسطس كتب شيلي إلى هوج: «أبوها يضطهدها بشكل مرعب لإجبارها على الذهاب إلى المدرسة لقد طلبت نصيحتي، فنصحتها بالمقاومة وحاولت في الوقت نفسه أن أطوع السيد وستبروك، لكن دون جدوى! ونتيجة نصيحتي لها جعلت حمايتها على كاهلي» ثم تناول نتائج هذا فقال في خطابه «لقد أصبحت أخيرا مرتبطة بي وخائفة ألا أبادلها موقفها . . . من غير الممكن أن أبتعد عن إنسانة لها مثل هذه المشاعر، لقد قررت أن أربط مصيري بمصيرها»[٥٣] ومن الواضح أنه عرض عليها الارتباط بعلاقات حب حرة لكنها رفضت فلما اقترح عليها الزواج وافقت لكن والدها رفض. وفي ٢٥ أغسطس هرب العاشقان واستقلتهما مركبة إلى أدنبره Edinburgh وتزوجا على وفق طقوس الكنيسة الإسكتلندية في ٢٨ أغسطس ١٨١١ واستسلم أبوها للأمر الواقع وخصص لها مبلغاً سنويا مقداره ٢٠٠ جنيه. وأتت أختها الكبرى إليزا Eliza لتعيش معها في يورك (اعترف شيلي أنه كان صفر اليدين) وكان شيلي ينفق من ميزانية الأسرة، وذكر أن «إليزا كانت تحتفظ بالميزانية المشتركة في أحد جيوبها لتخرج منها عند الطلب»[٥٤] ولم يكن شيلي سعيدا تماما بالإشراف المالي لإليزا لكنه كان يجد عزاءه في مرونة هاريت وانصياعها له. لقد كتب في وقت لاحق إلى جودون: «إن زوجتي تشاركني أفكاري ومشاعري»[٥٥].

ومكثت هاريت وإليزا – غير بعيدتين عن هوج – في يورك، بينما ذهب شيلي إلى لندن ليلين من عريكة والده الذي كان قد أوقف دعمه المالي له بعد أن سمع بزواجه من هاريت، وبعد أن تودد الشاعر إليه عاد فسمح به لكنه منعه (أي منع ابنه) من دخول منزل الأسرة، وعاد شيلي إلى يورك ووجد أن صديقه العزيز هوج كان قد حاول اغتصاب زوجته هاريت. إنها لم تقل لزوجها شيئا عن هذه المحاولة لكن هوج هو الذي اعترف وطلب الغفران ورحل. وفي نوفمبر غادر الثلاثة (الشاعر وإليزا وهاريت) إلى كزويك Keswick حيث تعرف شيلي على الشاعر سوثي Southey (ترد أحيانا في الكتابات العربية: صثي) الذي كتب في ٤ يناير ١٨١٢ «يوجد هنا رجل هو مثل قرين لي. إنه كشبحي. إنه يشبهني تماما عندما كنت في سنة ١٧٩٤ .. لقد قلت له إن الفرق الوحيد بيننا أنه في التاسعة عشرة من عمره وأنا في السابعة والثلاثين»[٥٦] ووجد شيلي أن سوثي شخص لطيف وكريم وراح يقرأ شعره بلذة.

وبعد ذلك بأيام قلائل كتب: «إن سوثي يفكر بطريقة أسمى من الطريقة التي أفكر بها.. ولابد أن أعترف أنني عندما أراه في أسرته يبدو أكثر ما يكون سناء وبهاء... كيف أزعجه العالم وأفسدته العادات، إن قلبي يتمزق عندما أفكر فيما آل إليه»(٥٧).

ووجد بعض التسلية والمتعة عند قراءة كتاب جودون (العدالة السياسية). وعندما علم أن هذا المؤلف الذي كان ذات يوم فيلسوفا مشهورا أصبح يعيش الآن فقيرا في الظل، كتب خطاب إعجاب: «لقد سجلت اسمك في قائمة العظماء الذين وافتهم المنية. لقد شعرت بالأسف لأن عظمة وجودك قد فارقت عالمنا الأرضي. ولم يكن الأمر كذلك. فأنت ستظلّ حيا وإنني أعتقد جازما أنك تخطط لرفاهية الجنس البشري. إنني لم أدخل إلا لتوي في معترك التفاعلات البشرية ومع هذا فمشاعري وتفكيري تواصلا مع مشاعرك وأفكارك.. إنني شاب وشغوف بقضايا الفلسفة والحقيقة.. عندما آتي إلى لندن سأبحث عنك. إنني مقتنع أنني أستطيع المثول أمامك مع أنني غير جدير بصداقتك.

وداعا. سأكون متشوقا لتلقي إجابتك»(٥٨). وفقد رد جودون، لكن يمكننا الحكم على فحواه من خطابه المؤرخ في مارس ١٨١٢: على قدر ما أستطيع التغلغل في شخصيتك فإنني مقتنع أن فيك جملة من الصفات الحميدة بشكل غير عادي، وإن كانت لا تخلو من بعض العيوب. وهذه العيوب تحدث دوما وبشكل أساسي نتيجة كونك لازلت صغيرا جدا، وأنك لست مقتنعا قناعة كافية بهذا» ونصح شيلي ألا ينشر كل ما يعن له، وإن نشر شيئا من هذا النوع ألا يضع اسمه عليه «فحياة الإنسان الذي ينشر ويوقع ستكون سلسلة من التراجعات»(٥٩).

وكان شيلي بالفعل يطبق هذا بالاحتفاظ بمخطوطات مؤلفاته أو يطبعها طبعات خاصة (محدودة) وأول تآليفه المهمة (Queen Mab) «كنت قد كتبتها وأنا في الثامنة عشرة من عمري – وأجرؤ على القول أنني كتبتها بحماس كاف وروح عاليه – لكنني... لم أكن أنوي نشرها»(٦٠) وفي سنة ١٨١٠ كان لايزال مولعا بالمثقفين والمفكرين الفرنسيين لقد قدم لقصيدته (Queen Mab) بشعار فولتير الغاضب Ecrasez l'infame! واستعار أفكارا كثيرة من كتاب فولني Volney «Les Ruines, ou Méditations sur les révolutions des

Empires » (١٧٩١) في مطلع القصيدة الآنف ذكرها نجد يانث Ianthe العذراء نائمة. وفي الحلم نجد الملكة ماب (وهي جنية) تهبط عليها من السماء وتصعد بها إلى النجوم وتطلب منها أن تتأمل من هذا المنظور ماضي الأرض وحاضرها ومستقبلها فمرت أمام عينيها إمبراطوريات الماضي متتابعة – مصر وتدمر واليهودية والإغريق والرومان . . . وعند الانتقال إلى الحاضر صورت الملكة ماب ملكاً (من الواضح أن المقصود هو الوصي على العرش) هو في الحقيقة عبد لنهمه الشديد »[٦١] ودهشت لأن أحدا من البؤساء الذين يجوّعهم بينما هو متخم لم يرفع ذراعه للإطاحة به من فوق عرشه ». فأطلقت حكمها الذي أصبح الآن مشهورا:

– **الرجل**

– **ذو الروح الفاضلة العفيفة لا يأمر ولا يؤمر**

– **فالسلطة كالطاعون المدمر،**

– **تلوث كل ما تمسه**[٦٢].

وكانت الملكة ماب تكره أيضا التجارة وتكره آدم سميث: « إن اتساق وسعادة شخص يستسلم لثروة الأمم » يتمثلان في « أن كل شيء للبيع حتى الحب »[٦٣]. وصورت لها أيضا إحراق ملحد مما أرعب البكر يانث Ianthe فواستها الملكة بأن أكدت لها أنه « لا وجود لله There's no God»[٦٤] ودخل أهاسويروس Ahasuerus اليهودي الجوال وراح يوبخ اللهGod كما ورد في سفر التكوين (السفر الأول من التوارة) لأنه عاقب بليون رجل وامرأة وطفل عبر آلاف السنين من أجل خطيئة غير مفهومة (خطيئة غامضة) ارتكبتها امرأة واحدة[٦٥]. (ربما وجد بايرون هنا أفكاراً أوحت له عمله « قابيل Cain »، وكان شيلي قد أرسل بصفة شخصية نسخة من عمله – ملكة ماب). وأخيرا صورت الملكة ماب (الجنية) مستقبلا زاهرا: الحب بلا قانون. السجون خالية ولا لزوم لها. لا بغاء. الموت بلا ألم. وعندئذ أمرت يانث Ianthe بالعودة إلى الأرض لتبشر بإنجيل الحب العالمي، وكان لديها إيمان غير واهن بانتصار هذا الحب. واستيقظت يانث Ianthe. إنها قصيدة قوية رغم فكرها الصبياني ورغم أسلوبها عالي النبرة في بعض المواضع (المقصود الأسلوب المنمق أو الطنان رغم بساطة

المعنى). وعلى أية حال فقد كان هذا عملا لافتا للنظر لفتى في الثامنة عشرة من عمره. وعندما تم نشر (الملكة ماب) في سنة ١٨٢١ دون موافقة الشاعر رحب بها الراديكاليون في إنجلترا باعتبارها تمثل حلمهم وخلال عشرين عاما ظهرت منها أربع عشرة طبعة غير مرخص بها[٦٦]. وبعد أن مكث شيلي وهاريت في أيرلندا (فبراير – مارس ١٨١٢) حيث عمل ببطولة محايدة لصالح قضايا الكاثوليكية والبروليتاريا، انتقل إلى ويلز. وهناك فجع وزوجته بمناظر الفقر السائدة فاتجها إلى لندن ليؤسسا صندوقا لجمع الأموال لصالح أهل ويلز. وانتهز هذه الفرصة لتقديم احترامه لجودون الذي سره أن تتزاور أسرتاهما كثيرا. وبعد زيارات قصيرة متكررة لأيرلندا وويلز استقر الزوجان الشابان (شيلي وهاريت) في لندن. وهناك أعاد شيلي وهاريت مراسم زواجهما على وفق طقوس كنيسة إنجلترا ليضمنا « شرعية » أي ابن يرزقانه ليكون وريثا شرعيا، وكان هذا في ٢٤ مارس سنة ١٨١٤[٦٧]. وكان شيلي قبل ذلك ببعض الوقت قد كتب لها قصيدة يجدد فيها حبه وعهده بمناسبة عيد ميلادها:

– هاريت ، دعي الموت يدمر كل الروابط الزائلة،

– أما رباطنا فلن يتمزق أبدا ،

– فالفضيلة والحب ، راسخان صامدان

– وكذا الحرية والإخلاص والنقاء،

– فروحي مكرسة لك في هذه الحياة.

٧– التطور الثاني: شيلي ١٨١٢ – ١٨١٦

بدا شيلي خلال كل جولاته لا يفكر في تدبير مورد رزق له. ربما كان يشارك وردزورث نظرته في أن الشعر لا شريك له وأنه لا بد من إعفاء الشاعر من العمل أو الاهتمامات التي قد تخنق الشعر في دمه. ولم يكن يرى تناقضا بين دعوته للمساواة في الحقوق في ظل جمهورية وجهوده في الحصول على نصيبه من الثروة التي وقفها جده على أبيه. وقد أضاف إلى المبلغ السنوي الذي خصصه له والداه مبلغاً آخر فقد باع للمرابين حقه الذي سيحصل عليه بعد وفاة والده، ففي سنة ١٨١٣ تقاضى ٦٠٠ جنيه نقدا مقابل تنازله عن ألفي جنيه

من ميراثه المتوقع.

وربما شجع المرابين على ذلك هشاشة بنيانه، والأمراض التي كانت تعاوده دوما. فالآلام الدائمة التي كانت تعتري جنبه الأيسر (كما ذكرت زوجته الثانية) كانت تؤثر في أعصابه فتحيله حساساً حساسية شديدة، وتجعل نظرته للحياة مختلفة عن نظرة إنسان سليم الصحة. لقد كان يعاني من الاضطراب والقلق إلى حد كبير وكان أقرب ما يكون إلى الاستثارة وكانت قدرته على التحمل دوما يتسع مداها، حتى يكون لطيفا مع الآخرين متذرعاً بالصبر»(٦٨).

وظن أن بمقدوره تخفيف آلامه بتناول وجبات نباتية، وتمسك بهذا الأمل بناء على تجارب وصفها جون نيوتن في كتابه «عودة للطبيعة أو دفاع عن الرجيم النباتي» (١٨١١). وثبت على هذه الفكرة فأصبح هو وهاريت نباتيين في سنة ١٨١٢. وفي سنة ١٨١٣ تحمس لما أسمته زوجته (النظام الفيثاغورسي)(٦٩) فأقحمه في تعليقاته على قصيدة (الملكة ماب) ودعا إليه:

«إنني أناشد كل الذين يحبون السعادة والحقيقة أن يجربوا بشكل مناسب النظام النباتي (الاكتفاء بأكل ما هو نباتي).. إنني أدعوهم لهذا بحق ما هو مقدس في آمالنا لصالح الجنس البشري... فالوجبات النباتية والماء النقي لا تسببان أمراضاً بدنية أو عقلية (نفسية)، بل إنه لا يوجد مرض إلا ويسكنه هذا العلاج الناجع (الماء والنبات) فيتحول الضعف إلى قوة ويتحول المرض إلى صحة»(٧٠).

وفي مطبوع (الدفاع عن الوجبات الطبيعية Vindication of Natural Diet) (١٨١٣) عزا الدوافع الشريرة للبشر ومعظم الحروب للوجبات التي تحتوي على لحوم ودعا إلى ترك التجارة والصناعة والعودة للزراعة:

«عندما نأخذ بالنظام الطبيعي لن نكون بحاجة إلى بهار الهند ولا نبيذ البرتغال وإسبانيا وفرنسا وماديرا.... إن روح الأمة التي ستبادر بقيادة هذا الإصلاح العظيم ستصبح – لا إرادياً – زراعية. فالتجارة بكل آثامها وأنانيتها ستنهار تدريجيا، ومزيد من العادات الطبيعية سيتمخض عنها طباع أكثر دماثة»(٧١).

وأدت ظروف غريبة متتابعة نتجت عن نباتيته (مذهبه في الاقتصار على تناول ما هو نباتي) إلى دمار زواجه الأول. فبسبب إعجابه بجون نيوتن قابل أخت زوجته (أي أخت زوجة جون نيوتن) السيدة جون بوينتون John Boynton النباتية الجمهورية، الجذابة رغم شعرها الأبيض، والقادرة على إجراء مناقشات تنم عن علم وثقافة بالغتين. وفي يونيو سنة ١٨١٣ وضعت هاريت مولودة جميلة أسماها شيلي (يانث) وفي هذا الصيف انتقل بزوجته وابنته والأخت إليزا إلى براكنل وهو مكان جميل يبعد عن لندن بثلاثين ميلا. وبعد ذلك بفترة يسيرة استأجرت السيدة بوينتون منزلاً هناك وجمعت حولها المهاجرين الفرنسيين (الذين تركوا فرنسا بسبب الثورة الفرنسية) والراديكاليين الإنجليز الذين كانت آراؤهم في الحكم والتشريع تعجب شيلي. وزادت فترات افتراقه عن هاريت وابنته يانث وإليزا فقد كان يذهب للاستمتاع بصحبة السيدة بوينتون وأصدقائها وابنتها المتزوجة.

ولم تعد علاقته بزوجته حميمة تماما كما كانت إذ يبدو أنه بدأ يشعر بشيء من التأخر في تطورها الفكري، كما أنها راحت تنشغل بابنتها انشغالا شديدا، ولم تعد تهتم بالسياسة بل راحت تهتم كثيرا بالمسرات والملابس الجميلة، وقد اشترى من أجلها عربة غالية الثمن، وفي هذه الفترة الحرجة تلقى في ٢٦ مايو ١٨١٣ من والده مايفيد أنه (شيلي) إذا لم يتراجع عن إلحاده atheism ويعتذر لعميد كليته في أكسفورد، فإنه (أي الوالد) سيحرمه من الميراث ويمنع عنه كل مساعدة مالية وكان شيلي قد استدان مقدماً على حساب الثروة التي ستأتيه بعد ذلك (استدان في ٤ أغسطس١٨١٣) وذعرت هاريت وأختها إليزا. أحقا لاتستحق باريس إقامة قداس؟! (المقصود أن هذه الأحوال ومثلها مبرر كاف لقيام الثورة الفرنسية)(*) ورفض شيلي التراجع عن آرائه وواصل سهراته المسائية التي تقيمها السيدة بوينتون. وأرسل جودون مايفيد أن دائنيه يهددون بالقبض عليه وطلب المساعدة. وفي يونيو سنة ١٨١٤ انتقلت هاريت وابنتها إلى باث Bath متوقعة أن يلحق بها زوجها بسرعة، لكن شيلي ذهب إلى لندن واستأجر غرفة في شارع فليت وحاول أن يجمع مالاً لصالح جودون وكان غالبا ما يتناول غداءه على مائدة هذا الفيلسوف في شارع سكينر

(*) ما بين القوسين توضيح من المترجم.

Skinner، وهناك التقى بماري جودون.

لقد كان دفاعها عن حقوق المرأة دفاعا طيبا لكن لم يلق قبولا على نطاق واسع، وكان شبابها الغض وعقلها النشيط. ووجهها الشاحب المفكر وإعجابها الذي لم ينته بشيلي - كبيرا جدا بالنسبة لشاعر لازال شابا في الحادية والعشرين من عمره. ومرة أخرى اختلطت الشفقه بالرغبة. وكان طالما سمع عن ماري ولستونكرافت وكتابها المثير للانتباه، وها هي ابنتها التي لم تكن سعيدة بحياتها مع زوجة أبيها القاسية، تذهب كثيرا لتجلس وحيدة بجوار قبر أمها. وهنا شعر شيلى معها بتآلف نفسي وعقلي ووجدها أرقى عقلا وألطف روحا من هاريت، وفي غضون أسبوع بدا له أنه يحس إزاءها بعاطفة قوية لم يألفها من قبل. وفي ٦ يوليو طلب من جودون يد ابنته، واعتبر الفيلسوف المندهش هذا الطلب فسقا منه فمنعه من دخول بيته، ووضع ماري في رعاية زوجته (زوجة أبيها)[٧٢].

وبعد ذلك وجد توماس لف بيكوك الشاعر يكاد يكون مهتاجا في غرفته بشارع فليت. «لاشيء كالذي رأيته سبق لي أن قرأته في الحكايات أو التاريخ. لاشيء يقدم صورة أوضح للمفاجأة والعنف وعدم الاستقرار.. والوجد ... أكثر من الصورة التي وجدته عليها عندما دعاني لآتيه من الريف... لقد كانت عيناه كالدم وشعره مهوشا وثيابه غير مهندمة.. وأحضر زجاجة من اللودانيوم (مستخضر أفيوني) وقال: لن أفارق هذه»[٧٣].

ورغم كل هذه العراقيل رتب شيلي الأمر ليقابل ماري عند قبر أمها وخفف اعتراضها بأن أخبرها أن هاريت لم تكن مخلصة وأنها كانت تخونه مع المدعو السيد (مستر) ريان[٧٤] Mr. Ryan واستمر لفترة ينكر أبوته للطفل الذي تحمله هاريت في بطنها الآن (في وقت لاحق زعم أنه ابنه). وأنكرت اتهامه وأيدها أصدقاء شيلي: بيكوك، وهوج، وتريلاوني، ومتعهد نشر كتبه هوكهام. وقد رفض جودون في وقت لاحق هذه التهمة[٧٥]. وكتب شيلي إلى هاريت (وكانت لاتزال في باث) وطلب منها القدوم إلى لندن فأتت في ١٤ يوليو ١٨١٤ إلى بيت والدها فزارها الشاعر هناك ووجدها مريضة بشكل خطر، فطلب منها أن توافق على الانفصال عنه لكنها رفضت وعندما عاد إلى غرفته كتب لها خطابا محموما يقترح فيه عليها نوعاً من الاتفاق:

« يا أعز صديقة :

رغم أنني كنت منهكاً عندما التقينا ورغم أننا سنلتقي غدا في الساعة الثانية عشرة، فإنني لم أستطع منع نفسي من الكتابة لك. لقد أصبحت هادئا وأكثر سعادة بسبب تأكيداتك... لهذا يا عزيزتي هاريت فإنني أشكرك من أعماق روحي. ربما كان هذا أعظم ما تلقيت من بركة على يديك. لقد كرهت النهار في وضحه وكرهت - بعمق - حتى وجودي. لقد عشت على أمل أن تمنحيني السعادة، والعزاء لما أنا فيه، ولم يخب أملي. إنني أكرر لك (صدقيني فأنا مخلص فيما أقول) أن ارتباطي بك لم تنفك عراه، بل إنني مقتنع أنه قد أصبح أعمق وأكثر ديمومة فهو الآن أقل عرضة لتقلبات الهوى والنزوات. فارتباطنا لم يكن ارتباط هوى ونزوة، بل لقد كانت الصداقة هي أساسه، وعلى هذا الأساس كبرت هذه الصداقة وقويت، فأنت لم تملئي قلبي بمشاعر المعاناة... ألن أكون أكثر من صديق؟ آه.. سأكون أكثر من أخ، فأنا والد ابنتك الحبيبة لكلينا...

إن أردت الدفع لأصحاب المصارف قبل أن أراك، فإن هوكهام سيعطيك كل الشيكات.

وداعا. أحضري معك طفلتي الحبيبة الحلوة، فلا بد أنني سأكن لها حبا للأبد من أجلك. »

المخلص والمحب دوما

پ. ب. شيلي[٧٦]

وروت هاريت الأمور من وجهة نظرها في خطاب إلى كاترين نُوجِنْت مؤرّخ في ٢٠ نوفمبر سنة ١٨١٤ :

« ... إن ماري مصرة على اغتصابه.. لقد ألهبت خياله باصطحابه إلى قبر أمها كل يوم وبمداومة الحديث عن أمها حتى أخبرته أخيرا أنها تموت فيه حبا... فلم لا نعيش جميعا معا؟ هكذا سألته ماري. أنا كأخته وهي كزوجته؟ وكان من الغباء أن اعتقد بإمكان هذا، فأرسل يطلبني ثم أقام في باث Bath. يمكنك تصور شعوري بعد افتضاح هذا الأمر. لقد لازمت الفراش طوال أسبوعين ولم أستطع إنجاز شيء. لقد توسل إليّ أن نعيش... وها أنا يا

صديقتي العزيزة في انتظار أن أضع طفلاً في هذا العام المحزن. وفي الشهر القادم سأكون حبيسة المخاض، ولن يكون قريباً مني.»

هـ. شيلي[٧٧]

وقدم لنا جودون بعض التفاصيل في خطاب أرسله إلى جون تايلور مؤرخ في ٢٧ أغسطس سنة ١٨١٤:

«لقد كنت أثق فيه (أي شيلي) إلى أقصى درجة فقد عرفته سريع التأثر بالمشاعر النبيلة. لقد كان رجلاً متزوجاً عاش بسعادة مع زوجته طوال ثلاث سنين... وفي ٢٦ يونيو (وكان يوم أحد) اصطحب ماري وأختها جين كليرمونت إلى قبر أم ماري... وهناك يبدو أن فكرة غير تقية راودته. لقد فكر في اغتصابها. فخانني بعد أن ائتمنته، وهجر زوجته... وفي السادس من يوليو، وكان يوم الأربعاء.. إصل به الجنون حدا جعله يفضي إليّ بما يعتزمه وطلب موافقتي، فتجادلت معه... فوعدني في لحظة وهو في غاية التأثر بالتخلي عن حبه الآثم.. لكن الاثنين خدعاني، ففي ليلة ٢٧ يوليو هربت ماري وأختها جين من بيتي وفي الصباح وجدت خطابا يخبرانني فيه بفعلتهما»[٧٨].

وكانت جين كليرمونت أختا غير شقيقة لماري فهي ابنة زوجة جودون الثانية من زوجها السابق. وكان اسمها الأصلي كلارا ماري جين. لكنها كانت تفضل أن ينادوها كلارا ثم أصبح اسمها كلير(Claire أو Clare). ولدت في ٢٧ أبريل ١٧٩٨، وقد بلغت الآن السادسة عشرة من عمرها، وكانت صالحة للزواج بشكل واضح. لقد كانت موهوبة وحساسة ومعتزة بنفسها ولم تكن مرتاحة لسلطة أمها المرعبة وطباعها الثائرة، وكان زوج أمها مفلساً ومنشغلاً بدرجة لم تمكنه من تعويضها بأي قدر من الحب، فطلبت من ماري وشيلي أن يأخذاها معهما. وقد كان، ففي ٢٨ يوليو سنة ١٨١٤ هرب ثلاثتهم من لندن إلى دوفر ومنها إلى فرنسا.

وفي ٢٠ أغسطس وصلوا إلى لوسيرن، فلم يجد شيلي أية رسائل في انتظاره ولم يأته مال من لندن، ولم يكن معه سوى ثمانية وعشرين جنيهاً، فأخبر رفيقتيه وهو حزين بضرورة العودة إلى إنجلترا لتدبير المسائل المالية. فستقلتهما عربة ثم قارب وأسرعا للشمال،

وفي ١٣ سبتمبر سنة ١٨١٤ كانوا – مرة ثانية – في لندن. ومكث طوال اثني عشر شهرا مختبئا من دائنيه، بل واقترض أموالاً أخرى ليطعم نفسه وماري وكلير وجودون الذي كان لايزال يرفض رؤيته لكنه رحب بالمساعدة المالية. وفي هذه الأثناء وضعت هاريت مولودها الثاني، وأسمته شارلز، ووضعت ماري مولودها الأول وليم. وأوت كلير إلى مخدع بايرون. وأخيرا مات جد شاعرنا تاركا ثروة لوالد شيلي الذي أصبح الآن هو السير تيموثي شيلي – تقدر بثمانين ألف جنيه. لقد أصبح شيلي الآن وارثا، لكن والده لم يعترف بذلك. لقد عرض عليه التنازل عن حقوقه مقابل مبلغ سنوي قدره ألف جنيه فوافق، فجعل شيلي مائتين منها كل عام لهاريت، وفي ٤ مايو ١٨١٦ غادر الشاعر وماري ووليم وكلير مرة أخرى قاصدين دوفر ومنها إلى فرنسا، وكان بايرون – قبلهم بتسعة أيام «قد نفض عن قدميه تراب إنجلترا».

٨- إجازة سويسرية: بايرون وشيلي، ١٨١٦

اختار شيلي وكذلك بايرون، دون اتفاق سابق، سويسرا لتكون ملاذا لهما، واختارا جنيف لتكون مركزا لنشاطهما. ووصلت جماعة شيلي في ١٥ مايو واتخذت لها محل إقامة في ضاحية سيشيرون Secheron. أما بايرون وبطانته فاستقلتهما في أوستد مركبة فخمة كان قد أمر بتشييدها بتكلفة خمسمائه جنيه على نمط مركبة كان يستخدمها نابليون واستولى عليها أعداؤه في جناب Genappe بعد هزيمته في واترلو. لقد كان بها سرير ومكتبة وكل مايلزم لتناول الطعام. وقام بايرون بجولة خاصة في أرض المعركة (واترلو) وتفقد ما تخلف عنها، وربما يكون قد ألف في بروكسل هذه الليلة المقاطع الشعرية من ٢١ إلى ٢٨ وهي المقاطع الأكثر خلودا في النشيد الثالث في (رحلة شيلد هارولد Childe Harold Pilgrimage) وفي ٢٥ مايو وصل إلى فندق انجلتير Angleterre الواقع على بعد ميل إلى الشمال من قلب جنيف، فطلب منه موظف الاستقبال كتابة سنّه فكتب «مائة» واكتشفت كلير كليرمونت التي كانت مشرفة بمراجعة أسماء الواصلين فأرسلت إليه تواسيه لكبر سنه واقترحت عليه اللقاء. وفي ٢٧ مايو أتى ليلتقي بشيلي وماري وكلير فكان هذا

أول لقاء بين الشاعرين. وكان بايرون قد قرأ (الملكة ماب) فامتدح القدرة الشعرية لكنه صمت تأدبا فيما يتعلق بالجانب السياسي الذي تنطوي عليه، فقد كان من الصعب أن يتوقع من شاب في الرابعة والعشرين أن يفهم فضائل الأرستقراطية – رغم أنهما ربما اتفقا على أهمية التوريث. وأخيرا اعتبر شيلي أن لورد بايرون أرقى منه شعرا.

وفي ٤ يوليو استأجر بيتا في مونتاليجر Montallegre التي تبعد عن جنيف بميلين، وتقع على الشاطئ الجنوبي لبحيرة جنيف. في ٧ يوليو استأجر بايرون فيلا ديوداتي Diodati التي لا تبعد عن شيلي سوى بمسيرة عشر دقائق، واشتركا معا في استئجارقارب صغير وغالبا ما كانت الأسرتان تبحران فيه معاً في البحيرة كما كانا يقضيان الأمسيات في النقاش والمسامرة في فيلا ديوداتي. وهناك، في ١٤ يوليو، اقترح بايرون أن يكتب كل واحد منهم قصة عن الأشباح. وحاول كل منهم وفشلوا إلا ماري التي كانت في التاسعة عشرة من عمرها فقد ألفت واحدة من أشهر الروايات في القرن التاسع عشر. هي: فرانكنشتين أو بروميثيوس المعاصر Frankenstein,or the Modern Prometheus وتم نشرها في سنة ١٨١٨ وكتب شيلي مقدمة لها. وقد طرحت القصة – من بين أمور أخرى كثيرة – قضيتين غاية في الأهمية، ماتزالان محل اهتمام: أيمكن للعلم أن يخلق الحياة؟ وهل يمكنه تسخير قوته لمنع الشر بنفس مقدرته على إزجاء الخير؟

واقترح بايرون أيضا أن يقوم هو وشيلي بالطواف بقاربهما المتواضع حول البحيرة وأن يتوقفا عند النقاط التاريخية خاصة التي حققت شهرة بسبب كتاب روسو (Julie, ou La Nouvelle Héloise)، ووافق شيلي رغم أنه لم يكن قد تعلم السباحة. وانطلقا في ٢٢ يونيو واستغرق منهما الوصول إلى مليري Meillerie (في سافوي) يومين، وهناك تطلعا إلى البقعة التي افترق فيها سان – برو Saint - Preux عن جولي (كما ورد في الرواية أي أن هذه الأسماء وردت في الرواية وليس لها بالضرورة حقيقة تاريخية) وحيث – كما هو مفترض – نقش اسمها على الصخر. وواصلا الرحلة فتعرضا لعاصفة مفاجئة وغمرت الأمواج بشكل متكرر مقدمة القارب مهددة بقلبه رأساً على عقب، وقد تذكر بايرون بعد. ذلك ما حدث «لقد خلعت معطفي وطلبت منه أن يفعل الشيء نفسه وأن يمسك بالمجداف وأخبرته أنني

أظن... أنه يمكنني إنقاذه إذا لم يقاوم إذا أمسكت به... فأجاب ببرود شديد أنه ليست لديه فكرة عن إمكانية إنقاذه وأن كل ما يمكنني عمله هو إنقاذ نفسي وتوسل ألا يزعجني »[٧٩].

واستقر القارب ونزل الشاعران إلى البر واستراحا، وفي صباح اليوم التالي زارا شيلون Chilon والقلعة التي كان فرانسوا دي بونيفار de Bonnevard قد سجن فيها (١٥٣٠ – ١٥٣٦)، بأمر من دوق لوزان. وفي كلارنز Clarens كان شيلي يمسك بيده رواية روسو ليسترشد بها – لقد سار الشاعران على الأرض التي أصبحت جديرة بالذكر كمقدس للرومانسية الفرنسية. وفي ٢٧ يونيو وصلا بقاربهما إلى أوشي Ouchy مرفأ لوزان، وفي هذه الليلة كتب بايرون « سجين شيلون » Prisoner of Chillon كما كتب مقاطع شعرية عن روسو في (شيلد هارولد Childe Harold) وفي ٢٨ يوليو زار الشاعران منزلاً في لوزان كتب فيه جيبون كتابه (انهيار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها). وفي أول يوليو عاد الجوالان إلى مونتاليجو وديوداتي. وفي غضون الأسبوعين التاليين كتب بايرون النشيد الثالث في « رحلة شيلد هارولد Childe Harolds' Pilgrimage ونسخت كلير كليرمونت نسخة منها فقد عرفت الآن إحدى لحظات السعادة القليلة في حياتها.

لقد كان قدرها أن يصاحبها سوء الحظ، فقد أدى إخلاصها لبايرون إلى إثارة الأقاويل في سويسرا لدرجة مؤذية: لقد كان هناك اتهام بأن الشاعرين كانا يعيشان مع الأختين في علاقات مشتركة غير شرعية، وسمى بعض الخياليين بايرون وشيلي بالشيطانين المتجسدين، وأصيبت سيدة إنجليزية تقوم برحلة في سويسرا، بالإغماء عندما ظهر بايرون في صالون مدام دي ستيل في كوبت[٨٠] . وربما أسهمت هذه الأقاويل في تصميم بايرون على إنهاء علاقته بكلير. لقد طلب من شيلي ألا يسمح لها بالقدوم إلى فيلا ديوداتي مرة ثانية. وكانت كلير في ذلك الوقت حاملاً من بايرون، وكانت في شهر حملها الثالث، فطلبت أن يسمح لها بزيارة واحدة أخرى لكن تم إثناؤها عن عزمها. وفي ٢٤ يوليو أخذ شيلي كلا من كلير وماري في رحلة إلى شامونكس Chamonix في سافوي. وفشلوا في هذا اليوم في محاولتهم الوصول إلى الميردي جلاس the Mer - de - Glace لكنهما نجحا في اليوم التالي. وعند

عودتهما إلى سويسرا توقفا عند دير شارتيز Charteuse في مونتنفير Montenvers. وكتب تحت توقيعه في دفتر الزيارات – وقد أثارته مظاهر التدين – كتب باللغة اليونانية: «إنني أحب البشر، وديموقراطي وملحد»[٨١] وعندما زار بايرون بعد ذلك بفترة وجيزة المكان نفسه محا الكلمة الدالة على الإلحاد خوفاً من أن تستخدم في غير صالح شيلي في إنجلترا. وقد كان[٨٢]. وفي ٩ أغسطس غادر شيلي وماري وكلير سويسوا قاصدين إنجلترا، وأعطى بايرون، مخطوطة (سجين شيلون) والنشيد الثالث والرابع من (شيلد هارولد) لشيلي كي يسلمها للناشر جون مري. أما شيلي نفسه فقد كان مشغولا مع ماري وكلير فلم يحضر سوى (ترنيمة جمال الفكر) وقصيدة Mount Blanc: أبيات كتبت في قصيدته (وادي شامونيكس Chamonix). وهذه القصيدة تكاد تكون مرتبكة كنهيرات الجليد التي تهبط ملتفة حول المنحدرات الجبلية في المير دي جلاس Mer - de - Glace. فقد وجد شيلي انطباعاته عديدة ومتباينة حتى إنه كان غير قادر على التعبير عنها بوضوح بأي شكل من الاشكال وفكر برهة من الزمن في الكتلة الشاهقة مخاطبا إله الطبيعة كما تصوره وردزورث لكنه عاد مرة أخرى إلى الشعور بالكثافة الباردة تاركاً كل الأمور لأحكام البشر. وتظهر أيضا في قصيدته (ترنيمة جمال الفكر) بعض تأثيرات وردزورث لكن سرعان ما زوى إعلان شيلي «بالخلود» لقد عبر عن دهشته لوجود الظلمة جنبا إلى جنب مع النور، والشر جنبا إلى جنب مع الخير، وراح يحلم بخلاص الإنسان بتنمية إحساسه بالجمال وتعميقه وتوسيع مداه، ومتابعة الإحساس بالجمال في الفكر والعمل كما نتابعه في الشكل والبدن:

– لقد نذرت نفسي..

– لك.. ألم أف بنذري؟

– ليس من فرح أزال عن جبيني التقطيب

– فلا أمل لدي أن تتحرري

– فمن هذا العالم، من عبوديته المظلمة

– يمكنك التعبير عما لم تستطع هذه الكلمات التعبير عنه

– يا للفتنة المدهشة![٨٣]

وأخيراً كان على محاولات وردزورث، وبايرون، وشيلي أن تجد صديقا خيرا في طبيعة هوت أمام الحياد الهادئ، فاستسلم وردزورث لكنيسة إنجلترا، واستسلم بايرون وشيلي لليأس.

٩- انحلال في فينيسيا: بايرون ١٨١٦ - ١٨١٨

في شهر سبتمبر سنة ١٨١٦ قدم هوبهوس من إنجلترا وانضم إلى بايرون في رحلة واسعة المدى في الألب السويسرية. وفي أكتوبر عبراها إلى إيطاليا، فتلقاهما أهل ميلان بقبول حسن واحتفى المثقفون الإيطاليون ببايرون كأعظم شاعر إنجليزي على قيد الحياة وقدروا شجبه الواضح لحكم النمسا في لمبارديا. لقد أخذ وساما في لاسكالا La Scala ورآه ستندهال Stendhal هناك ووصفه بإعجاب «لقد فوجئت بعينيه... لم أر في حياتي ما هو أجمل ولا أكثر تعبيرا. وحتى اليوم فإنني إذا فكرت في التعبير الذي يجب أن يسبغه الرسام على العبقرية - لم أجد أمامي إلا هذا الرأس السامق (رأس بايرون)... لن أنسى أبدا التعبير القدسي في وجهه.. إنه يشيع جو القوة والعبقرية»[٨٤]. ووصل الشاعر وصديقه إلى فينيسيا في ١٦ نوفمبر ١٨١٦ وفارقه هوبهوس لرؤية ما يستحق الرؤية وتابع طريقه بسرعة إلى روما، أما بايرون فاستأجر منزلاً في شارع جانبي متفرع من بيازا سان ماركو Piazza San Marco وجعل من زوجة صاحب الفندق واسمها ماريانا سيجاتي مدبرة لأمر جناحه في الفندق، ووجد وقتا لإتمام (مانفرد Manfred) وفي شهر سبتمبر سنة ١٨١٨ بدأ عمله (دون جوان Don Juan) الذي انتقل فيه من الرومانسية العابسة والانهماك في الذات إلى الأهاجي المرحة الساخرة ذات الطابع الواقعي.

وبطبيعة الحال فإن (مانفرد) هو (بايرون) نفسه مرة أخرى، وقد ألبسه المؤلف شخصية مكتئب كارهٍ للبشر في قلعة قوطية شاعرا «بلعنة هائلة على روحي» راقدا محتضنا بيض خطاياه. لقد استدعى الفاتنات من مخادعهن فوق الألب وطلب منهن منحة واحدة - النسيان، فقلن له لا نسيان إلا بالموت، وتسلق الجنجفراو Jungfrau ورأى في شجرة صنوبر ذابلة شبيها يرمز إليه «جذع أصابه التلف على صخرة ملعونة لا تمد الشجرة إلا بالفناء»

وبحث عن الموت بمحاولة القفز من فوق منحدر صخري شاهق لكن صيادا أوقفه واصطحبه إلى كوخ في الجبل وقدم له نبيذا دافئا وسأله عن سبب يأسه. وأجاب مانفرد الذي اعتبر النبيذ رمزا للدم(*) - بكلمات قد يفهم منها اعترافه بمعاشرة المحارم:

- إنني أقول إنه (أي النبيذ) دم! فالمجرى الدافئ النقي

- الذي جرى في عروق آبائي وعروقنا

- عند ما كنا في شبابنا، وكانت قلوبنا

- في حالة عشق وأحب أحدنا الآخر كما لا يجب أن يكون

- إن هذا كان ولايزال يغلق أبواب السماء دوني.

وراح يحسد الصياد لحريته وحياته الصحيحة. وقدم للصياد ذهبا ورحل، واستخدم علمه غير المقدس فاجتمع بأستارت Astarte التي رأى فيها شبح حبه المحرم ودعاها للصفح عنه «أستارت، يا حبيبتي تحدثي إلي» - في الذروة إذ حلق بايرون معبراً عن عواطفه وانفعالاته. وكما كان يحدث في بلاد جلفر التي يعيش فيها اللجناجيون Luggnaggian حكم عليه بالخلود، ظنا منه أن الخلود هو أقصى درجات العقاب. لقد توسل إليها (إلى أستارت) أن تستخدم قوتها السحرية وتمنحه الموت، فطمأنته قائلة «مانفرد، غدا تنتهي حياتك في هذه الدنيا» وصفقت ساحرة حاضرة لشجاعته: «إنه يسيطر على نفسه. إنه يجعل عذابه مرتبطا بإرادته. أكان واحداً منا؟! سيكون روحا مرعبة». وربما يكون شيطان Satan ميلتون Milton قد ترك واحدا من أصدائه الكثيرة في أعمال بايرون. وقد أجاب (مانفرد) رئيس دير الرهبان الذي أراد جذبه مرة أخرى إلى المسيحية، قائلا: إن هذه دعوة جاءت متأخرة جدا وأضاف قائلا:

- ليس هناك نظام

- للبشر على الأرض، فهناك من أصبحوا

- شيوخا في شبابهم وماتوا قبل منتصف العمر،

- دون أن يذوقوا الموت في ساحات الوغى.

(*) الرمز بالنبيذ للدم لازال سائداً في الطقوس الكنسية حتى اليوم. (المترجم)

وعندما غادر (مانفرد) للقاءاته الأخيرة حزن رئيس الدير وتفجع :

– **هذا لا بد أنه كان مخلوقا نبيلا ، إن لديه**

– **كل الطاقة التي تخلق عناصر رائعة ،**

– **وقد تم مزجها بحكمة !**

وكما لو كان يتحدى العالم معترفا بما كان موضع شك ، أرسل بايرون عمله (مانفرد) إلى إنجلترا فنشره الناشر مري Murray في ١٦ يونيو سنة ١٨١٧ ، وبعد النشر بأسبوع ظهر عرض في صحيفة لندنية منهيا كل تعاطف مع بايرون « انه تناول شخصه (أي شخص) بايرون وأطلق عليه اسم مانفرد . إنه يقصد نفسه . . إن (مانفرد) قد طرد نفسه من المجتمع فكيف نتعاطف مع منعزل مطرود ؟! إنه ببساطة قد ارتكب أشد أنواع الجرائم المقززة . لقد غشي محارمه »[٨٥] .

وفي ١٧ أبريل ١٨١٧ غادر بايرون مدينة فينيسيا ليقضي شهرا مع هوبهوس في روما . وعاقته قدمه (المصابة) عن القيام بجولة في متاحف روما لكنه رأى البقايا الهائلة لروما الكلاسية وزار بومبي Pompeii « لقد وقفت كبقايا وسط بقايا » هكذا قال شيلد هارولد[٨٦] . وفي ٢٨ مايو عاد إلى فينيسيا (البندقية) وفي ديسمبر نجح بعد محاولات كثيرة في بيع مبنى دير نيوستيد Newstead Abbey والأراضي المحيطة به بمبلغ ٩٤,٥٠٠ جنيه إسترليني وفوض مسؤول أموره المالية في لندن دوجلاس كنيرد لدفع كل ديونه وأن يرسل له ٣,٣٠٠ جنيه إسترليني سنويا عن أرباح المبلغ المتبقي، وبالإضافة إلى هذا فقد أصبح الآن يقبل الحصول على أموال مقابل نشر أشعاره . وامتلأ بالحيوية فاشترى قصرا فخما Palazzo Mocenigo على القنال الكبير (جراند كانال Grand Canal) وحشدها بأربعة عشر خادما وقردين وكلب حراسة ضخم وخليلة جديدة هي مارجاريتا كوجني وهي زوجة معتزة بنفسها لأحد المسؤولين المحليين . ولم يكن ليكتفي بامرأة واحدة فقد تباهى بعلاقاته الجنسية بمائتي امرأة على التوالي في فينيسيا (البندقية)[٨٧] وفي ٢٠ يناير سنة ١٨١٧ أخبر كنيرد أنه « في الأمسيات أخرج أحيانا، وأنخرط دوما في علاقات جنسية » وفي ٩ مايو ١٨١٨ كتب لمسؤوله المالي « إن لدي عالماً من المومسات »[٨٨] وفي منتصف الصيف تردت أحواله

الصحية فأصبح بعيدا تماما عن الأوصاف الرائعة التي وصفه بها ستندهال منذ عامين. لقد أصبح سمينا وتحول شعره إلى اللون الرمادي وبدا أكبر من سنه (كان في الثلاثين من عمره) وصدم شيلي عندما رآه على هذه الحال عندما التقيا مرة أخرى.

١٠- أمور شيلي العائلية: ١٨١٦ - ١٨١٨

في الثامن من سبتمبر سنة ١٨١٦ وصل شيلي وماري وابنهما وليم ومربيته السويسرية إليز فوجي وكلير كليرمونت - إلى إنجلترا. وذهب جميعهم عدا شيلي إلى باث Bath أما شيلي فأسرع إلى لندن متوقعاً أن يجد أباه قد ترك له خمسمائه جنيه، لكن شيئا لم يصل وكان عليه أن يسحب وعده بأن يعطي ثلاثمائة جنيه لوالده الروحي واهتاج جودون وهرب شيلي إلى باث حيث زوجته غير الشرعية.

وهناك (في باث) تلقت ماري خطابات حنونة من أختها غير الشقيقة فاني جودون في ٢٦ سبتمبر و ٣ أكتوبر. ولدت فاني Fanny في فرنسا سنة ١٧٩٤ وكانت هي الابنة الطبيعية (ابنة زنا) من القبطان إملاي Imlay وماري ولستونكرافت Wollstonecraft، وتبناها جودون عند زواجه من أمها ورغم شفقته عليها فإنها لم تكن سعيدة بحياتها مع زوجته الثانية السيدة كليرمونت. وعكست خطاباتها روحاً لطيفة تتحمل التعاسة بشجاعة ولا تلوم أحدا وتتوق للسرور بقلب مخلوع. وكانت ماري محبة لها لكن بعد أن غادرت ماري وكلير مع شيلي لم يعد لفاني سند يواسيها لظروف حياتها مع زوجة أبيها، وعندما عاد العاشقان الهاربان إلى إنجلترا لم تساعدهما ظروفهما المالية على استقبال فاني لتعيش معهما. وفي ١٢ سبتمبر حمل شيلي لماري وكلير أخبارا مفادها أن فاني كانت قد ذهبت إلى سوانسي Swansea واعتزلت في غرفتها بالفندق وقتلت نفسها بالأفيون.

ولم ترحم الأحوال شيلي إلا قليلا. فعند عودته إلى إنجلترا جرى معه تحقيق بشأن زوجته التي كان لايزال مرتبطا بها من الناحية الرسمية. لقد علم أنها كانت تعيش مع أبيها وكانت تتلقى بانتظام مائتي جنيه سنويا. وفي نوفمبر سعى إلى زيارتها فعلم باختفائها، وفي ١٢ ديسمبر ١٨١٦ كتبت جريدة التايمز Times تقريرا عن انتشال جثتها منذ يومين

من بحيرة سيربنتين Serpentine في الهايد بارك Hyde Park وأسرع شيلي بتوثيق زواجه من ماري (جعل ارتباطه بها شرعيا) في ٣٠ ديسمبر سنة ١٨١٦، رغبة منه في رعاية نسله من هاريت - الابنة يانث والابن شارلز، وظلت مطالبته بابنيه تسوّف في محكمة شانسري Chancery طوال ثلاثة أشهر. وقد أكدت له ماري أنها ستكون سعيدة باستقبال هذا «الكنز العزيز» ليكونا تحت رعايتها، لكن والد هاريت وأختها رفضا دعوى شيلي على أساس أنه ملحد وغير مؤمن بالزواج الشرعي (الزواج الموثق من الكنيسة) وأنه هجر زوجته وهرب مع امرأة غير متزوجة، فمثل هذا الرجل - على وفق رأيهما - غير جدير بتربية أطفال بطريقة سوية تجعلهم صالحين للعيش في إنجلترا، وحكمت المحكمة على شيلي في مارس سنة ١٨١٧ معترفة بالحجج التي ساقها والد هاريت بصرف النظر عن المسائل اللاهوتية (الدينية). وعلى أية حال فإن المحكمة زكت اختياره والدين لتنشئة طفليه ووافق هو على دفع مائة جنيه سنويا لإعاشتهما. وسهرت ماري لرعاية كلير كليرمونت التي كانت لاتزال في التاسعة عشرة من عمرها ووضعت مولودة في ١٢ يناير سنة ١٨١٧ سميت أخيرا أليجرا Allegra في الوقت الذي كان فيه شيلي يرفع دعوى قضائية في لندن. ولم تكن كلير قد تلقت ردودا على خطاباتها التي أرسلتها لبايرون منذ مغادرة سويسرا، وكانت الفكرة الراسخة لديها أن بايرون لن يعترف أبداً بالطفلة مما دفع الأم لليأس وطلب شيلي من بايرون تعليمات بشأن رعاية الطفلة مركزاً في خطابه على جمالها. ووافق بايرون على رعاية الطفلة وضمها إليه إذا أتت إليه. وتعقدت الأمور في سبتمبر سنة ١٨١٧ عندما وضعت ماري مولودها الثاني، وقد وضعتها أنثى وجرى تعميدها باسم كلارا إيفيرينا. وعانت الأم والمولودة فاتفقت الأسرة كلها على أن ما يحتاجونه هو دفء إيطاليا وسماؤها وفاكهتها. وفي ١١ مارس ١٨١٨ عبروا إلى فرنسا وبدؤوا رحلة طويلة في مركبات مال دي مير mal - de - mer إلى ميلان.

ومن ميلان أرسل شيلي إلى بايرون ليأتي لرؤية أليجرا. وخوفا من أن يؤدي هذا إلى تجديد العلاقة مع كلير، رفض بايرون القدوم، واقترح - بدلا من ذلك - أن تأتي المربية بالطفلة إلى فينيسيا، فإذا تم ذلك بشكل مرض أصبحت الأم حرة في زيارة الابنة (أليجرا)

بين الحين والآخر، فوافقت كلير على كره منها، ووجد بايرون الطفلة رائعة جميلة فأخذها إلى قصره لكنها خافت من حيواناته ومومساته حتى إن بايرون سرعان ما دفع للقنصل البريطاني – ريتشارد هوبنر – وزوجته ليأخذا الطفلة إلى بيتهما .

وعندما سمع شيلي وكلير بذلك (تركا ماري وأطفالها في Lucca) وذهبا إلى فينيسيا ووجدا أليجرا تعامل معاملة جيدة بشكل معقول . وقابل بايرون، شيلي بحرارة واصطحبه في جولة في ممرات البندقية المائية (جوندولاتها) إلى الليدو Lido ودعاه هو وأسرته وكلير وأليجرا للإقامة في فيلته ما طابت لهم الإقامة . وقدمت ماري من Lucca مع أطفالها لكن كلارا إيفيرينا مرضت في الطريق وماتت في البندقية (فينيسيا) في ٢٤ سبتمبر ١٨١٨ . وفي ٢٩ أكتوبر، بعد مرور شهر من الإقامة في فيلا بايرون (I Cappuccini) ودعوا أليجرا وقصدوا روما .

١١- شيلي: الذروة، ١٨١٩ – ١٨٢١

في الفترة من وصول شيلي إلى روما (١٨١٩) حتى ارتباطه ثانية ببايرون في بيزا، كانت قصائده هي الأحداث الكبرى في حياته . وهذا لا يمنع أنه قبل هذه الفترة كانت هناك ومضات شعرية فائقة الجودة متناثرة هنا وهناك في قصيدته الطويلة (الملكة ماب) وبعد ذلك في عمله Oz ymandias (١٨١٧) وهو سونتة (قصيدة من أربعة عشر بيتا) الفكر المحكم والقوة الهائلة « فالأبيات المكتوبة في التلال الإيجانية Euganean Hills » (١٨١٨) كان ينقصها مثل هذا التركيز في الفكر والحبكة في الشكل والصياغة، « والأبيات المكتوبة وهو في حال اكتئاب(*) Dejection بالقرب من نابلي » (١٨١٨) مغرقة في المرارة والتحسر على الذات إغراقا شديدا لا يدفع على المواساة (التعاطف مع كاتبها)، فالمرء لا يجب أن يحمل أحزانه وتظلماته في أكمامه . لكنه الآن بعد ثلاث سنين طلع علينا بروميثيوس المنطلق : (قصيدة إلى الريح الغربية) و(إلى طائر القبرة) و (السحاب) و (إبيسيكيدون Epipsychidion) وأدونيس Adonais . ونغفل هنا عمله (The Cenci) (١٨١٩) الذي

(*) كتب المؤلف الكلمة Dejection مبدوءة بحرف كبير D، ربما كان المقصود أن الشاعر ألف قصيدته وهو يتغوط .

حاول فيه – محققا بعض النجاح – أن ينافس جون وبستر وغيره من دراميي اليعاقبة في عصر إليزابث في قصصهم الدموية القاتمة التي تعج قتلا وغشياناً للمحارم.

وعلى وفق مقدمة المؤلف (لبروميثيوس المنطلق) فإنه كتبها في أعلى حمامات كاراكالا Caracalla في روما سنة ١٨٢٠.

وكان قد تحدى مؤلفي العصر الإليزابيثي بعمله (the Cenci) أما الآن فإنه يخاطر بقفزة أبعد بطموحه لتحدي الكتاب الإغريق. ففي (بروميثيوس المقيد) نجد «إيسخيلوس يظهر العارف سلفاً fore knower» كثائر. وتم تقييد تيتان Titan إلى صخرة في القوقاز ليوحي للبشرية كثيرا جدا من شجرة المعرفة. وفي البقايا المفقودة من هذه الثلاثية – على وفق المرويات – فإن زيوس فقد الآن قلبه وحرر بروميثيوس وفك قيوده كما حرره من الصقر الذي كان ينقر كبده باستمرار بناء على أوامر إلهية، ينقر كبد بطلنا كما ينقر الشك في صلب اليقين. وتصور (الدراما الغنائية Lyrical Drama) كما أسماها شيلي زيوس كبوربوني عجوز فظ مسؤول بقسوة عن تعاسة البشر وانقلاب حال الدنيا. لقد أطاح به بروموثيوس بكل حماسة خريج أكسفورد الفاهم المستوعب الذي يستدعي الأساقفة لحضور جنازة الرب (المقصود هنا جنازة زيوس). وهنا يظهر ندم تيتان على قسوة لعنته: «إنني لا أرغب في أن يعاني كائن حي من الآلام»[٨٩] لقد عاد يباشر مهمته التي اختارها – أن يجلب الحكمة والحب للبشرية. وهنا نجد روح الأرض Earth تهلل سعيدة هاتفة باسمه: «أنت أكثر من إله، فأنت حكيم ورحيم»[٩٠] خلال الفصل الأول نجد الحديث محتملا وقصائد الأرواح الحاضرة تدمدم بقوة جوهرية، متلألئة بكنايات واستعارات ومجازات حلوة وقصائد مقفاة متسقة – لكن الخطب – سواء كانت لاهوتية أم غير لاهوتية ليست هي روح الشعر ونوره، فبالخطب تصبح القصائد الغنائية كريهة، وبالخطب تفقد القصائد فتنتها وإغراءها عندما تهبط كالصخرة على القارئ بإسراف مربك. إن الجمال في هذه الحال يصبح مصدر إزعاج لا ينتهي! ففي كثير من شعر شيلي نجد عواطف متأججة دون سكون، وكلما تقدمنا في القراءة أحسسنا شيئا من الضعف في هذا الشعر وأحسسنا بكثير جدا من المشاعر إزاء أفعال درامية قليلة جدا، وكثير جدا من حالات القلوب ومجموعات الورود «تقول روح الأرض:

إنني كقطرة ندى تموت»[٩١]. إن أسلوبه الشعري يمكن أن يكون لائقا جدا بالقصيدة الغنائية لكنه بطيء بالنسبة إلى الدراما، «فكلمة الدراما تعني من بين ما تعني الفعل والحركة، وعلى هذا فعنوان عمله (الدراما الشعرية Lyrical Drama) ينطوي على تناقض (فالقصيدة تركز على المشاعر، والدراما تركز على الحركة مع عدم إغفال المشاعر) وعلى العكس من (الدراما الشعرية) نجد أن (قصيدة للريح الغربية Ode to the West Wind) تثيرنا لأن ما بها من أفكار ومشاعر قد تمّ تكثيفها في سبعين بيتاً. لقد ركز في قصيدته على فكرة واحدة، ولم ينشر المشاعر والعواطف على نحو ضحل، ولم يتخم قصيدته على ما فيها من ثراء القوافي والعبارات – إن الفكرة التي تتحلق حولها القصيدة هي أن الربيع آت بما يحمله من نماء رغم ما يعترينا من سخط نفقد الأمل فيه في أثناء الشتاء. لقد راح شيلي يستخدم المجاز الراقي على نحو متكرر. لقد كان هذا المجاز معيناً له عند التعبير عن عالم آماله وأحلامه الذي بدا حطاما أمام قسوة التجارب لكنه راح يأمل أن تبقى أفكاره وتنتشر من خلال «أشعاره / النص: تعاويذ أشعاره» كما تذرو الرياح الأوراق المتساقطة فتنشرها. وقد حدث هذا بالفعل. هذه القصيدة التي لامست ذروة الشعر راودت الشاعر فكرتها فكتب معظمها كما يقول لنا شيلي نفسه «في غابة تطوق الأرنو the Arno بالقرب من فلورنسا، في يوم كانت الريح فيه عاصفة... مما أدى إلى تجمع الضباب فخرت أمطار الخريف»[٩٢] لماذا غادر شيلي روما؟ إن هذا يرجع في جانب منه إلى أنه كان يريد أن ينفرد بنفسه لأنه لم يتحمل القرب من السياح البريطانيين الذين كان رأيهم فيه أنه زان ملحد لا شاعر كبير. كما أنه هو وماري قد أثر فيهما كثيرا موت ابنهما وليم (٧ يناير ١٨١٩) ولم يتجاوز الرابعة من عمره. ولم يستطع الأب ولا الأم أن يفيق من هول فقدان طفليهما في غضون تسعة أشهر. لقد ظهر الشعر الأشيب في حاجب شيلي رغم أنه لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره.

وبعد دفن وليم في المقبرة الإنجليزية في روما انتقلت الأسرة إلى ليفورنو Livorno – لوجوريا الأنجليكانية وعندما راح يتجول في حديقة هناك شعر بالألم –ربما كأي شاعر– لهروب الطيور طيراناً خوفاً من اقترابه –وقد فتن على نحو خاص بطائر من هذا السرب كان

يغني في أثناء تحليقه ، فلما عاد الشاعر إلى غرفته ألف قصيدته (إلى طائر القبرة) من شكلها الأول بتفاعيلها السداسية hexameters المتتابعة، وسرعة وقعها . وهذه المقاطع الشعرية المرحة كان كل بيت شعري فيها عامراً بالمشاعر الدافئة، والفكر الجاف، في آن واحد . وفي الثاني من شهر اكتوبر ١٨١٩ انتقل شيلي وأسرته إلى فلورنسا حيث وضعت ماري مولودها الثالث الذي سرعان ما أطلقوا عليها اسم بيرسي Percy . وفي فلورنسا وجدت كلير كليرمونت وظيفة معلمة خصوصية فأعفت - أخيرا - شيلي من رعايتها . وفي ٢٩ أكتوبر ١٨٢٠ نقل أسرته إلى فندق تري بالازي Tre Palazzi في بيزا حيث ربما يكون قد قام بأغرب مغامراته على الإطلاق . ورغم مرضه المتكرر فإنه لم يفقد حساسيته إزاء الجنس الآخر . وعندما وجد امرأة لم تكن فقط جميلة وإنما كانت تعسة، انجذب إلى جمالها وتعاستها . لقد كانت إيميليا فيفياني فتاة من أسرة راقية وضعوها على غير رغبتها في دير بالقرب من بيزا لضمان احتفاظها بعذريتها حتى يتم تدبير زوج ثري لها . وكان شيلي وماري - وأحيانا كلير يذهبون لرؤيتها وقد فتنوا جميعا بملامحها الكلاسية، ومسلكها المتواضع وبساطتها الواثقة، ورأى الشاعر فيها مثالاً للمرأة فأصبحت محور أحلام يقظته وكتب بعض هذه الأحلام في عمله (Epipsychidion) بعنوان (إلى روح فريدة) نشرها دون توقيع في سنة ١٨٢١ . ومن أبياتها المدهشة :

- لم أتصور أن أرى قبل مماتي

- مثل هذا الشباب المكتمل . أحبك

- يا إميلي ، رغم أن العالم سيواري هذا الحب بخجل لا قيمة له .

- آه ليتني وأنت توأمان في رحم أم واحدة

- أو تبادلنا قلبينا

- او نكون شعاعين في أبدية واحدة

- أو أن يكون أحدنا شرعا، والآخر حقيقة

- إنني ملك يديك

- إنني لا أملك نفسي ، فأنا قطعة منك !

ومن هذا الانجذاب الصوفي العاشق إلى انجذاب آخر:

- قرينة، أخت، ملك، دليل قدري

- دربك بلا نجوم (المقصود نورك يكفي)

- آه لقد تأخر حبك، فأنت سرعان ما صرت معبودتي.

- ففي حقول الخلود لابد أن تعبدك روحي، تعبدك أنت أول ما تعبد

- يا ذات الحضور القدسي..

من الواضح أن ابن الثمانية والعشرين عاما كان في حالة انجذاب ومثالية، فقوانيننا ومعنوياتنا (أخلاقنا) لا يمكن أن تنظم تماما غددنا (تحكم نزواتنا) وإذا كان امرؤ عبقريا أو شاعرا فلا بد أن يجد خلاصا أو راحة في عمل أو فن. وفي هذه الحال كان العلاج أو الخلاص عن طريق قصيدة تتأرجح بين اللامعقول والتفوق (الامتياز):

- سيأتي اليوم الذي ستطيرين فيه معي...

- فالسفينة في المرفأ الآن،

- والرياح تهب فوق حافة الجبل.. تهب ملوحة.

ليأخذهم إلى جزيرة في بحر إيجه الأزرق:

- انها جزيرة بين السماء والهواء والأرض والبحر

- جزيرة معلقه وسط السكون

- هذه الجزيرة وهذا البيت هما ملكي وإنني أعدك

- أن تكوني سيدة العزلة والانفراد.

وهناك ستكون هي حبه وسيكون هو حبها:

- ستختلط أنفاسنا، وسيتضام صدرانا

- وستخفق عروقنا معا وستلتقي شفاهنا ببلاغة أقوى من بلاغة الكلمات

- تلتقي لتطفئ لظى الروح التي تحترق بينها

- والينابيع الفوارة في عمق أعماق خلايانا

- إنني متلهف. إنني أغرق. إنني أهتز نشوة.

- لقد انتهيت![٩٣].

أيمكن أن تكون هذه هي «سهل شيلي»؟ مسكينة ماري، لقد تركها لطفلتها بيرسي وأحلامها فلم تلحظ هذا السيل العرم لفترة. وفي هذه الأثناء تبدد الحلم فتزوجت إيميليا وعدل شيلي عن خطيئته الشجية وراحت ماري تداوي أساها بفهم أمومي.

وعندما سمع بموت كيتس (مات في ٢٣ فبراير ١٨٢١) دفعه هذا للارتقاء بشعره، وربما لم يهتم كثيرا من أجل Endymion لكن «النقد القاسي»[٩٤] الذي حيت به الدورية ربع السنوية Quarterly Review جهود كيتس العظيمة، أغضبت شيلي كثيرا فاستلهم الموزية (إحدى إلاهات الشعر عند اليونان) لتلهمة ترنيمة جنائزية (قصيدة رثاء) مناسبة. وفي ١١ يونيو كتب لناشره في لندن: انتهيت من كتابة قصيدتي أدونيس Adonais وستسلمها حالا. قد لا يتقبلها العامة كثيرا لكنها ربما كانت أفضل أعمالي»[٩٥] وقد اختار شكلاً لهذه القصيدة الشكل الصعب الذي أخذ به الشاعر سبنسر والذي استخدمه مؤخرا جدا مع تحسين في نسق القوافي الشاعر بايرون في قصيدته (رحلة شايلد هارولد) وتعامل شيلي مع قصيدة الرثاء (النص: القداس المقام لراحة الميت) بكل عناية النحات الذي ينحت نصبا تذكاريا لصديق، لكن متطلبات الشكل الشعري الصارم (الوزن والقافية) أعطت لبعض الأبيات الشعرية طابعا مصطنعا[٩٦]. وقد بلغ عدد أبيات القصيدة خمسة وخمسين بيتا (مقطعا). وقد افترضت القصيدة بعجلة أن النقد (الظالم) قتل كيتس، ودعا الشاعر المتفجع أن تحل لعنة كاللعنة التي أصابت قابيل على من طعن هذا الصدر البريء لكن تشريح جثة كيتس أظهر أنه مات بمرض السل الحاد[٩٧]. ورحب شيلي في مقاطعه الشعرية الأخيرة في هذه القصيدة، بأن يموت، ففي الموت راحته لأنه سيلتقي بالميت الحي (المقصود كيتس):

-يبقى الواحد the One، ويتغير كثيرون ويمضون،

- فنور الله Heaven يشرق دائما، وظلال الأرض تطير،

- والحياة كقبة مزدانة بكثير من الزجاج الملون

- تلقي ظلالها على شعاع الأبدية الأبيض فتغير لونه
- حتى يسحقها الموت فيهشمها
- أيها الموت إن كان هذا ما تطلبه
- فلم تتوان ! لم تتراجع ! لم تحزن قلبي ؟
- آمالك ذهبت آنفا ونزعت من كل الأشياء هنا
- لقد غادرتنا (فارقتنا) ولا بد أن تفارق أنت الآن...
- إن أدونيس يناديك. آه ! أسرع إلينا
- لا تدع الحياة أكثر من هذا تفرّق ما يمكن أن يجمعه الموت..
- لقد حملت دكانة وخوفا وبعدا
- بينما روح أدونيس كالنجم
- تهدينا إلى طريق الخالد الباقي.. إلى طريق الله.

وكأنما كان كيتس يجيبه بأبياته الشعرية التي لا تنسى:

- الآن أكثر من أي وقت، يبدو شيئا نفيسا أن تموت،
- أن تتوقف أنفاسك في منتصف الليل بلا ألم،
- بينما أنت تدفع روحك خارجك
- في نشوة ما بعدها نشوة، وانجذاب يفوق الوصف(٩٨).

١٢- حب وثورة: بايرون ١٨١٨ - ١٨٢١

احتفظ شيلي بذكريات مختلفة عن بايرون في لقائهما الأخير - طباعه الرقيقة، ومناقشاته الصريحة، وكرمه - ورضاؤه الواضح عن علاقاته الجنسية غير الشرعية بالخليلات والمومسات. «فربما كانت النساء الإيطاليات اللائي كوّن معهن علاقات هن أحط النساء في العالم ... لقد كان بايرون متآلفاً مع هذا النوع المنحط من النساء اللائي كان مسيّرو جوندولاته (القوارب التي تسير في قنوات البندقية) يلتقطونهنّ له. وكان يسمح للآباء والأمهات بمساومته على بناتهم... لكن أعتقد أن شهرته كشاعر كبير ساعدته في

ذلك»[٩٩]. وكان بايرون واعيا بتخليه عن الأخلاق الإنجليزية والذوق الإنجليزي. لقد كانت الأعراف الإنجليزية تجرمه (تعتبره خارجا على العرف والقانون) وقد رفضها هو بدوره. بل انه قال لأحد أصدقائه في سنة ١٨١٩: «إنني مشمئز ومُتّعتُ من الحياة التي وصلت إليها في فينيسيا وسعيد بأن أدير ظهري لها»[١٠٠] وقد نجح بمساعدة تريزا جويشيولي Teresa Guiccioli وصبرها وإخلاصها.

لقد تقابلا للمرة الأولى عند قدومها من رافنا Ravenna إلى البندقية (فينيسيا) في أبريل سنة ١٨١٩ وكانت وقتها في التاسعة عشر من عمرها رقيقة الملامح وجميله وعابثة، تلقت تعليمها في دير، وكانت عاطفية دافئة القلب. وكان زوجها الكونت أليساندرو جويشيولي في الثامنة والخمسين قد تزوج مرتين قبلها وكان منشغلاً بأعماله غالبا. وقد جرى العرف تماما في الطبقة العليا الإيطالية على السماح للمرأة (الزوجة) في هذه الحال باتخاذ رفيق Cavaliere Servente – شخص مهذب في خدمتها يكون تحت إمرتها يثير إعجابها ويسليها ويحرسها وتكافئه بتقبيل يدها أو بما هو أكثر في السر والكتمان إذا كان الزوج مشغولاً أو متعبا. ولم يكن من خطر كبير على الزوجة والرفيق بل إن الزوج في بعض الأحيان كان يقدر مساعدة هذا الرفيق Cavaliere Servente، وربما تعمد أن يتغيب بعض الوقت ليتيح لهما إتمام المراد. وعلى هذا شعرت الكونتيسة بأن من حقها أن تنجذب إلى الوجه الإنجليزي الوسيم ومناقشاته المثيرة وشفتيه الجذابتين، أو على حد قولها في وقت لاحق: «إن ملامحه النبيلة الجميلة الرائعة، ونغمة صوته وطباعه وآلاف الأشياء الساحرة الفاتنة التي تحيط به – جعلته مختلفاً تماما عن كل من رأيتهم ومخلوقاً أسمى بكثير منهم، فكان من المستحيل ألا يفتنني وألا يترك تأثيرا عميقا في نفسي. فمنذ ذلك المساء كنت ألتقى به كل يوم خلال كل فترة إقامتي في البندقية»[١٠١] وانتهت أيام السعادة الطائشة هذه عندما أخذ الكونت زوجته تيريزا وعاد إلى رافنا Ravenna، فأرسل لها بايرون تعهدات بالبقاء على حبه، ففي ٢٢ أبريل سنة ١٨١٩ مثلا أرسل إليها يقول: «أؤكد لك أنك ستظلين حبي الأخير، فقبل أن أعرفك شعرت باهتمام بكثير من النسوة لكنني لم أرتبط بواحدة بعينها. أما الآن فأنا أحبك وليس في حياتي حب آخر لامرأة أخرى سواك» على وفق ما نعلم فقد حفظ عهده.

وفي الأول من يونيو غادر البندقية في عربته النابليونية الثقيلة (المقصود المشيدة على طراز عربة نابليون) متوجهـا إلى رافنا كسائح يبحث عن آثار دانتي Dante فرحبت به تيريزا، وكان زوجها الكونت لطيفا كيسا، وكتب بايرون إلى أحد أصدقائه: « إنهم يجعلون للحب هنا مساحـة كبيـرة من وقتـهم ولا يشـوهون سـمعـة شخص إلا قليـلا »[١٠٢] وسـمح له باصطحاب تيريزا إلى الميرا La Mira (إلى الجنوب من البندقية بسبعة أميال) حيث كانت له فيلا هناك، وهناك باشر معهـا الحب من كل موضع ولـم يعقه إصابتهـا بداء البواسير[١٠٣] وانضمت إليهما أليجرا Allegra في الفيلا فجعلت جو المجموعة محترما. ووصل توم مور واستلم الآن من بايرون مخطوطة كتابه (حياتي ومغامراتي) التي أحدثت كثيرا من الفتن والاضطرابات بعد موت المؤلف. ومن الميرا La Mira أصطحب بايرون، تيريزا إلى البندقية حيث عاشت معه في قصره Palazzo Mocenigo وأتى والدها ليردها إلى جادة الصواب فأخذها معه إلى رافنا ومنع بايرون من الذهاب معهـا. وعند وصولها إلى رافنا سقطت مريضة، وكان مرضها شديدا لا ادعاء فيه حتى إن زوجها الكونت أسرع باستدعاء عشيقها (بايرون) الذي وصل في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨١٩ وبعد أن قام ببعض الجولات استقر في الطابق الثالث في قصر الكونت مقابل دفع إيجار. وأحضر معه في مقره الجديد قطتين وستة كلاب وحيوان الغرير badger وصقرا وغرابا مدجنا وقردا وثعلباً. وفي خضم هذه الحياة التي انشغل فيها بأمور مختلفة كتب سطورا كثيرة. في مؤلفه (دون جوان) وبعض مسرحيات عن دوقات (دوجات) البندقية غير قابلة للتمثيل على المسرح (مسرحيات ذهنية) ودراما جيدة عن سردانا بالوس Sardanapalus وفي يوليو سنة ١٨١١ كتب (قابيل : سره Cain, A Mystery) ذلك العمل الذي به أصبح اسمه مكروها تماما، وموضع مقت شديد في إنجلترا.

المشهد الأول في هذا العمل يظهر آدم وحواء، وقابيل (قايين) وأخته التي هي زوجته في الوقت نفسه Adah، وهابيل وأخته التي هي زوجته في الوقت نفسه Zillah يستعدون للصلاة وتقديم الأضاحي لله (جيهوفاه أو ياهوفاه Jehovah) ووجه قابيل لوالديه بعض الأسئلة – وهي أسئلة تحير بايرون في مرحلة الدراسة: لم خلق الله الموت؟ إذا كانت حواء قد أكلت من شجرة المعرفة، فلم زرع الله هذه الشجرة المحرمة في مكان ظاهر بجنة عدن؟ ولم

كان طلب المعرفة خطيئة؟ ولماذا أصدر الله قراره بأن يعمل الجميع وأن يصبح الموت مصير الأحياء عقابا على وجبة بسيطة تناولتها حواء؟ وظهر الشيطان (Lucifer (Lightbearer واعتلى خشبة المسرح – كما عند ميلتون – وأعلن نفسه متباهيا واحداً من تلك:

– **الأرواح التي تجاسرت على النظر إلى وجه الطاغية** (يقصد الله سبحانه وتعالى)

– **الذي لا فناء له، ليقول له**

– **إن أفعاله الشريرة غير صالحة.**

وتعود Adah (زوجة قابيل) لتطلب من قابيل الانضمام إلى العمل مع أهله في الحقل، لأنه أهمل ما يخصه من العمل في هذا اليوم وأنها قامت بعمله بدلاً عنه، وهي تدعوه الآن لقضاء ساعة حب واستحمام. فوبّخها إبليس Lucifer بأن وصف لها الحب بأنه شرك أوطعم للإنجاب والتوالد وتنبأ لها بقرون من الكدح والنضال والمعاناة وبموت ينتظر الجموع التي ستنطلق للوجود من رحمها... وأعد قابيل وهابيل مكانا (مذبحاً) لتقديم الأضحيات، فضحى هابيل بأول قطيعه، وقدم قابيل فاكهة، لكنه بدلا من أن يصلي ويدعو راح يسأل ثانية لم سمح الله بالشر؟ ونزلت نار متألقة من السماء أحرقت حمل هابيل (دليل قبول أضحيته)، وأطاحت ريح غاضبة بأضحية قابيل فألقتها إلى التراب » فغضب وحاول تدمير مذبح (مكان تقديم الأضحية) هابيل فقاومه، فضربه قابيل فمات. ووبخ آدم حواء باعتبارها المصدر الأول للخطيئة فلعنت حواء قابيل لكن Adah (زوجة قابيل) دافعت عنه « لا تلعنيه يا أمي، فهو أخي وزوجي my betrothed» وأمر آدم قابيل أن يرحل عنهم وألا يعود، فلحقت Adah بقابيل وعوقبت بمثل عقابه، ولأن هابيل مات ولم يكن له ولد، فإن كل البشر (كما استنتج بايرون) من ذرية قابيل ويحملون طباعه في غرائزهم، تلك الطباع المتمثلة في العنف والقتل والحرب. ويبدو قابيل مرات عديدة وكأنه طالب ملحد لم يقرأ سفر الجامعة في العهد القديم Ecclesiastes، ومع هذا ترقى هذه الدراما في بعض الأحيان إلى مستوى قريب من كتابات ميلتون القوية. وقد امتدح والتر سكوت هذا العمل، وكان بايرون قد أهداه إليه (كتب اسمه في صفحة الإهداء) وقال جوته (تكتب أيضا جيتة) « لن نرى جمالا كجمال هذا العمل مرة ثانية في هذا العالم »[١٠٤] ولا شك أنه كان قد فقد منظوره الاولمبي للحظات

عندما قال هذا . أما في إنجلترا فقد أدى نشر هذا العمل إلى موجة من النقد الساخط والرعب . لقد اعتبره الإنجليز قابيل آخر بل اعتبروه قاتلا أسوأ منه – إنه يقتل العقيدة التي حمت آلاف الأجيال وساندتهم . وحذر الناشر مري اللورد بايرون من أنه يفقد بسرعة قراءه . والصورة التي رسمها بايرون لزوجة قابيل المخلصة Adah تقدم برهانا آخر على الجوانب العطوفة في شخصيته، لكن معاملته لأليجرا وأمها تظهر قسوته . فالطفلة التي كانت سعيدة يوما ما بلغت الآن الرابعة من عمرها، وكانت تعسة لبعدها عن والديها، فأرسل بايرون يستدعيها إلى رافنا وحتى عندما أتت لم يستطع إلا بالكاد أن يطلب منها العيش معه ومع مجموعة حيواناته في قصر الرجل الذي أصبح معروفا بسطوته غير المريحة، وبعد تفكير طويل وضعها في دير في باجنا سافالو Bagnacavallo التي تبعد عن رافنا باثني عشر ميلا (في أول مارس ١٨٢١) وهناك سيكون لها – كما افترض – صداقات فتبتعد عن طريقه وتتلقى قدراً من التعليم، ولم يزعجه أن تصبح كاثوليكية بل العكس فقد شعر أنها ستصبح في مأساة إن نشأت بلا دين في إيطاليا، فكل النساء فيها (إيطاليا) كاثوليكيات متمسكات بالكاثوليكية حتى في علاقاتهن غير الشرعية . والأهم من كل هذا فإذا كان لابد للمرء أن يكون مسيحيا فالأفضل أن يسير في الطريق إلى منتهاه فيؤمن بما آمن به الدعاة الأوائل للمسيحية (الرسل Apostles) ويؤمن بالقداس والقديسين (الأولياء) ويصبح كاثوليكيا . لقد كتب في ٣ أبريل سنة ١٨٢١ « إنني أرغب أن تصبح أليجرا من الأروام الكاثوليك فدينهم أفضل الأديان » (المقصود أفضل المذاهب المسيحية)[١٠٥] وعند ما أصبحت أليجرا مستعدة للزواج رأى أنها لن تجد صعوبة في الارتباط بالزوج المرتقب، وأنها سيخصص لها مبلغ ٤,٠٠٠ جنيه . وكان هذا ملائما لبايرون، ولكن عندما وصلت هذه الأخبار إلى كلير كليرمونت اعترضت وتأثرت عاطفيا على نحو مثير وطلبت من شيلي أن يعمل على إعادة أليجرا إليها فذهب شيلي إلى رافنا ليرى أحوال أليجرا فاستقبله بايرون في ٦ أغسطس ١٨٢١ بترحاب فكتب شيلي لزوجته « إن اللورد بيرون في أطيب حال وابتهج لرؤياي وقد استعاد صحته تماما ويعيش حياة غير الحياة التي كان يعيشها في البندقية (فينيسيا)[١٠٦] » . وقد أخبره بايرون أن الظروف السياسية سرعان ما ستجبره للانتقال إلى

فلورنسا أو بيزا، وسيأخذ أليجرا معه وستكون - بذلك - قريبة من أمها، ورضي شيلي بذلك، وصرف اهتمامه إلى شيء سيصبح حالا أكثر تأثيرا بالنسبة إليه.

لقد أصابه الرعب (أي شيلي) عندما علم أن المربية إليز Elise - مربية أليجرا - التي كان قد طردها من خدمته في سنة ١٨٢١) قد أخبرت الـ Hoppners أنه كان على علاقة جنسية سرية بأم أليجرا حتى إن كلير قد وضعت له طفلا في فلورنسا وضعه فورا في ملجأ للّقطاء، وأكثر من هذا أن شيلي وكلير كانا يعاملان ماري بطريقة تدعو للخجل ووصل الأمر إلى حد أنه كان يضربها. فكتب الشاعر الذي اعترته الدهشة إلى ماري (في أغسطس) طالبا منها أن تكتب للـ Hoppners مكذبة هذه الأقاويل، فقبلت ماري لكنها أرسلت خطابها إلى شيلي ليوافق على ما ورد به، فأظهره لبايرون وعول عليه في تسليم هذا الخطاب للـ Hoppners واستاء شيلي إذ وجد أن بايرون كان يعلم بهذه الإشاعات وكان - فيما هو واضح - يصدقها. وبدأت الصداقة الشهيرة بينهما تبرد وزاد برودها عندما انتقل بايرون من رافنا إلى بيزا تاركاً أليجرا في ديرها.

هذا التغير كان نتيجة تفاعل الحب والثورة في إهاب واحد. ففي يوليو سنة ١٨٢٠ استصدر والد تيريزا - الكونت رجيرو جامبا Ruggero Gamba من الإدارة البابوية أمراً بابويا (فتوى) بانفصالها عن زوجها مع حصولها على نفقة منه شريطة أن تعيش مع والديها. فانتقلت إلى بيت والديها بناء على هذا، وكان بايرون لايزال يعيش في قصر جويشيولى Guriccioli فأصبح يزور أسرة جامبا Gamba بشكل متتابع، وابتهج لأنه وجد جامبا وابنه بيترو كانا زعيمين في حركة الكاربونارى Carbonari وهي تنظيم سري يعمل على الإطاحة بالحكم النمساوي في شمال إيطاليا والحكم الباباوي في وسطها وحكم البوربون في نابلي لمملكة الصقليتين (جنوب إيطاليا وجزيرة صقلية) وكان بايرون في (نبوءة دانتي) الصادرة سنة ١٨١٩ قد دعا الشعب الإيطالي أن يهب للتحرر من حكم الهبسبرج والبوربون. وفي سنة ١٨٢٠ شكك الجواسيس النمساويين في أنه يدفع أموالا لشراء أسلحة للكاربوناري، ووضعت ملصقات ملكية في رافنا مطالبة بإعدامه[١٠٧]. وفي ٢٤ فبراير سنة ١٨٢١ فشلت حركة العصيان المسلح التي قام بها الكاربوناري وهرب قادتها

من المناطق الإيطالية الخاضعة للبوربون. وذهب الكونت جامبا وابنه إلى بيزا وسرعان ماالحقت بهما تيريزا بناء على نصيحة بايرون، وفي الأول من نوفمبر سنة ١٨٢١ وصل بايرون إلى بيزا واستقر في الكازا لا نفرانشي the Casa Lanfranchi في الأرنو the Arno حيث كان شيلي قد استأجر بالفعل غرفا لاستقباله. والآن سيأتي المحك الأخير لصداقتهما.

١٢ ـ التباين

لقد كان كل من الشاعرين قد وصل الآن إلى ذروة تطوره. لقد كان على الأكبر سنا منهما أن ينظم بعض القصائد في عمله (دون جوان) التي اشتملت على عداء مرير لإنجلترا، عداء لم يكن حتى الغاليون (الفرنسيون) يستسيغونه. وكان علمه The vision of Judgment (اكتوبر ١٨٢١) يمثل هجاء لا يرحم لكن سبق سوثي (صثي Southey) بعمله A vision of Judgment (أبريل ١٨٢١) قد حرض على الثأر منه (من بايرون) بإطلاق زعيم المدرسة الشيطانية في الشعر الإنجليزي عليه (على بايرون) وقد هوى عليه بايرون بنقده الماهر الساخر. وفي مؤلفاته الأخيرة هذه ابتعد بايرون عن روح (شايلد هارولد) الرومانسية والانقباض والمرارة، ليتخذ موقفاً أكثر كلاسية متجها نحو العقل والمنطق وروح الفكاهة، وإن كان لايزال ينقصه الاعتدال. وتظهر خطاباته – خاصة تلك التي أرسلها إلى الناشر مري – نضجاً أكثر لأنها تحتوي على نقد ساخر ينطوي على نقد ذاتي وتفحص لأعماله كما لو أنه اكتشف أن التواضع يفتح الباب للحكمة. لقد كان متواضعا فيما يتعلق بشعره «إنني أضع الشعر أو الشعراء في مرتبة فكرية سامية. وقد يبدو هذا انحيازا لكنه رأيي الحقيقي... إنني أفضل المواهب العملية – مواهب الحرب في مجلس الشيوخ أو حتى في مجال العلم – فتلك أفضل من تأملات الحالمين الذين لا يملكون إلا الحلم[١٠٨]». وقد امتدح شيلي إنساناً لكنه فكر كثيرا في شعره كفانتازيا طفولية Childish fantasy. وكان تواقا لتقييمه كإنسان أكثر من تقويمة شاعراً، وكان واعيا – بشكل مؤلم – بمظهره، وكان يفضل الركوب على المشي لأن إصابة قدمه اليمنى كانت تصرف النظر عن وجهه الوسيم، وكان موقفه من الطعام متذبذبا متغيراً فطورا يفرط في الطعام وطورا يقوم بحمية، ففي سنة

١٨٠٨ كان وزنه ١٩٤ رطلا (وطوله خمس أقدام وثماني بوصات ونصف البوصة)، وفي سنة ١٨١٢ تدنى وزنه ليصبح ١٢٧رطلا وفي سنة ١٨١٨ أصبح سمينا وبلغ وزنه ٢٠٢رطلا. وكان فخورا بإنجازاته الجنسية وكان يرسل تقارير إحصائية بعدد هذه الإنجازات لأصدقائه. وكان عاطفيا وغالبا ما يفلت زمام مشاعره منه. وكان متألقا من الناحية العقلية لكنه لم يكن مستقرا. قال جوته (جيته) «في لحظة من اللحظات يصبح بايرون طفلا[١٠٩]».

أما من الناحية الدينية فقد بدأ كلفنياً (من أتباع مذهب كلفن البروتستنتي) ففي عمله [شايلد هارولد] تحدث عن البابلوية كبرتستنطي متحمس باعتبارها (زانية بابلية)[١١٠] وفي سني العشرين قرأ الفلسفة فأحب سبينوزا وفضل عليه هيوم وأعلن «أنا لا أنكر شيئا لكنني أتشكك في كل شيء»[١١١] وفي سنة ١٨١١ كتب إليه صديق من مذهب مسيحي يقال له مذهب المهتدين: «أنا لا أدري ماذا أفعل بالخلود الذي تقول عنه». وبعد ذلك بعشر سنوات كتب: «أعتقد أنني لا أشك كثيرا في خلود الروح[١١٢]» وفي إيطاليا تأثر بمن حوله وما حوله وبدأ يفكر في الكاثوليكية، وعندما حضر صلاة التجسد (أو صلاة التبشير) تطلع إلى حالة السلام (الصفاء) التي بدت للحظات تخيم على حياة أهل إيطاليا جميعا، وكتب «طالما تمنيت أن أكون قد ولدت كاثوليكيا[١١٣]» وفي أواخر حياته (١٨٢٣) راح يتحدث - كما كان يتحدث في صباه - عن الله، وعن القضاء والقدر وكون الإنسان لا يملك من أمره شيئا[١١٤]. وعندما كان في مرحلة المراهقة فقد عقيدته الدينية ولم يجد قيما ومعنويات يرتمي في أحضانها في أدب أو فلسفة وبالتالي لم يجد وازعا يقاوم حواسه وعواطفه ورغباته، وكان عقله المتحرر وفكره المتقلب يجدان أسبابا حافزة للاستسلام لرغباته ولم تتكشف له فحوى حكمة القيود التي فرضها المجتمع. ومن الظاهر أنه كبح ميوله للشذوذ الجنسي وعوضّ منها بالصداقات الحميمة المخلصة بل لقد استسلم لمفاتن أخته، وفي ديوانه (شايلد هارولد) يخبرنا بجسارة عن حبه:

- لواحدة ذات صدر ناهد

- ارتبط صدره بصدرها برباط أقوى

– من الارتباط بالكنيسة (أو أقوى من رباط تعقده الكنيسة)[١١٥]

وعندما أدانه المجتمع الإنجليزي لإطلاقه العنان لشهواته أو لفشله في إخفائها، أعلن الحرب على « النفاق الإنجليزي » أو بعبارة أخرى تظاهر الإنجليز بالفضيلة، وراح يهجو الطبقات العليا المكونة من قبيلتين قويتين(*) » وأدان استغلال أصحاب المصانع للعمال، بل ودعا أحيانا للثورة:

– «يحمي الله الملك» والملوك

– لأنه إن لم يفعل، أشك أن يستمر البشر !

– أظن أنني أسمع طائرا صغيرا يغني قائلا:

– سيغدو الشعب – عما قريب – أقوى..

– وكذا سواد الناس

– الكل أخيرا سيتخلى عن العمل الزائف..

– سأقول سعيدا: ياللتعاسة !

– إذا لم أدرك هذه الثورة

– فيمكنني وحدي أن أنقذ العالم من دنس جهنم[١١٦].

وعلى أية حال فإنه لم يكن ميالاً للديموقراطية فلم يكن يثق في الجماهير وكان يخشى أن تؤدي الثورة إلى دكتاتورية أسوأ من دكتاتورية الملك أو البرلمان. وكان يرى بعض المزايا في حكم الأرستقراطيين بالمولد ويتطلع إلى أرستقراطية نظيفة عاقلة مدربة تتسم بالكفاءة. فلم ينس أنه هو نفسه لورد فسرعان ما عارض رفع الكلفة والمساواة فقد كان يعرف أن وجود مسافة أو حدود في العلاقات الاجتماعية يُضفى سحراً عليها. وتغيرت نظرته لنابليون مع مرور الأحداث مادام نابليون قد توج نفسه إمبراطورا وسلّح نفسه بالألقاب فقد رآه بايرون خير صيغة وسطية بين الملوك والجماهير. لقد كان بايرون يدعو أن ينتصر نابليون على كل ملوك أوربا حتى عندما كان نابليون يغزو إسبانيا وروسيا دون مبرر واضح، وقد وبخ

(*) هما «the Bores & Bored».

الإمبراطور المهزوم (نابليون) لتنازله عن العرش بدلاً من أن ينتحر لكن عندما عاد نابليون من إلبا Elba عاد الشاعر (بايرون) يدعو له بالنصر ثانية على كل أعدائه المتحالفين ضده . وبعد ست سنوات عندما سمع بموت نابليون حزن حزنا شديدا «لقد كانت الإطاحة به سهما أصاب رأسي فمنذ مات أصبحنا عبيداً للأغبياء[١١٧]» .

لقد كان بايرون خليطا مربكا من الأخطاء والفضائل، ففي حال غضبه يصبح فظا قاسيا، وفي أحواله العادية نجده ودودا متحفظا كريما . لقد كان يعطي أصدقاءه بكرم غير محسوب، فقد نقل إلى روبرت دالاس حق نشر (حق المؤلف في النشر) وكان هذا الحق يساوي ألف جنيه، ودفع ألف أخرى لفرانسيس هودجسون فأنقذه بذلك من الإفلاس، ووصفته تيريزا جويشيولي التي كانت تراه تقريبا كل يوم بأنه ملك (بفتح اللام) حقيقي[١١٨] . لقد كان - أكثر من كولردج بكثير - « كبير ملائكة محطم » يحمل في جسمه ميراثا من الصدوع، وضحها وكان خلاصه منها بالجرأة وكتابة الشعر بوفرة وقوة الفكر الثوري مما دفع جوته العجوز إلى وصفه بأنه « أعظم عبقرية أدبية في قرننا » .

وبالمقارنة فقد كان شيلي « ملكا (بفتح اللام) غير مؤثر » ذا طابع تاريخي، لكننا لانستطيع أن نقول إنه غير مؤثر تماما فمن هو القائل إن أوراق الشجر ستتبعثر عند تجسد أشعاره . لم يضع بعض البذور لتنمو في جو التسامح الديني وتحرر المرأة وانتصار العلم وقيام التكنولوجيا وتألق الفلسفة وامتداد الحقوق الدستورية وإصلاح البرلمان مما جعل القرن التاسع عشر « قرنا مدهشا»؟[١١٩]

وكان شيلي ملكا (بفتح اللام) بشريا تماما، فقد كان له جسد استسلم لطلباته على الأقل من خلال إغوائه زوجتين على الهروب معه، دعنا من الحديث عن إيميليا فيفاني . لقد كان نحيلا معتل الجسد، يعاني ألما دائما في ظهره . وكان بطبيعة الحال مفرط الحساسية - ربما أكثر من بايرون - للمثيرات الداخلية والخارجية فلنتذكر خطابه المؤرخ في ١٦ يناير ١٨٢١ لكلير كليرمونت : « أنت تسألينني أين أجد المتعة؟ إن الريح والنور والهواء ورائحة الورد تؤثر في وتثير عواطفي[١٢٠] » وكان مثلنا جميعا معجباً بنفسه على نحو خاص . لقد اعترف لجودون (٢٨ يناير ١٨١٢) « يبدو أن إفراطي في الأنا لاينضب له معين[١٢١] »

وعندما أخذ ماري جودون، وطلب من زوجتة هاريت أن تصبح علاقته بها مجرد علاقة الأخ بأخته، فإنه كان يبحث عن إرضاء شهواته مثله في ذلك مثل أي كائن معرض للموت، وبرر الأمر لنفسه بأن هاريت أقل من ماري اتفاقا معه في فلسفته وأفكاره. وكان له رأي متواضع في شعره (لم يكن شاعراً مغرورا) إذ كان يصنف أشعاره في رتبة أدنى من أشعار بايرون. وكان مخلصاً متحفظا في صداقته إلى النهاية. لقد كتب بايرون مخبرا الناشر مري بوفاة شيلي «لقد كنتم جميعا قساة ومخطئين في حق شيلي، فقد كان - بلا استثناء - أقل من عرفت أنانية أو بعبارة أخرى أفضل الأنانيين الذين عرفتهم. إنني لم أعرفه بهيمة ترتدي ثياب البشر مقارنة بالآخرين[١٢٢]» وذكرهوج Hogg الشاعر بأنه غريب الأطوار ينسى واجباته ووعوده، يستغرق في التأمل والتفكير فينسي الزمان والمكان[١٢٣]». وهو بشكل عام غير عملي لكن ليس من السهل خداعه في أمور المال، ولم يتخل عن حقوقه الموروثه قبل نضال شديد.

وكان متوتر الأعصاب شديد الاستثارة مما يحول بينه وبين أن يكون مفكراً هادئا، وكانت تنقصه روح الفكاهة عند مناقشة أفكاره، وكان مغرماً دوماً بالخيال، فكان يهرب من الواقع إلى أحلام اليقظة. لقد اقترح أن نتخلص من الملوك والمحامين ورجال الدين، وأن نتحول إلى الحياة النباتية - مكتفين بتناول النباتات ممتنعين عن تناول اللحوم، كما كان يدعو لتخليص العلاقات الجنسية للبشر من كل القيود. إنه يرى أن كل هذه الأمور والقيود طارئة ليس لها أساس في طبيعة الإنسان ولا في ماضيه البيولوجي. لقد قالت أرملته المخلصة «كان شيلي يعتقد أن البشر لا يجب أن يتطلعوا إلا للقضاء على الشر... لقد احتفى بهذا الرأي احتفاء بالغا[١٢٤]». وكاد يهمل التاريخ إلا أنه كان يرى الإغريق مثاليين ولكنه كان يجهل أن الأغريق مارسوا الاسترقاق

ونحن نميل إلى المبالغة في بساطة شيلي لأننا ننسى أن الموت عاجله فلم يتركه يعيش حتى مرحلة النضج - لقد عرفنا بايرون وشيلي وهما لما يصلا بعد إلى مرحلة النضج فوصلا إلى قلوبنا كشاعرين رومانسيين كانا مفيدين جدا للحركة الرومانسية في إنجلترا، أما لو أنهما عاشا حتى الستين لكان من المحتمل أن يكونا مواطنين محافظين، وفي هذه الحال ربما

كانت مكانتهما في التاريخ أكثر تواضعا، لكن موتهما المبكر جعلهما علمين في عالم الرومانسية.

إلا أن شيلي كان حقيقة قد أصبح بالفعل وهو في الثامنة والعشرين معتدلا، ففي سنة ١٨٢٠ كتب مقالاً جوهريا بعنوان «نظرة فلسفية للاصلاح» نشره بعد كتابته بعام، أعلن فيه أن «الشعراء الفلاسفة هم مشرعو العالم غير المعترف بهم[١٢٥]». الشعراء لأنهم صوت الخيال يأتون بأفكار جديدة تدحض كثيرا من السخافات السائدة، وهذه الأفكار الجديدة تثير في وقت من الأوقات الناس وتحفزهم إلى التجربة والتقدم. والفلاسفة لأنهم يخضعون القضايا الاجتماعية للفكر العقلي الهادئ، وينظرون إليها بمنظور السنين. وكان شيلي – مثله في ذلك مثل بايرون والإنسانيين – ساخطا لأحوال العمال في مصانع إنجلترا، كما كان مستاء من «البرود» الذي تعامل به مالتوس في كتاباته مع مشكلة السكان وطريقة ضبطها بينما (أي مالتوس) ترك الأجور ليحكمها قانون العرض والطلب[١٢٦]. وأدان البروتستنطية والكاثوليكية معا لفشلهما في إضفاء روح المسيح على العلاقة بين الأغنياء والفقراء[١٢٧]. واقترح فرض ضريبة على الأثرياء لسداد الدين الوطني الذي تتطلب فوائده السنوية الباهظة فرض ضرائب ثقيلة على العامة[١٢٨]. وأشار إلى أن زيادة السكان فيما بين ١٦٨٩ و ١٨١٩ قد أخل بالتناسب بين المصوتين Voters وغير المصوتين مما جعل انتخاب أعضاء البرلمان قاصرا على أقلية صغيرة، وهذا يعني من الناحية العملية حرمان الشعب من حق الاقتراع[١٢٩]. وقد غفر لأرستقراطية ملاك الأراضي لأنها تجذرت بمرور الزمن وأصبحت راسخة من الناحية القانونية (ربما بالنظر إلى مستقبل آل شيلي) وكان يبارك انتقال الثروة بطرق معتدلة، لكنه كان يحتقر البلوتوقراسية (حكم طبقة الأثرياء) ممثلة في التجار وأصحاب المصانع والماليين[١٣٠]. وامتعض من آراء مكيافيلي التي تعفي الحكومة من الالتزام بالأخلاق: «فالسياسات في الواقع هي أخلاق الأمم[١٣١]» ودافع عن الثورة الفرنسية وامتدح حكومة نابليون القنصلية وتبرأ من نابليون عندما توج نفسه إمبراطورا وحزن لهزيمة فرنسا في واترلو[١٣٢].

ولم يجد كتاب شيلي (دفاع عن الشعر) الذي كتبه سنة ١٨٢١ ناشرا حتى سنة

١٨٤٠ . وهنا وجدنا الشاعر « الذي نفى نفسه » الآن يسقط الفلاسفة، ويعلي من شأن الشعراء باعتبارهم « مشرعي العالم الأكثرين رقيا[١٣٣] . ولقد عبر عن رأيه هذا الذي اطمأن إليه في مقدمة (بروميثيوس المنطلق) : « كتاب عصرنا العظماء هم الذين يواكبون (أويسبقون إلى) بعض التغيرات التي لا يمكن تصورها في نظامنا الاجتماعي أو في الأفكار والآراء المرتبطة به . إن لدينا أسبابا معقولة لقولنا هذا . فسحابة العقل تفرغ ضياءها المتجمع . والتوازن بين المؤسسات institutions والآراء » . يعود الآن أو لنقل إنه على وشك العودة[١٣٤] » . لكنه عاد الآن ليضيف : « سيكون عصرنا عصراً خالدا بسبب إنجازاته الفكرية، فنحن نعيش وسط فلاسفة على شاكلة كانط وفيتشة وهيجل وشلنج وجودون وشعراء من أمثال جوته (جتية) وشيلر، ووردزورث، وكولردج وبايرون وشيلي فاقوا كل من تقدموامنذ النضال الوطني الأخير للمطالبة بالحريات المدنية والتحرر الديني » . (١٦٤٢)[*][١٣٥] .

وعلى النقيض من ذلك وجدنا شيلي يقلل من شأن دور العلم في إعادة تشكيل الأفكار والمؤسسات، وكان العلم قد بدأ بالفعل في تحقيق دوره في هذا المجال . لقد حذر من ترك التقدم العلمي يسبق التطور الأدبي والفلسفي – فالعلم ليس أكثر من أداة لتحسين أدواتنا tools بينما التطور الأدبي والفلسفة هو غايتنا[١٣٦] . وإلا زاد ثراء الأقلية الماهرة وأدى ذلك إلى زيادة تركز الثروة والسلطة[١٣٧] .

لقد انتقل استياء شيلي من أمور حميه المالية إلى فلسفة جودون . وقد استكشف شيلي كتابات أفلاطون من جديد (كان قد ترجم جانبا من حواراته) وانتقل من الاتجاه الطبيعي إلى التفسير الروحي للطبيعة والحياة . إنه الآن يشك في هيمنة العقل وقدرته المطلقة وفقد حماسه للإلحاد . وكلما اقترب من سن الثلاثين . وجدناه يتوقف عن مهاجمة الأمور الغيبية في الدين . إنه الآن يفكر في أن الطبيعة هي الشكل الخارجي أو الظاهري لروح (جوهر) داخلي، وتفكيره على هذا النحو يشبه كثيرا تفكير وردزورث الشاب (في هذه النقطة) . ولابد أن يكون هناك نوع من الخلود فالقوة الحيوية (الروح) في الفرد تنتقل بعد موته إلى

(*) كذا بالنص ولعلها ١٨٤٢ .

شكل أو كيان آخر لكنها لاتموت[١٣٨] ».

١٤- نشيد بيزا: ١٨٢١ - ١٨٢٢

عندما وصل بايرون إلى بيزا كان قد تجاوز تاريخه الجنسي بالكاد منذ فترة، فيما عدا ذكرياته المثالية كما في أبياته العرضية (التي أدرجها بين نشيدين) في (دون جوان). وفي بيزا كانت تيريزا جويشيولي تعيش مع بايرون لكن المودة بينهما كانت قد قلت. كان يقضي معظم وقته مع أصدقائه وأصدقاء شيلي وكان يرتب لهم وجبة غداء أسبوعيا، وكانت المناقشات تجري حرة في هذه الأثناء، وكان شيلي يحضر ويجلس مهذبا لكنه كان حاسماً في سوق حججه، وكان ينسحب قبل أن يبدأ تناول الخمور شديدة التأثير. وحاولت تيريزا أن تعطي لحياتها الهادئة روحا بصداقتها لماري شيلر، وبقراءة التاريخ لتجاري ماري في اهتماماتها. ولم يكن بايرون موافقا على دراسة تيريزا للتاريخ مفضلاً أن تكون المرأة جذابة وفاتنة وأن تكون عقلها تابعها لهذه الجاذبية وتلك الفتنة أو بتعبير آخر أن يكون عقلها في المحل الثاني. وكان ينسى أليجا. ودبرت أمها مع ماري شيلي الذهاب إلى فلورنسا ليدبر ثلاثتهم خطة للذهاب إلى رافنا لإبعاد الفتاة وإحضارها لتعيش في مناخ أفضل للصحة، ولتعيش حياة أرحب. ورفض شيلي السماح بهذا، وأتت بعد ذلك أخبار مفادها أنه في ٢٠ أبريل سنة ١٨٢٢ ماتت في الدير بالملاريا وهي في الخامسة من عمرها. وكان لهذا الخبر أثره في فتور العلاقة بين شيلي وبايرون. وفي بواكير هذا الربيع كتب إلى لاي هنت Leig Hunt : « ثمة ميول خاصة في شخصية اللورد بايرون تحول دون الاقتراب منه والتودد معه ، وهو ما وجدت نفسي أعاني منه .. فهو أمر لا يحتمل . يا صديقي العزيز هذا ما أعترف به وأفضي به إليك ، ثقة مني فيك »[١٣٩] .

لقد حاول أن يخفي استياءه لأنه كان قد حث بايرون على دعوة هنت إلى بيزا لتحرير مجلة جديدة (الليبرالى- Liberal) التي خطط بايرون وشيلي أن يبدآ بها كشعبة أو فرع من المستخلص ربع السنوي Quarterly المحافظة. وأرسل بايرون إلى هنت المفلس ٢٥٠ جنيها فأبحر مع أسرته من لندن آملا أن يصل جنوة في أول يوليو سنة ١٨٢٢ ووعد شيلي بلقائه هناك.

ومن الناحية الظاهرية كانت الشهور الستة الأولى من هذا العام الحاسم فترة سعيدة

للشاعرين. فقد كانا يذهبان راكبين كل يوم تقريبا إلى نادي الرماية ليجربا براعتهما في إصابة الهدف. وكاد شيلي يضارع بايرون في هذا المجال. لقد كتب إلى بيكوك «إن صحتي تحسنت، ومشاغلي قلت، ورغم أن شيئا لن يعالج مشكلة تضاؤل أموالي فإن جيوبي تبدو كجيوب الأثرياء دائما خاوية، لكن أموالهم لاتنفد تماما[١٤٠]» وفي يناير توفيت زوجة والد بايرون فتركته (رغم انفصاله عن زوجه) وقد أضافت إلى دخله السنوي ثلاثة آلاف جنيه، فأمر - سعيدا - ببناء يخت مناسب في جنوة وعين جون تريلاوني قائداً له وأطلق على يخته هذا اسم بوليفار احتفاء بثائر أمريكا الجنوبية ودعا شيلي وصديقيه الجديدين إدوارد ويليمز وتوماس مِدْوِن للانضمام إليه مع آل جامبا في رحلة باليخت في الصيف القادم. وشارك شيلي وويليمز بقارب أصغر طوله ٤٨ قدما وأقصى عرض له ثماني أقدام وكانت تكلفته ثمانين جنيها وأطلق عليه تريلاوني اسم (دون جوان) إلا أن ماري غيرت اسمه إلى (إريل Ariel)[١٤١].

وفي انتظار حلول الصيف للقيام بالرحلة، أقام بايرون في هذه الأثناء بفيلا دوبوي Dupuy بالقرب من يجورن (جنوة) واستأجر شيلي وويليامز لأسرتيهما الكازا ماجني Casa Magni بالقرب من ليريسي Lerice على ساحل خليج سبتسيا (سبيزيا Spezia) إلى شمال جنوه بأربعين ميلاً. وفي ٢٦ أبريل ١٨٢٢ انتقل شيلي وويليامز إلى المقر الجديد (الكازا ماجني) وراحا ينتظران تسلم القارب (الجديد).

١٥- تضحية: شيلي، ١٨٢٢

شيء من نزوات الشعراء هو الذي أملى اختيار هذا المكان الموحش لقضاء إجازة فيه. لقد كان الكازا ماجني Casa Magni واسعا جدا بالنسبة إلى أسرتين كما أنه لم يكن مؤثثا، وكان قديما يقترب منَ الانهيار. وكانت الغابة تحيطه من ثلاث جهات، أما واجهته فكانت تطل على البحر الذي كان يقذف بأمواجه أحيانا إلى أبوابه. وقد راحت ماري شيلي تتذكر فيما بعد قائلة: «لقد احتفت بنا الرياح الهوجاء والعواصف عند وصولنا، وكان أهل المنطقة أكثر وحشة من المكان. وبمجرد أن ارتطمت سفينتنا بجزيرة البحار السبعة حتى كدنا نشعر

أننا أبعد ما نكون عن الراحة والحضارة[١٤٢]».

وفي ١٢ مايو وصل القارب أريل Ariel من جنوه، فابتهج ويليامز الذي سبق له العمل في البحرية، وابتهج شيلي الذي لم يكن يجيد السباحة، وراحا يقضيان كثيرا من الفترات بعد الظهيرة أو في الماء وهما يبحران على طول الساحل. وقلما كان شيلي في أي وقت مضى سعيدا بمثل هذه السعادة الفائقة. وكانت النسوة أحيانا ينضممن إليهما في نزهاتهما هذه، لكن ماري أصبحت حاملاً مرة أخرى وكان المرض يعاودها ولم تكن سعيدة لأن زوجها لم يتركها تقرأ خطابات أبيها الحزينة[١٤٣]».

وقد كتب شيلي في المنزل أو القارب قصيدته الأخيرة «انتصار الحياة» التي توقف فيها عند البيت رقم ٥٤٤ بسبب رحلته الأخيرة. ولم يكن هناك انتصار في هذه الرحلة لأنها تصف مواكب الأجناس البشرية المختلفة في طريقها للفشل والانحطاط مسرعة إلى الموت. وفي البيت رقم ٨٢ نجد تأثير روسو، فالشاعر هنا يتعرض لغباء الحضارة، فهو يظهر مشاهير التاريخ -- أفلاطون وقيصر وقسطنطين وفولتير ونابليون -- وقد وقعوا في أحابيل الاندفاع المجنون نفسه نحو الثروة والسلطة، ويوصي بالعودة إلى الحياة الطبيعية البسيطة، ولا يجد خلاصا للبشر إلا بذلك.

لم يكن شيلي قد بلغ الثلاثين بعدما فكر في الانتحار في ١٨ يونيو سنة ١٨٢٢. لقد كتب إلى تريلاوني:

«أيمكنك أن تقابل أي عالم يستطيع أن يحضر حامض البروسيك أو خلاصة زيت اللوز المر.. سأعتبر ذلك فضلاً كبيرا إن أنت وفرت لي قدرا قليلا من هاتين المادتين.... إنني سأدفع أي مبلغ مطلوب مقابل هذا الدواء.. لست في حاجة لأن أخبرك أنني لا أنوي الانتحار في الوقت الحاضر لكنني أعترف لك أنني سأكون مرتاحا إذا ما امتلكت المفتاح الذهبي لغرفة أرتاح فيها راحة أبدية[١٤٤]».

وربما رغبة منه (شيلي) في مساعدة زوجته المريضة -- دعا كلير كليرمونت أن تأتي من فلورنسا لقضاء الصيف في الكازاماجني، وبالفعل أتت في أوائل شهر يونيو وكان هذا وقتا مناسبا لمساعدة ماري في عملية الإجهاض المهلكة. وفي ٢٢ يونيو كان شيلي على وشك

الانهيار العصبي وكان يعاني كوابيس مرعبة جدا حتى إنه كان يهب فزعا ويجري من غرفته إلى ماري وهو يصرخ. وفي أول شهريوليو وصلتهم الأخبار أن لاي هنت وأسرته قد وصلوا إلى جنوه وأنهم يستعدون لمغادرتها بقارب نقل للانضمام إلى بايرون. وكان شيلي تواقا للترحيب بصديقه المخلص، ولتيسير استقبال بايرون له (لهنت) ولتدعيم شريكه الذي تضاءلت مصالحه في إصدار مجلتهما الجديدة، فقرر أن يبحر فجأة مع ويليامز في القارب أريل Ariel إلى ليجورن.. وكانت ماري قد أرهصت بالكارثة (حدثها قلبها أن كارثة ستقع) «لقد طلبت منه ألايقوم بهذه الرحلة مرتين أو ثلاث.. ورحت أصرخ بمرارة عندما ذهب[١٤٥]» وغادر القارب أريل (كازا ماجني) في ظهر الأول من يوليو ووصل ليجورن بأمان في التاسعة مساء. وحيّا شيلي صديقه هنت بسعادة وفرح لكنه أصيب بالإحباط عندما علم أن السلطات التسكانية قد أمرت آل جامبا Gambas بمغادرة البلاد فورا وأن بايرون الذي قرر أن يلحق بتيريزا كان يخطط لمغادرة ليجورن حالاً ليلحق بها في جنوا. ومع هذا وافق بايرون على الاحتفاء باتفاقيته مع هنت وخصص له ولأسرته غرفاً في الكازا لانفرانشي Casa Lanfranchi في بيزا pisa، فصحبهم شيلي إلى بيزا فلما اطمأن إلى مقامهم عاد إلى ليجورن في السابع من يوليو. وقضى صباح الأحد الموافق ٨ يوليو في شراء مستلزمات أسرته في كازا ماجني. وحثه ويليامز على الإسراع لانتهاز فرصة الرياح المناسبة إلى ليريسي Lerici، وكان قائد السفينة (البوليفار) قد تنبأ بهبوب عاصفة بعد ظهر هذا اليوم ونصح بتأخير الإبحار يوما، إلا أن وليم كان يلح على الإبحار حالا، فوافق شيلي وفي نحو الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر أبحر القارب أريل Ariel من ليجورن وعلى متنه شيلي وويليامز وبحار شاب هو شارلز فيفان.

وفي نحو السادسة والنصف من هذا اليوم هبت عاصفة عنيفة مصحوبة برعد ومطر على خليج سبيريا Spezia فهرعت مئات السفن والقوارب إلى داخل الميناء. وفي كازا ماجني كانت العاصفة قاسية جدا حتى إن النسوة الثلاث مكثن قلقات يعزين أنفسهن قائلات إن الزوجين لم يبحرا في هذه العاصفة وإنهما في أمان في ليجورن. ومضى يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس. وراحت ماري في وقت لاحق تتذكر ما حدث: «إن الكرب الحقيقي

الذي عانيناه في هذه اللحظات يفوق كل كرب وصفته والقصص والروايات، فمهما ذهب الخيال لايمكن أن يعبر عن حالتنا تلك، فعزلتنا، وطبيعة السكان الفظة في القرية المجاورة ومجاورتنا للبحر الهائج، كل ذلك تضافر معاً ليبعث فينا رعبا غريبا[١٤٦] » وفي يوم الجمعة وصل خطاب من هنت إلى شيلي يضم سطورا جلبت مزيدا من الرعب إلى قلوب المرأتين المنتظرتين: « أخبرنا كيف وصلت منزلك لأنهم قالوا إن الطقس لم يكن مناسبا بعد إبحارك ونحن قلقون ». وركبت جين ويليامز وماري طوال النهار ليصلا إلى بيزا. وفي منتصف الليل وصلتا إلى كازا لانفرانشي، فوجدتا بايرون وهنت هناك فأكدا لهما أن شيلي وويليامز غادرا ليجورن يوم الأحد، فركبا ليلا ووصلا ليجورن في الساعة الثانية صباح السبت ١٣ يوليو، وهناك حاول تريلاوني وروبرتز تهدئتهما بقولهما إن الأمواج ربما تكون قد أزاحت القارب إلى إلبا أو كورسيكا. وعهد بايرون إلى روبرتز بركوب (البوليفار) للبحث في البحر وعند السواحل بين ليجورن وليريسي Lerici، وصحب تريلاوني كلا من جين وماري وفي بحث غير مجد على طول الساحل بحثا عن أخبار عن الرجلين المفقودين ومكث مع المرأتين المنتحبتين في كازا ماجني حتى ١٨ يوليو، ثم فارقهما لإجراء مزيد من التحريات. وفي ١٩ يوليو عاد إليهما وأخبرهما بكل ما في جعبته من لطف أن جثتي زوجيهما قد عثر عليهما بالقرب من فيارجيو Viareggio في ١٧ أو ١٨ يوليو. (وفي ٣٠ يوليو تم العثور على جثة شارلز فيفان مشوهة على بعد أربعة أميال إلى الشمال وتم دفنها على الساحل) واصطحب ماري وجين إلى بيزا وعرض عليهما بايرون الإقامة في كازا لانفرانشي لكنهما استأجرا غرفا بالقرب منه. وكتبت ماري إلى إحدى صديقاتها « إن لورد بايرون رفيق جدا بي، وغالبا ما يأتي مع جويشيولي لرؤيتنا[١٤٧] ».

وكان أهالي المنطقة قد دفنوا بالفعل الجثث في الرمال وقانون تسكانيا يمنع نقل الجثث التي تم دفنها لإعادة دفنها من جديد في مكان آخر، لكن تريلاوني كان يعلم رغبة زوجة شيلي في دفن رفات زوجها بالقرب من رفاة ابنه وليم في روما، فحث سلطات تسكانيا للسماح بإخراج رفاته على أن يتم حرقها على الساحل، وكانت جثة شيلي وصديقه قد تعفنتا أو تآكلتا فصعب تعرفهما، إلا أنهم وجدوا في أحد جيوب معطف أحدهما مجلدا

لسوفوكليس وفي الجيب الآخر مجلداً لكيتس Keats[١٤٨].

وفي ١٥ أغسطس، وقف هنت، وتريلاونى مع مسؤول الحجر الصحي، والكابتن شنلي Shenley وهو ضابط إنجليزي بينما تولت مجموعة من الجنود إحراق بقايا ويليامز. وفي اليوم التالي تم النبش عن رفاة شيلي وتم إحراقه في حضور بايرون، وهنت وتريلاوني وبعض الفلاحين المجاورين، وقذف تريلاوني في اللهيب المشتعل في الرفات عطورا ونبيذا وزيتا وراح يترنم ببعض الدعوات طالبا أن يعود رماده إلى الطبيعة التي عبدها[١٤٩]. ولم يطق بايرون تحمل المشهد إلى نهايته فسبح إلى (البوليفار) وبعد ثلاث ساعات تقريباً كان كل الجسد [الرفات] قد أصبح رمادا خلا القلب، فانتزعه تريلاوني من النار معرضا يده للإصابة بالحروق. وتم نقل رماد الرفات في سلة إلى روما، وتم دفنها في مقبرة جديدة بالقرب من مقبرة قديمة للبروتستنط تضم رفات ابنه وليم. أما قلب شيلي فقدمه تريلاوني لهنت الذي قدمه بدوره لماري، وعند موتها في سنة ١٨٥١ تم العثور على رماد القلب في نسختها من كتاب أدونيس Adonaïs.

١٦- التجلي: بايرون: ١٨٢٢ - ١٨٢٤

في سبتمبر ١٨٢٢ انطلق بايرون وآل جمبا Gambas من بيزا إلى ألبارو Albaro إحدى ضواحي جنوا. لقد أرهق بايرون بدنه وعقله منذ غادر إنجلترا، فبدأ يضجر حتى من حب تيريزا غير المضجر. لقد أزاحت عيناه الحادتان وروحه الساخرة ما على وجه الحياة من حجاب ويظهر أنه لم يترك حقيقة تحفزه على الإخلاص والمثالية. لقد كان أشهر شاعر على قيد الحياة لكنه لم يكن معتزا بشعره فالآلام المحمومة التي ظهرت في عمله (شايلد هارولد) بدت الآن تنم عن جبن، والملاحظات الساخرة في (دون جوان) تركت المؤلف والقارئ وقد خاب أملهما وتحررا من الوهم. إنه يشعر الآن أن على « الإنسان أن يقدم للبشرية شيئا أكثر من الشعر[١٥٠] » وفي جنوا طلب من طبيبه أن يدله على أفضل سم وأسرعه مفعولا[١٥١]. وعرض عليه اليونانيون موتا يخلصه. لقد سقطت اليونان في أيدي الترك (العثمانيين) في سنة ١٤٦٥ وأصبحت مخدرة في ظلال حكم أجنبي. وكان بايرون قد دعا اليونانيين في

قصيدته الطويلة (شايلد هارولد) (النشيد ٢ / الأبيات ٧٣ – ٨٤) للثورة ضد حكم الأتراك (العثمانيين) : « أيها الأرقاء! / ألا تعلمون أن تحرركم يحتاج إلى هبة كالإعصار؟ » .

وثار اليونانيون في سنة ١٨٢١ لكن كان ينقصهم السلاح والمال والوحدة، وكانوا يصرخون طالبين المساعدة من الأمم التي استفادت من تراثها الخصب، وأرسلت اليونان لجنة إلى لندن طالبة العون المالي، وأرسلت اللجنة ممثلين إلى جنوا متحدية بايرون أن يرسل بعض أمواله للتعجيل بالثورة التي كان يدعو إليها . وفي ٧ أبريل ١٨٢٣ أخبر المبعوثين أنه رهن إشارة الحكومة اليونانية المؤقتة.

لقد تحول بايرون من الشعر إلى العمل. إنه قد كرس نفسه الآن للأفعال لا الأقوال. لقد أفسحت التعبيرات الساخرة الطريق للعمل من أجل قضية. لقد تنحى الشعر، وخرجت الرومانسية من إهابها لتبحث عن حل. وبعد أن خصص جانبا من ميزانيته لآل هنت، وتيريزا على نحو خاص، جعل ما تبقى من ثروته لصالح الثورة اليونانية. لقد أصدر تعليماته لوكلائه في لندن ليبيعوا كل ما يملك في إنجلترا ويرسلوا إليه المبالغ، وباع (البوليفار) بنصف تكلفته واتفق أن تقوم سفينة إنجليزية لتستقله هو، وبيترو جمبا وتريلاوني إلى اليونان وأن تكون السفينة مزودة ببعض المدافع والذخيرة وإمدادات طبية تكفي ألف رجل مدة عامين. وناضلت تريزا لتثنيه عن عزمه كي يكون إلى جوارها، فرفض برقة ورضى عندما علم أنها ووالديها قد حصلوا على إذن بالعودة إلى رافنا، وأخبر الليدي بليسنجتون « لديَّ شعور أنني سأموت في اليونان. أتمنى أن يتحقق هذا، فلو حدث لكان خير نهاية لحياة كئيبة جدا[١٥٢] » .

وفي ١٦ يوليو أبحرت السفينة (Hercules) من جنوا قاصدة اليونان. وبعد تأخير كان مدعاة لسخطه رست في ٣ أغسطس في ميناء أرجوستوليون Argostolion في سيفالونيا أكبر الجزر الأيونية. وبوصولهم لهذه الجزيرة يكونون على بعد خمسين ميلا من اليونان لكن بايرون أجبر على تضييع عدة شهور فيها. لقد كان يأمل أن ينضم في ميسولونجي Missolonghi بأهم الزعماء اليونانيين لكن ماركو بوزاريس Bozzaris كان قد لقي حتفه في أثناء العمليات، وكانت ميسولونجي في أيدى الأتراك العثمانيين كما كانت السفن الحربية

العثمانية تتحكم في كل السواحل المؤدية إلى البر اليوناني من جهة الغرب. وفي بواكير شهر ديسمبر استعاد الأمير أليكزاندروس مافروكورداتوس Alexandros Mavrokordatos، ميسولونجي، وفي ٢٩ من الشهر نفسه غادر بايرون جزيرة سيفالونيا وكتب الكولونيل ليستر ستانهوب Leicester Stanhope ممثل اللجنة اليونانية التي كانت تجمع الأموال في إنجلترا لمساعدة الثورة اليونانية – كتب من ميسولونجي: «الكل يتطلع إلى وصول اللورد بايرون كما لو كانوا ينتظرون المسيح المخلص(١٥٣)» ووصل «المخلص» الشاب بعد عدة مغامرات وبعد اجتياز عدة مشاكل أدت لتأخره إلى ميسولونجي في ٤ يناير سنة ١٨٢٤ فتلقاه الأمير والناس بفرح غامر.

وعهد إليه مافروكورداتوس بقيادة ستمائة من السوليتو Sulitos، وتقديم المؤن لهم ودفع رواتبهم (والسوليتو فرقة انتحارية جزء منها يونانيون وجزء ألبان ولم يكن منظرهم ملهماً للورد بايرون وكان يعرف أن الثورة اليونانية منقسمة إلى فصائل متنافسة تحت قيادات ذوات ميول سياسية أكثر منها حربية. ومع هذا فقد كان سعيدا للقيام بدور فعّال ولم يتأخر عن تقديم المساعدة. لقد قدم إلى مافروكورداتوس وحده نحو ألفين من الجنيهات كل أسبوع لتمويل أهالي ميسولونجي بالطعام والمشروبات. وفي هذه الأثناء كان يعيش في فيلا شمال المدينة بالقرب من الساحل. يقول تريلاوني: «عند حافة أسوأ مستنقع رأيته في حياتي». وثبت أن السوليتو غير منضبطين ويميلون للتمرد، وكانوا مشتاقين لأمواله أكثر من رغبتهم لطاعة أوامره. وكان الشاب لوشينفار يأمل تأجيل الأعمال العسكرية حتى يتم استعادة النظام والانضباط، ولم يكن تريلاوني ميالا للتأجيل فمضى يبحث عن المغامرة في أي مكان. ولم يبق إلا بيترو جامبا Gamba قريبا من بايرون يرعاه قلقاً عليه لمعاناته من الحرارة والفزع والمالاريا.

وفي ١٥ فبراير أصبح وجه بايرون على حين فجأة شاحبا في أثناء زيارة الكولونيل ستانهوب، وسقط مغشيا عليه وراح في حالة تشنج فاقد الوعي. واستعاد وعيه فتم نقله إلى فيلته وتجمع حوله الأطباء وراحوا يفصدون بعلقات تسحب الدم، وعندما تم إبعاد العلقات لم يتوقف نزيف الدم و وهن بايرون وأصبح يعاني من نقص دمه. وفي ١٨ فبراير تمرد رجال

الكتيبة التابعة له (السوليتو) مرة ثانية مهددين باقتحام فيلته وقتل كل الأجانب الذين يقابلونهم. فهب من سريره وهدأهم لكن أمله في قيادتهم ضد الترك في ليبانتو كان قد تلاشى وضاع بذلك حلمه بموت بطولي مثمر. وتلقى خطابا – كان كالعزاء له – من أوجستا لاي Augusta Leigh به صورة لابنته أدا Ada مع وصف لعادات الطفلة وميولها كما قدمته أنابلا – فالتمعت عيناه بالسعادة للحظات، فقد تنكرت له كل الأمور التي ألفها الناس.

وفي ٩ أبريل ذهب راكبا إلى بيترو Pietro وفي أثناء العودة دهمهم مطر عنيف وفي هذه الليله عانى بايرون من القشعريرة والحمى. وفي ١١ من الشهرنفسه زادت حالته سوءا فلزم سريره وشعر بانهيار قواه وأدرك أنه على وشك الموت. وفي أيامه العشرة الأخيرة كان يفكر أحيانا في الدين لكنه ذكر «الحقيقة أنني أجد صعوبة في معرفة ما يجب الاعتقاد فيه في هذا العالم وما لا يجب. هناك أسباب كثيرة معقوله تدفعني لأن أموت متعصبا، تماما كتلك الأسباب التي جعلتني أعيش حتى الآن مفكرا حرا[١٥٤]» وذكر الدكتور جوليوس ميلينجن – طبيبه الرئيسي:

«يجب أن أذكر بأسف لاحد له أنه رغم كوني لم أفارق وسادة اللورد بايرون خلال فترة مرضه الأخيرة إلا نادرا، فلم أسمعه يشير إلى الدين أية إشارة ، غير أنني في لحظة واحدة سمعته يقول «هل سأطلب الرحمة؟» وبعد فترة صمت طويلة قال تعال! تعال! لاضعف، فلأكن رجلاً حتى النفس الأخير». وهذا الطبيب نفسه يروي عنه قوله: «لا ترسلوا جثتي إلى إنجلترا. دعوا عظامي تفنى هنا! اطرحوني في أول ركن دون جلبة ولاتصرفات حمقاء[١٥٥]».

وفي ١٥ ابريل، بعد أن انتابته حالة تشنج أخرى سمح لأطبائه بفصد دمه ثانيةً، فأسالوا منه رطلين من الدماء ورطلين آخرين في فترة لاحقة، ومات في ١٩ أبريل ١٨٢٤. وأظهر تشريح جثته – ولم يكن هذا أمرا معتادا – إصابته بتبولن الدم (اختلاط بوله بدمه) ولم تكن هناك علامات على إصابته بداء الزهري (السيفلس) وظهرت أدلة أن كثرة الفصد والأدوية المسهلة (المسببة للإسهال) كانتا هما الأسباب الأخيرة لموته. وكان مخه من أكبر

الأمخاخ المعروفة – إذ كان يزن ٧١٠ جرامات وهو رقم يزيد على أعلى متوسط لمخ الإنسان العادي[١٥٦]. وربما أضعفه وعجل بنهايته ما عرف عنه من إفراط في الأمور الجنسية، وإفراطه في تناول الطعام أحيانا، وإفراطه في الحمية أحيانا أخرى بغير ضابط، فقد أضعف كل هذا مقاومته للإجهاد والقلق والهواء الرطب المحمل بالعفونة.

ولم تصل أخبار موته إلى لندن حتى ١٤ مايو، إذ حمل هوبهوس هذا الخبر إلى أوجستا لاي، وقد صدما معاً بهذا النبأ. والآن عاد هوبهوس لمشكلة المذكرات السرية لبايرون. لقد كان مور Moore قد باعها للناشر مري Murray بمبلغ ألفين من الجنيهات، فحاول هذا الأخير دفعها للمطبعة رغم تحذير مستشاره وليم جيفورد قائلاً على حد تعبير هوبهوس «إنها لا تصلح إلا لبيوت الدعارة والمواخير وستسيء كثيرا جدا إلى اللورد بايرون وستلحق به عاراً أبديا إن نشرت[١٥٧]».

واقترح مري وهوبهوس إتلاف المخطوطة، واعترض مور ولكنه وافق أن يترك الأمر لرأي السيدة لاي Leigh فكان من رأيها إحراق المذكرات، وتم ذلك بالفعل، وأعاد مور الألفي جنيه إلى مري.

وأصر فلتشر الخادم العجوز الذي صاحب لورد بايرون على أن سيده قد عبر عن رغبته قبل موته بقليل أن يدفن في إنجلترا، إلا أن السلطات اليونانية وعامة اليونانيين اعترضوا على ذلك لكن كان عليهم أن يقنعوا بأجزاء من أمعائه تمت إزالتها قبل تحنيطه. وتم حفظ بدنه باستخدام ١٠٠ جالون من الخمور، ووصلت الجثة بالفعل إلى لندن في ٢٩ يونيو، وتم تقديم طلب لسلطات كنيسة وستمنستر لدفن الشاعر في الركن المخصص للشعراء فيها لكن الطلب لم يلق قبولا. وفي ٩ / ١٠ يوليو سمح للعامة بإلقاء نظرة على الرفات المكفن فأقبل أناس كثيرون من قليلي الذكر، لكن بعض ذوي الحيثية سمحوا بأن تسير عرباتهم الخالية (أي التي لم يكونوا هم أنفسهم فيها) بالسير في الموكب الذي واكب الجثة من لندن إلى نوتنجهام في ١٢ – ١٥ يوليو. ورأت كلير كليرمونت، وماري شيلي من النافذة، موكب الجنازة وهو يتحرك. وفي ١٦ يوليو جرى دفن الشاعر في قبو أجداده بجوار أمه في كنيسة هكنال توركارد Hucknall Torkard – وهي قرية بالقرب من مبنى نيوستيد، وهو مبنى دير

قديم لم يعد يستخدم كدير Newstead Abbay .

١٧- الباقون على قيد الحياة

عاش معظم من لعبوا أدوارا في حياة بايرون الحافلة في الحقبة التالية لوفاته. وكان أسرعهم لحاقاً به هو بيترو جامبا الذي عاد لليونان بعد أن رافق جثمان بطله (بايرون) إلى لندن، وظل وفيا للثورة اليونانية ومات بالحمى في سنة ١٨٢٧ - وأصبحت الليدي كارولين لامب « مريضة جدا » عندما أخبرها زوجها أن جثمان بايرون قد مر في طريقه إلى مثواه الأخير، وكانت قد هجته في روايتها Glenarvon (١٨١٦) لكنها الآن تقول « إنني آسفة على كل كلمة غير طيبة قلتها في حقه[١٥٨] ».

وقد عاشت بعده ما لا يقل عن أربع سنوات - وورثت أوجستا لاي -بناء على وصية من بايرون كل ما تبقى من ثروته تقريبا (نحو مائة ألف جنيه) وأنفقت معظمها في دفع ديون زوجها وأولادها الناتجة عن المقامرة، وماتت فقيرة سنة ١٨٥٢[١٥٩] - والليدي بايرون ظلت تذكر بشيء من الخير الرجل الذي تسببت شروره الموروثه لعنة لزواجها. لقد كتبت « طوال ما بقي لي من حياة تظل مشكلتي الرئيسة هي أنني لا أتذكره بمودة كبيرة[١٦٠] ». ومع هذا فبعد كل الأمور التي اتضحت أقول لقد كان هناك موجود (إنسان) أفضل بكثير.. لقد كان صدره يحتمل بما هو أفضل . .لقد كان كثير التحدي لكنه لم يستطع التدمير أبدا[١٦١] . وابنتهما أدا Ada التي كان اللورد بايرون يعقد عليها الآمال تزوجت من الإيرل الثاني للوفيلاس Lovelace وفقدت ثروتها في الرهان على سباق الخيل وأنقذتها أمها من الإفلاس، وفقدت صحتها وآمالها - كأبيها - فماتت في السادسة والثلاثين (١٨٥٢) وحاولت الليدي بايرون أن تملأ وحدتها بالعمل في مجال الخدمة العامة، وماتت في سنة ١٨٦٠ .ودخل جون كام هوبهوس البرلمان كراديكالي، وارتقى ليصبح وزيرا في فترة الحرب (١٨٣٢ - ١٨٣٣) وأصبح بارونا ومات في سنة ١٨٦٩ في الثالثة والثمانين من عمره. وعادت تيريزا جويشيولي - بعد وفاة بايرون - إلى زوجها لكنها سرعان ما عملت على الانفصال عنه، وتم لها ما أرادت. وكونت علاقات لم تطل مع صديق بايرون الأعرج هنري فوكس ومع لامارتين الشاعر الفرنسي المعجب ببايرون. وتنقلت بين العاشقين، ولم يطل

مقامها مع أي منهم إلا قليلا وأخيرا تزوجت وهي في السابعة والأربعين من ماركيز بوسي Marquis da Boissy وكان ثريا لطيفاً يقدمها لمعارفه وأصدقائه بفخر قائلا: «زوجتي، والعشيقة السابقة لبايرون. (على وفق وجهة النظر الإنجليزية المجحفة شيئاً ما) وعندما مات الماركيز اشتغلت بتحضير الأرواح (الاتصال بأرواح الموتى) وتحدثت مع روح بايرون وروح زوجها الذي مات وقالت: «إنهما معاً الآن، وهما أفضل الأصدقاء - تقصد يصادق كل منهما الآخر صداقة مخلصة عميقة[١٦٢]» وماتت في سنة ١٨٧٣ في الثانية والسبعين من عمرها بعد أن كتبت عدة كتب تصور فيها بايرون كعبقري ورجل مهذب لاعيوب فيه - وماتت كلير كليرمونت في سنة ١٨٧٩ عن عمر يناهز الواحدة والثمانين وظلت حتى آخر أيامها متمسكة برأيها في بايرون «بأنه مجرد تركيبة من العبث والغباء وكل ضعف بائس - قلما تجتمع في مخلوق بشري واحد[١٦٣]».

أما ماري شيلي فرغم ما لحقها منه ببعض الضرر فقد كانت تحتفظ لألبي Albe [كما كان يطلق عليه المحيطون به - أي ببايرون -] بمشاعر أكثر وداً، فعندما علمت بوفاته كتبت «آه يا ألبي Albe (المقصود اللورد بايرون) - أيها العزيز الفاتن المتقلب ألبي - غادرت هذا العالم الخرب، فليمنحنى الرب موتا باكرا في شبابي[١٦٤]» وأمضت كثيرا من وقتها فيما تبقى لها من العمر (٢٧ سنة) في تحرير كتب زوجها بحب ورعاية مستخدمة فصاحتها وقدرتها على البيان.

أما لاي هنت الذي كان قد تجاسر وامتدح أشعار شيلي في الوقت الذي أدانها كل النقاد تقريبا باعتبارها أوهام مراهقة - فقد ظل مخلصاً لراديكاليته الشابة وكتب مذكرات معادية لبايرون، وظل على قيد الحياة حتى ١٨٥٩. أما توماس جيفرسون هوج فبعد تجارب عاطفية مختلفة - تزوج من أرملة ويليامز (جين) وعاش معها السنوات الخمس والثلاثين الباقية من حياته. وكان الأكثر لفتاً للنظر هو إدوارد جون تريلاوني الذي دخل حياة شيلي في بيزا، وكان كلاهما في الثلاثين من عمره. وكان شيلي يقترب من نهايته، بينما كان على تريلاوني أن يعيش تسعا وخمسين سنة أخرى. لقد كان هذا «الفارس الجوال... الداكن الوسيم ذو الشارب الكبير» (كما وصفه هنت) قد قام بكثير من المغامرات في كثير من

البلاد، حتى إن استعادته لما مر به من ذكريات وأحداث لم يكن يسبب ضيقاً لأصدقائه الجدد. ورغم أن بايرون قد عينه مسؤولا عن خيوله وعن قاربه الفخم (يخته) بوليفار، فقد كان يحب كثيرا شيلي هذا الصبي الأمرد حسن الطباع. وبعد أن شهد وصول بايرون بأمان إلى ميسولونجي (وإن كان – أي بايرون – قد اضطر للبقاء هناك دون قدرة على الحركة لفترة) انطلق ليبحث عن قدره متوقعاً أن يموت في سبيل القضية اليونانية. لقد رأى اليونان وهي تتحرر فواصل تجواله وعاش حتى سنة ١٨٨١ وتم دفنه في مقبرة اشتراها في سنة ١٨٢٢ بالقرب من رفات (رماد) شيلي في المقبرة الإنجليزية في روما.

جيران إنجلترا

[١٧٨٩ - ١٨١٥]

١- الإسكتلنديون

كانوا تحت الحكم البريطاني منذ الاتحاد سنة ١٧٠٧، ينعمون بحرية الحركة والتجارة في الجزيرة لكنهم لم يكونوا على وفاق مع الحكومة بسبب البرلمان القصي الذي لا يحوي مجلس العموم فيه سوى خمسة وأربعين عضوا يمثلون ١,٨٠٠,٠٠٠ سكتلندي، بينما يوجد ٥١٣ عضوا يمثلون ١٠,١٤٦,٠٠٠ هم أهل إنجلترا وويلز. ومن بين الأعضاء الذين يمثلون سكتلندا خمسة عشر عضوا تم تعيينهم بواسطة أعضاء مجالس المدن المرتشين الذين انتخبهم ١,٢٢٠ مصوتاً في كل المدن التي يحق أن يكون لها ممثل في البرلمان boroughs. والثلاثون الباقون يتم انتخابهم بواسطة المقاطعات الريفية على أن يكون حق الانتخاب مقتصراً على ملاك الأراضي المؤثرين (ذوي النفوذ)، وعلى هذا فمقاطعة بيوت Bute بسكانها البالغ عددهم ١٤,٠٠٠ ليس فيها إلا ٢١ مصوتاً (فرد له حق التصويت في الانتخابات)، وكل المقاطعات مجتمعة ليس فيها إلا ٢,٤٠٥ مصوتين[١]. وقد تم انتخاب غالب المرشحين الناجحين بواسطة النبلاء من مالكي العقارات والأراضي الشاسعة منذ زمن طويل. وكان الإقطاع قد تم إلغاؤه في أنحاء سكتلندا في سنة ١٧٤٨ لكن الفقر ظل باقيا طالما كان الجشع والرغبة في التمايز (عدم المساواة) كافيين في تركيب البشر. وعلى العموم فقد قبلت إسكتلندا مثلها مثل إنجلترا هذا الشكل من الحكم التمثيلي representative government كأفضل شكل حكومي يمكن أن يقوم بين شعب ارتبط ارتباطا وثيقاً بالتقاليد وكان يعاني من حاجة ملحة للمعرفة والخبرة اللازمتين لإبداء الرأي بشكل ذكي في القضايا الوطنية. وكان الدين أقوى من الدولة. وكان يوم السبت (المقصود يوم العبادة)[*] هو يوم عبادة يتسم بالكآبة، فهو يوم تذكر الخطايا. وكان رجال الدين يتحدثون عن خطيئة آدم، وعن إبليس ورب منتقم، وكانت جموع المصلين يستغرقون في أمور العقيدة والأخلاق

(*) Sabath ليس هو بالضرورة Saturday (المترجم)

استغراقا يفوق استغراق قسسهم. وقد أكد ديفد دينز David Deans في كتابه (The heart of Midlothian) أن الفتاة التي تذهب إلى الحفلات الراقصة مصيرها إلى جهنم[٢]. ومع هذا فقد كانت سكتلندا في مجالات كثيرة سابقة إنجلترا. فقد كان لديها نظام وطني لمدارس حكومية حقيقية. وكان مطلوبا من كل دائرة أبرشية أن ترعى مدارس يتعلم فيها الأولاد والبنات معا القراءة والحساب. وكان أهل التلاميذ يدفع الواحد منهم شلنين في كل ربع سنة للتلميذ، وإذا رغب الطالب أو ذووه في تعلم اللاتينية دفع شلنين آخرين، وكانت الدائرة الأبرشية تدفع للطلبة الفقراء، وعندما تكون الدائرة الأبرشية متسعة اتساعا كبيرا مما يجعل جمع التلاميذ معاً أمراً صعبا، كان يتم تعيين ناظر متنقل ليشرف على تقديم تعليم لكل مجموعة على التوالي. وكان المدرسون تابعين بصرامة لرجال الدين في الأبرشية، وكانوا ملزمين بمساعدة رجال الدين في نقل اللاهوت المرعب إلى تلاميذهم، ذلك أن كبار السن وجدوا أن الكالفنية (مذهب كالفن) هي السبيل المقتصد لتعيين رقيب على كل روح. وبقي على قيد الحياة عدد كبير ليقوموا بحركة التنوير الإسكتلندية في جيل سابق على قيام الثورة الفرنسية، وعملوا على استمرارها في عصر نابليون (وإن كانت قد خفت قليلا ولم تعد في تألقها السابق في ذلك العصر – عصر نابليون).

وكانت إسكوتلندا فخورة بجامعاتها في سان أندروز St. Andrews (التي أسست في سنة ١٤١٠) وجلاسجو (١٤٥١) وأبردين (١٤٠٤) وأدنبره (أدنبورج) (١٥٨٣). وكانت هذه الجامعات تعتبر نفسها أرقى في أوجه كثيرة من أكسفورد وكامبردج بل إن بعض الباحثين المحدثين يؤكدون ذلك[٣]. وفي مجال التعليم الطبي كان لأدنبره (أدنبورج) الريادة التي اعترف بها الآخرون[٤]. وكانت دورية Edinburgh Review (مراجعات أدنبره) التي أسست سنة ١٨٠٢ تحظى باحترام عام وأكثر الدوريات تألقا في بريطانيا العظمى، وكان المحامي الليبرالي الشجاع توماس إرسكين (١٧٥٠ – ١٨٢٣) يبز كل المحامين تقريبا في ساحات المحاكم. وعلى أية حال لا بد أن نسلم أنه عندما حان وقت قمع الحريات الفكرية – خاصة إن كانت هذه الحريات تساند فرنسا الثورة – لم يكن هناك قانوني إنجليزي يضارع ذلك الإسكتلندي. ومن ناحية أخرى فقد استمر المناخ الفكري في أدنبره وجلاسجو

يساند الحرية التي كانت قد حمت ديفد هيوم، ووليم روبرتسون، وجيمس بوزول، وروبرت بيرنز وآدم سمث. وقيل إن محاضرات دوجالد ستيوارت Dugald Stewart لم يكن يحضرها الطلبة فقط وإنما كل أهل الفكر في أدنبره. ولايكاد يكون ستيوارت معروفا اليوم خارج سكتلندا لكن الإسكتلنديين قد أقاموا تخليدا لذكراه معبدا كلاسيا صغيرا، هو واحد من أخلد النصب التذكارية فيها. لقد تبع توماس ريد Reid في إخضاع النتائج الشكوكية لهيوم، وعلم النفس كما قال به ديفد هارتلي (علم نفس الحيل اللاشعورية) للفطرة السليمة (التفكير البسيط التلقائي)[٥] وقد رفض الميتافيزيقا باعتبارها محاولة عبثية يقوم بها العقل mind (النفس) لسبر أغوار طبيعة العقل (النفس). (البارون منشوزن Munchausen هو وحده الذي استطاع أن يقتلع نفسه (يستأصلها) برباط حذائه). لقد اقترح ستيوارت أن يحل علم النفس الاستقرائي Inductive Psychology محل الميتا فيزيقا إذ يمكن به استخدام أسلوب الملاحظة الصبورة الدقيقة للعمليات العقلية (النفسية) دون الادعاء بشرح العقل (النفس) نفسه. وكان ستيوارت رجلاً ذا بديهة وثقافة وصاحب أسلوب واستخدم كل هذا في تعريف الذاكرة والذكاء والأحلام والموهبة الشعرية. (لازال موطنه ينبوعا لأغاني الحب كما أن بعض أجمل الألحان التي أدفأت شبابنا أتت من منحدرات جبال سكتلندا وضفاف أنهارها). وكان جيمس مل Mill رجلا حسن النوايا واسع العقل خصب الفكر – مع أنه أتخم ابنه بالتعليم. وكان ابنا لصانع أحذية ومع هذا فقد تفوق في دراسة اللغة اليونانية في جامعة أدنبره. وعندما تخرج انتقل إلى لندن، واكتسب رزقه بالعمل في الصحافة، فكانت عيشته خطرة غير آمنة، وتزوج وأنجب طفلا أسماه جون ستيوارت، على اسم صديقه عضو البرلمان. وبين عامي ١٨٠٦ و١٨١٨ كتب (تاريخ الهند البريطانية History of British India) الذي حوى نقدا موثقا لسوء الإدارة والحكم فيها حتى إن كتابه هذا أدى إلى قيام إصلاحات كبرى في حكومة الهند.

وفي هذه الأثناء (١٨٠٨) قابل جيرمي بنثام وسرعان ماقبل بحماس أن معيار نجاح الممارسات السياسية والقيم الخلقية والأفكار هو قدرتها على تحقيق السعادة للبشر، وجعل من نفسه داعية لبنثام في بريطانيا. وكتب لدائرة المعارف البريطانية «في طبعتها الرابعة

(١٨١٠) والخامسة (١٨١٥) والسادسة (١٨٢٠) مقالات عن الحلم وفلسفة القانون وإصلاح السجون والتعليم وحرية الصحافة، وقد أعيد نشر هذه المقالات، وانتشرت انتشارا كبيرا وكان لها تأثير عظيم (ومما يذكر أن الموسوعة البريطانية كانت هي نفسها مشروعا إسكتلنديا) . وهذه المقالات، وكذلك مقالاته في (مراجعات ويستمنستر Westminster Review) أصبحت قوة دافعة أدت إلى صدور مرسوم الإصلاح Reform Act في سنة ١٨٣٢ . وتحول الراديكاليون في ظل مثل هذه القيادة (الريادة) من المطالبة بالثورة الشاملة إلى الإصلاح التدريجي من خلال حكومة قائمة على توسيع حق الانتخاب والفلسفة النفعية. وقد حذر مل Mill في كتابه (مبادئ الاقتصاد السياسي) الصادر في سنة ١٨٢١ من ترك السكان يتزايدون بمعدل أسرع من تزايد رأس المال واقترح ضرائب على الزيادة في « الدخول » الناتجة بغير عمل (كارتفاع أسعار الأراضي مثلا) . وفي مبحثه (تحليل لظاهرة العقل البشري) الصادر سنة ١٨٢٩ عمد إلى شرح كل العمليات العقلية من خلال روابط فكرية. وفي سنة ١٨٣٥ (قبل وفاته بعام) نشر كتابه (شذرات حول ماكنتوش Fragment on Mackintosh) .

ونقل السير جيمس ماكنتوش التعليم الإسكتلندي إلى إنجلترا، فبعد أن حصل على أدوات التفكير من جامعتي أبردين وأدنبره ارتحل إلى لندن (١٧٨٨) وسرعان ما استثارته أخبار الجموع الثائرة التي استولت على الباستيل في سنة ١٧٩٠ وامتعض من معاداة إدموند بورك Burke في مؤلفه (تأملات في الثورة الفرنسية)، وفي سنة ١٧٩١ أجاب مبرئا الديمقراطية الغالية. لقد رأى الفيلسوف البالغ من العمر ستا وعشرين سنة في المراحل الباكرة للتغير العنيف، صوتا نبيلا وثمارا للفلسفة الإنسانية، بينما لاتكون العروش المهددة -- كما ذهب بورك Burke – الحكمة المجربة للتراث (التقاليد) والخبرة وإنما تصبح بقايا اعترتها الفوضى (الهيولى) وتصبح ملاذا لخليط متنوع غير مترابط كالأقمشة المرقعة وتصبح مؤسساتها كيفما اتفق بلا ضابط حيث تجري أحداث غير متوقعة.

« كل الحكومات الموجودة الآن في العالم (باستثناء الولايات المتحدة الأمريكية) قد تكونت مصادفة وكيفما اتفق. لقد كان من المؤكد ألا نسلم بأن هذه الحكومات قد سبقت

الأعمال الفكرية بمعنى أنه من الضروري ألا نعتبر هذه الحكومات على حق. وأن الأفكار المطالبة بالإصلاح على خلاف ذلك.. لقد آن الأوان كي يتعلم الناس ألا يتسامحوا مع قديم لا يقره العقل، وآن الأوان كي يتعلم الناس ألا يرفضوا جديدا يقره العقل ويراه أمراً لازما، لقد آن الأوان لكي تشرع الطاقات البشرية في البدء بحقبة تاريخية جديدة تحسن فيها نظم الحكم لتحقيق مزيد من السعادة للإنسان[٦]» أما والثورة قد انحدرت من مثل الفلاسفة إلى الطغيان العشوائي المرعب، فقد راجع ماكنتوش نظرياته وواءم نفسه مع القوى الاجتماعية التي تركت آثارها عليه. ففي محاضراته «قوانين الطبيعة وقوانين الأمم» (١٧٩٩) تناول بطريقة كانت ستسعد بورك – كيف أن التنظيم الاجتماعي يمكنه أن يُعَمِّمَ (من خلال تطور الفرد) عادات الأفعال، وتأصيل الحكم على وفق الضمير بشكل يجعلها متأصلة في الأعماق، وعلى هذا فالشخص البالغ في مجتمعات حضريه ليس إفرازا طبيعيا فحسب وإنما هو أيضا ناتج التربية وأسلوب التنشئة – وقد كتب مكنتوش في أعوامه الأخيرة كتابه (تاريخ الثورة في إنجلترا History of the Revolution in England) (١٨٣٢) معتمدا على وثائق ومصادر أصلية. من الأمثلة السابقة يمكننا أن نحكم بأن الحضارة الإسكتلندية لم تكن قد استكانت إلى عظمتها الماضية عند الحد الزمني المتمثل في الانتقال من القرن ١٨ إلى القرن ١٩. لقد كانت الزراعة مزدهرة خاصة في الأراضي المنخفضة Lowlands. وهناك أيضا كانت آلات النسيج تعمل باستمرار، وكان روبرت أوين Owen قد فتح آفاقا جديدة للتعاون الإنساني. وكانت جلاسجو فخورة بعلمائها، وكانت أدنبره تعج بمحاميها وأطبائها ورجال الدين فيها، وكانوا في طليعة معاصريهم. وفي مجال الفن كان السير هنري روبورن Raeburn يرسم صورا شخصية جعلت منه رينولدز Reynolds سكوتلندا. وفي مجال الأدب كان بوزويل ينشر (١٧٩١) ذلك النبع الدائم من البهجة (حياة صمويل جونسون) وفي أبوتسفورد Abbotsford في التويد – بين الأعداء القدماء – راح يغني أعذب الأغاني ويكتب الروايات العالمية المشهورة ليدفع جانبا من ديونه. لقد كان ألطف الإسكتلنديين وأكثرهم وداعة ورقة.

وكان والتر سكوت بحكم مزاجه وحساسيته ملائما تماما ليكون ممن لهم الريادة في

ميدان الرومانسية المزدهرة في الأدب الإنجليزي؛ لأنه كان يحب التفكير في نفسه كسليل للقبائل الإسكتلندية التي كانت عداواتها وحروبها منبعا لأمور كثيرة كانت موضوعا للقصائد والأغاني الإسكتلندية التي كان يرددها في مرحلة طفولته. وعلى أية حال فقد كان أبوه هو الوكيل القانوني لأدنبره، أما أمه فابنة أستاذ للطب في جامعة أدنبره. ولد في سنة ١٧٧١ وكان واحداً من بين اثني عشر أخا مات ستة منهم في مرحلة الطفولة، وكان هذا أمر شائعا في ذلك الوقت، وأصيب بشلل الأطفال وهو في الشهر الثامن عشر من عمره فأصيب من جراء هذا المرض بعرج دائم في ساقه اليمنى. ومما ساعد سكوت على تكوين صداقة على نحو ما مع بايرون الشاب اشتراكهما في العاهة رغم اختلافهما في القيم والأخلاق والمعتقدات.

وبعد أن انتظم في كلية أدنبرة القديمة بدأ سكوت يتدرب طوال خمس سنوات على يد والده في مجال القانون، وفي سنة ١٧٩٢ أصبح محاميا أمام المحاكم الإسكتلندية. وقد أتاح له زواجه من شارلوت شاربنتير (١٧٩٧) وميراثه عن أبيه دخلا طيبا. وكان اجتماعيا محبوبا كما كان له عدد كبير من الأصدقاء من ذوي النفوذ استطاع عن طريقهم أن يعين كاتبا للتنازل (يسجل وثائق التنازل عن الملكية وخلافه للغير) في أدنبره في سنة ١٨٠٦. وقد أتاحت له المخصصات المالية وبعض ما أوصى له به أقرباؤه فرصة إهمال العمل في مجال القانون، بل والتخلي تماما عنه بعد ذلك ليشبع رغبته الأدبية. لقد أحيت مقابلة تمت مصادفة مع روبرت بيرنز Burns وولوعه بكتاب توماس بيرسي Percy عن الشعر الإنجليزي القديم Reliques of ancient English Poetry وتعرفه على الأشعار الغنائية لجوتفريد بيرجر Gottfried Burger – خاصة قصيدة لينور Lenore – كل ذلك أحيى اهتماماته الأولى في أيام الصبا بالشعر الإنجليزي القديم. وفي سنة ١٨٠٢ / ١٨٠٣ أظهر – في ثلاثة مجلدات – كتاب أغاني إسكتلندا The Minstrelsy of the Scottish Border. وقد أثارته هذه الحكايات الشائقة المنطوية عليها هذه الأغاني فحاول كتابة أشعار على نسقها، وفي سنة ١٨٠٥ أصدر (أغنية آخر المغنين) الذي بيع منه عدد كبير من النسخ شكل رقماً قياسيا بالنسبة إلى المبيع من دواوين الشعر في بريطانيا. وعندما ذهب إلى لندن في سنة ١٨٠٧

وجد نفسه سيد الصالونات، فقرر أن يشتغل بالأدب ويكون شغله الشاغل، يكاد يتفرغ له تماما، وبدأ استثمارا خطرا (غير مضمون) في التأليف والطبع والنشر. ووجد في « كوبليهات » كولردج ثمانية المقاطع شكلا سهلاً يصب فيه حكاياته الرومانسية عن الحب والحرب تلك الحكايات سريعة الحركة، وحكاياته الغامضة والخيالية في التاريخ الإسكتلندي وفي الحكايات التراثية الأسطورية الإسكتلندية. وقد استثمر هذا المجال الجديد في عمله مارميون Marmion (١٨٠٨) وسيدة البحيرة (١٨١٠) وروكبي Rokeby(١٨١٣) وسيد الجزر (١٨١٥). ولم يدع أنه شاعر كبير فقد كان يكتب لفائدة الجماهير محتفيا بهم، ولم يحتف بربات الشعر Muses اللاتي كن - على أية حال - قد سئمن من الملاحم والتفاعيل السداسية. وراح قراؤه يلاحقونه لاهثين من الفارس إلى السيدة الجميلة إلى الصراع البطولي، وتغنوا معه مفتونين بمثل هذه الأغاني «آه لقد أتى لوشينفار من الغرب / وكان جواده المطهم هو الأفضل من بين كل جياد البلاد الواسعة[٧]» وفي سنة ١٨١٣ أصدر بايرون (The Giaour) و(عروس أبيدوس) وفي سنة ١٨١٤ أصدر (القرصان) و(لارا). ورأى سكوت أن قراءه ينصرفون إلى أساطير الشرق وحكايات مبغضي البشر اليائسين. فاعترف أن اللورد الشاب (يقصد بايرون) يمكن أن يتفوق عليه في قدرته على النظم وخصوبته، فترك الشعر إلى النثر ليبحث عن مناجم جديدة.

وكان هذا أكثر ملاءمة له، ففي سنة ١٨٠٢ كان قد قدم أموالاً لجيمس بالانتين Ballantyne وهو صاحب مطبعة في كلسو Kelso لينقل مطبعته إلى أدنبره، وفي سنة ١٨٠٥ أصبح شريكا في شركة جيمس وجون بالانتين للطبع والنشر، ومن الآن فصاعدا رتب الأمور بحيث تطبع كل أعماله مهما كان ناشرها في مطابع بالانتين، واشترى سكوت من حصيلة أرباحه عقار أبو تسفورد Abbotsford (بالقرب من ملروز Melrose) واشترى ما يحيط به فزاد مساحة من ١١٠ أكر إلى ١٢٠٠ وأحل محل منزل المزرعة القديم قصراً، مؤثثا تأثيثا فاخرا ومزخرفا زخرفة جميلة وكان هذا سنة ١٨١١، ويعد هذا القصر من المعالم الجديرة بالرؤية في إسكتلندا. لكن في سنة ١٨١٣ أصبحت شركة بالانتين على شفا الإفلاس، وكان أحد أسباب ذلك نشرها عددا من الأعمال قام سكوت بتحريرها، وكانت

أعمالا لم تحقق سوى الخسارة، فعمد إلى الوفاء بديون الشركة بالاقتراض من أصدقائه الأثرياء ومن العوائد المالية لكتاباته. وفي سنة ١٨١٧ أوفت الشركة بديونها وأقيلت من عثرتها، وانشغل سكوت بكتابة سلسلة من أشهر الروايات في التاريخ الأدبي. لقد نشر روايته (Waverley) دون ذكر لاسمه عليها في سنة ١٨١٤ وحقق أرباحا من نشرها بلغت ألفين من الجنيهات ـ سرعان ما أنفق كثيرا من هذا المبلغ على عقار أبوتسفورد الذي سبق أن اشتراه والذي أشرنا إليه آنفا. ويرجع السبب في عدم ذكر سكوت لاسمه مقرونا بهذه الرواية لشعوره أنه قد لايكون ملائما لكاتب عدل (وهو منصب قانوني) أن ينشر رواية ويعرضها للبيع. لقد كان قلمه أكثر تواؤما في النثر منه في الشعر، وكانت قريحته النثرية سيالة بشكل واضح، لقد كتب في ستة أسابيع روايته Guy Mannering (١٨١٥) وفي سنة ١٨١٦ كتب (جامع العاديات Antiquary وفي الفترة من ١٨١٦ إلى ١٨١٩ قدم بانوراما جذابة للمشاهد الإسكتلندية (تحت عنوان شامل: حكايات ملاك الأراضي في بلدي Tales of my Landlord) – الموت القديم، قلب البغض، عروس لامرمور، أسطورة المونتروز، ومن واحدة من هذه الحكايات الأسطورية حقق دونيزتي Donizetti ثروة أخرى. وقد قام سكوت برحلات على نطاق واسع في إسكتلندا وإنجلترا وفي الجزر المجاورة، وقد اعتبر نفسه دارس تراث آثار أكثر منه روائيا، وكان قادرا على إضفاء الطابع المحلي على رواياته، كما كان قادرا على إعطائها طابعاً جدليا أبهج من اتبعه من الإسكتلنديين. ففي رواياته Ivanhoe وMonastery وThe Abbot – وكلها ظهرت في سنة ١٨٢٠ – كان مسرح الأحداث في إنجلترا في العصور الوسطى. وفي سنة ١٨٢٥ تغلغل سكوت في الشرق الوسيط (الشرق في العصور الوسطى) وفي عمله (الطلسم Talisman) قدم لنا صورة عامرة بالمزايا غاصة بالمديح لصلاح الدين (الأيوبي) حتى أن الإسكتلنديين المتدينين بدأوا يتشككون في مدى عمق إيمان المؤلف بالمسيحية. وعندما سئل جورج إليوت عن أول من هز عقيدته المسيحية أجاب «إنه والترسكوت[٨]». ومن كان منا قد استساغ «روايات ويفرلي Waverly Novels» واستمتع بها في شبابه ليدهش من أنه لايزال يستمتع بها حتى الآن بل إننا حينما نغرق في رواية واحدة منها ولنقل (The heart of Midlothian) لابد وأن يأتينا خاطر مؤداه أن المؤلف

الذي يؤلف كل عام رواية على هذا النسق طوال عقد من الزمان لابد أن يكون واحدا من معجزات عصره (واحد من بين عباقرة عصره) ورأيناه يقوم بدور البارون الإقطاعي في أبوستفورد (حصل على رتبة فارس في سنة ١٨٢٠) ومع ذلك كان يقابل كل الناس برقة ولطف وبساطة، وكان كما قال بوشكين أشهر مؤلفي عصره من أدنبره إلى سان بيتر سبرج ومع هذا كان يضحك من قلبه عندما يسمع من يقارنه بشكسبير. وكانت قصائده ورواياته عناصر فعالة في الحركة الرومانسية رغم أنه كان لايأنس كثيرا للأوهام الرومانسية. وقد شارك في أحياء الاهتمام بالأساليب التي شاعت في العصور الوسطى، ومع هذا فقد حث الإسكتلنديين على التخلي عن مثل ماضيهم الإقطاعي وأن يتواءموا مع الوحدة (Union) (المقصود في ظل المملكة المتحدة التي ستمزج الشعبين - ببطء - معا (المقصود الشعبين الإسكتلندي والإنجليزي) ليصبحا شعباً واحدا. وعندما كبر في السن أمتع نفسه بوطنية حزب التوري (المحافظين) والتزامه بألا يكون في الدستور البريطاني أي نقص.

وفي هذه الأثناء كان طابعه (البالانتين) وناشره أرشيبالد كونستابل يقتربان من الإفلاس. وفي سنة ١٨٢٦ سلما موجوداتهما المتبقية للمحكمة وأصبح السير والتر - باعتباره شريكاً لهما - مسؤولاً من الناحية القانونية عن ديون الطابع Ballantynes. والآن، وأخيرا، علمت أوربا أن سلسلة روايات ويفرلي Waverley هو صاحب أبوتسفورد، وسمحت له المحكمة بالاحتفاظ ببيته وبعض الأكرات (الأكرهو الفدان الإنجليزي) وراتبه على أن تصادر بقية ممتلكاته. وظل رغم هذا يعيش عيشة رضية وواصل إصدار رواية إثر رواية على أمل أن يؤدي عائدها إلى الوفاء بديونه. وفي سنة ١٨٢٧ أصدر كتابه حياة نابليون الذي أطلق عليه أحد المفكرين عبارة « إنه تجديف على الله في عشرة مجلدات » فقد كاد يعري فيه هذا الكورسيكي من كل فضيلة لكنه - أي الكتاب - أبهج البريطانيين وقلص ديون المؤلف شيئا ما. ويعكس ما تبقى من إنتاجه تسرعه وعدم اطمئنانه. ففي سنة ١٨٣٠ / ١٨٣١ عانى من عدة لطمات، واعتلت صحته، وخصصت له الحكومة فرقاطة لتجول به تحت شمس البحر المتوسط لكن المرض اشتد عليه فعادت به السفينة بسرعة على أمل أن يموت في أبوتسفورد الحبيبة إليه (١٨٣٢) وثمة ناشر آخر - روبرت كادل Cadell -

أخذ على عاتقه ماتبقى من ديونه (٧٠٠٠ جنيه إسترليني) وحقوق النشر، وكوّن ثروة نتيجة ذلك، وظلت روايات سكوت منتشرة حتى نهاية القرن. وكان وردزورث يظن أنه «أعظم روح في جيله[٩]».

٢- الأيرلنديون

بلغ عدد سكان أيرلندا في سنة ١٨٠٠ نحو ٤,٥٥٠,٠٠٠ نفس منهم ٣,١٥٠,٠٠٠ من الأروام (الكاثوليك التابعين لبابا روما) و٥٠٠,٠٠٠ من البروتستنط الاسقفيين و٩٠٠,٠٠٠ من المذاهب البروتستنطية المنشقة (خاصة في ألستر Ulster) ومنح الكاثوليك حق التصويت في سنة ١٧٩٣ ومن ثم أصبح من حقهم شغل معظم وظائف الخدمة المدنية لكنهم ظلوا بعيدين عن المناصب العليا وعن منصة القضاء وعن البرلمان الأيرلندي، وسمح للكاثوليك بانتخاب مرشحين بروتستنط لحكم أيرلندا. وكان الملك أو وزراؤه يعينون ليفتنانت أو نائب ملك بروتستنطي كمسؤول تنفيذي في أيرلندا، وسمحوا له بحكم الجهاز الإداري - وإلى حد كبير البرلمان الأيرلندي - باستخدام الرشوة، وتوزيع أو بيع الوظائف الشاغرة (المفهوم لغير مستحقيها)[١٠].

وحتى سنة ١٧٩٣ كانت كل الأرضي الزراعية في أيرلندا يمتلكها بروتستنط سواء من البريطانيين أو الأيرلنديين، وبعد سنة ١٧٩٣ سمح لعدد قليل من الكاثوليك بشراء أراض. أما الباقون فكانوا من المستأجرين الذين يزرعون قطعا صغيرة من الأراضي، أو أجراء في المزارع أو المصانع. وكانت الإيجارات والعشور تُجْبى بانضباط شديد حتى عاش معظم الفلاحين الأيرلنديين في فقر لا يرجى الخلاص منه. لقد كانوا فقراء جدا وكانوا محرومين من التطلع لشراء الآلات الجديدة التي كانت تضاعف الإنتاج الريفي في بريطانيا، فظلت الزراعة في أيرلندا تقليدية لاتحرز تقدما. وكان ملاك الأراضي الزراعية الكبار غائبين يعيشون في إنجلترا وكانوا يستنزفون أيرلندا بكل ما أمكنهم من جهد دون رعاية لمصالحها[١١]. ففي منطقة المصانع في دبلن كان الفقر أشد فتكا منه في الريف. لقد عوقت الصناعة الأيرلندية بالجمارك الباهظة التي منعت استيراد القطن الخام، وبالقوانين والإجراءات التجارية التي

منعت – إلى حد كبير – المنتجات الأيرلندية – باستثناء المنتجات المصنوعة من الكتان – من منافسة المنتجات البريطانية في أسواق الإمبراطورية[١٢]. وقد كتب شيلي بعد أن رأى أحوال عمال المصانع في دبلن سنة ١٨١٢: « لم أر بؤسا بشريا أعمق من ذلك حتى الآن[١٣] » وكان الأيرلنديون الكاثوليك يدفعون الأعشار مثل كل السكان لدعم الكنيسة البروتستنطية في أيرلندا، لكنهم بالإضافة لهذا استمروا من خلال الإسهامات التطوعية يدعمون رجال الدين الكاثوليك الذين كانوا قد جردوا من ثرواتهم. وكان من الطبيعي أن تمول كنيسة روما حركة الأيرلنديين الساعية للاستقلال، وبالتالي فقد اكتسبت حب الأيرلنديين الكاثوليك وولاءهم. ونجد هنا أن الثورة الاجتماعية كانت عادة دينية محافظة، وكان الليبراليون من أمثال توماس مور Moore رغم صداقتهم للشكوكيين من أمثال لورد بايرون لم يبتعدوا علنا عن الكاثوليكية الأصولية (التقليدية).

وقد كان الثائر الذي قاد الثورة ضد استغلال أيرلندا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بروتستنطيا هو هنري جراتان H. Gratan (١٧٤٦ – ١٨٢٠) وكان تابعا لمدرسة (منهج) أيرلنديين آخرين هما بورك Burke وشريدان Sheridan. وكان يؤمن بسلطان العقل وكان يعبر عن آرائه ببلاغة، وبهذا السلاح أحرز بعض الانتصارات التي وإن كانت محدودة إلا أنها كانت ذات مغزى: سحب قانون الاختبار Test Act إذ كان يتطلب الخضوع لكنيسة إنجلترا كشرط أساسي لعضوية البرلمان، وإزاحة أكثر القيود صرامة من أمام التجارة الأيرلندية، والاعتراف بأن ملك إنجلترا وحده بموافقة برلمان أيرلندا، هو صاحب الحق في إصدار التشريعات لأيرلندا، بمعنى أن التشريعات الصادرة عن البرلمان الأيرلندي لاتحتاج لموافقة برلمان بريطانيا العظمى. وعلى أية حال فإن جراتان قد فشل في دعوته إعطاء الحق لكاثوليك أيرلندا في دخول البرلمان الأيرلندي، فظلت أيرلندا بلدا كاثوليكيا تحكمه حكومة بروتستنطية.

وتبنى ثيوبالد ولف تون Tone (١٧٦٣ – ١٧٩٨) القضية. لقد تخرج – مثل جراتان – في كلية التثليث في دبلن، واتجه إلى لندن لدراسة القانون، وعندما عاد شارك في تنظيم جمعية الأيرلنديين المتحدين Society of United Irishmen (١٧٩١) التي كان هدفها

تحقيق التعاون بين البروتستنط والكاثوليك في أيرلندا للمطالبة بالإصلاح الاجتماعي والسياسي. لقد نظم تون بحماس شديد وطاقة لاتنفد ميثاقا كاثوليكيا أدى برنامجه العملي إلى إرهاب البرلمان الأيرلندي فسارع بإعطاء حق الانتخاب للكاثوليك ولم يقنع تون بهذا ففي سنة ١٧٩٤ دخل في مفاوضات مع وليم جاكسون الذي كان يمثل بشكل سري لجنة الأمن العام التي كانت تحكم فرنسا التي كانت آنئذ تخوض حربا ضد بريطانيا - واكتشف أمر جاكسون وتم القبض عليه فهرب تون إلى الولايات المتحدة ومنها إلى فرنسا حيث حث لازار كارنو Carnot عضو اللجنة للموافقة على قيام فرنسا بغزو أيرلندا. وتلقى الجنرال لازار هوش Hoche أمراً بجعل تون جنرالاً مساعدا والتوجه إلى أيرلندا في ١٥ ديسمبر ١٧٩٦ بست وأربعين سفنية وأربعة عشر ألف مقاتل، وفشلت الحملة بسبب عاصفة شديدة قبالة سواحل إنجلترا وجنحت معظم سفنها، لكن تون بقي على قيد الحياة وصحب قوة فرنسية أصغربهدف مساعدة أيرلندا فوقعت هذه القوة في الأسر وحكم على تون بالشنق لكنه تخلص من حياته بأن قطع حنجرته بنفسه في السجن في نوفمبر ١٧٩٨.

وفي هذه الأثناء تحول السخط الأيرلندي من الحكم البريطاني إلى ثورة عامة، ورأى رئيس الوزراء البريطاني بت Pitt تهدئة الحركة بالتصالح معها، فسمح للدوق بورتلاند وزير الداخلية (الذي تدخل في اختصاصه أمور أيرلندا) أن يعين وليم ونتورث ممثلا للتاج وهو معروف بتعاطفه مع الأيرلنديين. وبعد ثلاثة أشهر (من يناير إلى مارس ١٧٩٥) قدم خلالها مزيدا من التنازلات للأيرلنديين لم ير بت Pitt أنها تنازلات حكيمة، فتم استدعاؤه وأصبحت المقاومة الأيرلندية حرباً بكل معنى الكلمة، وفي وقت من الأوقات انضم البروتستنط الأيرلنديون للكاثوليك في مهاجمة الحكم الأجنبي، لكن في ألستر Ulster حيث كان البروتستنط أغلبية وجدناهم سرعان ما انقلبوا على الكاثوليك الأيرلنديين وتحول موقفهم من التعاون معهم إلى معارضتهم خوفاً من أن يؤدي نجاح الثورة الأيرلندية إلى وقوعهم (أي وقوع البروتستنط) تحت السيطرة الكاثوليكية. وفي سبتمبر سنة ١٧٩٥ كون البروتستنط في ألستر الجمعية البرتقالية (جمعية الأورانج Orange Society وانضموا لجماعة «Peep - of - Day Boys» في إحراق وتدمير بيوت الكاثوليك وكنائسهم فهرب مئات

الكاثوليك من الستر خوفا من مذبحة ، وراح البروتستنط ينسحبون بشكل متزايد من جماعة أيرلندا المتحدة. وحمل الكاثوليك أسلحتهم وأحكموا سيطرتهم على عدة كونتيات Counties (دوائر أو مديريات) وتقدموا صوب الحصون الحكومية في دبلن. وظن جراتان Grattan أنه قد يحقق السلام باقتراحه في البرلمان الأيرلندي أن يتاح للكاثوليك عضوية البرلمان الأيرلندي فلقي اقتراحه معارضة عامة لأنه سيحيل البرلمان الأيرلندي إلى قوة كاثوليكية (وكان للإيرلنديين في ذلك حق الانتخاب لمرشحين بروتستنط) وطلب الجنرال - البريطاني دعماً وتلقاه بالفعل وأعلن الأحكام العسكرية، وتحولت العاصمة التي كانت سعيدة مرحة إلى جهنم وانتشر فيها القتل طوال أسابيع، وانتصرت الحكومة إذا كان المعيار هوعدد الجثث وفي خريف ١٧٩٨ كانت الثورة قد قمعت.

لكن بت Pitt كان يعلم أن هذا القمع ليس هو الحل وأن تحت الرماد لهيب نار يمثل خطراً كبيرا على بريطانيا. وبحلول عام ١٨٠٠ كانت إنجلترا في حروب مستمرة مع فرنسا طوال سبعة أعوام أصابها فيها من الاضطرابات والفوضى ما أصابها بسبب الثورة الفرنسية وأفكارها. والآن فقد أعاد - على أية حال - نابليون النظام إلى فرنسا كما أعاد القوة لجيوشها، وكان يشيد أسطولا سرعان ما سيتحدّى بريطانيا في سيطرتها على البحار. وكانت أيرلندا النافرة غير الموالية على شفا الثورة دائما، تمثل دعوة يومية لنابليون لقيادة قواته عبر القنال الإنجليزي، ليتحالف الكاثوليك مع الكاثوليك ويتم تنظيم أيرلندا لتكون قوة معادية يتم غرسها في جنب بريطانيا. وشعر بت Pitt بضرورة إيجاد سبيل لتوحيد أيرلندا مع بريطانيا بطريقة آمنة في ظل برلمان واحد وملك واحد، فإذا ما أمكن تحقيق ذلك، أعطى حق الانتخاب للجميع على قدم المساواة وحق الترشيح - وبالتالي الوصول لعضوية البرلمان - للجميع دون تفرقة بين بروتستنطي وكاثوليكي، ليس في أيرلندا فقط وإنما في إنجلترا وإسكتلندا وويلز أيضاً، وأصبح شغل الوظائف والمناصب العليا مُتاحاً للجميع أيضاً على سواء، وأن يكون هناك برلمان واحد يضم البروتستنط والكاثوليك على سواء في لندن، وأن تقدم الحكومة رواتب لرجال الدين المعارضين ورجال الدين الكاثوليك أسوة برجال الدين في الكنيسة الرسمية[١٤]. وبهذه الطريقة لا يكون الدين عامل سخط وثورة وإنما قوة

للوحدة الوطنية والرضا العام.

ومثل هذه الخطة التي كان نابليون قد تبناها قبل ذلك بعام بوفاقه مع الكنيسة الكاثوليكية – واجهت معارضات مختلفة فالأيرلنديون الكاثوليك تشككوا في أنها مجرد قناع لاستمرار سيطرة إنجلترا على أيرلندا، واعترض الأيرلنديون البروتستنط لأن هذه الخطة قد تؤدي إلى أن يحكمهم الكاثوليك المنتصرون الذين قد ينتقمون منهم ويجردونهم من ممتلكاتهم. ولم يكن أعضاء البرلمان الأيرلندي راغبين في حل برلمانهم. وراح بت Pitt يأمل أن يؤدي اتحاد ايرلندا مع إنجلترا على المدى الطويل مع حرية التجارة في مختلف أنحاء الإمبراطورية سيؤدي إلى انتعاش الاقتصاد الإيرلندي مما سيرضي الايرلنديين ويؤكد اتحادهم مع إنجلترا كما كان الحال بالنسبة للاسكتلنديين، وكان بت Pitt يرى أن هذه الخطة سترضي الأيرلنديين وتجعلهم يقبلون حكم الأغلبية البروتستنطية في بريطانيا. وجرى حث البرلمان الأيرلندي على حل نفسه (وتم هذا في أول أغسطس سنة ١٨٠٠) واستخدمت أساليب عدة لتحقيق هذا الهدف منها توزيع الأموال بسخاء ومنح كثير من رتب النبالة، والمناصب الشرفية (التي يتقاضى شاغلها راتبا دون عمل حقيقي يؤديه[١٥]) ولعب التجار الأيرلنديون دورا مهما في حث البرلمان الأيرلندي على حل نفسه، وهكذا أصبحت أيرلندا حتى سنة ١٩٢١ يحكمها البرلمان البريطاني الذي كان فيه لأيرلندا ممثلون (نواب) في مجلس اللوردات ٢٨ من اللوردات الدنيويين وأربعة من اللوردات الروحانيين (الأساقفة ورؤساء الأساقفة) ومائة عضو في مجلس العموم.

ومما قلل نسبيا من النجاح الواضح الذي حققه بت Pitt أنه كان غير قادر على كسب الملك لصالح خطته. فقد رفض الملك جورج الثالث الموافقة عندما اقترح بت تنفيذ وعده الضمني بإكمال المساواة السياسية للكاثوليك وفي هذا الكيان السياسي الجديد المسمى «المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وأيرلندا» وكان رفضه قائما على أساس أن قسمه عندما تولى الملك يلزمه بحماية كنيسة إنجلترا الرسمية. وعندما ضغط عليه بت Pitt ألمح الملك إلى العودة للوضع السابق، فرضخ بت وشعر بالخطر واستقال في ٣ فبراير ١٨٠١، وهكذا أجل موضوع التحرر الكاثوليكي الكامل، وكان عليه الانتظار حتى سنة ١٨٢٩.

وخلص معظم القادة الأيرلنديون إلى أنهم قد خدعوا وأن بت لم يكن ينوي أبداً إنجاز وعده. وظهرت مقاومة الاتحاد مع إنجلترا باعتبارها إلحاقا أوضما فعليا. وفي سنة ١٨٠٣ قاد روبروت إميت Emmet جماعة انتحارية في ثورة جعلته من أحب الأبطال في التاريخ الأيرلندي، والأغاني الأيرلندية. وكان قد ولد في دبلن (١٧٧٨) وكان أصغر أبناء طبيب نائب الملك. وكان على وشك التخرج في كلية التثليث Trinity College بمرتبة الشرف عندما حذف اسمه من سجل الخريجين احتجاجاً على التحقيقات التي تجريها الحكومة فيما يتعلق بوجهات النظر السياسية للخريجين، وانضم إلى العصبة الأيرلندية United Irishmen (الأيرلنديين المتحدين) التي كان أخوه الأكبر توماس سكرتير مجلسها الأعلى. وكان توماس يناهض العنف الثوري ولكن روبرت ذهب إلى فرنسا ووجد قبولا عند نابليون وحثه على تكرار محاولة غزو أيرلندا فلما فشل في إقناع نابليون عاد إلى دبلن وجمع السلاح والناس وخطط للقيام بهجوم على حصن دبلن وعندما علم أن الحكومة اكتشفت مؤامرته وأمرت بالقبض عليه شكل – على عجل – قوة من ١٦٠ رجلا واتجه للحصن. وفي طريقهم قابلوا لورد كلراردن Kilwarden رئيس العدالة في أيرلندا فقتله الرجال الثائرون غير المنضبطين كما قتلوا ابن أخيه في البقعة نفسها. وتحقق إميت Emmet أنه لابد الآن من قمع حركته، ففر. واختبأ لفترة في جبال وكلو Wicklew. وكشف نفسه باقترابه من منزل خطيبته ساره كوران Sarah Curran ابنة جون فيلبوت كوران وهو بروتستنطي مدافع عن القضية الأيرلندية، فتم القبض عليه وحوكم بتهمة الخيانة وحكم عليه بالإعدام. ويمثل حديثه للمحلفين نموذجا للبلاغة الأيرلندية الكلاسية:

«طلب واحد أرجو تحقيقه عند مغادرتي هذه الدنيا: أن تتكرّموا عليّ بالصمت. لاتدعوا أحدا يكتب على شاهد قبري شيئا، فلا أحد ممن يعرفون دوافعي الآن يجرؤعلى الدفاع عنها. لاتدعوا الظلم والجهل يلوثان أهدافي ودوافعي دعوا دوافعي وأهدافي ودعوني في طي النسيان وفي هدوء وسلام. وليبق قبري وليس عليه كتابة. ولتبق ذكراي في طيّ النسيان حتى يأتي وقت آخر ورجال آخرون يمكنهم أن يحكموا بعدل في أمري. وعندما تأخذ أمتي مكانها بين أمم الأرض اكتبوا شاهد قبري. اكتبوه ساعتها وليس قبل ذلك»[١٦].

الفصل الرابع والعشرون

بت ونلسون ونابليون

[١٧٨٩ - ١٨١٢]

١- بت Pitt والثورة

شغل وليم بت الثاني في سنة ١٧٨٣ منصب مستشار وزارة المالية البريطانية ووزيرا للخزانة. لقد كان هو الذي جمع أموال المملكة ووزعها فحق له أن يكون سيد الجزر البريطانية وراعي اندماج وحداتها.

وكاد يجمع في إهابه كل مزايا البريتون، فهو ينحدر من أسرة بارزة وتفهّم السياسات العالمية وأمورالمالية العليا والطباع الحسنة من أبية المتألق المتسم بالمحافظة ومن الحاشية المحيطة به (بأبيه)، وكان أبوه هو إيرل شاثام Earl of Chatham. وتلقى بت أفضل أنواع التعليم الخاص، وكان أبوه في كثير من الحالات هو معلمه. ودخل البرلمان وهو في الحادية والعشرين من عمره وتولى أمر إنجلترا وهو في الرابعة والعشرين. لقد سحق المعارضة بتحفظه واعتزازه وبفكره ومنطقه أكثر مما فعل بإثارته العواطف وتوظيفه لبلاغته وفصاحة لسانه، لقد سحقها برؤيته الثاقبة الراسخة ومعلوماته عن المالية العامة وإتقانه لدقائقها. وكان قد قرأ كتاب آدم سمث عن ثروة الأمم وأعجب به واتفق مع سميث في فلسفته عن الاقتصاد الحر وحرية التجارة. لقد أيد – وهو الأرستقراطي – مطالبة الفئة التجارية الصاعدة (المرسانتيل) والبورجوازية الصناعية بأن يمثلوا تمثيلا كاملاً في البرلمان وفي السياسة البريطانية، فبثرواتهم المنسابة (بسيولتهم النقدية) حارب نابليون، بينما كانت ثروات الأرستقراطية يصعب تعبئتها لهذا الغرض لأنها تتمثل في الأراضي التي يمتلكونها فأسهموا بأدوار استشارية ودبلوماسية وأخرى متعلقة بالبروتوكول. وأسس بت نظاما ماليا لتسديد الدين الوطني (بتخصيص أموال خاصة لهذا الغرض) ونجح في تقليص هذا الدين حتى استنفدت الحرب كل شلن يمكن الحصول عليه من الشعب. لقد بذل جهدا شديدا لكن بدون نتيجة لتقليص البلدان الصغرى (مدن أو قرى) rotten boroughs (البلدان التي كانت قبل سنة ١٨٣٢

تمثل في البرلمان الإنجليزي بنائب واحد أو أكثر) رغم أنه استخدمها في بداية شغله لمناصبه. وأيد نقل قرار الحكم في الالتماسات القانونية من القاضي إلى هيئة محلفين علنية. وحمى الصحافة في كشفها للفساد الحكومي، وأيد ويلبرفورس في معركة طويلة ضد تجارة الرقيق. لقد هزمه نابليون وحطم روحه لكن بريطانيا التي كان بت قد أعاد تنظيمها وضبط ماليتها وبث فيها الروح هي التي هزمت نابليون.

وكاد الملك البريطاني يتساوى مع قنصل فرنسا (نابليون) في كم المشاكل التي يواجهها، فكاد - أي جورج الثالث - يأخذ بنصيحة بت Pitt في كل شيء إلا في حق الكاثوليك في المساواة الكاملة، غير أن الملك الهرم كان قابلا للانتكاس إلى درجة الخبل في أية لحظة، تماما كما فعل في الفترة من ١٧٨٨ إلى ١٧٨٩، وفي أثناء مثل هذه الانتكاسات كان أمير ويلز يحوم دوماً بالقرب من العرش - ذلك الأمير الذي كان الوثن المعبود لحزب الهويج (الأحرار) والذي كان صديقا لشارلز جيمس فوكس الذي لم يتفق مع بت Pitt سوى في حب النبيذ...(*) ولفترة ظل جورج الثالث متوقعا الموت، لكنه شفي - وإن ظل ضعيفا مترددا، فركن لحكم بت.

وعندما تولى رجل الدولة الشاب الحكم كانت إنجلترا قد بدأت لتوها تفيق من الحروب المدمرة مع مستعمراتها الأمريكية. لقد بدت بريطانيا مدمرة عسكريا في مواجهة فرنسا المفلسة إلا أنها منتصرة، وإسبانيا المزدهرة والمتنورة تحت حكم شارل الثالث، وروسيا التي وسعت رقعتها تحت حكم كاترين الثانية ونظمت جيوشا هائلة وابتلعت نصف بولندا وراحت تتآمر لتقسيم المناطق الأوربية التابعة لتركيا (الدولة العثمانية) بينها وبين جوزيف الثاني، إمبراطور النمسا. والآن فإن أمن إنجلترا يعتمد على أمرين: سيطرتها على البحار، وتوازن القوى السياسية في أوربا، فإذا اختل التوازن بسيطرة طرف من الأطراف لأمكنه أن يملي على إنجلترا ما يريد دون إغلاق أسواق القارة الأوربية في وجه البضائع الإنجليزية، وهون موت جوزيف الثاني من أمر التهديد الشرقي Eastern threat وترددت كاترين وأوشك بت على التركيز على الأمور الداخلية تاركاً أمور السياسة الخارجية في المحل الثاني لولا إعلان

(*) النص .only in loving wine this side of paralysis ..

الثورة الفرنسية أنها ستعطي الدول الملكية دستورا فإن لم تقبله دمرتها. ويوما بعد يوم كانت هذه الأخبار المثيرة تعبر القنال الإنجليزي: جماهير المدينة (باريس) يقتحمون الباستيل، تم التخلي عن الحقوق الإقطاعية، دولة لادينية تصادر ممتلكات الكنيسة، جحافل النساء تتقدم إلى فرساي وأجبرن لويس السادس عشر وماري أنطوانيت على ترك فرساي والعيش في باريس تحت رقابة الجماهير.

وفي البداية لم يكن بت منزعجا بقدر انزعاج أصدقائه من الطبقة العليا، ففي إنجلترا دستور بالفعل امتدحه عدد كبير من الفرنسيين المشاهير بل وحسدوا إنجلترا عليه لكن وجود اضطراب - مهما قل - في فرنسا لابد أن يوضع في الاعتبار: فإنجلترا لا يمكنها في حال وجود هذا الاضطراب أن تعكف مطمئنة على أمورها الداخلية[1] وفي الوقت الذي كان فيه الأرستقراطيون مضطربين كان رجال الأدب في بريطانيا في حالة سعادة - جودون، ووردزوورث، وكولردج، وسوثي، وكوبر Cowper وبيرنز Burns. ففي ٤ نوفمبر ١٧٨٩ تأثر أعضاء «جمعية إحياء ذكرى ثورة ١٦٨٨» تأثرا شديدا بعظات الداعية ريتشارد بريسي Price وهو داعية مناهض للتثليث المسيحي Unitarian (موحد) حتى إنهم أرسلوا يهنئون الجمعية الوطنية في باريس معبرين عن أملهم في أن يكون «النموذج العظيم الذي قدمته فرنسا» حافزاً للأمم الأخرى لتأكيد حقوق الإنسان[2] ووقع رئيس الجمعية الإيرل الثالث ستانهوب Stanhope الرسالة وهو زوج أخت وليم بت. وانتشرت خطب بريسي Price الآنف ذكره في كل أنحاء بريطانيا، وكانت هذه الخطب كنشرات تكاد تدعو للثورة.

«تشجعوا يا كل الأصدقاء، ولتصبوا إلى الحرية واكتبوا دفاعاً عنها، فبشارات النجاح قد هلت طلائعها، فلم يكن جهدكم بلاطائل. انظروا الممالك وقد أيقظتموها فهبت من سباتها وكسرت قيودها وطالبت ظالميها بالعدالة! انظروا النور الذي أطلقتموه، فبعد تحرر أمريكا، انعكس النور على فرنسا، ففيها تحول إلى لظى أحرق الطغيان (الحكم المطلق) فأدفأ أوربا وأضاءها!

«الويل لكم يا طغاة العالم! خذوا حذركم يا كل من يساندون الحكومات الحقيرة الذليلة وكل النظم الطبقية الخسيسة!... إنكم لن تستطيعوا الآن منع النور عن العالم، ولن

تستطيعوا فرض الظلمة عليه . . أعيدوا للبشر حقوقهم واقتنعوا بإصلاح ما أفسدتموه، قبل أن يلحقكم الدمار وما تأفكون[٣] » .

وكان هذا أكثر مما يستطيع إدموند بورك Burke تحمله فلم يعد هو الخطيب المفوّه المدافع عن قضية المستعمرات الأمريكية (المقصود المستعمرات البريطانية والفرنسية في أمريكا) أمام البرلمان . لقد بلغ الستين من عمره الآن، وكان قد لزم داره ومزرعته واستعاد إيمانه الديني الذي كان عليه في شبابه . وفي ٩ فبراير سنة ١٧٩٠ بدأ – في مجلس العموم مناقشات أنهت صداقته القديمة مع شارلز جيمس فوكس : «إن الخطر الحالي الذي يواجهنا هو الفوضوية أو انعدام الحكومة ومايتبع ذلك من فوضى سياسية واجتماعية . هذا الخطر الناتج عن الإعجاب بما حققه العنف من نجاح وما حققه الخداع من مكانة . إنه إعجاب بالديموقرطية المسفة الطاغية حيث يغيب العقل وتضيع المبادئ ويكون النفي والإبعاد وإهدار الدم ومصادرة الممتلكات والسلب والنهب والقسوة، والدموية . فإلي جوار الدين لايأتينا الخطر من التسامح وإنما من الإلحاد الذي يبدو واضحا في فرنسا لمدة طويلة كامنا في كل نزاع وواضحا ويكاد يكون معلنا، مع أن الإلحاد غباء ورذيلة لاتقرها الطبيعة وعداء لكل وقار البشر واتحادهم[٤] » وفي نوفمبر ١٧٩٠ أصدر بورك كتابه (تأملات في الثورة الفرنسية) الذي جعله على شكل خطاب إلى رجل مهذب في باريس، وقد استغرق هذا الخطاب (الكتاب) ٣٦٥ صفحة . لقد أدان الدكتور بريس Price « وجمعية إحياء ذكرى الثورة » : لقد كان من رأيه أن ينشغل رجال الدين بعملهم وهو الدعوة للفضائل المسيحية ولا دخل لهم بالإصلاحات السياسية، فهذه الفضائل تتغلغل في لب الأمور – ميل الطبيعة البشرية للشر، أما الإصلاح فلا يغير سوى الأشكال السطحية للشر فلا سبيل للسياسة لتغيير طبيعة البشر . فحق الاقتراع للجميع تضليل واحتيال يستخدم فيهما الخداع : فإحصاء الأنوف noses لن يؤثر في توزيع السلطة واتخاذ القرارات والنظام الاجتماعي شيء لابد منه لضمان أمن الفرد، وهذا النظام يصبح لا بقاء له إذا أصبح كل فرد حرا في التمرد ضد القانون الذي لايعجبه . فالأرستقراطية لا بد منها لأن وجود الأرستقراطية يتيح للأمة حكاما مدربين ذوي عقول صالحة . والملكية (بفتح الميم واللام) مطلوبة فهي نظام طيب لأنها تعين في الظروف

الصعبة على إعادة الانضباط والتوافق بين عناصر الأمة، مع وجود الوحدة أيضا، فالملكية تمثل استمرارا تاريخيا، كما أنها تعطي الإحساس النفسي بالانتماء لكيان واحد (الوحدة).

وبعد شهرين من هذا البيان التاريخي الناري نشر بروك (خطاباً إلى عضو الجمعية الوطنية الفرنسية)، وفي هذا الخطاب قدم لنا أساساً فلسفيا للاتجاه المحافظ Conservatism (وقدمه أيضا بشكل أكثر اكتمالا في : خطاب إلى لورد نبيل ١٧٩٦) إن أي فرد مهما أوتي من العلم والعبقرية لايمكنه بعمره المحدود أن تكون لديه الحكمة والمعرفة اللتان تكفلان له الحكم الصحيح على هذا التراث وتلك التقاليد المتوارثة المعقدة والمصقولة (المهذبة) والدائمة، ذلك التراث وتلك التقاليد المشتملة على تجارب المجتمع والأمة وأحكامهما. إن هذه التقاليد المتوارثة هي تيار تدفق مارا بآلاف الخبرات والتجارب في معمل عظيم اسمه التاريخ. ما كان للحضارة أن تظهر «إذا لم تكن أسباب ممارسة الواجبات المعنوية وأسس المجتمع واضحة ومقنعة لكل فرد(٥)». وعلى هذا فالدين لايمكن شرحه إلا بجهد جهيد للشباب لقلة معلوماتهم، وابتهاجهم بالتحرر العقلي. إن هؤلاء الشباب لن يقدروا ما يؤديه الدين من خدمات في ضبط المجتمع والحد من غرائز الأفراد والنزاع الفردي غير المنضبط إلا بعد أن تصبح لديهم خبرات كثيرة عن الطبيعة البشرية وبعد أن يدركوا قوة الغرائز البدنية. «وإذا كان لابد أن نكشف عرينا ونهتك سترنا (بإطلاق غرائزنا) بتخلينا عن الدين المسيحي .... الذي كان أحد المصادر الكبرى لحضارتنا.... فلا بد أن نتوقع شرا، فلا بد أن خرافات ومعتقدات أخرى ستحل محلها... معتقدات خرقاء مؤذية مهلكة ومنحطة(٦)».

وعلى النحو نفسه فمن الصعب أن نشرح لشاب قد ركن إلى العقل منذ فترة وجيزة وهو يحسد جاره لفضائله، أن الانسان ذا القدرات الفائقة لن يمر خلال تدريبات طويله ومكلفة لتحصيل مهارات مفيدة اجتماعيا أو لحث نفسه على وضعها موضع التنفيذ إلا إذا سمح له بالاحتفاظ بقدر من أمواله كهبة لأولاده. وأكثر من هذا فإن المجتمع البشري ليس مجرد تجمع أشخاص في مكان وإنما هو أيضا توالي الأشخاص (الأجيال) عبر الزمن - إنه من أشخاص وافتهم منيتهم وأشخاص لا يزالون أحياء أو لم يولدوا إنه استمرار للأبدان والدماء نفسها عبر الأجيال. هذه الاستمرارية موجودة فينا بشكل أعمق أكثر من اجتماعنا في بقعة

محددة من الأرض، لأنه يمكن حملها (أي هذه الاستمرارية) حتى ونحن نعبر مهاجرين من مكان إلى مكان. كيف نوضح هذا للصبية boys الذين تتفجر طموحاتهم الفردية وكبرياؤهم المغرور الذي يجعلهم - بطيش - مستعدين للانفلات من الالتزامات الخلقية أو الروابط العائلية؟

لقد حيّا القادة المحافظون في بريطانيا - بامتنان وبهجة - هذا اللحن الحزين الصادر عن بورك Burke ينعى فيه عالما يحتضر (المقصود باللحن الحزين هنا أفكاره الآنف ذكرها) وقبل رجال من ذوي الأحكام الناضجة المنشورات الثلاثة التي أصدرها كإسهام مميز في مجال الفلسفة الاجتماعية والسياسية، وقد تحمس لها كولردج في أواخر أيامه كحماسه في وقت من الأوقات للثورة. لقد كتب كولردج في سنة ١٨٢٠ «لا أتصور ألا تكون لكتابات بورك في أي وقت من الأوقات وفي أية حال - قيمة عظيمة كأعظم ما تكون القيمة... إنني لا أستطيع أن أضيف إليها كلمة كما لا أستطيع أن أحذف منها كلمة[٧]». ودافع اثنان من البريتون Briton - من بين كثيرين - عن الثورة: السير جيمس ماكنتوش في كتابه (الحجج الغاليّة[*]). وتوماس بين Paine في كتابه (حقوق الإنسان) - وصدر كلاهما في سنة ١٧٩١. لم يكن قد مضى على الثورة (الفرنسية) آنئذ إلا عامان، لكنها كانت قد أنجزت عملها الرئيسي - أعطت فرنسا دستورا إصلاحيا وأنهت الامتيازات الإقطاعية وأقرت حرية الكلام والصحافة والاجتماعات واستولت على أملاك الكنيسة لإنقاذ الدولة من الإفلاس، فلم يكن الدور التدميري للثورة قد حل بعد، وفي ظل هذه الظروف (عدم وصول الثورة الفرنسية إلى مرحلة التدمير) كان ماكنتوش يستطيع الرد على بورك بقوله: إن الثورة الفرنسية كانت احتجاجا شرعيا ضد حكومة غير عادلة ولا تتسم بالكفاءة. وكان في استطاعة بين Paine أن يدلل أنه لا يوجد تراث أو تقاليد يمكنها أن تنكر جهود المصلحين وأن الحقوق التي أعلنتها الثورة الفرنسية هي الميثاق الصحيح لدولة حديثة.

لكن بين Paine ذهب إلى ما هو أبعد كثيرا. لقد طالب بالجمهورية بدلا من الملكية والأرستقراطية، وطالب بالضرائب التصاعدية التي قد تؤدي إلى إعادة توزيع الثروات

(*) نسبة إلى بلاد الغال (فرنسا). (المترجم)

المكدسة مما قد يقضي على البطالة والفقر ويتيح التعليم لكل طفل، ويتيح معاشا لكل شيخ. وراح بين Paine يعيد صياغة حقوق الإنسان مستخدما المصطلحات التي استخدمها روسو:

١- يولد الناس أحرارا ويظلون دوما أحرارا متساوين في الحقوق. وبالتالي فالفوارق المدنية لا ينبغي الإبقاء عليها إلا للصالح العام.

٢- هدف كل التنظيمات السياسية هو الحفاظ على حقوق الإنسان الطبيعية التي لا تتغير بمرور الزمن. وهذه الحقوق هي الحرية، والملكية (بكسر الميم) والأمان ومقاومة الظلم.

٣- الأمة هي مصدر السلطات، فليس لفرد أو مجموعة سلطة مهما كانت إلا إذا كانت منبثقة من الأمة (الشعب).

وقد بيع من كتاب (حقوق الإنسان) هذا خمسون ألف نسخة في أسابيع قليلة، وقد يشير هذا إلى قوة الحركة الراديكالية في إنجلترا في سنة ١٧٩١. لقد انتعشت الجمعيات الراديكالية المختلفة، وكان بعضها أقل راديكالية من الأخرى: جمعية المعلومات الدستورية، جمعية لندن للمراسلة، جمعية أصدقاء الشعب الإسكتلنديين، وجمعية إحياء ذكرى الثورة وأرسلت بعض هذه الجمعيات تهاني للثورة الفرنسية، وقد أسهمت جمعيتان منها في العمل على نشر كتاب بين Paine على نطاق واسع[٨].

ولاحظ بت Pitt ذلك وانزعج له. وكان بت فيما بينه وبين نفسه متأثراً بكتاب بين Paine. لقد قال لابنة أخيه: «إن بين Paine ليس غبيا، ربما كان على حق لكنني إذا نفذت مايريد لوجدت بين لدي غدا آلافاً من قطاع الطرق، وستحترق لندن[٩]». فأصدر أمرا بالقبض على بين Paine ففر إلى فرنسا فحوكم غيابيا وأدين بالخيانة (ديسمبر ١٧٩٢). لقد كان لدى الإنجليز أسباب كثيرة لعدم اتباعهم فرنسا في ثورتها. لقد كانوا قد قاموا بثورة بالفعل في سنة ١٦٤٢ كثورة ١٧٨٩ في فرنسا. وكانت لهم ثورتهم الفكرية قبل الفرنسيين: لقد سبق التركيز على الجانب الربوبي في العقيدة الأورثوذكسية (لا علاقة لهذه الكلمة هنا وفي هذا السياق بالمذهب الأورثوذكسي المعروف وإنما هي أقرب ما يكون إلى

معنى الأصولية) – سبق هذا التركيز حركة التنوير الفرنسية، وكان هذا الاتجاه قد تغلغل متزناً في بريطانيا في الوقت الذي وصل فيه فولتير إلى بريطانيا في سنة ١٧٢٦ . وقد حول الميتوديون (المقابل الحرفي : الحركة المنهجية، والميتوديون أصحاب مذهب مسيحي بروتستنطي) بعض السخط إلى الايمان الديني . وكانت الكنيسة الأنجليكانية كنيسة ليبرالية نسبيا ولم تكن لها ثروات كبيرة تثير حسد جماعة المؤمنين وعداوتهم . وكان الإقطاع قد اختفى ولم تكن هناك رسوم إقطاعية، وكانت نسبة كبيرة من الفلاحين تمتلك الأرض التي تفلحها، وكانت الطبقة الوسطى قد أصبح لها – بالفعل – ممثلون في البرلمان وأصبح لها دور فعال في سياسة البلاد، وكان رئيس الوزراء غالبا ما يؤيد مطالبها . وكان العمال حقيقة يلقون معاملة سيئة من أصحاب العمل والمشرعين، وكان بعضهم يثورون بعنف لكن كانت الحكومة تعتمد على قواتها المسلحة لقمعهم بعنف وتعتمد على القضاء لإصدار أحكام بإعدام زعمائهم . وعندما نشبت الحرب بين إنجلترا وفرنسا تحولت الكراهية بين الطبقات إلى حمى وطنية بمعنى أن التهديد الخارجي وحد بين الجميع لمصلحة الوطن. لقد تخلت الثورة (في بريطانيا) عن مكانها تاركة إياه للإصلاح .

وفي هذه الأثناء كانت فرنسا قد انتقلت من مرحلة التشريع إلى مذابح سبتمبر، وألحق جيشها الهزيمة بالبروس والنمساويين في فالمي Valmy (٢٠ سبتمبر ١٧٩٢)، وانتشرت الحمى الثورية في بلاد الراين الألمانية، وأقام مواطنو مينز Mainz ودارمستادت Darmstadt حكومة شعبية بعد أن أطاحوا بالحكم الإقطاعي وخوفاً من غزو أجنبي ومن عقاب يلحقهم من الجيوش الملكية أرسلوا مبعوثين إلى فرنسا طلباً للحماية . وبعد مداولات أصدرت الحكومة الفرنسية في ١٩ نوفمبر سنة ١٧٩٢ أكثر قراراتها ثورية :

« تعلن حكومة الجمعية الوطنية باسم الأمة الفرنسية أنها ستمد يد العون والأخوة لكل الشعوب الراغبة في استرداد حريتها وستهيئ القوة التنفيذية بإصدار الأوامر الضرورية للجنرالات لتقديم المساعدات لهذه الشعوب وستدافع عن المواطنين الذين سيتعرضون أو قد يتعرضون لمشاكل لدفاعهم عن قضية الحرية[١٠] » .

لقد أدى هذا الإعلان السخي الطائش بجعل كل ملكيات أوربا على الحافة (في موقف

خطر) وكانت حكومة بريطانيا العظمى أكثر وعيا بالخطر القادم من غيرها بسبب تقدم الجيوش الفرنسية في بلجيكا ومطالب فرنسا من هولندا بفتح نهر شلدت Scheldt لكل التجارة، وهذا النهر الذي يبلغ طوله ٢٧٠ ميلا ينبع من شرق فرنسا ويمر خلال بلجيكا ويمر بالقرب القريب من أنتورب Antwerp في هولندا. وهناك ينشعب إلى فرعين يصبان في بحر الشمال. وكانت هولندا وفقاً لصلح ويستفاليا قد أغلقت النهر في وجه التجارة التي لا ترغب في مرورها، وكانت تعطي أفضلية لبريطانيا وتمنع البلجيك، وعلى هذا انهارت أنتورب وانتعشت أمستردام. وفي ٢٧ نوفمبر ١٧٩٢ أعلمت الحكومة الفرنسية إنجلترا قرارها باستخدام القوة لفتح منافذ النهر، فأجاب بت بأن بريطانيا ملتزمة على وفق معاهدة وقعت سنة ١٧٨٨ بحماية هولندا إذا تعرضت لهجوم خارجي. وأكثر من هذا فما دام نهر الراين أيضا يصب في بحر الشمال من خلال مصبات هولندية، فإن خضوع هولندا للسيطرة الفرنسية يعني سيطرتها أيضا على مصبات الراين، وبالتالي تحكمها في التجارة البريطانية التي تصل إلى وسط ألمانيا عن طريق الراين. وفي ٣١ ديسمبر ١٧٩٢ أنذرت الحكومة البريطانية فرنسا كالتالي:

«لن توافق إنجلترا بأي حال من الأحوال أن تدعي فرنسا لنفسها حق إبطال ما هو جار، على وفق هواها (بدعوى حماية الحقوق الطبيعية التي نصبت نفسها - أي فرنسا - قاضيا وحيدا يحكم بشأنها) بإلغاء النظام السياسي لأوربا مع أنه نظام ترسخ بفضل معاهدات محترمة وضمنته موافقة كل القوى. إن هذه الحكومة (البريطانية) انطلاقا من مبادئها التي سارت على هداها لأكثر من مائة سنة لا يمكن أن تنظر بلامبالاة إذا نصبت فرنسا نفسها - بشكل مباشر أو غير مباشر - سلطة ذات سيادة في الأراضي المنخفضة، أو حكماً للحقوق والحريات في أوربا[١١]».

وفي ٢١ يناير ١٧٩٣ أعدمت الحكومة الفرنسية لويس السادس عشر وعندما وصل هذا الخبر إلى لندن صدم الملك جورج الثالث وكذلك معظم الشعب البريطاني. وفي ٢٤ يناير أصدرت الحكومة البريطانية أمراً للوزير الفرنسي الماركيز فرانسوا برنار دي شوفيلان de Chauvelin بمغادرة المملكة. وفي أول فبراير أعلنت فرنسا الحرب على كل من إنجلترا

وهولندا. ورحب الملك جورج الثالث بهذه الحرب معتقداً أن الأمة البريطانية ستغدو موحدة بسبب هذه الحرب، أما بت Pitt فرغم أنه بذل كل جهوده لقضية الحرب هذه إلا أنه كان آسفا لاشتعالها. ولقد بدأ بت مفاوضات أدت إلى التحالف الأول (ضد فرنسا) في سنة ١٧٩٣: بريطانيا والبرتغال وأسبانيا وسردينيا ونابلي والنمسا وبروسيا وروسيا. وفرض ضرائب باهظة على كل الطبقات في المملكة وأرسل بشكل متكرر إعانات مالية لحلفائه. وعمل على إصدار القوانين المشددة ضد أي دعاية تروج للثورة الفرنسية أو تدافع عن موقف فرنسا، وعلق حرية الصحافة (١٧٩٤) وقانون الإحضار Habeas Corpus Act الذي كان يضمن للمقبوض عليهم محاكمة سريعة أو إطلاق سراح عاجل(*). وأصبح الوضع الآن هو القبض على المشكوك فيهم سياسيا دون محاكمة. (فعلت فرنسا الشيء نفسه) وبعد مظاهرة مناهضة للحرب جرى في أثنائها قذف حجر على الملك صدر مرسوم الاجتماعات التحريضية Seditious Meeting Act (١٧٩٦) يمنع اجتماع أكثر من خمسين شخصا إلا بإذن الحكومة وتحت إشرافها. وكان من يوجهون نقدا للدستور البريطاني عرضة للنفي مدة سبع سنوات في خليج بوتاني (خليج النبات) في أستراليا. وحوكم الراديكاليون البارزون بتهمة الخيانة في مايو ١٧٩٤ ودافع عنهم توماس إرسكين Erskine وصدر الحكم ببراءتهم. وهؤلاء الراديكاليون البارزون هم: جون هودن توك (عالم فقه اللغة) وجون ثلوال صديق كولردج في مرحلة سابقة، وصانع الأحذية توماس هاردي مؤسس جمعية لندن للمراسلة.

وأوحت هذه المحاكمات بالجو المسعور الذي كان قد صدم الطبقات العليا في بريطانيا عندما وجدوا أنفسهم مواجهين بثورة أخرى سرعان ما ظهرت بعد الثورة التي كلفتهم كثيرا في المستعمرات في أمريكا American Colonies. لقد بدا العالم الذي ظل الملوك والأرستقراطيون يحكمونه طوال ألف عام وكأنه ينهار يحاصره فلاحون يحرقون القصر الذي

(*) في المعجم القانوني للفاروقي: قانون الإحضار هو قانون جلب المحبوس أو الموقوف للمحاكمة أو التحقيق. صدر في ١٦٧٩ في عهد تشارلز الثاني ونص على حظر تقييد حرية الأفراد دون حكم محكمة مختصة، وضرورة جلبهم للمحكمة أو التحقيق خلال مدة معينة من تاريخ حبسهم أو توقيفهم.

يقيم فيه الإقطاعي ويحرقون حجج الملكية، وتحاصره جماهير المدن، يسجنون الأسر المالكة ويقطعون رؤوس مئات من النبلاء. لقد شعر كثير من البريطانيين أن كل هذه النتيجة كانت بسبب «الفلاسفة» الفرنسيين الملحدين وبسبب مقلّديهم من الإنجليز - جودون وبين Paine. وفي أي وقت الآن قد تأتي القوات الفرنسية الشريرة لتستولي على هولندا وبلاد الراين، وقد يحاولون في غضون عام أو عامين غزو إنجلترا، فكيف ستستطيع بريطانيا بسكانها الذين لا يتجاوزون ١٥ مليون نفس والتي ليس لها جيش دائم Standing army أن تهزم فرنسا بسكانها البالغ عددهم ٢٨ مليون نفس وبجيشها القوي المعتز بانتصاراته التي حققها فعلا؟

كان بت يعلم كل هذا لكنه كان يفكر بلغة المال أكثر مما كان يفكر بلغة الرجال، فالرجال يمكن شراؤهم بالمال إن لم يكن من إنجلترا فمن النمسا وبروسيا وروسيا، وإنجلترا بتملك المال يأتيها كل يوم من التجارة والصناعة وماتغله الأرض ومن المستعمرات والقروض والضرائب على كل المواد الاستهلاكية وعلى كل الدخول. كل تلك العوائد المالية يمكن توظيفها في إعداد جيش صغير للدفاع عن بريطانيا ضد غزو غير محتمل. وهذه العوائد يمكنها أن تجعل المصانع البريطانية في حالة عمل دون توقف وتجعل صحافتها وطنية وتجعل رسامي الكاريكاتير فيها على أعلى مستوى. وهذه العوائد يمكنها تمويل جيوش حلفاء بريطانيا الذين ينقصهم المال ويكثر عندهم الرجال. والأهم أن تلك العوائد تمكن بريطانيامن بناء العديد من السفن المحتشدة عسكرا، والمسلحة جيدا للسيطرة على المحيطات ولتحاصر كل ميناء فرنسي وتستولي على كل سفينة فرنسية في البحر، ولتضم للإمبراطورية البريطانية كل مستعمرة فرنسية.. وهكذا راحت بريطانيا تزيد من أساطيلها،ففي كل شهر كانت تضيف إليها سفنا قوية على متونها رجال بحر لا نظير لهم. لقد كان لديها من أعظم أدميرالات (أمراء البحر) في التاريخ.

٢- نلسون: ١٧٥٨ - ١٨٠٤

آل نلســـون Nelsons هـم في الأصل آل نيلسن Nielsens من الفـيكنج Viking الآنجلز Anglian الشرقيين، وربما كانت السفن تجري في دماء هوراتيو Horatio . لقد ولد في ٢٩ سبتمبر سنة ١٧٥٨ في بورنهام ثورب Burnham Thorpe، نورفولك Norfolk التي تجاور البحر. وكان أبوه قسيس الأبرشية. وكانت أمه قريبة لروبرت والبول Walpole رئيس الوزراء، وكان أخوها هو الكابتن (القبطان) موريس سكلنج Suckling قد عين في سنة ١٧٧٠ على رأس أسطول H. M. S. توقعاً لحرب مع إسبانيا. وكان هوراتيو وقتها في الثانية عشرة من عمره فتوسل أن يعمل تحت إمرته فوافق، ومن يومها كانت مدرسة هذا الصبي هي البحر.

لم يكن هوراتيو قويا من الناحية البدنية، وكان في غالب الأحوال معتل الصحة لكنه راح ينتهز كل فرصة للدراسة وتطوير نفسه والحصول على مراتب الشرف وتحقيق الفخار. لقد عمل في سفن مختلفة في مهام متباينة وخاطر بحياته مرارا وكان يترقى خطوة خطوة، وفي سن العشرين أصبح قبطانا للفرقاطة هنشنبروك Hinchinbrook. وكان مزهوا مختالا كما كان كفؤا وكان على يقين أكيد أنه سيصل يوما إلى أعلى المناصب وذروة الشهرة. وكان بطيئا في تنفيذ أوامر رؤسائه كما أنهم كانوا متباطئين في مكافآته لخدماته، لكنه أعطى لبريطانيا ذراعه ثم عينه ثم حياته، وكان بمقدوره أن يظل مزهوا طوال حياته بالشموخ نفسه الذي دلت عليه ذكراه (آثاره الباقية).

وكان مستعدا للاستسلام لجمال النساء ورقتهن، فقد كان حساسا لكل نظرة ولمسة. ففي كويك Quebec في سنة ١٧٨٢ كان قبطانا للسفينة ألبيمارل Albemarle وكان على وشك التخلي عن عمله ومنصبه ليعود للمدينة ليقدم عرضا بالزواج لامرأة أمتعته في الليلة السابقة، لكن صديقاً له اعترضه مصمما على منعه ودعاه للعودة إلى واجبه وقدره[١٢]. وفي سنة ١٧٨٧ كان قبطانا للسفينة الطراد بورياس Boreas توانى في أنتيجوا Antigua في جزر الهند الغربية وتزوج السيدة فرانس نيسبت Francos Nisbet وهي أرملة شابة جميلة لها عم ثري. وأحضرها إلى إنجلترا وهيأ لها مقاما في عقار صغير لكنه مريح وقضى معها

فترة سعادة متبادلة في الريف. وعندما أصبحت الحرب مع فرنسا محتملة عين في سنة ١٧٩٣ قبطانا للسفينة أجاممنون – وهي من أكثر سفن البحرية البريطانية كفاءة، وزود بتعليمات للانضمام إلى أسطول اللورد هود Hood في البحر المتوسط وأخذ – عرضاً – مذكرة للسير وليم هاملتون الوزير البريطاني في بلاط نابلي فسلم الرسالة وقابل الليدي هاملتون.

لقد ولدت آمي ليون Amy Lyon في سنة ١٧٦١ لأب حداد من ويلز وراحت تتكسب في شبابها من كد جسدها (بالبغاء) وأنجبت طفلين غير شرعيين قبيل بلوغها التاسعة عشرة من عمرها، وفي هذه السن استقرّ بها الحال لأن تكون رئيسة خدم صاحب الشرف الرفيع شارلز جريفل الابن الثاني لإيرل واروك Warwick، فغير اسمها إلى إما هارت Emma Hart (النص: أعاد تعميدها باسم إماهارت) وعلمها فنون غناء النبيلات والرقص والعزف على البيانو القيثاري وكيف تدخل الغرفة بلطف وكياسة وكيف تتناقش بلطف وكيف تعد الشاي. وعندما تغير كل شيء فيها خلا روحها أخذها إلى جورج رومني Romney الذي رسمها في ثلاثين لوحة. وعندما وجد جريفل فرصة ليتزوج وريثة ثروة كان عليه أن يجد مأوى آخر لهذه السيدة التي تعلمت الآن أن تحبه، ولحسن الحظ فقد كان خاله وليم هاملتون – وهو رجل ماتت زوجته ولم ينجب – موجودا في إنجلترا آنئذ. وكان ثريا تربى مع جورج الثالث، وكان عضوا في الجمعية الملكية وكان جامعاً مميزا للكتابات والآثار عن هرقل، وللأعمال الفنية الكلاسية. وراقت له إما Emma التي وافقت على ترك ابن أخته والذهاب معه وبعد وصوله إلى نابلي أرسل إليها دعوة للحضور مع أمها لتكمل تعلمها للموسيقا فوافقت بعد أن فهمت أن شارلز جريفل سيلحق بها، لكنه لم يلحق.

وقدم السير وليم لها ولأمها أربع غرف ليقيما فيها في دار المفوضية البريطانية، وأمتعها بالرفاهيات والإعجاب اللبق ورتب لها برامج دراسية في الموسيقا واللغة الإيطالية وراح يدفع لمصمم قبعاتها دون تذمر. وكتبت خطابات حب لجريفل، متوسلة إليه أن يأتي إليها لكنه لم يضع نفسه موضع المنافسة مع سير وليم فراحت خطاباته لها تقل شيئا فشيئا عددا ومحتوى ثم توقفت. وأصبحت خليلة ومدبرة بيت للسير وليم لأنهاتضع الحب في المقام

الثاني بعد الرفاهية. ومن ناحية أخرى فإنها كانت تتصرف بتواضع وحكمة كما كانت تعمل الخير (توزع الأعطيات) وأصبحت أثيرة لدي الراهبات والملك والملكة، وجلست أمام رافائيل منجز، وأنجليكا كوفمان ومدام فيجي ليبرون Vigee - Lebrun ليرسموها. وسرّ منها السير وليم فتزوجها في سنة ١٧٩١، وعندما أعلنت فرنسا الحرب على إنجلترا أصبحت وطنية بشكل فعّال وحماسي، وعملت على إبقاء نابلي متحالفة مع إنجلترا (ضد فرنسا).

وفي صيف سنة ١٧٩٤ صدرت الأوامر لنلسون بحصار كالفي Calvi الميناء الكورسيكي الذي كان قد وقع في أيدي الفرنسيين، فاستولى على الحصن، لكن - في أثناء المعركة أدت قذيفة أطلقها العدو بالقرب منه إلى تناثر الرمال بشدة فأصابت عينه اليمنى وشفي جرحه دون أن يترك تشويها لكنه فقد الإبصار بها تماما.

ولم يكن لهذا الانتصار أهمية كبيرة من منظور الأحداث التي كانت مسيرتها في العامين التاليين ضد إنجلترا بشكل قوي، فقد دخل نابليون إيطاليا وشتت شمل الجيوش السردينية والنمساوية وأجبر حكومات سردينيا والنمسا ونابلي على الخروج من التحالف الأول ضد فرنسا، كما أجبرها على قبول شروطه للسلام، وفي أكتوبر سنة ١٧٩٦ أعلنت إسبانيا الحرب على انجلترا بسبب الإجراءات البريطانية في جزر الهند الغربية. لقد أصبح البحر المتوسط غير آمن للبريطانيين بسبب استعداد الأسطول الإسباني الانضمام للفرنسيين. وفي ١٤ فبراير ١٧٩٧ انقضت قوة بحرية بريطانية من خمس عشرة سفينة بقيادة الأدميرال (أمير البحر) جون جرفيز Jervis - الذي كان وقتها قائدا للأسطول البريطاني في البحر المتوسط - على أرمادا إسبانية (أسطول إسباني) من سبع وعشرين سفينة، على بعد ثلاثين ميلا من رأس فينسنت Vincent في أقصى الجنوب الغربي للساحل البرتغالي، ووجه القبطان نلسون H. M. S. Captain سفينته وسفنا أخرى لمهاجمة الحراسة الخلفية لأسطول العدو الصغير، وقاد هو رجاله من فوق متون السفن واستولى على السفينة سان جوزف San Josef ثم السفينة سان نيكولاس San Nicolas. لقد استسلمت السفن الإسبانية التي لم تكن مسلحة بشكل جيد، ولم يكن قادتها يحكمون السيطرة عليها، ولم يكن رجالها مدربين على إطلاق المدافع - استسلمت واحدة إثر الأخرى فحقق الإنجليز نصرا كاملا، فمنح (بضم

الميم) جيرفز لقب إيرل سان فينسنت وأصبح نلسون فارس الباث Knight of the Bath، وهكذا أصبحت البحرية البريطانية مرة أخرى سيدة البحر المتوسط.

وفي يوليو سنة ١٧٩٧ تم إرسال نلسون (وهو الآن عميد بحري rear admiral) للاستيلاء على سانتا كروز في إحدى جزر الكاناري Canary. لقد كان الإسبان قد حصنوا المدينة تحصينا قويا لموقعها الإستراتيجي الحيوي اللازم لحماية تجارتهم مع الأمريكتين. وقاومت المدينة مقاومة باسلة لم يتوقعها نلسون، وأدى عنف الأمواج إلى صعوبة رسو القوارب البريطانية فاصطدم بعضها بالصخور وأصابت المدافع الإسبانية بعضها الآخر فشلت قدرتها، وفشل الهجوم، وأصيب نلسون نفسه بطلقة في مرفقه الأيمن وتم بتر الذراع بطريقة لاتتسم بالكفاءة، وتم إرسال نلسون إلى بيته ليتعافى تحت رعاية زوجته. واعترى القلق نلسون مخافة أن تدرجه الأدميرالية في قائمة المعاقين إعاقة دائمة، فقد أصبح بذراع واحدة وعين واحدة. إلا أنه في أبريل سنة ١٧٩٨ تم تعيينه عميدا بحريا rear admiral وأصبح على رأس السفينة فانجارد، وتلقى أوامر بالانضمام إلى أسطول اللورد سانت فينسنت بالقرب من جبل طارق، وفي مايو أصبح قائدا لثلاث سفن وخمس فرقاطات وتلقى تعليمات بمراقبة مخارج طولون حيث كان نابليون يستعد بحملة غامضة يعدها خلف حصون الميناء، وفي ٢٠ مايو هبت عاصفة عاتية ألحقت أضرارا بالغة بأسطول نلسون فاضطر للتراجع إلى جبل طارق لإصلاح سفنه المعطوبة، وعندما عاد بسفنه لمواصلة المراقبة علم نلسون أن الأسطول الفرنسي الصغير قد انطلق في جنح الظلام مغادرا طولون متجها للشرق لجهة غير معلومة. فانطلق نلسون ليتعقبه وقضى وقتا طويلا على غير هدى ونفدت مؤنه فلجأ إلى باليرمو للتزوّد بالمؤن وإعادة تهيئة أسطوله وقد سمح (بضم السين) له بذلك بناء على وساطة الليدي هاملتون لدى حكومة نابلي التي كانت آنئذ في سلام مع فرنسا، وترددت في السماح لنلسون مخافة أن يعد هذا السماح خرقا لحيادها، لكن تم السماح لنلسون بهذا بناء على الوساطة الآنف ذكرها.

وهكذا أصبحت سفنه مرة أخرى مهيأة لأداء مهمته فواصل البحث عن أسطول نابليون، فوجده أخيرا في أبي قير بالقرب من الإسكندرية، ومرة أخرى غامر نلسون بكل شيء ففي

ليلة ٣١ يوليو ١٧٩٨ أصدر أوامره لضباطه بتجهيز كل السفن لخوض معركة عند الفجر. لقد قال لهم «في هذا الوقت غدا سأحصل على مرتبة النبالة أو أضمن مكانا في مقابر كنيسة ويستمنستر» (١٣) وفي أثناء المعركة تقدم الصفوف كالعادة فأصابته طلقة في جبهته فحمل إلى الأسفل على أساس أنه سيموت ولكن الجرح كان سطحيا، وأعيد نلسون معصوب الرأس إلى سطح السفينة وظل في مكانه حتى اكتمل النصر البريطاني.

واستطاع بت في ظل هذه الظروف التي بدت فيها بريطانيا محجوزة محصورة أن يكون التحالف الثاني ضد فرنسا من روسيا وتركيا والبرتغال ونابلي. وكانت ملكة نابلي ماريا كارولينا أخت ماري أنطوانت التي أعدمتها الثورة الفرنسية بالمقصلة، سعيدة لرؤية مملكتها الممزقة وقد وقفت جميعا إلى جانب الهبسبرج والكنيسة الكاثوليكية فانضمت لمليكها الضعيف فردناند الرابع للترحيب بأسطول نلسون المنتصر - رغم ما أصابه من دمار - الذي رسا في ميناء نابلي في ٢٢ سبتمبر ١٧٩٨، وعندما رأت الليدي هاملتون الأدميرال الجريح اندفعت إليه تحييه وتأثرت كثيرا لما أصابه، واصطحبته هي وزوجها إلى مقرهما (the Palazzo Sassa) وبذلا كل ما أمكنهما لراحته. ولم تحاول إما Emma حجب فتنتها فوقع البطل الظامئ أسيرا لابتساماتها ورعايتها له. لقد كان في الأربعين من عمره وكانت هي في السابعة والثلاثين ولم تكن جذابة بالقدرنفسه الذي كانت عليه من قبل لكنها كانت قريبة المنال وراحت ترضي رغبات هذا البريتوني (نلسون) بما اعتبره - بعد خوض المعارك - نبيذ الحياة. والآن فإن السير وليم في الخامسة والثمانين من عمره تتناقص موارده المالية سريعا، وهو منهمك في أمور الفن والسياسة - لذا فقدتقبل الوضع بشكل فلسفي (بمعنى أنه راح يبرره ويقنع نفسه به) وربما شعر في قرارة نفسه بالراحة لتخلصه من أمر لايقدر عليه. وقبيل ربيع سنة ١٧٩٩ دفع نلسون مبلغاً كبيرا من نفقات إما Emma. وبعد أن دفع الأدميرال البريطاني مبلغا كبيرا للسير وليم وأسبغ عليه الكثير من التشريف وسمح له بفترة من الراحة أمره بالتوجّه لمساعدة أدميرالات آخرين، ولكنه اعتذر على أساس أن الأكثر أهمية من وجهة نظره أن يبقى في نابلي لحمايتها من انتشار الثورة فيها.

وفي وقت متأخر من عام ١٧٩٩ حل آرثر باجت Paget محل هاملتون كوزير بريطاني في

نابلي. وفي ٢٤ أبريل سنة ١٨٠٠ غادر كل من سير وليم وإما Emma نابلي قاصدين ليجورن (في جنوة) حيث انضم إليهما نلسون ومن هناك سافرا برا إلى القنال الإنجليزي وعبروا إلى إنجلترا واحتفت لندن كلها بنلسون لكن الرأي العام أدانه لاستمراره في الارتباط بزوجة رجل آخر. وأرادت زوجة نلسون أن ترده إلى طريق الصواب وطلبت منه الابتعاد عن إما Emma لكنه رفض، ففارقته. وفي ٣٠ يناير سنة ١٨٠١ وضعت إما في منزل السير وليم مولودا انثى وأسمتها هوراتيا نلسون طومسون Horatia Nelson Thompson إذ كان من المرجح أنها من نطفة نلسون. وفي هذا الشهر أصبح نلسون لواء بحريا (نائب أدميرال) وتم تكليفه بمهمته التالية وهي أن يستولي على الأسطول الدنمركي ويدمره. وسنلتقي به بعد ذلك في هذه المعركة. وعند عودته – وكان ذلك خلال فترة صلح إميان – عاش في بيته في ميرتون Merton في سري Surrey مع آل هاملتون الذين استضافهم في بيته. في ٦ أبريل سنة ١٨٠٣ مات السير وليم بين ذراعي زوجته وهو يمسك بيد نلسون. وورثت إما عن زوجها دخلاً سنويا مقداره ثمانمائة جنيه وعاشت مع نلسون في مرتون حتى دعي لتحقيق أعظم انتصاراته في معركة لقي حتفه فيها[١٤].

٣– الطرف الأغرّ: ١٨٠٥

عندما استقال بت Pitt من منصب رئيس والوزراء أول مرة (٣ فبراير ١٨٠١) كان على استعداد لتأييد تعيين صديقه هنري أدنجتون Addington ليشغل هذا المنصب إذ كان هنري يشاطره كرهه للحرب، وكان قد لاحظ أن الحرب لا تحظى بجماهيرية في البلاد خاصة بالنسبة إلى المصدرين، وهو قد رأى الآن رأي العين أن النمسا قد تخلت عن التحالف الثاني (ضد فرنسا) بعد هزيمتها في مارينجو Marengo ولم يكن يرى معنى في إنفاق الأموال على هؤلاء الحلفاء الضعفاء، وكان من رأيه إنهاء الحرب بقدر مايسمح به إنقاذ ماء الوجه. وفي ٢٧ مارس سنة ١٨٠٢ وقع ممثلوه مع نابليون صلح إميان Peace of Amiens فصمتت المدافع طوال أربعة عشر شهرا توسع نابليون في إيطاليا وسويسرا، وكذلك رفض إنجلترا ترك مالطه، كل ذلك أنهى هذه الفترة الانتقالية المريحة، واستؤنفت الأعمال العدائية ثانية في ٢٠ مايو

سنة ١٨٠٣، فعهد أدنجتون إلى نلسون أن يعد أسطولاً تحت قيادته للقيام بمهمة واضحة: الوصول إلى الأسطول الفرنسي الرئيسي وتدميره حتى آخر سفينة فيه. وفي هذه الأثناء كان نابليون يملأ المعسكرات والموانئ والترسانات arsenals في بولونيا Boulogna وكاليه Calais ودنكرك Dunkirk وأوستند Ostend– بالرجال والعتاد، وكان يشيد مئات السفن ليعبر بجيوشه القنال الإنجليزي لغزو إنجلترا. وعمل أدنجتون قصارى جهده لمواجهة التحدي لكنه كان مترددا متذبذبا أكثر منه آمراً حازما وكانت الأمور الداخلية تنحو إلى الفوضى، وتناقص عدد مؤيدي حزبه من ٢٧٠ إلى ١٠٧ فاستقال بإرادته (دون أن يجبره أحد على الاستقالة) وفي العاشر من مايو بدأ بت Pitt رئاسته للوزراء للمرة الثانية. شرع بت مباشرة في تكوين التحالف الثالث (ضد فرنسا) في سنة ١٨٠٥ مع روسيا والنمسا والسويد وقدم لهذه الدول إعانات مالية زادت بزيادة الضرائب على البريطانيين بنسبة ٢٥٪ ورد نابليون على هذا التحالف بأن أمرجيشه المرابط على القنال الإنجليزي بالتوجه إلى النمسا لتلقينها درساً آخر وأرسل تعليمات إلى لوائه البحري بيير دي فيلنيف Pierre de Villeneuve بأن يجهز أفضل سفن البحرية الفرنسية لمواجهة مع نلسون لإنهاء الهيمنة البريطانية على البحار.

لقد كان في سفينة القيادة (النصر) التي فيها نلسون ٧٠٣ غالبهم في نحو الثانية والعشرين وكان بعضهم في الثانية عشرة من عمره أو الثالثة عشرة بل لقد كان هناك عدد قليل منهم في العاشرة. وكان نحو نصفهم مجبرين على الخدمة في الأسطول كما كان كثيرون منهم مدانين في جرائم وحكم عليهم بالخدمة في الأسطول عقابا لهم، وكانوا يتقاضون أجورا ضئيلة لكنهم كانوا يتقاضون – على وفق موقفهم وسلوكهم – أنصبة من الأموال التي يتم الاستيلاء عليها من سفن الأعداء ومستودعاتهم. وكانت مغادرة الجنود إلى الشاطئ أمراً قلما يسمح به خوفا من فرارهم من الخدمة، ولسد حاجة الرجال للنساء كان يتم جلب البغايا إلى متون السفن،ففي بريست Brest جلبوا ذات صباح ٣٠٩ امرأة (بغي) بينما كان عدد الرجال ٣٠٧ فقط[١٥]. وسرعان ما اعتاد المجندون – رغم صرامة النظام – تكييف أنفسهم مع ظروفهم الجديدة وعادة ما كانوايعتزون بعملهم وشجاعتهم. وقيل إن نلسون كان مؤتلفاً مع رجاله قريبا منهم فهو لم ينزل بأحد منهم عقابا إلا عند الضرورة

القصوى، وكان يعتريه الأسف - بشكل واضح - لذلك، لأنه يعلم مهمة رجل البحر وطبيعة عمله ونادرا ما كان يخطئ في تكتيكاته أو أوامره، وقد واجه هو نفسه مدافع الأعداء وبنادقهم وقد جعل رجاله يؤمنون أنهم لن يخذلوه أو يخذلوا إنجلترا أبدا ولن يسمحوا للهزيمة أن تلحق بهم أبدا. تلك هي « لمسة نلسون Nelson touch » التي جعلت هؤلاء المجرمين يحبونه.

وفي ٨ يوليو ١٨٠٣ انضم نلسون إلى سفنه الإحدى عشرة في البحر المتوسط في مواجهة طولون، ووجد فيلينيف في مينائها الرحب حماية لأسطوله بإطلاق مدافع حصون الميناء (على أسطول العدو). وكان الأدميرال الفرنسي قد تلقى مؤخرا أوامر جديدة من نابليون: أن يهرب من طولون ويقتحم طريقه في جبل طارق وأن يبحر إلى جزر الهند الغربية لينضم إلى أسطول فرنسي آخر هناك وأن يهاجم أي قوة بريطانية يلقاها. وبينما كانت سفن نلسون تتزود بالمياه في ميناء سرديني هرب فيلينيف بسفنه من طولون (٣٠ مارس ١٨٠٥) وأبحر قاصدا أمريكا. وتعقبه نلسون لكنه كان متأخرا عن الوقت اللازم، ووصل نلسون إلى باربادوس Barbados في ٤ يوليو وهناك سمع أن فيلينيف يعود الآن عبر الأطلنطي وانضم إليه عند كورونا Corunna أسطول إسباني من ١٤ سفينة بقيادة الأدميرال فيدريكو دي جرافينا[١٦].

وصدرت الأوامر من نابليون بالإبحار شمالا للانضمام إلى قوة فرنسية أخرى في بريست Brest ومحاولة السيطرة على القنال الإنجليزي قبل وصول نلسون من جزر الهند الغربية، لكن سفن فيلينيف بعد جولتها في الكاريبي لم تكن في حالة تسمح لها بخوض معركة. وفي ١٣ أغسطس قاد أسطوله الذي أصبح كبيرا جنوبا إلى ميناء قادش جيد التحصين والمزود بإمكانات كبيرة وبدأ هناك في إعادة تأهيل سفنه وبث العزم في رجاله، وفي أواخر شهر أغسطس تولى أسطول بريطاني بقيادة لواء بحري كثبرت كولنجوود Cuthbert Collingwood مهمة مراقبة أسطول فيلينيف. وكان نلسون قد ظن أنه بعد أن أكمل كوميديا عبوره أنه هو أيضا وكذلك رجاله في حاجة إلى الراحة وسمح له (بضم الميم) بقضاء عدة أسابيع مع خليلته في مرتون Meton. وفي ٢٨ سبتمبر لحق بسفنه بكولنجوود قبالة قادش وراح ينتظر نافد الصبر قدوم الأسطول الفرنسي لخوض معركة معه.

وهنا غير نابليون مرة أخرى تعليماته: لقد كان على فيلينيف أن يغادر قادش ويحاول مراوغة الأسطول البريطاني وأن يتجه للتعاون مع جوزيف بونابرت لإحكام السيطرة الفرنسية في نابلي. وفي ١٩ و ٢٠ أكتوبر قاد الأدميرال - على كره منه - سفنه الثلاث والثلاثين خارج قادش وتوجه قاصدا جبل طارق، وفي يوم ٢٠ من الشهر نفسه لمحه نلسون فأصدر أوامره فورا لسفنه البالغ عددها سبعا وعشرين بالاستعداد للمعركة، وراح في هذه الليلة يكتب خطابا لليدي هاملتون لكنه أكمله في صباح اليوم التالي:

«إما يا أعز وأحب من عرفت، يا أليفة قلبي. لقد ظهرت علامات خروج أسطول العدو الذي اتحد ضدنا (يقصد الأسطول الفرنسي والأسطول الأسباني الذي انضم إليه) من الميناء. الرياح لاتساعدنا على التقدم فلا يمكننا رؤيته قبل الغد. عسى رب المعارك يكلل مناوراتى بالنجاح في كل الأمور التي أراني معتاداً عليها ليكون أسمي أعز الأسماء عندك وعند هوراتيا، فإنني أحب كليكما كحبي لحياتي... وعسى يهبنا الرب العظيم نصرا على أولئك الرفاق ويمكننا من تحقيق السلام(١٧)».

وكتب في يومياته تحت اليوم السابق للمعركة: عسى يهب الرب العظيم بلادي - لصالح أوربا كلها- نصرا عظيما مؤزرا لاتشوبه شائبة ولايفسده سوء تصرف، وعسى تصبح الإنسانية لمحة دائمة في الأسطول البريطاني بعد تحقيق النصر... إنني أضع نفسي بين يدي الله الذي خلقني فعساه ينير ببركاته تحركاتي لخدمة بلادي بإخلاص. إنني أهب نفسي لله، وكذلك للقضية العادلة التي عهد إليّ بالدفاع عنها. آمين. آمين. آمين.(١٨)».

والتقى الأسطولان في ٢١ أكتوبر سنة ١٨٠٥ قبالة رأس الطرف الأغر إزاء الساحل الإسباني إلى الجنوب بمسافة قصيرة من قادش، فأصدر فيلينيف من سفينة القيادة (بوسنتور Bucentaure) إشارة لسفنة أن تصطف في خط واحد من الشمال للجنوب لتكون جوانبها التي كانت ناحية الميناء في مواجهة العدو المقترب، ولم تتم السفن هذه المناورة بشكل كامل وما كادت تكملها حتى وجدت نفسها هدفا للقوات البحرية البريطانية المتقدمة إلى الشمال الغربي في خط مزدوج. وفي الساعة ١١:٣٥ صباحا أرسل نلسن من سفينة القيادة (فيكتوري) الإشارة الشهيرة «إنجلترا تتوقع أن يؤدي كل رجل واجبه» وفي الساعة ١١:٥٠

قاد الأدميرال كولنجوود بخمس عشرة سفينة الهجوم بأن أمر سفينة قيادته (التي هو فيها) وهي السفينة (Royal Sovereign) أن تبحر مباشرة خلال ثغرة بين البارجتين الحربيتين الأولى والثانية للأدميرال جوافينا، والسفينتان المقصودتان هما (سانتا أنا) و(نوجو)، وبهذه الحركة أصبح رجاله في وضع يمكّنهم من إطلاق النار من جانبي سفينته على السفينتين الاسبانيتين اللتين كانتا غير قادرتين على رد النيران. وكان لدى مطلقي المدافع البريطانيين مزايا إضافية: لقد كان يمكنهم إشعال مدافعهم باستخدام الزنود المصونة (زنود جمع زند) بمعنى أن الآلات المفجرة للشحنات في مدافعهم بها صوانات (جمع صوان) أو ظِرّات (جمع ظرة) في ديك البندقية أو المدفع (الديك هو الزند) لإطلاق الشرارة. وهذه الطريقة في الإشعال كانت أسرع بمرتين من الطريقة الفرنسية التي كان يُستخدم فيها فتائل لا تستجيب للإشعال بسرعة، كما كان إطلاق البريطانيين للنار أدق، إذ كان متزامناً مع تمايل السفينة[١٩]. وحَذَتْ بقية سفن أسطول كولنجوود حذوه باختراق خط سفن العدو ثم غيّرت اتجاهها وركزت هجومها على سفينة جرافينا (Gravina) حيث كانت الروح المعنوية لبحارتها متدهورة. وفي الطرف الشمالي لخط المعركة واجه الفرنسيون بشجاعة ضراوة هجوم نلسون، وراح بعضهم يهتف صائحاً: «عاش الامبراطور» وهو يلفظ أنفاسه، ومع هذا، فكما حدث في معركة «أبي قير»، فقد تفوّق البريطانيون لأنهم كانوا أكثر تدريباً وأعلى مهارة في أمور البحر والمدفعية.

لكن مصير نلسون كان قد تحدّد عندما وجّه قناص فرنسي في أعلى صاري السفينة الفرنسية ريدوتابل (Redoutable) طلقة إلى نلسون حددت مصيره. ولم يكن الأدميرال نلسون يعرّض نفسه للخطر كالعادة فقط، ولكنه أيضاً رفض أن يزيل من فوق صدره أوسمة الشرف التي منحته إياها بلاده (إنجلترا) مما سهّل عملية تمييزه. لقد اخترقت القذيفة صدره وكسّرت عموده الفقري، وحمله مساعده المخلص توماس ماسترمان هاردي (Thomas Masterman Hardy) إلى الطابق الأسفل من السفينة حيث أكد الطبيب بيتي Beatty ما كان نلسون مقتنعاً به وهو أنه لم يبق له في هذه الحياة سوى ساعات قليلة. وظل نلسون واعياً طوال أربع ساعات أخرى كانت كافية ليعلم أن أسطوله قد حقق نصراً كاملاً وأن تسع عشرة

سفينة من سفن العدو قد استسلمت ولم تفقد بريطانيا سفينة واحدة. وكانت كلماته الأخيرة هي: «فلتراعوا عزيزتي الليدي هاملتون ياهاردلي.. اهتم بالبائسة الليدي هاملتون.. قبلني ياهاردلي. والآن إنني راض. شكرا لله لقد أديت واجبي[٢٠]».

وبقيت كل سفن نلسن حتى تمر العاصفة المتوقعة - بناء على أوامر نلسون وهو في فراش الموت - ووصلت إنجلترا في وقت يسمح لبحّارتها ومقاتليها بالمشاركة في الاحتفال الوطني بانتصارهم ونقعت جثة نلسون في البراندي لتأخير تحللها وحملت منتصبة في برميل إلى إنجلترا حيث سيقت في أفخم جنازة تعيها ذاكرة الأحياء. وسلم القبطان هاردي لليدي هاملتون خطاب الوداع الذي كتبه حبيبها الذي وافته المنية، فاحتفظت به كذكرى غالية، وكتبت في آخره:

يا لإما البائسة!

يا لنلسون العظيم السعيد!

وبناء على وصيته ترك كل ممتلكاته ومكافآته الحكومية لزوجته فيما عدا منزله في مرتون فقد احتفظت به إمَّا هاملتون. ومخافة ألا يكفيها هذا بالإضافة للمبلغ السنوي الذي تركه لها زوجها، فقد كتب نلسون في يوم المعركة ملحقاً لوصيته: «إنني أترك إمّا Emma ليدي هاملتون وديعة لدى مليكي وبلادي ليقدموا لها ما يحفظ لها مكانتها في الحياة» وساعة احتضاره - كما ذكر الدكتور سكوت Scott - طلب أيضاً أن ترعى بلاده ابنته هوراتيا Horatia، لكن الملك ورعاياه تجاهلوا هذه الطلبات، فتم القبض على إمّا في سنة ١٨١٣ لتأخرها في سداد دين وسرعان ما أطلق سراحها فهربت إلى فرنسا تخلّصاً من دائنيها، وماتت فقيرة في كاليه Calais في ٢٠ يناير ١٨١٥ [٢١].

نعود للأدميرال جراڤينا Gravina، فبعد مقاومة باسلة عاد هارباً بسفينة القيادة إلى إسبانيا لكن بعد أن أصيب بجرح فظيع تسبب في موته بعد شهور قليلة من وصوله. ولم يقد ڤيلينيف أسطوله بحكمة لكنه حارب بشجاعة وكان يعرّض نفسه للخطر - بطيْش - مثله في ذلك مثل نلسون، وقد استسلم ڤيلينيف بعد أن مات كل رجاله تقريباً. وأُخِذ أسيراً إلى إنجلترا وأطلق سراحه فعاد قاصداً فرنسا وانتحر في فندق في رِنْ Rennes في ٢٢

أبريل ١٨٠٦ خجلاً من رؤية نابليون له. واعتذر في آخر خطاباته لزوجته لفراقه إياها شاكراً الأقدار أنه لم ينجب طفلاً حتى لا يحمل عاري «حتى لا يُدفن مع اسمي»(٢٢).

لقد كانت معركة الطرف الأغرّ واحدة من المعارك الحاسمة في التاريخ. لقد ضمنت السيادة البريطانية على البحار طوال قرن.

لقد أنهت فرصة نابليون في تحرير فرنسا من الحصار الذي فرضه الأسطول البريطاني على السواحل الفرنسية. وأجبرت هذه المعركة نابليون على التخلّي عن فكرة غزو إنجلترا. وكان هذا يعني أن عليه أن يخوض حروباً برية مكلّفة كثيراً، وكل معركة منها ستؤدي إلى معارك أخرى. لقد ظنّ أنّ بمقدوره تجاوز معركة الطرف الأغرّ بانتصاره الحاسم في أوسترليتز Austerlitz (٢ ديسمبر ١٨٠٥) لكن هذه المعركة أدت إلى معارك أخرى: يينا Jena، إيلاو Eylau، فريدلاند Friedland واجرام Wagram، بورودينو Borodino، ليبتسج Leipzig، واترلو Waterloo. لقد كان لابد له أن يُحرز نصراً بحرياً.

ومع هذا فقد كان بِت Pitt الذي عاصر مئات الأزمات وسعد بنتائج معركة الطرف الأغر – متفقاً مع نابليون في أن معركة أوسترليتز قد محت آثار النصر الذي حقّقه نلسون. لقد انسحب بِتْ بعد أن أرهقته الأزمات المتلاحقة في داخل البلاد وفي خارجها – طلباً للراحة في باث Bath. وهناك وصلته الأخبار بأن النمسا (محور تحالفاته) قد انهارت ثانيةً، فزاده هذا آلاماً على آلامه الصحية التي تفاقمت بفعل إفراطه في تناول البراندي (نوع من الخمور) وفي ٩ يناير ١٨٠٦ وافته منيته في السابعة والأربعين من عمره بعد أن شغل منصب رئيس الوزراء في بريطانيا العظمى طوال حياته بعد البلوغ تقريباً. وفي هذه السنوات البالغة تسعة عشر عاماً ساعد في توجيه بلاده نحو السيطرة والتفوق في المجالات الصناعية والتجارية والحربية وأعاد صياغة نظامها المالي بكفاءة منقطعة النظير، لكنه فشل في معاقبة الثورة الفرنسية أو التصدي للتوسّع النابليوني الخطر في أوروبا. لقد اختفى توازن القوى في القارة الأوروبية – وهو أمر مهم جداً لإنجلترا – وافتقدت البلاد حرية الحديث والاجتماع والصحافة في فترات الحرب وهذا يعني أنها ظلت مفتقدة طوال اثنى عشرة عاماً، وليس من علامة دالة على انتهاء هذا الوضع.

٤- إنجلترا تترقَّب أمراً: ١٨٠٦ - ١٨١٢

سيسمح لنا مجال دراستنا الآن أن نصف بالتفصيل الوزارات الأربع التي أعقبت وزارة بِتْ Pitt. فباستثناء عام فوكس Fox، كانت كل طاقات هذه الوزارات منصرفة إلى قضايا شخصية وحزبية أكثر من انصرافها إلى قضايا الدولة والسياسة، وكان حاصلها الإجمالي على المستوى الدولي مؤدياً للنتيجة نفسها: من الازدهار إلى تدنّي الأوضاع ومن الاعجاز إلى المماطلة والتسويف.

لكن «وزارة كل المواهب» (١٨٠٦ - ١٨٠٧) قد تألّقت بجهود شارلز جيمس فوكس Fox وزير الخارجية بسعيها لترتيب سلام مع فرنسا. لقد واجه الظروف غير المستقرة بليبرالية صابرة وقدرته على قبول الثورة الفرنسية، بل وقبوله حتى نابليون نفسه بتسامح غير مألوف في التاريخ. ولسوء الحظ أنّه وصل إلى السلطة في وقت تدهورت فيه صحته وعانى عقله ونفسيته من إفراطه في الطعام والشراب وقد مهّد للمفاوضات مع فرنسا بأسلوب رشيق بأن أرسل إلى تاليران (١٦ فبراير ١٨٠٦) أنّ بريطانياً وطنياً أتى إلى وزارة الخارجية بخطة لاغتيال نابليون وأضاف مؤكداً أن هذا المهرّج موضوع الآن تحت مراقبة صارمة. وقدّر الإمبراطور (نابليون) هذه اللفتة لكنه (أي الإمبراطور) كان معجباً بنفسه يتيه فخراً بانتصاره على النمسا، كما كانت بريطانيا شامخة الأنف لانتصار قائدها نلسون في الطرف الأغر، وبالتالي كان كل طرف من الطرفين غير مستعد لتقديم التنازلات اللازمة لعملية السَّلام. وقد حقق فوكس نجاحاً أفضل فيما يتعلق باقتراحه الذي قدمه للبرلمان لإنهاء تجارة الرقيق بعد جيل من الجهود التي بذلها في هذا الصدد وِلْبَرفُورس ومئات آخرون، إذ صدر قانون بتحريم هذه التجارة في مارس سنة ١٨٠٧ وقبيل هذا التاريخ مات فوكس (١٣ سبتمبر ١٨٠٦) في السابقة والخمسين، وتردت السياسة البريطانية في جمود (قصور ذاتي) على أمل.

وعلى أية حال فهذه العبارة الأخيرة تكاد تكون مناسبة تماماً لوصف الأشخاص المهيمنين في وزارة وليم كافندش بنتينك William Cavendish Bentinck دوق بورتلاند (١٨٠٧ - ١٨٠٩). وأرسل جورج كاننج وزير الخارجية أسطولاً لقذف كوبنهاجن (١٨٠٧)، وأرسل

روبرت ستيوارت (ڤيكونت كاستلريج Castlereagh) وزير الحرب حملة مشؤومة إلى والشرن Walcheren في محاولة للاستيلاء على أنتورب Antwerp (١٨٠٩) ودخل الوزيران في نزاع وراح كل واحد منهما يتعدى اختصاصه إلى اختصاص الآخر فاستقالت حكومة بورتلاند.

وكان سبنسر بيرسيڤال Spencer Perceval كوزير (١٨٠٩ - ١٨١٢) سيئ الحظ بشكل مضاعف لرؤيته بريطانيا في الحضيض أكثر من أي وقت مضى في القرن التاسع عشر، كما أنه مات قتيلاً، وقبيل خريف سنة ١٨١٠ كان الحصار القاري الذي فرضه نابليون قد أضر ضرراً بليغاً بالصناعة والتجارة في بريطانيا فبلغ عدد العاطلين بالآلاف وكان الملايين على شفا الإملاق وأدى عدم الاستقرار إلى اندلاع العنف وبدأ النسّاجون (اللوديت) في تحطيم الآلات في سنة ١٨١١ . وفي الوقت الذي بلغت فيه الصادرات البريطانية لأوروبا الشمالية ٧,٧٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني وجدناها تنخفض في سنة ١٨١١ إلى ١,٥٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني[٢٣] . وفي سنة ١٨١١ كانت إنجلترا قد تورطّت في الحرب الثانية مع أمريكا، وكان من بين نتائج هذا أن تدنّت صادراتها للولايات المتحدة من ١١,٣٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني في سنة ١٨١٠ إلى ١,٧٨٠,٠٠٠ جنيه إسترليني في سنة ١٨١١ . وفي هذه الأثناء زادت وطأة الضرائب على كاهل كل بريطاني وقبيل سنة ١٨١٤ أصبحت هذه الضرائب تهدد بانهيار النظام المالي البريطاني وقيمة العملة المالية البريطانية في الخارج وصرخ البريطانيون الجوعى مطالبين بتخفيض الرسوم الجمركية على واردات الحبوب من الخارج، وعارض الزرّاع هذه المطالب مخافة أن تقل أسعار منتجاتهم. وعمل نابليون على تخفيف الأزمة في بريطانيا (١٨١٠ - ١٨١١) بأن راح يبيع تراخيص تصدير الحبوب الفرنسية لمُنْتجيها فقد كان في حاجة للأموال نقداً لتمويل تكاليف معاركه. وعندما انطلق جيشه الكبير قاصداً روسيا في سنة ١٨١٢ كانت إنجلترا تعلم أن انتصار نابليون يعني مزيداً من إحكام إقفال كل الموانئ الأوروبية في وجه البضائع البريطانية كما يعني مزيداً من سيطرة نابليون على سفن الشحن المتجهة إلى بريطانيا. لقد كانت إنجلترا كلها تراقب ما يجري وهي في حالة فزع، إلا الملك جورج الثالث فإنه لم يكن واعياً بهذه

الأحداث بعد أن استغرق في صممه وعماه وخبله، وكان موت ابنته الحبيبة أميليا Amelia (نوفمبر ١٨١٠) آخر سهم نزعه من كل رابط بين عقله والواقع الذي يجري. إنه الآن يفضل الحياة في عالم من صنعه ليس فيه مستعمرات متمرّدة ولا أنصار لنابليون يقتلون ولا وزراء على شاكلة فوكس. ولابد أنه وجد بعض الترضية في هذه الحال وإلا لما تحسّنت صحته ولما عاش بعد هذه الأحداث عشر سنوات أخرى، وكان يتحدث بابتهاج دون مراعاة منطق أو قواعد في جو من الراحة محاطاً بكل الخدمات، وزادت شعبيته مع زيادة مرضه وأشفق عليه شعبه. وفي ١١ مايو ١٨١٢ أطلق سمسار مفلس النار على رئيس الوزراء بيرسيفال في ردهة مجلس العموم، وهذا السمسار المفلس هو جون بِلِنْجهام كان قد شعر أن مشروعاته التجارية قد لحقها الدمار بسبب سياسات الحكومة. وفي يونيو تم تشكيل مجلس وزراء جديد برئاسة الإيرل ليفربول استمر حتى سنة ١٨٢٧، وكان استمراره كمعجزة أتاحتها الظروف، وفي هذا الشهر نفسه أعلنت الولايات المتحدة الحرب على إنجلترا وعبر نابليون بجنوده البالغين ٥٠٠,٠٠٠ (نصف مليون) النيمن Niemen في روسيا.

الحَواشي

حواشي الفصل الخامس عشر

1. Bertrand, Henri, *Napoleon at St. Helena*, 148.
2. Hobsbawn, E. J., *The Pelican Economic History of Britain*, io.
3. Kropotkin, *Modern Science and Anarchism*, 84, 87.
4. Heilbroner, R. L., *The Worldly philosophers*, 67, 85.
5. Watson, J. S., *The Reign of Georges III*, 517.
6. Owen, Robert, *A New View of Society*, 120.
7. *Ibid.*, 123.
8. Halevy, Elie, *History of the English People in 1815*, 245.
9. J., Watson, 530.
10. Kropotkin, *Modern Science and Anarchism*, 33.
11. Rogers, J. E. Thorold, *Six Centuries of Work and Wages*, III.
12. Watson, 526.
13. Kropotkin, 33.
14. EB, XIII, 494.
15. Kropotkin, 8on.
16. Rogers, IIo.
17. Tocqueville, *Journeys to England Wales*, Io7, in Hobsbawn.
18. Rude, G., *The Crowd in History*, 238.
19. Heilbroner, 98.
20. Malchus, *Essay on Population* (1798), 14.
21. Malchus, *Essay* (1803), 106.
22. Heilbroner, 90.
23. Carlyle, Katter - *Day Pamphlets*, No. I (1850).
24. Heilbroner, 95.
25. Owen, *A New View of Society*, "Catechism," 172.
26. Owen, *New View*, 86.
27. Heilbroner, 98; Russell, Bertrand, *Understanding History*, 24.
28. Owen, address at New Lamark, in *A New View of Society*, 95.
29. *Ibid.*, 65.
30. Title Page of first edition of *A New View of Society*.
31. *New View*, 20.
32. *Ibid.*, 98.
33. *Ibid.*, 35.
34. *Ibid.*, 52-53.
35. *Ibid.*, 112.
36. *Ibid.*, 83.
37. *Ibid.*, 68.
38. *Ibid.*, 162-69.
39. *Ibid.*, 140-47.
40. *Ibid.*, 246.
41. *Ibid.*, 86.
42. *Ibid.*, 111.
43. *EB, XVI*, 1174b.
44. Cole, G. D., *Robert Owen*, 187.
45. *Ibid.*, 91.
46. *Ibid.*, 231.

حواشي الفصل السادس عشر

1. Halevy, *History of the English People in* 1815, 195.
2. Bertrand, H., *Napoleon at St. Helena,* 77.
3. Further details in *Rousseau and Public Opinion in England during the 19th Century,* 119.
4. Dicey, *Law and Public Opinion in England during the 19th Century,* 116.
5. Halevy, 293.
6. Blackstone in Halevy, 101.
7. Las Cases, II, 366.
8. Plumb, J. H., *The First Four Georges,* 147.
9. Burke, Thomas, *English Night Life, Passim;* Thackeray, *The Four Georges,* 84.
10. Thackeray, *The Four Georges,* 93; Plumb, 138, 101.
11. Markun, Leo, *Mrs. Grundy: A History of Four Centuries of Morals,* 219.
12. *EB,* X, 212b.
13. Trevelyan, G. Mo, *English Social History,* 493.
14. Mill, J. S., *On Bentham and Coleridge,* 134f.
15. *NCMH,* IX, 177.
16. Markun, 251.
17. Sorel, Albert, *Europe and the French Revolution,* I, 352.
18. Halevy, 370.
19. Corti, E. C., *Rise of the House of Rothschild,* Ch, II, III, IV; Finkelstein, Louis, ed., *The Jews, I, 266.*
20. Godwin, *Enquiry Concerning Political Justice,* Book V, Ch. X.
21. Ibid., Book VII, Ch.x.
22. Halevy, 464.
23. Trevelyan, *English social History,* 459.
24. Monroe, Paul, *Text - Book in the History of Education,* 724; EB, VII, 996c; Halevy, 463.
25. Hirsh, Diana, *The World of Turner,* 100.
26. Plumb, J. H., *The First Four Georges.*
27. Dicey, *Law and Public Opinion,* 371-73.
28. *EB,* X, 518d.
29. Wollstonecraft, Mary, *Vindication of the Rights of Woman,* 154.
30. *Ibid.,* 142.
31. *Ibid.,* 44.
32. *Ibid.,* 46, 83, 128.
33. *Ibid.,* 75.
34. *Ibid.,* 69.
35. *Ibid.,* 5.
36. *Ibid.,* 83.
37. *Ibid.,* 64.
38. *EB,* X, 519c.
39. *Vindication,* 196.
40. *Ibid.,* 157.
41. Van Doren, Dorothy, *The Lost Art: Letters of Seven Famous Women,* 137-78.
42. Markun, *Mrs. Grundy,* 235.
43. Dicey, 87; Watson, 446; Halevy, 10.
44. Trevelyan, 499.

45. *EB*, X 635a.
46. Traill, H. D., *Social England*, V, 495.
47. Traill, *Social England*, V, 499.
48. Wright, Raymond, *Prose of the Romantic period*, 41.
49. *Ibid.*; Markun, 232.
50. Austen, Jane, *Mansfield Park*, Ch. xxi.
51. In Fruman, *Coleridge, the Damaged Archangel*, 372.
52. Burke, Thomas, *English Night Life*, 103.
53. *EB*, X 478d.
54. Mantzius, Karl, *History of theatrical Art*, VI, 30.
55. Burke, *Nitht Life*, 84; Mantzius, VI. 56.
56. *EB*, XIII, 263.
57. Mantzius, VI, 94.
58. Halevy, 8.
59. Stael, Mme. de, *Germany*, I, 84.

حواشي الفصل السابع عشر

1. In the Victoria and Albert Museum.
2. *Ibid.*
3. *EB*, XIII, 280d.
4. Plumb, *the First four Georges*, 164.
5. Hirsh, *the World of Turner*, 56.
6. Mistler, *Napoléon et l'Empire*, I, 234.
7. EB, X, 419.
8. *Pelican Guide to English Literature*, V, 258.
9. *New York Evening Post*, April 13, 1918.
10. Russell, A. G., *The Engravings of William Blake*, Plates 6-7.
11. Hirsh, 123.
12. G. W., Thornbury, in Hirsh, 17. This section is especially in debted to Diana *Hirsh, The World of Thurner*.
13. *EB*, XII, 412d.
14. Hirsh, 7.
15. *Ibid.*, 169.
16. *EB*, XII, 413.
17. Hirsh, 175.

حواشي الفصل الثامن عشر

1. Wolf, A., *History of Science, Technology and Philosophy in the 18th Century*, 197.
2. Williams, H. S., *History of Science*, III, 216.
3. Garrison, *History of Medicine*, 350.
4. Moore, F. J., *History of Chemistry*, 68.
5. *Ibid.*, 69.
6. Williams, H. F., *From the Greeks to Darwin*. Sedywick and Tyler, *Short History of Science*, 426.
7. *EB*, VII, 109b.
8. In Osborn, H. F., *From the Greeks to Darwin*, 146.

9. Sedgwick and *Tyler, Short History of Science*, 426.
10. Garrison, 375.

حواشي الفصل التاسع عشر

1. *EB*, XII, 376.
2. Paine, Thomas, *the Age of Reason*, Part II, Preface.
3. *Ibid.*, 5.
4. *Ibid.*, 6.
5. *Ibid.*, 9.
6. *Ibid.*
7. *Ibid.*, 30.
8. *Ibid.*, 74.
9. William Paley, *Natural theology*, in Wright, R., *Prose of the Romantic Period*, 74, 73.
10. *EB*, XVII, 175a.
11. Hazlitt, *Lectures on the English Poets and The Spirit of the Age*, 183.
12. Godwin, *Enquiry Concerning Political Justice*, Book IV, Ch. 1.
14. *Ibid.*, VI, II..
15. *Ibid.*, IV, VII.
16. *Ibid.*, IV, VIII.
17. *Ibid.*, IV, XI.
18. *Ibid.*, IV, V.
19. *Ibid.*, XV.
20. *Ibid.*, VIII, VIII.
21. *Ibid.*, I, IV.
22. *Ibid.*, I, III.
23. VIII, VIII.
24. *Ibid.*, VIII, II.
25. *Ibid.*, II, V.
26. *Ibid.*, I, III.
27. *Ibid.*, V, XI; VII; VIII, II.
28. *Ibid.*, VIII, II.
29. *Ibid.*, IV, VII.
30. *Ibid.*, I, IV.
31. *Ibid.*, XV, XVI.
32. *EB*, X, 519d.
33. Malthus, *Essay on the Principle of Population*, 4.
34. *Ibid.*, 7, 12, 86.
35. Ibid., 26 - 31; Hilbroner, 85.
36. Malthus, 49.
37. *Ibid.*, 101.
38. Malthus, *Second Essay on Population*, 98.
39. *Ibid.*, 101.
40. Heilbroner, 85.
41. *Ibid.*, 71.
42. Hazlitt, *Spirit of the Age*, 276.
43. R. K. Wilson, in Dicey, *Law and Opinion*, 133.
44. Bentham, *Anarchical Fallacies*, in *Encyclopedia of philosophy*, I, 284c.
45. Benn, Alfred, *History of English Rationalism*, I, 295.
46. *Ibid.*, 297.
47. Bentham, *Fragment on Government*, 3, 56.
48. Bentham, *Introduction to the Principles of Morals and Legislation*, 102-3.
49. Bentham, *Works*, X, 73, in Kicey, 133.
50. *EB*, XI, 913b.
51. Helvetius, *De l'Esprit*, 6, 17.
52. Leviticus xix, 18.

حواشي الفصل العشرين

1. Austen, Jane, *Mansfield Park, in Complete Novels*, 733.
2. *Pride and Prejudice*, 242.
3. Margoliouth, H. M., *William Blake, 3; EB*, III, 755d.
4. *EB*, II, 755d.
5. Bake, "Jerusalem", in *Selected Poems*, 277.
6. Blake, *Poems and Prophecies*, 392.
7. Margoliouth, 7.
8. *EB*, 756b.
9. Margoliouth, 63.
10. Blake, *Poems and Prophecies*, 289.

حواشي الفصل الحادي والعشرين

1. *"To a Butterfly"*.
2. Moorman, Mary, *William Wordsworth: The Early Years*, 71.
3. *Ibid.*, 150.
4. *Ibid.*, 153.
5. Wordsworth, *The Prelude*, Book 1x, in *Poems*, 297.
6. Moorman, *Early* Years, 201.
7. The Prelude, x1, in *Poems*, 311.
8. *Ibid., x. in poems*, 305.
9. Moorman, *Early Years*, 13, 171,: Bateson, F. W., *Wordsworth: A ReinterPretation*, 186.
10. *"Tintern Abbey"*, lines 118 - 19.
11. Moorman, *Early Years*, 288.
12. Letter to Thomas Poole, in Coleridge, *Selected Poetry and Prose*, 528 - 29.
13. Thornton, J. C., *Table Talk*, 171.
14. Gilman, James, *Life of Coleridge*, 20 - 21, in Fruman, Coleridge, *the Damaged Archangel*, 65.
15. Letter of Ovyonr, 1791, in Coleridge, *Selected Poetry and Prose*, 534 - 37.
16. *Ibid.*, 143.
17. Colmer, John, *Coleridge Critic of Society*, 112.
18. In White, R. J., *Political Tracts of Wordsworth, Coleridge, and Shelley*, P. xxxii.
19. Coleridge, *Letters*, I, 221 and 224, in Lowes, J. L., *The Road to Xanadu*, 600.
20. In Moorman, *Early years*, 317.
21. *The prelude*, xiv, in Wordsworth, *Complete Poems*, 331.
22. Gardner, Martin, ed., *The Annotated Ancient Mariner*, 16.
23. Wordsworth, Dorothy, *Journais*, 4 - 6.
24. Moorman, *Early years*, 373.
25. Coleridge, *Biographia Literaria*, 147.
26. Wordsworth and Coleridge, *Lyrical Ballads*, 3.
27. Gardner, 172.
28. *Lyrical Ballads*, P. 95, Line 294.
29. *Ibid.*, P. 133, lines 36-49.
30. *Ibid.*, Lines 88 - 112.

31. *Ibid.*, Lines 133 - 42.
32. Gardner, 24; Winwar, *Farewell the Banner*, 265.
33. *Lyrical Ballads*, appendix, P. 173.
34. *Letter to John Wilson*, June, 1805, Bateson, 175.
35. Letter of March 25, 1801, *in Selected poetry and Prose*, 591.
36. Dorothy Wordsworth, *the Grasmere journal*, June 9 - 20, 1800; May 13 - 18 and July 3, 1802.
37. *Journal*, June 20, 1800.
38. *Complete Poems*, 166.
39. *Journal*, June 19, 1802.
40. *Ibid.*, June 25, 1800.
41. *Journal*, Feb. 1, 1802.
42. *Journal*, June 10, 1800.
43. *Journal*, Dec. 11, 1801.
44. *Journal*, Dec. 12, 1801.
45. *Journal*, Dec. 22, 1801.
46. Moorman, *William Wordsworth: The Later Years*, 29n.
47. *Journal*, Sept. 1, 1800.
48. *Ibid.*, Nov. 4, 1800.
49. Moorman, *Early years*, 520.
50. *Complete Poems*, 173.
51. Moorman, *Early years*, 573.
52. *Ibid.*
53. *Journals*, 57.
54. Colmer, *Coleridge Critic of Society*, 55.
55. *Ibid.*, 78n.
56. Fruman, 264.
57. Coleridge, *Selectry and Prose*, 115.
58. Notebooks, note 1214, in Fruman, 377.
59. *Ibid.*, 380.
60. Fruman, 26 - 28.
61. Moorman, *Early years* 612.
62. Notebooks, note s091, in Fruman, 431.
63. Moorman, *Later years*, 87.
64. Gardner, 26.
65. Moorman, *Later years*, 612.
66. *Ibid.*
67. Ibid., 195.
68. Robinson, Henry Crabba *Diary*, I, S07 - 12.
69. Winwar, 330.
70. *Ibid.*
71. *Letter to Wordsworth*, may, 10, 1815.
72. White, R. J., 15 - 16.
73. Coleridge, *Selected Poetry and Prose*, 497.
74. White, F. J., 8.
75. *Ibid.*, 17-18, 11-12.
76. *Ibid.*, 60.
77. *Ibid.*, 77, 102.
78. Coleridge, *Selected Poetry and Prose*, 140.
79. White, R. J., 108.
80. *Ibid.*, 83-85; Mill, J. S., *On Bentham and Coleridge*, 96.
81. White, R. J., 93.
82. Coleridge in Benn, *History of English Rationalism*, I, 249.
83. White, R, J., 85.
84. *Biographia Literaria*, Ch. 1x, P. 70.
85. Fruman, 70-71, 81, 101, etc.
86. *Biographia*, 72, 74.
87. *Ibid.*, Ch. XXII, p. 236.
88. Moorman, *Later years*, 186.
89. *Pelican Guide to English Literature*, V, 154.

90. Moorman, *Later years*, 55.
91. *EB*, XXIII, 678d.
92. Moorman, *Later years*, 260.
93. Hazlitt, *Spirit of the Age*, 256 - 57.
94. Moorman, *Later years*, 181.
95. Thornton, *Table Talk*, 211.
96. Moorman, *Later years*, 314 - 15n.
97. Winwar, 328.
98. Coleridge, *Selected Poetry and Prose*, 671.
99. Thornton, 177, 145.
100. Colmer, John, *Coleridge Critic of Society*, 157.
101. Benn, I, 285.
102. Coleridge, *Selected Poetry and Prose*, 469.
103. De Quincey, *Collected Writings*, I, 77, in Fruman, 84.
104. Thornton, 255.
105. Gardner, 33.
106. Wright, R., *Prose of the Romantic Period*, 26.
107. Hazlitt, *Lectures on the English Poets*, 163.
108. Moorman, *Later years*, 580 - 81.
109. *Ibid.*, 115.
110. *Ibid.*, 36.
111. Wright, 35.
112. *NCMH*, IX, 109.
113. Moorman, *Later years*, 239.
114. Marchand, L. A., *Byron*, I, 412.
115. *Ibid.*, 421.
116. Hazlitt, *Spirit of the Age*, 258.
117. Moorman, *Later years*, 292, 452.
118. Wright, 50.

حواشي الفصل الثاني والعشرين

1. Marchand, *Byron*, I, 4.
2. Byron, *Childe Harold's Pilgrimage*, Canto 1v, line 10.
3. Marchand, I, 36.
4. *Ibid.*, 94.
5. *EB*, IV, 509c.
6. Byron, *English Bards and Scotch Reviewers*, 1, 205; 111, 98.
7. Marchand, I, 235.
8. Byron, *Works, 205;* Note 1; Marchand, I, 238.
9. *Ibid.*, 263.
10. *Ibid.*, 286.
11. *Ibid.*, 401.
12. *Works*, P. xxii.
13. Marchand, I, 437.
14. *Ibid.*, 360.
15. *Ibid.*, 334.
16. *Ibid.*, 333.
17. *Ibid.*, 360.
18. Mayne, *Life and Letters of Anna Isabella, Lady Noel Byron*, 48 - 49.
19. *EB*, IV, 510a.
20. Marchand, I, 403.
21. *Ibid.*, 446.
22. *Ibid.*, 429.
23. *Ibid.*, 465-69.
24. *Ibid.*, II, 49, 485.
25. *Ibid.*, 479.
26. Mayne, 154.
27. Marchand, II, 510.
28. Mayne, 161; Marchand, II, 510.
29. Mayne, 161.

30. *Ibid.*, 162.
31. Mayne, 165; Marchand, II, 513.
32. Marchand, II, 527.
33. *Ibid.*, 547.
34. Mayne, 190; Marchand, II, 544.
35. Marchand, II, 549.
36. *Ibid.*, 551-52.
37. *Ibid.*, 555.
38. *Ibid.*, 556.
39. Ibid., 563; Mayne, 203.
40. Marchand, II, 570.
41. Mayne, 209; Marchand, II, 572.
42. Marchand, II, 576 - 77.
43. Dowden, *Life of Shelley*, I, 4n.
44. Cameron, *the Young Shelley*, 3.
45. In Hancock, A. E., *The French Revolution and the English Poets*, 53.
46. Byron, *Letter to Hogg*, Jan. 2, 1811, in Cameron, 15.
47. *Ibid.*, 125.
48. Dowden, I, 73.
49. T. J. Hogg, *Life of Shelley*, in Dowden. I, 45 - 46.
50. Dowden, I, 118; Cameron, 24.
51. Cameron, 91.
52. Cameron, 93.
53. Dowden, I, 175.
54. Cameron, 102.
55. *Ibid.*, 97.
56. Dowden, I, 211.
57. *Ibid.*, 215.
58. *Ibid.*, 218.
59. *Ibid.*, 260-61.
60. Shelley, *Poems, Note to Queen Mab, in Complete Poems of Keats and Shelley*, Part II, 853.
61. *Queen Mab*, Canto 111, line 33.
62. *Ibid.*, lines 174-77.
63. *Ibid.*, v, lines 79, 177, 189.
64. *Ibid.*, v11, line 13.
65. *Ibid.*, v111, lines 106 - 60.
66. Cameron, 274.
67. Dowden, I, 287.
68. Mrs. Shelley, in Shelley, *Poems (Complete Poems of Keats and Shelley, Part* II, P. v).
69. Dowden, I, 258.
70. Wright, R., *Prose Works of the Romantic period*, 138 - 39.
71. In Cameron, 229.
72. Shelley, *Lost Letters to Harriet*, 22.
73. T. L. Peacock, *Memoirs of Shelley*, 336, in Dowden, I, 433.
74. Dowden, I, 424.
75. Dowden, 425, 429.
76. Shelley, *Letters*, od. F. L. Jones, I, 389.
77. *Ibid.*, 421.
78. *Ibid.*, 391.
79. Marchand, II, 630.
80. Brandes, G., *Main Currents*, IV, 303.
81. Dowden, II, 30.
82. Brandes, IV, 214.
83. Shelley, *Poems*, 570.
84. Brandes, IV, 319.
85. Marchand, II, 699.
86. *Childe Harold's Pilgrimage*, 1v, line 25.
87. Marchand, II, 747.
88. *Ibid.*, 681, 740.
89. *Prometheus Unbound*, Avy II, line 305.
90. *Ibid.*, I, 144.
91. *Ibid.*, II, 523.
92. *Poems.*, 616.

93. *Ibid.*, 464-77.
94. Dowden, II, 381.
95. *Ibid.*, 411.
96. *Adonais,* lines 151 - 52.
97. Stanzas lii, liii, lv.
98. Kests, *"Ode to Naightingale."*
99. Dowden, II, 235; Marchand, II, 757; *Childe Harold's Pilgrimage,* lv, lines 172 - 84.
100. Marchand, II, 772.
101. Brandes, IV, 325.
102. In Hirsh, *The World of Thurner,* 109.
103. Marchand, II, 816.
104. Eckermann, J. P., *Conversations with Goethe,* 261.
105. Marchand, II, 905.
106. Shelley, *Letters,* II, 316.
107. Marchand, III, 949.
108. Byron, *letter of Nov.* 10, 1813, in Marchand, I, 420.
109. In Arnold, Matthew, *Essays in Criticism,* 375.
110. *Childe Harold,* 1, line 29.
111. Marchand, I, 308; III, 1104, 1108.
112. *Ibid.*, II, 937.
113. *Ibid.*, 955.
114. *Ibid.*, III, 1126.
115. *Childe Harold,* 111, line 55.
116. *Ibid.*, v111, lines 50 - 51.
117. Marchand, II, 917.
118. Guiccioli, Countess, *My Recollections of Lord Byron.*
119. Eckermann, 265.
120. Dowden, II, 389.
121. *Ibid.*, 233.
122. Marchand, III, 1018.
123. Dowden, II, 377.
124. Notes to *Prometheus Unbound, in Poems,* 295.
125. White, R. J., *Political Tracts of Wordsworth, Coleridge, and Shelley,* 227.
126. *Ibid.*, 236-39.
127. *Ibid.*, 214.
128. *Ibid.*, 243.
129. *Ibid.*, 230-31.
130. *Ibid.*, 245, 235.
131. *Declaration of Rights,* No. 18, in Woods, Watt, And Anderson, *The Literature of England,* II, 319.
132. White, R. J., 247 - 49.
133. *"Defence of Poetry"* in White, R. J., 206.
134. Shelley, *Poems,* 227.
135. In Dowden, II, 384.
136. *"Defence of Poetry."* in White, R. J., 205.
137. *Ibid.*, 204.
138. Cameron, *The Young Shelley,* 119.
139. Dowden, II, 459.
140. *Ibid.*, 452.
141. *Ibid.*, 504.
142. Mrs. Shelley, *Notes on Poems* of 1822, in Shelley, *Poems,* 716.
143. Dowden, II, 510, 513.
144. *Ibid.*, 507.
145. *Ibid.*, 518.
146. Mrs. Shelley's Preface to the ed. of 1839. *Poems,* P. viii.
147. Marchand, III, 1018.
148. Dowden, II, 529.
149. Marchand, III, 1023.
150. *Ibid.*, 1052.
151. *Ibid.*
152. *Ibid.*, 1074.

153. *Ibid.*, 1147.
154. *Ibid.*, 1212.
155. *Ibid.*, 1217, 1224.
156. *Ibid.*, 1232-33.
157. *Ibid.*, 1246.
158. *Ibid.*, 1261.
159. Maurois, Byron, 547.
160. Mayne, *Life of.... Lady Byron*, 240.
161. Maurois, 546.
162. Marchand, III, 1243n.
163. Maurois, 554.
164. Marchand, III, 1245.

حواشي الفصل الثالث والعشرين

1. Halevy, *History of the English People* in 1815, 103; EB, XX, 56b.
2. Scott, Walter, *The Heart of Midlothian*, 106 - 7.
3. Halevy, 469.
4. *Ibid.*, 482.
5. On Reid see *Rousseau and Revolution*, 764; on Hartley see *The Age of Voltaire*, 581.
6. Wright, R., *Prose of the Prose of the Romantic Period*, 86.
7. Scott, *Poems*, 114.
8. Leslie Stephen in Benn, *History of English Rationalism*, I, 312.
9. Moorman, *William Wordworth: the Later Years*, 463.
10. See Longford, *Wellington*, 30n.
11. Watson, *Reign of George* III, 388.
12. *Ibid.*
13. Cameron, *The Young Shelley*, 158.
14. Halevy, 419.
15. Lecky, *History of England in the 18th Century*, VIII, 394 ff; Rosebery, Lord, Pitt, 189, 193.
16. Petersen, H., *Treasury of the World's Great Speeches*, 311.

حواشي الفصل الرابع والعشرين

1. Green, J. R., *short History of the English People*, III, 1750.
2. Hawkins, Sir John, *Life of Samuel Johnson*, 198.
3. Petersen, 240.
4. *Ibid.*, 241.
5. Morley, John, *Burke, in Biographical Studies*, 15.
6. *Ibid.*, 87.
7. *Letter to T. Ailsop.*
8. Paine, Thomas, *The Rights of Man*, 135.
9. Green, J. R., III, 1764.
10. *CMH*, VIII, 300.
11. *Ibid.*, 304.
12. Southey, *Life of Nelson*, 42.
13. *Ibid.*, 169.
14. Bowen, Marjorie, *Patriotic Lady: Emma, Lady Hamilton*, 143.
15. Howarth, David, *Trafalgar*, 31.
16. Southey, *Nelson*, 140, 322 - 23.
17. From a copy in the collection of sir Douglas Fairbanks. The original is in the British Museum.

18. Nelson, *Letters, 462.*
19. Howarth, *Trafalgar, 132.*
20. Southey, *Nelson, 274.*
21. Howarth, 209 - 10.
22. *Ibid., 239.*
23. Lefebvre, *Napoleon, II, 131.*

فهرس المحتويات